سلسلة
أعلام القصص القرآني
٣



دراسة تحليلية مقارنة على ضوء القرآن والسنة والتاريخ

محمد خير رمضان يوسف

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الطبعة الثانية
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

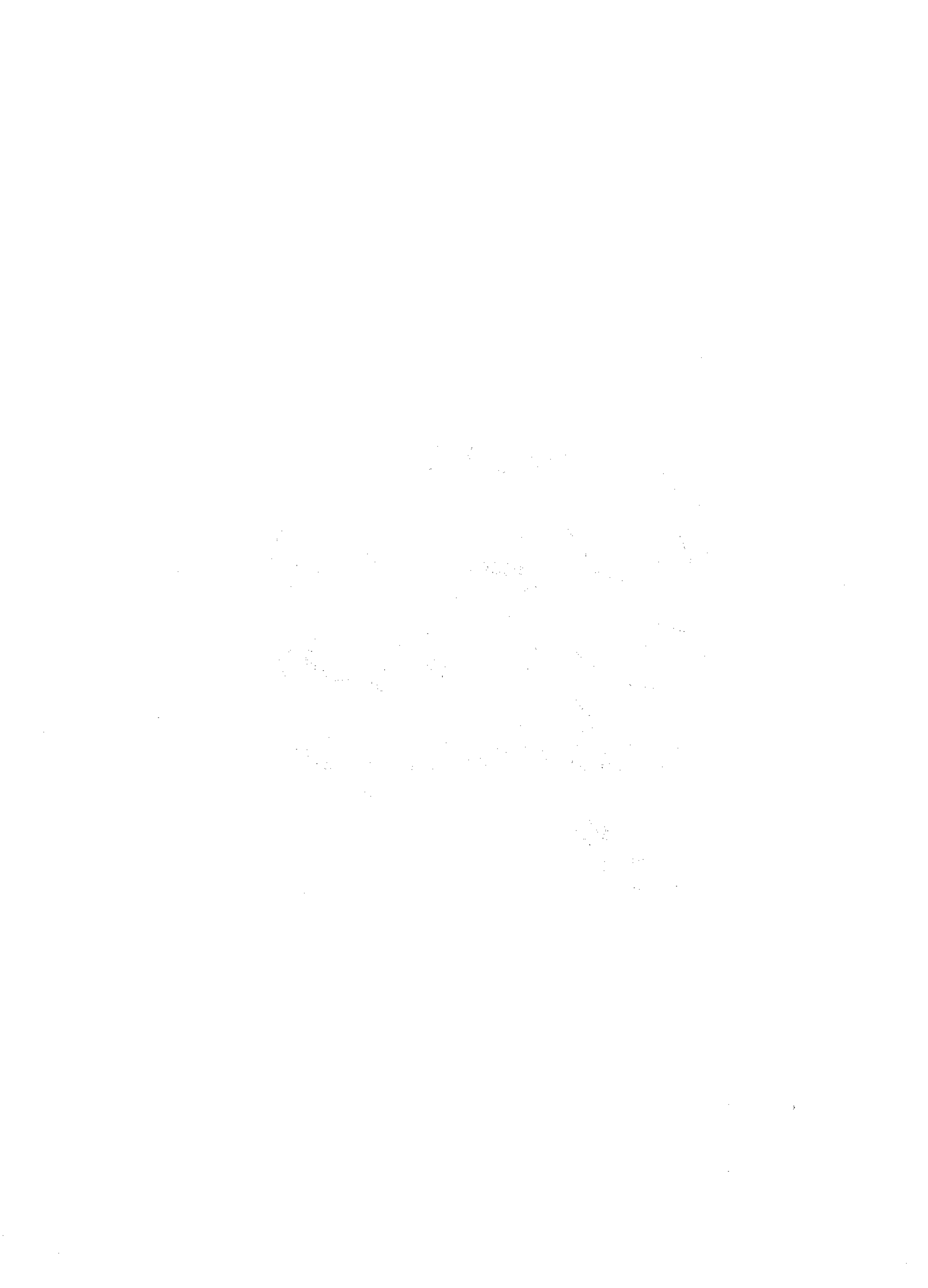
الإهداء

إلى أخي الشقيق محمد زكي

أهدي هذا الكتاب

حباً، وإخلاصاً، وكرامة

محمد خير



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةُ الطَّبعَةِ الأُولى

الحياة معركة بين الحق والباطل..

والتاريخ صفحة كبيرة، فيه مداد هذه الحياة..

يسطر فيه أنصار الحق روعة الصبر وقوة الإيمان..

ويسطر فيه أنصار الباطل ذمائم البغي وغواية الضلال..

وتمر السنوات طويلة الأنفاس..

حاملة في أحشائها أعمال الإنسان.. من خير وشر..

ويقبع العقل في زاوية البحث والمنطق.. ليحكم على تلك الأعمال.. مستلهماً الآراء والتجارب.. حتى يفهم سر الإنسان.. بل سرَّ هذه النفس.. ومن ورائها ثمرات الحق.. ورزايا الباطل..

ويصطدم العقل بظلمات داجية من الظلم العنيد.. ويفقد صوابه عندما يرى أن أكثر الحروب في التاريخ، كانت بإدارة أشخاص ذوي أهواء وشهوات، يحبون السيطرة والمال.. وقد عشش في عقولهم الغرور والكبرياء..

فيجندون الأجناد.. ويرفعون الأصوات، ليسيطروا على الأنفس.. ويلجموا العقول.. ويأكلوا الخيرات.. ويتمتعوا بالنساء.. وليسقط الفقراء والعبيد.. وليمت الناس في أوحال الجهل والمرض..!!

وعندما يذكّرهم أهل الحق بالحق.. ويرفعون لهم راية الإيمان ناصعة البياض.. ليلها كنهارها.. يحجمون ويتململون.. ويركبهم الحمق والجهل.. فيصوبون سهام جهلهم السامة، ورماح حمقهم المتهورة، وسيوف جاهليتهم السافلة.. إلى تلك الراية البيضاء، التي لا يزيدها مكرهم إلا رفعة ونزاهة وثباتاً.. لتكر عليهم.. وتحمل عليهم حملة النقمة والانتصار.. في أبهى آيات النصر والإيمان..

﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، ولكم الويل مما تصفون ﴾[١].

وكم هم أولئك الذين سجلوا في التاريخ طيبات المآثر.. وأعاوا على فتح المدائن.. لينقذوا الناس من بطش الجبابرة وغواية الطواغيت.. وضموا إلى قلوبهم الفقراء والعبيد.. وساعدوا العجزة والمساكين.. ولم يأخذهم الغرور ولا الفخور..

إنما ازدادوا إيماناً ونوراً.. وجندوا أنفسهم لخدمة الناس.. وعانوا من شدة الوباء والبلاء.. فبقوا صابرين محتسبين.. والله يهدي لنوره من يشاء..

وكان ممن ملك الدنيا وعمرها.. وفتح الأمصار وسخر أيامه لبنائها، هو فاتح الدنيا، وبالغ المشرق والمغرب «ذو القرنين» الملك العظيم، الذي أثنى عليه رب العزة، ونوه إليه في مثال الحاكم الصالح..

وكم كنت أتمنى لو أن أخبار هذا الفاتح العظيم وصلتنا صحيحة كاملة، حتى نضرب به وبأخباره وفتوحاته وتاريخه المثل الرائع، لكثير من الحكام الذين يتربعون على السلطة دون أن يؤلمهم جوع فقير أو مظلمة محروم..

ليت أخباره وصلتنا لنفتح صفحة تاريخ مشرقة.. ليعلم هواة الحروب وعشاق الفتنة وصيادو رؤوس البشر أن بقاء ملكهم هو في عدلهم، وليس في ظلمهم.. وسرُّ محبة الحكام هو في تقربهم بالأعمال لشعبهم.. وإخلاصهم لهم قبل خدمتهم لأنفسهم وذويهم..

مُلَّ المقام فكم أعاشر أمة ... أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها ... فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

فأنى لهؤلاء، أن يرعووا.. ويرحموا الناس.. حتى يحمدوا ولا يلعنوا في التاريخ؟ فإن أبوا وتمادوا.. فـ﴿ سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾[٢].

* * *

(١) سورة الأنبياء، الآية (١٨).
(٢) سورة الشعراء، الآية (٢٢٧).

عزيزي القارىء:

عندما أردت تأليف هذا الكتاب.. أحببت أن أشاور بعض العلماء، لأجلب لنفسي بعض التشجيع والنشاط والمساعدة.. ولأتلمس هذا المسلك، من حيث «الملاسة» أو «الوعورة».. وابتدرت بأحدهم فقلت:

ـ ما رأيت يا أستاذ أن أكتب بحثاً عن ذي القرنين؟

قال: لا تفعل!

قلت: لماذا؟!

قال: لأنك لن تصل إلى نتيجة!!

وسكتُّ.. سكتُّ طويلاً، مطرق الرأس، مفكراً. هل حقاً لن أصل إلى نتيجة؟ وهل هناك شيء يصعب على الإنسان إذا ما حاول، ولم يكن ذلك الأمر مستحيلاً؟.

ومرت أيام قليلة.. وكلي إصرار وعناد لاقتحام هذا الطريق الوعر.. ولـو لم أصل إلى نتيجة!! فيكفي أن أثبت حقاً طمست آثاره، وأزيل ما علق به من أدران على مدى هذا التاريخ الطويل..

.. وعندما طرقت الباب.. وجمعت بعض الصفحات، واطلعت على الخلافات المستعصية.. علمت بأنني ألج باباً من أبواب التاريخ مجهولاً ومقفلاً، ومملوءاً بأشياء غريبة ومختلطة.. لا أعرفها.. ولا أعرف سبيل إرسال الضوء عليها..!

وترددت مرة أخرى.. وتذكرت ما قاله لي ذلك العالم.. الذي ما عرفته إلا ناصحاً.. وتجاذبتني أفكار كثيرة قبل الإقدام عليه.. كنت أقدم أحياناً وأحجم أخرى.. وما ذلك كله إلا لأنني لم أكن لأعلم أي خيط سيجمع هذا الكتاب.. وكيف سأربط مواضيعه.. ولم يثبت من أمر ذي القرنين إلا ما حكاه القرآن الكريم.. وما صحَّ من الحديث الشريف.. مع صفحات أخرى قليلة من التاريخ؟!.

ولكن الذي شجعني للإقدام على تأليفه هو:

● فراغ المكتبة الإسلامية من سيرة وأحوال هذا الملك الصالح الذي نوَّه إليه رب العزَّة.

● محاولة مبدئية لتنزيه سيرته والتحقيق في أمره والرد على من طعن فيه.

● توضيح مسائل الخلاف حول ذي القرنين، والتحقيق في شخصيته التي حيَّرت المؤرخين على طول تحقيقاتهم..

● ذكر مقارنة بين عدل وسماحة هذا الملك العالمية، وبين التوجيه الإلحادي المادي للمدنية الحاضرة.. ولا أسميها حضارة!.

● التحقيق في أمتَي يأجوج ومأجوج.

● سد ذي القرنين الحديدي، هل هو موجود الآن؟ وأين هو؟.

● رغبتي في إكمال سلسلة «أعلام قرآنية» وجعل كل كتاب فيه مرجعاً يسهل على المرء مراجعة ما يريده من هؤلاء الأعلام.

● التاريخ: عقل.. وتجربة.. وحكمة.

* * *

وتعجلت في إرساله للنشر، إذ لم أرَ من الحكمة أن يؤجل الموضوع أكثر من هذا، لأنه مهم.. ومهم جداً.

فقد أغرقت كتبنا بأخطاء حول ذي القرنين.. هذا العلم القرآني البارز، وما زال بعض علماء المسلمين في هذا العصر، يقعون في الأخطاء نفسها.. ناهيك عن عامة المسلمين، الذين لا يعرفون عنه إلا القليل، فإذا عرفوا الكثير وقعوا فيما وقع فيه غيرهم!.

ولا أقول بأنني أسديت عملاً كبيراً في هذا المؤلَّف..

وإذا لم أكن قد حققت الهدف الكامل في كل فصول هذا الكتاب، فقد طرقت بابه، واستأذنت منه في حل بعض أموره الشائكة والمستعصية.. ولغيري أن يصوّب، ويكمل.

وأسأل الله العلي القدير، ألّا يحرمني ثواب هذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وذخراً لي في يوم الدين.. آمين.

محمد خير رمضان يوسف

٩ شوّال ١٤٠٣ هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

لم أرَ من الفائدة أن أنقل إلى القارىء ما تلقيته من الإخوة الأساتذة والباحثين حول هذا الكتاب، سواء أكان ذلك شفاهاً أم كتابة، فمعظمه ثناء ولله الحمد. ولكن أشير إلى نقطتين وردتا في ملاحظات أحد الأساتذة لما رأيت فيهما من صبغة علمية، وهما:

- عدم مناقشة أو تحقيق كل ما ورد في الكتاب من روايات.
- ضرورة الاهتمام بما ورد في التوراة عن ذي القرنين ومناقشة نصوص التوراة في ذلك.

وقد يعذرني القارىء إذا عرف أنني ناقشت روايات كثيرة، ورددت على بعضها تفصيلاً أو إجمالاً. وغالباً ما كنت أورد الروايات المتعددة ـ ولو كانت ضعيفة ـ ثم أعقبها بتحقيقات العلماء إن وجدت، وإلا أوردت ما استطعت إيراده من تعقيب.. وما لم أتمكن من ذلك لم أتكلف الردّ عليه.. بل انتظرت فيه تذكيراً أو تعقيباً.

أما عن مناقشة نصوص التوراة الواردة في هذا الشأن، فقد سبقني إليها أبو الكلام آزاد في كتابه «ويسألونك عن ذي القرنين» وطبق ما ورد من نصوص على كورش الأخميني. وقد ردّ عليه وناقش هذه النصوص بدقة وتفصيل الأستاذ امتياز علي عرشي في كتاب صدر حديثاً بعنوان «تأملات في شخصية ذي القرنين: دراسة تحليلية في ضوء ما كتبه العلامة أبو الكلام آزاد». ترجمه عن الأردية سلمان عابد الندوي، ونشرته مؤسسة الرسالة ببيروت في طبعته الأولى عام ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م، ويقع في (١١١) ص. وأحمد الله تعالى أن الكتاب وافق، وساند ما ذهبت إليه من أنه ليس بكورش الأخميني.

وللحقيقة أقول بأن ذلك الناقد كان منصفاً، فعلى الرغم من نقده للكتاب وانحيازه إلى من قال إنه كورش الأخميني.. إلا أنه رأى في الكتاب فائدة فجعله مرجعاً مقرراً لطلابه في قسم الدراسات العليا بإحدى جامعاتنا الإسلامية.

وقد حاولت أن أرصد بعض ما صدر في هذا الموضوع ـ ما عدا الكتاب السابق ذكره ـ فكان على النحو التالي:

١ ـ «ذو القرنين بين الخبر القرآني والواقع التاريخي». بقلم عبد الله بن إبراهيم العسكر. نشر في مجلة «الدارة» السعودية. على حلقتين، الأولى في العدد الثالث من السنة الثالثة، والأخرى في العدد الرابع ـ صفر ١٣٩٨ هـ. وقد عقب عليه الأستاذ أحمد حسين شرف الدين، ونشر التعقيب في المجلة نفسها: السنة الرابعة ـ ربيع الثاني ١٣٩٨ هـ.

٢ ـ كتاب «المعلقة العربية الأولى، أو عند جذور التاريخ» تأليف نجيب محمد البهبيتي، صدر عن دار الثقافة بالدار البيضاء في طبعته الأولى عام ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م، ويقع في مجلدين (١٠٦٢) ص. فيه بحث مطوّل عن ذي القرنين كاد أن يتعلق بجميع أبواب المجلد الأول. وهو يربط بين مسير ذي القرنين وملحمة جلجاميش.. ويعالج موضوعات كثيرة فيه.. هي الأخرى بحاجة إلى نقد ومراجعة..

٣ ـ «ذو القرنين والخضر: تداخلات إسرائيلية في حكاية عربية».

ـ «ذو القرنين والمغزى: وحدة العالم القديم فرع من العلم والفلسفة والدين».

كتبهما فاروق خورشيد في سلسلة «قراءات فولكلورية» رقم ٣ و ٤. ونشرا في العددين (٣١١٥) و(٣١١٦) بفاريخ ٢٢ و ٢٩ رمضان ١٤٠٤ هـ بمجلة «المصور المصرية».

٤ ـ «ذو القرنين وبناء سدّ يأجوج ومأجوج». بقلم أحمد جمال العمري. نشر في مجلة «القافلة» السعودية. رجب ١٤٠٧ هـ.

٥ ـ مقال بعنوان «ذو القرنين والإسكندر الأكبر» بقلم محمد العزب موسى. نشر في جريدة «الأخبار» المصرية العدد (١١٢٦٢) بتاريخ ١٤٠٨/١١/٥ هـ.

ولهذا الكتاب قصة!

فقد كتب قبله بثلاثة أسابيع، في الجريدة نفسها، زاوية «يوميات الأخبار» العدد (١١٢٤٥) تاريخ ١٤٠٨/١٠/١٤ هـ. مقالاً بعنوان «بين لقمان الحكيم وبتاح حتب» ذهب فيه إلى ترجيح أن يكون لقمان هو بتاح

حُتب، الحكيم المصري الذي عاش قبل ٤٥ قرناً!.

وقد أرسلت إليه تعقيباً على مقاله لينشره في تلك الجريدة ـ التي يبدو أنه يعمل بها محرراً ـ بيّنت فيه ـ على ضوء ما كتبت في كتابي «لقمان الحكيم وحِكَمه» ـ من أنه ليس ذاك، وأن من الخير لعلماء المسلمين وباحثيهم أن يحافظوا على سمعة أعلام القرآن، ولا «يتطرفوا» في هذا البحث إلا بقدر ما تسمح لهم الآيات، وأن الورع يتطلب منا التأني في تحليل الأعلام التي تحدث عنها القرآن الكريم، وأن لا نظل نلصق كل شخصية تاريخية أعجب بها المؤرخون ورددها الرواة الشعبيون بالأعلام القرآنية.. الخ.

ثم بينت في ذلك التعقيب أن أقلاماً عديدة تناولت ذا القرنين بالدراسة والتحليل، منهم من قال إنه الإسكندر المقدوني، ومنهم من قال إنه الملك الحميري الصعب ذو القرنين، وحزب ثالث يرى أنه كورش الأخميني الفارسي؛ حتى تعصب بعضهم لرأيه ولوّى أعناق النصوص القرآنية لتوافق ما استقرّ عليه رأيه، بل جرّ بعضهم إيمان ذي القرنين إلى حلبة الشك ليوفّق في ذلك بين ما ورد عنه في القرآن، وبين ما قال عنه الغربيون من أنه الإسكندر المقدوني.. بطريقة عجيبة! وقد ذكرت ذلك بالتفصيل في كتابي هذا.

لكن صاحبنا لم ينشر المقال..

وفوجئت بمقاله عن ذي القرنين الذي ذهب فيه إلى أنه الإسكندر المقدوني.. بعد مقاله عن لقمان الحكيم كما ذكرت..

وقد صدق في ذلك حسي!.

صوّرت المقال وأضفت إليه بضعة أسطر، مشيراً إلى أنه ردّ على مقال سابق، وعلى آخر قبل أن ينشر، وفي الرد كفاية! وأرسلته إلى جريدة أخرى في القاهرة.. إلا أنه الآخر لم ينشر!.

ولا أدري سبب عدم نشره على الرغم من أنه مختصر ولا جرح فيه لأحد؟!.

أم لأنه تخطئة لأحد «الزملاء» فلا داعي للحرج؟!.

وما أكثر ما تهدر مقالات علمية ذات فائدة كبيرة، لمثل هذه الأسباب، ولأسباب أخرى تافهة. ولو أنها نشرت لأثرت الساحة الثقافية بالحوار الجميل والمناقشة الهادفة!.

أقول هذا من خبرتي المتواضعة في التحرير.

٦ - كما وقفت على مخطوط بعنوان «تاريخ الملك الإسكندر ذو القرنين بن داراب الرومي». تأليف أبي إسحاق بن مفرج الصوري، الجزء الأول منه فقط، ويقع في (٧٠) ورقة، وخطه واضح مقروء. يذهب فيه مؤلفه إلى أن ذا القرنين هو الإسكندر المقدوني! أوله «بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين وبه نستعين الحمد لله الملك الجبار الواحد الستار... أما بعد... إني وقفت على سائر قصص الأنبياء وسائر الملوك وتواريخهم...».

وآخر الجزء الأول من المخطوط: «... فقال له الخضر عليه السلام: ذلك هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب وراحم الشيب وساتر العيب. قال الراوي: فلما سمع حكيم والليل».

وقد دلني على المخطوط وتفضل بتقديم صورة منه إليّ من مكتبة الملك فهد بالرياض الباحث القدير الأستاذ الدكتور يحيـى محمود ساعاتي سلمه الله.

وما ذكرته من معلومات في هذه المقدمة يدخل تحت عنوان «كتب أُلِّفت في ذي القرنين» ص (٢٠) من هذا الكتاب، فهو تكملة له وإتمام.

ولم أتناول الكتاب في هذه الطبعة بتعديل أو إضافة، ما عدا تصحيح الأخطاء المطبعية، وتبديل بعض الجمل بجمل أخرى، واستدراكات في بعض الفهارس الفنية..

والحمد لله على ما وفّق وأنعم، وصلاة الله وسلامه على نبيه الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

محمد خير رمضان يوسف

الرياض ١٠/٧/١٤٠٩ هـ.

الفَصْل الأوَّل

تحَقيقَات عَلى هَامِش حَيَاة ذي القَرْنَيْن



المبحث الأول

مـدخـل:

لا تنتظر مني ـ أيها القارىء العزيز ـ أن أتحفك في هـذا الكتاب بعجائب القرون الماضية، وغرائب بطولاتها.. أو أن أسرد لـك قصصاً مشوقة وأساطير خيالية تمضي بك إلى سالف الأيام وغابر الأزمان.. لا.. لم يكن هذا قصدي من تأليف الكتاب..

إنما الأمر كله هنا بحث وتحليل وتحقيق وتحريك للذهن..

وإذا قدِّر لك أن تمر بقصة أو حادثة معينة، فلا تلبث أن تعود لتفكر معي مدى صحة ما قرأت.

ولو أني أحببت نقل كل ما قيل عن ذي القرنين، وما ذكر عنه من أشياء خارقة.. للزم الأمر مجلدات، ولكانت الفائدة ـ أيضاً ـ قليلة نادرة..

وقد تصل إلى نتائج أو لا تصل.. وقد تقتنع ببعضها أو لا تقتنع..

إلا أنه من المفيد هنا أن تطّلـع على ما ذكر من أوجه الخلاف حوله..

وأنـا سأحـاول ـ جاهـداً ـ أن أحصر هـذه الخلافـات.. وأن أذكر معظمها.. وأعطي كل طرف حقه.. إن شاء الله.

* * *

ملــوك الدنيــا:

لا شك أن ذا القرنين أمره عجيب.. والعجب في أمره أنه طاف بالدنيا، وبلغ المشرق والمغرب.. والذي خلد ذكره هو الكتاب الحي.. كتاب الله الخالد.. وأجمل به ملكاً مصلحاً عادلاً نصوحاً.

ولكن هل ذو القرنين هو وحده الذي طاف بالدنيا وملك أطرافها؟ والإجابة فيها صعوبة.. لأن الأمر يتعلق بالتاريخ القديم، ولم ينقل لنا في خبر صحيح ـ على ما أعلم ـ أن غير هذا الملك كان كذلك..

إلا أن هناك نتفاً من التاريخ، تبين هذا وتذكر أسماء بعض الملوك..

والغريب أنه ذكر عن كثير من ملوك اليمن أنهم بلغوا أقاصي الدنيا وفتحوا أكثر ممالكها.. ولكن تاريخهم لم يثبت.. وفيـه أساطير كثيرة لا يرتاح لها العقل.. وسيمر بك الحديث عنهم في هذا الكتاب.. إن شاء الله..

أما من ذكر من الملوك الآخرين، فعن أبي إسحٰق السبيعي عن عمرو ابن عبد الله الوادعي: سمعت معاوية يقول: ملك الأرض أربعة: سليمان[1] بن

---

(١) كانت تسخر له الرياح، تجري بأمره كلما شاء الله، وتحمله، غدوها مسيرة شهر ورواحها مسيرة شهر. وذكر في القرآن سبع عشر مرة، في ست عشرة آية. وليس ست عشرة مرة كما ذكر المرحوم عبد الوهاب النجار في كتابه (قصص الأنبياء) ص ٣١٧ الطبعة الثالثة، وإذا أردت المزيد من أخبار هذا النبي الكريم فراجع كتاب الأنبياء في القرآن الكريم لمحمود الشرقاوي ص ٢٣٨ ـ ٢٤٢ طبعة دار الشعب. وقصص الأنبياء لابن كثير جـ٢ ص ٢٨٤ ـ ٣١٤. وتاريخ الأنبياء في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية للدكتور محمد الطيب النجار ص ٢٣٧ ـ ٢٤٨ وقصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص ٣١٧ ـ ٣٤٨. وكتاب أنبياء الله لأحمد بهجت ص ٢٧١ ـ ٢٩٤ الطبعة الخامسة. وانظر قصة سليمان عليه السلام مع الهدهد وبلقيس وقصة عرشها وزواجه بها وقصة فتنته وحكمه وأبيه في شأن الغنم ووفاته في (قصص الأنبياء: أحداثها وعبرها) لمحمد الفقي ص ٣٧٦ ـ ٤٠٢ ط ١٣٩٩هـ. هذا ولم يثبت أن سليمان عليه السلام ملك الأرض، بل إن ملكه كان محدوداً. وعن محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم أنه قال: الأنبياء والملوك أربعة: يوسف ملك مصر، وداود وسليمان ملكا ما بين الشام إلى اصطخر، وذو القرنين ما بين المغرب والمشرق. انظر كتاب (ذو القرنين وسد الصين) لمحمد الطباخ ص ٢٢ ط ١٣٦٨ هـ. واصطخر: بلدة بفارس. كان أول من أنشأها =

داود عليهما السلام، وذو القرنين، ورجل من أهل حلوان[1]، ورجل آخر. فقيل له: الخضر؟ قال: لا. وقال الزبير بن بكار: حدثني إبراهيم بن المنذر عن محمد بن الضحاك، عن أبيه، عن سفيان الثوري قال: بلغني أنه ملك الأرض كلها أربعة: (مؤمنان وكافران: سليمان النبي، وذو القرنين، ونمرود[2]

= اصطخر بن طهمورث ملك الفرس. وهي من أقدم مدن فارس وأشهرها. انظر بالتفصيل: معجم البلدان للإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الروحي البغدادي جـ ١ ص ٢١١ ط ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م. أما الدينوري فقد ذكر أنه ورث ملك أبيه، وسار من أرض الشام إلى أرض العراق بأهله وخزائنه، فلحق بخراسان، فنزل مدينة بلخ (مدينة مشهورة بخراسان) وسار إلى مرو (مدينة بفارس) ثم سار من بلخ إلى بلاد الترك فوغل فيها وجاوزها إلى بلاد الصين، ثم عطف متيامناً عن مطلع الشمس على ساحل البحر حتى أتى القندهار (بلد على بعد ٣٠٠ كم من كابل عاصمة أفغانستان) ثم سار منها إلى كسكر (كورة بين البصرة والكوفة) ثم عاد إلى الشام فوافى تدمر. واستتم بناء مسجد بيت المقدس، وأتم بناء مدينة إيليا (اسم قديم لمدينة القدس) وكان قد بدأ ببنائهما والده داود عليهما الصلاة والسلام. قال: وإنه غزا بلاد المغرب: الأندلس وطنجة وفرنجة وإفريقيا ونواحيها، وعاد إلى الشام. انظر باختصار شديد: الأخبار الطوال ص ٢٠ ـ ٢٢ لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري (٢٨٢ هـ) الطبعة الأولى ـ القاهرة ١٩٦٠ م.

(١) حلوان (بالضم ثم بالسكون): مواضع في العراق. انظر الكلام عنها في معجم البلدان جـ ٢ ص ٢٩٠.

(٢) هو نمرود بن كنعان بن قوش. ورد ذكره في سفر التكوين (١٠: ٨). وهو أول جبار في الأرض، يضرب به المثل للصياد الماهر.. انظر الموسوعة العربية الميسرة ص ٨٤٧ ط ١٩٦٥ القاهرة. وهو الذي حاج إبراهيم عليه السلام كما في سورة البقرة الآية (٢٥٨) قال الله تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيـي ويميت قال أنا أحيـي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾. انظر تفسير الآية في كتب التفاسير. قال ابن كثير: وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة إلا تجبره وطول مدته في الملك، وذلك أنه يقال إنه مكث أربعمائة سنة في ملكه.. مختصر تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٤، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني ط ٣ (١٣٩٩ هـ).

وذكر الدينوري أن ولد أرفخشد بن سام ملكوه عليهم بعد أن كان مستتراً في طول ملك الضحاك بجبل (دنباوند) [جبل في نواحي الري]. فقتل أهل بيت الضحاك جميعاً واستولى على ملكه، وظفر به نمرود ثم وثقه وأدخله في غار في جبل (دنباوند) وسد عليه. وسبب اجتراء ولد أرفخشد على الضحاك أن ركن هذا الأخير ضعف ووهى أمره، وكان الوباء وقع في جنده ومن كان معه من الجبابرة لما أهلك الله عاداً. قال: وهـو الذي يسميـه العجم (فريدون)!. =

وبخت نصّر[1])[2].

ورواه وكيع في تفسيره عن العلاء بن عبد الكريم: سمعت مجاهداً يقول: ملك الأرض أربعة. فسماهم[3]. وذكر ابن كثير أيضاً قول مجاهد[4].

= وذكر أنه تغلب على ملك مرثد بن شداد الذي ملكه ولد إرم بن سام. قال:
ويقال إن نمرود بن كنعان فرعون إبراهيم من ولد (جم). وكان ابن عم آزر بن تارح أبي إبراهيم. انظر باختصار وتصرف: الأخبار الطوال ص ٦. وانظر في تاريخ نمرود بن كوش: تاريخ الطبري جـ ١ ص ١٤٧ فما بعد. طبعة ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م دار الفكر. وقارنهما بالكامل جـ ١ ص ٦٦ - ٦٧ الذي تحقق فيه المؤلف أنه لم يملك الأرض.

(١) بختنصر: هو ابن الملك (نابوبو لصر) ملك بابل. توفي بعد أبيه سنة (٦٠٧) ق. م. انتزع بلاد الموصل وهاجم الإسرائيليين. وأخذ منهم إقليم سوريا وكانت فلسطين تدفع الجزية لتخؤس ملك مصر، فرضيت بدفعها لملك بابل بدون قتال، فتركها فاستقل ملكها يهوياقيم وناصب ملك بابل العداء، فعاد إليه بختنصر وأسره وأخذه إلى بابل ومعه جماعة من أحبار اليهود. ويقال إن منهم كان دانيال عليه السلام. ثم عاد بختنصر لمحاصرة سوريا على الفينيقيين وكان قد بدأ فيه من قبل، وكان في تلك الأثناء ملك اليهود بخنيو بن يهوياقيم فاستقل، فأسره بختنصر وولى مكانه عمه صدقيا فاستقل بمساعدة ابرياس، فجاء الملك البابلي وقتل خلقاً كثيرين وقتل صدقيا ونهب بيت المقدس وأحرق أمتعته وذلك سنة (٥٨٨) ق. م. فتشتت اليهود في البلاد وهربت منهم طائفة إلى مصر، فطلبهم الملك البابلي من نيخاؤس فرعون مصر فأبى عليه، فحاربه وهزمه وأرجعه مصر مقهوراً، وثنى هو عنانه إلى صور عاصمة الفينيقيين فافتتحها ودخلها فنهبها وسبى نساءها وقتل رجالها. ولما رجع إلى بابل تجبر وتنمرد ودعا الناس إلى السجود لتمثاله، ثم جن وهام على وجهه في الخلوات، فتولت الملك مكانه امرأته: «نيتوكريس» ثم شفي وعاد للملك ولبث فيه سنة ثم مات سنة (٥٥١ ق. م.) انظر دائرة معارف القرن العشرين جـ ٢ ص ٥٠ - ٥١ الطبعة الثالثة ١٩٧١ م. وقد رأيت من موجز تاريخ بختنصر أنه لم يمتلك (مشارق الأرض ومغاربها). وتحدث ابن الوردي عن حروبه أيضاً ولم ينوه إلى ذلك، بل ذكر من حروبه في نينوى والشام وبابل فقط. انظر تتمة المختصر في أخبار البشر (تاريخ ابن الوردي) للعلامة زين الدين عمر بن الوردي. إشراف وتحقيق أحمد رفعت البدراوي جـ ١ ص ٤٤ - ٤٥ ط ١٣٨٩ هـ - ١٩٧٠ م.

(٢) انظر البداية والنهاية لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ جـ ٢ ص ١٠٦ الطبعة الأولى ١٩٦٦.

(٣) انظر فتح الباري بشرح صحيح الإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل البخاري للحافظ أبي الفضل شهاب الدين أحمد بن محمد بن حجر العسقلاني الشافعي جـ ٦ ص ٢٧٣ ط ١ (١٣٠٠ هـ).

(٤) مختصر تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٣٣ - ٢٣٤.

وقال ابن إسحق: لم يملك تمام الأرض إلا ثلاثة من الملوك: نمرود، وذو القرنين وسليمان[1]. وفي (المدارك): أن شداد بن عاد[2] أيضاً ملك الدنيا. وفي (أنوار التنزيل) ملك المعمورة[3].

وفي (الجامع لأحكام القرآن) أنه سيملك من هذه الأمة خامس لقوله تعالى: ﴿ليظهره على الدين كله﴾[4]. قال الإمام القرطبي: وهو المهدي[5].

---

(١) انظر كتاب (تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس) جـ ١ ص ١٠٠ للشيخ حسين بن محمد ابن الحسن الدياربكري - المكتبة الوهبية.

(٢) هو أحد ملوك حمير. قال عنه وهب بن منبه: إنه شداد بن عاد بن ملطاط بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن حمير بن يشجب بن يعرب بن قحطان. قال: لما ولي شداد بن عاد الملك جمع الجنود وكان امرءاً حازماً فسار يدوس الأرض وبلغ أرمينية الكبرى فقتل فيها كل ثائر بها، ثم عبر الفرات إلى المشرق فبلغ أقصاها، لا أحد يقف له إلا هلك، ثم مضى على ساحل سمرقند إلى أرض التبت ثم عطف على أرمينية فأمعن، ثم جاز إلى الشام وبلغ إلى المغرب فأكثر الآثار في المغرب حتى بلغ البحر المحيط، يبني المدن ويتخذ المصانع، فأقام في المغرب مائتي عام ثم قفل إلى المشرق فأنف أن يدخل غمدان، ومضى إلى مأرب فبنى به القصر العتيق الذي يسميه الرواة (إرم ذات العماد) فلم يدع باليمن دراً ولا جوهراً ولا عقيقاً ولا جزعاً ولا بأرض بابل وأرسل في الآفاق يجمع ذلك. فجمع جواهر الدنيا من الذهب والفضة والحديد والقصدير والنحاس والرصاص، فبنى فيه وزخرفه ورصعه بجميع ذلك الجوهر، وجعل أرضه رخاماً أبيض وأحمر وغير ذلك من الألوان، وجعل تحتها أسراباً فاض إليها ماء السد، فكان قصراً لم يبن في الدنيا مثله، ثم مات شداد بن عاد بعد أن عمر خمسمائة عام فنقبت له مغارة في جبل شمام (لعله شبام) ودفن بها وجعل فيها جميع أمواله.
انظر كتاب التيجان في ملوك حمير لوهب بن منبه - ص ٦٥ الطبعة الأولى ١٣٤٧ هـ حيدر آباد الدكن.
وأنبه إلى أن أخبار اليمن القديمة - كما ذكرت - مبالغ فيها.

(٣) تاريخ الخميس جـ ١ ص ١٠٠ وذكرت آراء أخرى منها أن أول من ملكها من ولد آدم (جمّ شاذ بن يونجهان) من ولد قابيل. . ملكها والناس مائة نفس فيما بين نوح وآدم عليهما السلام والثاني بعده (نمروذ) بن كنعان بن حام بن نوح صاحب إبراهيم ملكها والناس عشرة آلاف نفس. والثالث (البيوراسب) وهو الضحاك بن قيس ذو الحيتين، ثم ملكها سليمان بن داود عليهما السلام. انظر كتاب المحبر للعلامة أبي جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي المتوفى سنة ٢٤٥ من ص ٣٩٢ باختصار. اعتنت بتصحيح هذا الكتاب ايلزة ليحتن شيتتر طبعة حيدر آباد الدكن ١٣٦١ هـ - ١٩٤٢ م.

(٤) وردت هذه الآية ثلاث مرات في القرآن الكريم: التوبة ٣٣ والفتح ٢٨ والصف ٩.

(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي جـ ١١ ص ٤٨ =

كتب أُلِّفت في ذي القرنين:

وقبل أن أنتقل بك إلى الحديث عن ذي القرنين، نتساءل:

هل ألفت كتب في ذي القرنين؟ عن سيرته وفتوحاته والتحقيق في شأنه؟ قديماً أو حديثاً؟.

قبل الإجابة عن السؤال، نلفت النظر إلى أن الجواب لا يكون دقيقاً. لأن الخلاف في ذي القرنين يأتي في مقدمة الخلافات التاريخية القديمة على ما أعتقد.

فلا ندري من يقصد الكاتب، الذي ربما اشتبه علينا رأيه حتى في

= مصورة عن طبعة دار الكتب طبعة ١٣٨٧ هـ. وما قاله الإمام القرطبي صحيح. جاء في حاشية التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ﷺ قوله: «اشتهر بين العلماء سلفاً وخلفاً أنه في آخر الزمان، لا بد من ظهور رجل من أهل البيت يسمى «المهدي» يستولي على الممالك الإسلامية، ويتبعه المسلمون ويعدل بينهم، ويؤيد الدين، وبعده يظهر الدجال، وينزل عيسى ابن مريم عليه السلام فيتعاون مع المهدي على قتله..». وقد روى أحاديث المهدي جماعة من خيار الصحابة وخرجها أكابر المحدثين كأبي داود والترمذي وابن ماجه والطبراني والبزار والإمام أحمد والحاكم رضي الله عنهم أجمعين. انظر التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ﷺ للشيخ منصور علي ناصف جـ ٥ ص ٣٤١ الطبعة الرابعة. وسأنقل لك للمثال ثلاثة أحاديث من سنن أبي داود. قال ﷺ: «لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً»، وقال ﷺ: «المهدي أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، يملك سبع سنين»، وقال ﷺ في حديث طويل: «.. فيقسم المال ويعمل في الناس بسنة نبيهم ﷺ ويلقي الإسلام بجرانه إلى الأرض فيلبث سبع سنين. ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون» قال أبو داود: قال بعضهم عن هشام «تسع سنين» وقال بعضهم: «سبع سنين» انظر هذه الأحاديث وأحاديث وروايات أخرى في سنن أبي داود للإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (٢٠٢ - ٢٧٥) جـ ٤ ص ١٠٧ - ١٠٩ نشر دار إحياء السنة النبوية تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. والحديث الأخير قال عنه صاحب التاج إن رجاله رجال الصحيح جـ ٥ ص ٣٤٢ الهامش. وعن الشك في عدد السنين التي يحكمها المهدي في إحدى روايات الترمذي أيضاً قال الشيخ ناصف: الشك من أحد الرواة وأقربها سبع سنين لحديث أم سلمة وأبي سعيد. بتصرف يسير جـ ٥ ص ٣٤٣. الهامش. وانظر حديث أم سلمة رضي الله عنها في جـ ٥ ص ٣٤١ - ٣٤٢. وحديث أبي سعيد هو حديث أبي داود الذي كتبناه أولاً. انظر روايات أخرى متعددة في التاج جـ ٥ ص ٣٤١ - ٣٤٢.

عنوان الكتاب.. فلربما ألف أحدهم كتاباً عن ذي القرنين وسمى كتابه الإسكندر المقدوني!. أو سمى كتابه ذا القرنين وهو يتحدث عن ملك عربي قديم.. يتحفنا بقصائد طويلة من أشعاره! أو ربما تكلم أحدهم عن الإسكندر المقدوني وهو يسرد قصة ذي القرنين، كما هو الأمر في كتب تاريخية إسلامية كثيرة!!.

ففي مخطوطة بعنوان (رسالة الإسكندر ذي القرنين) ورد في أولها (.... قال ذي [كذا] القرنين: سألت معلمي أرسطاطاليس عن الصنعة الإلهية.. إلخ)[1].

فواضح أن المقصود به الإسكندر المقدوني، ولا يستبعد أن يكون حديثه فيها عن ذي القرنين المذكور في القرآن الكريم.

أو ربما ألف كتاب عن (الإسكندرية) وفيه حديث طويل عن ذي القرنين.. وهكذا.. ولا غرابة في هذا الأمر فقد ألف رجل تركي يقال له (الحمزوي): (قصة إسكندر) في أربعة وعشرين مجلداً[2]!!. فما الذي تحويه هذه المجلدات الضخمة يا ترى؟!

كما أن هناك كتاب «سيرة اسكندر» أيضاً في مجلدات منثورة ومنظومة[3]! وكذلك (الأجوبة لأسئلة اسكندر) في مجلدات منثورة ومنظومة ـ وقد عني به أحد ملوك تبريز ـ للعلامة المحقق السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني المتوفى سنة (٨١٦)[4].

أما الكتب المصدرة باسم ذي القرنين، فقد تتبعت كتاب كشف الظنون وغيره فلم أر إلا اسم كتاب واحد وهو: (أخبار ذي القرنين) لأبي إسحق

---

(١) مخطوطات المجمع العلمي العراقي لميخائيل عواد جـ٣ ص ١٥٩.
(٢) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لمصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة وبكاتب جلبي جـ٢ ص ١٣٢٧ مكتبة المثنى ـ بغداد.
(٣) كشف الظنون جـ٢ ص ١٠١٥.
(٤) كشف الظنون جـ١ ص ١٢.

إبراهيم بن سليمان بـن عبد الله بن خالد النهمي الهمداني الكوفي الشيعي الإمامي المتوفى (؟)[1].

ولا أدري ما هو نصيب هذا الكتاب من الوجود أو عدمه!.

قال في هدية العارفين: أبو إسحق إبراهيم بن سليمان بن عبد الله بن خالد النهمي الهمداني الكوفي من علماء الإمامية يعرف بالخزاز، توفي سنة (؟) له من الكتب: كتاب الدفائن ـ أخبار ذي القرنين ـ إرم ذات العماد ـ خلق السموات ـ كتاب الخطب ـ كتاب الدعاء ـ كتاب المناسك ـ كتاب النوادر وغير ذلك[2].

أما ما ألف عنه في عصرنا فلم أر إلا كتاب (ذو القرنين وسد الصين. من هو وأين هو) وهو من تأليف محمد راغب الطباخ، أستاذ الحديث وأصوله والتاريخ في الكلية الشرعية بحلب. طبع في المطبعة العلمية العصرية بحلب سنة ١٣٦٨ هـ ـ ١٩٤٩ م. وقد رأيت هذا الكتاب بعد أن انتهيت من مسودة تأليفي هذا، في مكتبة الجزيرة العربية بمكتبة جامعة الملك سعود ضمن مجلد محمد بن الحنفية بـرقم ٩٢٣/هـخ م. وهو من الكتب التي أهـداها (الزركلي) ـ صاحب الأعلام ـ لهذه المكتبة. والكتاب يقع في مائة صفحة فقط من القطع الوسط، وكتابه هذا يعتبر بداية طيبة للتنويه إلى التحقيق في أمره. فجزاه الله خيراً، وأثابه على عمله هذا. ويؤخذ على الكتاب:

١ ـ أن المؤلف كان يقتصر ـ غالبـاً ـ على ذكر أخبار ذي القرنين من كتاب (التيجان) لوهب بن منبه. ووهب معروف بروايته للإسرائيليات ككعب الأحبار.

٢ ـ لم يكن يتحرى الدقة في تنقية الأخبار الصحيحة التي وردت عنه.. بل إنه كثيراً ما ينقل الأخبار على علاتها.

---

(١) ذيل كشف الظنـون جـ ١ ص ٤٢ للشيخ إسمـاعيل بـاشا البغـدادي، مكتبة المثنى ـ بغداد.

(٢) هدية العارفين جـ ١ ص ٣ للشيخ إسماعيل باشا البغدادي، منشورات مكتبة المثنى ـ بغداد.

٣ ـ تكراره المتتالي أن ذا القرنين عربي وأنه هو (الصعب) الملك الحميري، دون أن يبدي آراء أخرى كثيرة مع براهينها، إذ إن هذا هو ما يتطلبه التحقيق: عرض للآراء بأدلتها، ثم ترجيح الأقوى.

٤ ـ تأكيده أن سد ذي القرنين هو سور الصين العظيم..

وستمر بك هذه المسائل إن شاء الله تعالى.

وفي المعرض الإسلامي العالمي للكتب، الذي أقامته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، في الرياض، سنة ١٤٠٢ هـ. عثرت على كتاب عن ذي القرنين في غاية الأهمية، وقد ألف حديثاً، وكان ذلك بعد أن انتهيت من تبييض الفصلين الأول والثاني من هذا الكتاب. فحمدت الله تعالى وشكرته، لأن الكتاب قد وفّر عليّ أتعاباً كثيرة.

أما الكتاب فهو: (مفاهيم جغرافية في القصص القرآني ـ قصة ذي القرنين) من تأليف الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر، أستاذ الجغرافيا المساعد ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ كلية الشريعة واللغة العربية ـ القصيم ـ الطبعة الأولى ١٩٨١ م ـ ١٤٠١ هـ. دار الشروق. ويقع الكتاب في (٣٣٣) صفحة، دون صفحات المراجع والفهارس. وقد درس المؤلف حياة ثلاث شخصيات، التي من الممكن أن تكون إحداها شخصية ذي القرنين وهي:

ـ شمر بن عمرو بن أفريقيس.
ـ الإسكندر المقدوني.
ـ كورش الأخميني.

أما عن كيفية معالجته ودراسته للبحث، فتكاد تقتصر على علم الجغرافيا.

يقول المؤلف في مقدمته[١] باختصار: ومن خلال تتبع قصة كل من أبطال الاحتمالات الثلاثة رسمتُ ملامح الأرض وأنماط المناخ في عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية حتى قبيل البعثة المحمدية وذلك من خلال

---

(١) ص ١٩.

معطيات علم الجغرافية القديمة. ثم يقول: كما سلطت الأضواء على العلاقات الدولية التي كانت سائدة زمن ذي القرنين من خلال دراسة أحداث التاريخ التي واكبت كل احتمال من الاحتمالات الثلاثة على حدة.

ويشرح المؤلف ـ جزاه الله تعالى خير الجزاء ـ هدفه النبيل من وراء هذا البحث بقوله[١]: وإذا كانت الدول الشيوعية الملحدة، والغربية الرأسمالية التي تقف وراء التبشير بالمسيحية، لها دراسات علمية جامعية أكاديمية دقيقة في مجال استخلاص المفاهيم الجغرافية من القصص القديم في التوراة والإنجيل.. والاستفادة منها في وضع طريقة مثلى لما يسمى باللاندیوز (Landuse).. فلم لا يكون للعالم الإسلامي ـ صاحب أشرف رسالة وجّهت إلى سكان هذا الكوكب الأرضي ـ مثل هذه الدراسات العلمية الموضوعية، التي نستطيع أن نقدم بها للإنسانية خيراً كثيراً؟ عملاً بقوله تعالى: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾[٢]؟.

من هنا يعلم القارىء أن هذا الكتاب الفريد يعطي مفاهيم جغرافية لقصة ذي القرنين أكثر من أي شيء آخر. فالكاتب إن درس، أو حقق، أو قارن، أو نقد، أو بيّن رأيه، إنما يفعل ذلك كله من وراء اختصاصه الجغرافي، ويضفي أحياناً على هذه الآراء شذرات من التاريخ، ولا يتعرض لتحقيقات دينية، ودراسة لآراء علمائنا، ومقارنتها بآراء المفكرين الغربيين..

لقد بذل المؤلف جهداً يشكر عليه، فجزاه الله خير الجزاء وأحسن ثوابه..

أما الكتاب الذي أحدث ضجة في عالم التحقيق في شأن ذي القرنين، واتجه فيه مؤلفه وجهة مخالفة ومغايرة لجميع العلماء والمؤرخين السابقين والمعاصرين، فهو كتاب (يسألونك عن ذي القرنين) للمرحوم أبو الكلام آزاد وزير المعارف بالهند سابقاً.. والذي أيده وانتصر له صاحب

---

(١) ص ٢٠.
(٢) سورة فصلت، الآية ٣٣.

الكتاب السابق، الدكتور (خضر). وهو من مطبوعات دار الشعب المصرية ١٣٩٢ هـ ويقع في (١٠٠) صفحة من القطع الوسط.

وستمـر بك هذه الآراء جميعاً ومن ثم دراستها ونقدها. . إن شاء الله.

بقـي أن تعرف أن أخبار ذي القرنين مبثوثة في بطون الكتب التاريخية وكتب التفسير. وإذا أردت أن تلقي نظرة على بعضها، فإن أخباره غالباً تكون في المجلدات الأولى من كتب التاريخ. فهو إما أن يذكر في تاريخ اليونان وملوكها، أو ملوك اليمن، أو بعد الكلام عن الخضر عليه السلام. وفي كتب التفسير يذكر في أواخر سورة الكهف. . .

وإذا ذكر في كتب الحديث، فإما أن يكون أثناء الحديث عن سورة الكهف، أو في باب أشراط الساعة، أو الفتن، عند الحديث عن ياجوج وماجوج.

مـــن هـــو ذو القرنيـــن؟:

اختلف المؤرخون والعلماء في المقصود بذي القرنين، اختلافاً بيّناً.

فمنهم من أرجع تاريخه إلى ما قبل الرسول ﷺ بثلاثمائة سنة، ومنهم من أرجعه إلى ما قبل ذلك التاريخ بـألفي سنة أو أكثـر. . ومنهم بين بين!! . .

أما من يكون. . فإن معظم الآراء التي أوردها علماؤنا تكاد تنحصر في ثلاثة أشخاص. هم:

١ ـ الإسكندر المقدوني.
٢ ـ الصعب ذو القرنين الحميري.
٣ ـ رجل صالح في عهد إبراهيم عليه السلام لا نعرف من هو.

وهناك رأي جديد انتصر له بعض الباحثين في هذا العصر، ويرون أن المقصود به هـو (كورش الأخميني الفارسي).

وسنأخذ بالتحقيق في كل هذه الشخصيات في فصول مستقلة. . لنتأكد من ذلك إن شاء الله.

كما أن هناك آراء فردية أخرى، ترى أن المقصود به غير هؤلاء الأربعة.

وهناك من يورد أسماء أخرى، وهم ربما يعنون أحد هؤلاء، لكن اختلف عليهم تعدد الأسماء، أو النسب. كما أن هناك من يورد أسماء لا علاقة لها بهذا أو ذاك.

ولم نناقش هذه الآراء الفردية، وإنما ركزنا وأسهبنا في المشهور من ذلك. ومن تلك الآراء:

ما رواه ابن مردويه من حديث ابن عباس وأخرجه الزبير في كتاب النسب عن إبراهيم بن المنذر، عن عبد العزيز بن عمران، عن إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ذو القرنين عبد الله بن الضحاك بن معد[1].

وعن أبي خيثمة: هو الصعب بن جابرّ القلمس[2]. وذكر بعضهم أن اسمه عياش[3]!.

وقال محمد بن إسحق: حدثني من يسوق الأحاديث عن الأعاجم فيما توارثوا من علمه أن ذا القرنين كان رجلاً من أهل مصر، اسمه مرزبان بن مرذبه اليوناني، من ولد يونان بن يافث بن نوح[4]. وقد نقل ابن أبي حاتم بإسناد صحيح إلى عكرمة عن ابن عباس أنه النحاس[5]، وذكر الدارقطني وابن ماكولا أن اسمه هرمس. ويقال: هرويس بن قيطون بن رومى بن لنطى

---

(١) قال ابن حجر: وإسناده ضعيف جداً لضعف عبد العزيز وشيخه.. انظر فتح الباري جـ ٦ ص ٢٧٢. ونسب هذا القول إلى علي أيضاً. انظر عمدة القاري شرح صحيح البخاري للإمام الشيخ بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني جـ ١٥ ص ٢٣٣ إدارة الطباعة المنيرية ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت. وانظر البحر المحيط جـ ٦ ص ١٥٨. قال الإمام الثعالبي: وهذه رواية مهجورة لا يلتفت العقلاء إليها.

(٢) البحر المحيط جـ ٦ ص ١٥٨.

(٣) النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين لنعمة الله الجزائري ص ١٤٠.

(٤) السيرة النبوية ـ القسم الأول جـ ١ ص ٣٠٧ طبعة الحلبي.

(٥) فتح الباري جـ ٦ ص ٢٧٤. ولكن من يقصد بالنحاس؟.

ابن كشلوخين بن يونان بن يافث بن نوح[1].

وقيل: أشك بن سلوكس[2]. وقيل: هو أفريدون بن أثفيان بن جمشيد خامس ملوك الفرس الفيشدادية[3]!.

سبـــب لقبــه بــذي القرنيــن:

وستخوض معي الآن بحر الخلافات بدءاً من هنا..

فذو القرنين ليس اسماً، إنما هو لقبٌ لقِّبَ به.. فما سبب هذا اللقب؟ وهل ورد خبر صحيح في هذا؟ وما الوجه الصحيح في هذه الآراء؟.

لقد ذكر في سبب تسميته بذي القرنين وجوه هي:

١ ـ **أنه دعا إلى طاعة الله فضرب على قرنه الأيمن فمات، ثم بعثه الله تعالى فدعا فضرب على قرنه الأيسر فمات، ثم بعثه الله تعالى فسمي ذا القرنين وملك ما ملك**. وروي هذا عن علي كرم الله وجهه. هكذا رواه الثوري عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي الطفيل، عن علي بن أبي طالب، وشعبة القاسم بن أبي بزة، عن أبي الطفيل، عن علي به[4].

وسيمرُّ بالقارىء أن القرن يطلق على ضفيرة شعر الرأس.

ويقول الشيخ (الأيجي) في تفسيره إنه صح عن علي أنه قال: **كان عبداً ناصح الله فناصحه ودعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه الأيمن فمات فأحياه الله فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه الأيسر فمات فسمي ذا القرنين**[5].. ولكنه لم يذكر لنا وجه الصحة في هذا الخبر.

---

(١) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٠٥.

(٢) معجم البلدان جـ ١ ص ١٨٤.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي المتوفى سنة (١٢٧٠ هـ) جـ ١٦ ص ٢٥ طبعة ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م.

(٤) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٢ ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٥) انظر جامع البيان في تفسير القرآن للشيخ السيد معين الدين محمد بن عبدالرحمن الحسني الحسيني الأيجي الشافعي (٨٣٢ ـ ٨٩٤) جـ ١ ص ٤٢٥ باكستان ط ١، ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م.

وقد رواه الإمام الطبري في روايات متقاربة عن ابن حميد. . . قال: سأل ابن الكواء علياً عن ذي القرنين. وعن محمد بن بشار. . . عن أبي الطفيل قال: سُئل علي. وعن محمد بن المثنى. . . عن أبي الطفيل قال: سمعت علياً وسألوه[1]. .

وقد رأيت في كتاب (الأغاني) حديث أبي الطفيل الكامل حيث نقل عنه قوله: سمعت علياً (عليه السلام) يخطب فقال: سلوني قبل أن تفقدوني. فقام إليه ابن الكواء فقال: ما الذاريات ذرواً؟ قال: الرياح. قال: فالجاريات يسراً؟ قال: السفن. قال: فالحاملات وقراً؟ قال: السحاب. قال: فالمقسمات أمراً؟ قال: الملائكة. قال: فمن الذين بدلوا نعمة الله كفراً؟ قال: الأفجران من قريش: بنو أمية وبنو مخزوم (!!) قال: فما كان ذو القرنين؟ أنبياً أم ملكاً؟ قال: كان عبداً مؤمناً، أو قال صالحاً، أحب الله وأحبه، ضرب ضربة على قرنه الأيمن فمات ثم بعث وضرب على قرنه الأيسر فمات وفيكم مثله[2].

وقال إسحق بن بشر: عن عبد الله بن زياد بن سمعان، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أنه قال: دعا ملكاً جباراً إلى الله فضربه على قرنه فكسره ورضه، ثم دعاه فدق قرنه الثاني فكسره فسمي ذا القرنين[3]!!. واختار أبو عبيد هذا الرأي[4].

٢ ـ وقيل لأنه بلغ المشرق والمغرب. أخرجه الزبير بن بكار من طريق

(١) انظر تفسير الطبري المسمى (جامع البيان من تأويل آي القرآن) لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة (٣١٠ هـ) جـ ١٦ ص ٨ ـ ٩ ط ١٣٧٣ هـ.

(٢) الأغاني لأبي فرج الأصفهاني جـ٣ ص١٤٧ دار صعب بيروت. وقول علي ـ كرم الله وجهه ـ: (وفيكم مثله) يعني نفسه، كما في الروض الأنف للإمام السهيلي جـ ٢ ص ٥٩ وقيل سمي علي بن أبي طالب رضي الله عنه بذي القرنين لما كان شجتان في قرني رأسه إحداهما من عمرو بن ود، والثانية من ابن ملجم. . انظر روح البيان للشيخ إسماعيل حقي جـ ٢ ص ٥١٢.

(٣) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٠٣.

(٤) انظر تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي جـ ٩ ص ٣٠٧. دار مكتبة الحياة ـ بيروت.

سليمان بن أسيد عن ابن شهاب قال: إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرن الشمس من مغربها، وقرن الشمس من مطلعها[1]. وروي ذلك مرفوعاً، قاله الزمخشري[2]. قال ابن كثير: وهذا أشبه من غيره، وهو قول الزهري[3].

وقال العلامة الآلوسي: واستدل لهذا القول بأن القرآن دل على أن الرجل بلغ ملكه إلى أقصى المغرب، وأقصى المشرق، وجهة الشمال، وذلك تمام المعمورة من الأرض[4].

واستدل صاحب تاج العروس علىٰ هذا الرأي بقول الرسول ﷺ لعلي: «إن لك في الجنة بيتاً، ويروى كنزاً، وإنك لذو قرنيها، أي ذو طرفي الجنة، وملكها الأعظم، تسلك ملك الجنة كما سلك ذو القرنين جميع الأرض»[5].

٣ - ونقل صاحب روح البيان من (قصص الأنبياء) أن ذا القرنين كان قد رأى في منامه، أنه دنا من الشمس حتى أخذ بقرنيها في شرقها وغربها، فلما قص رؤياه على قومه سموه به[6].

قال الإمام السهيلي: ذكر هذا الخبر علي بن أبي طالب القيرواني العابد في كتاب البستان له[7].

---

(١) فتح الباري لابن حجر جـ ٦ ص ٢٧٢.

(٢) الكشاف جـ ١ ص ٥٧٨ لمحمود بن عمر الزمخشري - المطبعة الشرقية - مصر ١٣٠٧ هـ وبهامشه كتاب الانتصاف لابن المنير.

(٣) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٠٣.

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي جـ ١٦ ص ٢٥.

(٥) تاج العروس جـ ٩ ص ٣٠٧.

(٦) روح البيان في تفسير القرآن للشيخ إسماعيل حقي جـ ٢ ص ٥١٢.

(٧) الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، للفقيه المحدث أبي القاسم عبد الرحمن ابن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي السهيلي (٥٠٨ - ٥٨١ هـ) جـ ٢ ص ٥٩ دار الفكر.

٤ ـ وقيل: إنه كان في رأسه قرنان كالظلفين، وهو أول من لبس العمامة ليسترهما، وروي ذلك عن عبيد بن يعلى[١]. قال الحافظ ابن حجر: وهذا أنكره عليّ في رواية القاسم بن أبي بزة[٢].

٥ ـ وقيل: كان على رأسه، ما يشبه القرنين.

٦ ـ وقيل: كان له ضفيرتان (أو غديرتان) من شعره تواريهما ثيابه، وقيل: كانتا طويلتين حتى كان يطأ عليهما. قال في مروج الذهب: ومنهم من يرى أنه كان بذؤابتين من الذهب[٣].

٧ ـ وقيل: كانت صفحتا رأسه من نحاس. روي ذلك عن وهب بن منبه. وذكر أنه قال: كان له قرنان من نحاس. قال ابن كثير: وهذا ضعيف[٤].

٨ ـ وقيل: كان لتاجه قرنان.

٩ ـ وقيل: لشيب كان فيه وهو على قرنيه.

١٠ ـ وقيل: لأنه ملك فارس والروم.

١١ ـ وقيل: لأنه دخل النور والظلمة.

١٢ ـ وقيل: لأنه سخر له النور والظلمة. فإذا سرى يهديه النور من أمامه وتمتد الظلمة من ورائه.

١٣ ـ وقيل: لأنه عمّر حتى فني في زمنه قرنان من الناس.

١٤ ـ وقيل: لأنه أعطي علم الظاهر والباطن.

---

(١) روح المعاني للآلوسي جـ ١٦ ص ٢٤.

(٢) فتح الباري للحافظ ابن حجر جـ ٦ ص ٢٧٢.

(٣) كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي جـ ١ ص ٢٨٨ ط ٣: ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٨ م.

(٤) انظر قول ابن كثير في البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٠٣.

١٥ ـ وقيل: لأنه كان كريم الطرفين، أمه وأبوه من بيت شرف.

١٦ ـ وقيل: لأنه كان إذا قاتل قاتل بيديه وركابيه جميعاً.

١٧ ـ ويجوز أن يكون قد لقب بذلك لشجاعته، كأنه ينطح أقرانه كما لقب (أزدشير بهمن) بطويل اليدين، لنفوذ أمره حيث أراد[١].

* * *

رأيت معي أوجه الخلاف في سبب لقب ذي القرنين، وفيها ما لا يكاد يصح، وما لا يقنع، وما لا يصدق. وأرى أن تحصر الأسباب في أحد الوجوه التالية:

- إما لبلوغه المشرق والمغرب.
- أو أنه ملك مدة قرنين.
- أو أنه كان له تاج ذو قرنين.
- أو أنه كانت له ضفيرتان، بحيث تجلبان النظر... وكل ضفيرة من ضفائر الشعر ـ كما يقول ابن الأثير ـ قرن. وقد ورد حديث أبي سفيان: «لم أر كاليوم طاعة قوم، ولا فارس الأكارم، ولا الروم ذات القرون». وفي حديث الحجاج: قال لأسماء: «لتأتيني أو لأبعثن إليك من يسحبك بقرونك»[٢]. قال ابن حجر: وتسمية الضفيرة من الشعر قرناً معروف.

---

(١) انظر هذه الأقوال وغيرها موزعة في: الكشاف جـ ١ ص ٥٧٨. وفتح الباري جـ ٦ ص ٢٧٢، والبداية والنهاية جـ ٢ ص ١٠٣، وروح المعاني جـ ١٦ ص ٢٤، وتفسير النسفي المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل للشيخ أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، المكتبة الأموية: بيروت ـ دمشق. مكتبة الغزالي ـ حماة. وتفسير القرطبي جـ ١١ ص ٤٧، دار الكاتب العربي ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م. والفتوحات الإلٰهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية (وهو حاشية الجمل على الجلالين) للشيخ سليمان الجمل جـ ٣ ص ٤٥ نشر المكتبة الإسلامية. وتفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضى ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي). وأخبار عبيد بن شريه الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها ص ٤٣٣. وهو ملحق بكتاب التيجان.

(٢) النهاية في الغريب والأثر للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري (ابن الأثير) جـ ٤ ص ٥١. دار إحياء الكتب العربية تحقيق محمود محمد الطناحي.

ومنه قول أم عطية:

* وضفرنا شعرها ثلاثة قرون *

ومنه قول جميل:

* فلثمت فاها آخذاً بقرونها[1] *

والأشبه - كما يقول ابن كثير - لأنه بلغ المشرق والمغرب.

كيف ملك الدنيا؟:

قال تعالى في سورة الكهف: ﴿ إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً ﴾.

وذكر الله تعالى ذا القرنين وأثنى عليه بالعدل وأنه بلغ المشارق والمغارب، وملك الأقاليم وقهر أهلها وسار فيهم بالمعدلة التامة والسلطان المؤيد المظفر المنصور القاهر المقسط[2].

ولكن هل يستطيع الإنسان باعتماده على نفسه وقوته وآلاته وعساكره أن يسيطر على المعمورة ويحكم أهلها؟.

أعتقد أنه لو حدث هذا فإنه في حكم النادر، لأن الإنسان ذو قوة محدودة، وعمر محدود، وقدرات محدودة، ليس بإمكانه أن يفعل ما يشاء، ويملك ما يريد. وحدوث مثل هذا الأمر لا يكون إلا بإرادة وقوة من الله تعالى. فهو المدبِّر والميسِّر لأمثال هذه الأمور الكبيرة التي لا تكون إلا من نوادر الزمن وعجائب التاريخ..

يقول الإمام الغزالي - رحمه الله تعالى -: (.. فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه، كما قال في أعظم ملوك الأرض ذي القرنين إذ قال: ﴿ إنا

---

(١) فتح الباري جـ ٦ ص ٢٧٢. والشطر الثاني من البيت: شرب النزيف ببرد ماء الحشرج.
والحشرج: ماء من مياه العرب. انظر فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني (وفاته بصنعاء ١٢٥٠ هـ) جـ ٣ ص ٣٠٧. دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٢ ص ١٠٣.

مكنا له في الأرض﴾ فلم يكن جميع ملكه وسلطنته إلا بتمكين الله إياه في جزء من الأرض، والأرض كلها مدرة بالإضافة إلى أجسام العالم، وجميع الولايات التي يحظى بها الناس من الأرض غبرة من تلك المدرة، ثم تلك الغبرة أيضاً من فضل الله تعالى وتمكينه)[1].

وقد عدَّ الإمام أبو القاسم القشيري تمكين الله تعالى الأسباب لذي القرنين ما لم يمكن لغيره ولاية[2].

وروي أن راهباً دخل على هشام بن عبد الملك فقال للراهب: أرأيت ذا القرنين أكان نبياً؟ فقال: لا، ولكنه إنما أعطي بأربع خصال كن فيه: كان إذا قدر عفا، وإذا وعد وفى، وإذا حدث صدق، ولا يجمع شغل اليوم لغد[3].

وقد اختلفت الأقوال والآراء حول هذه الأسباب التي أوتيها ذو القرنين حتى تمكن من فتح بلاد الأرض وبلوغ المشرق والمغرب.. وهذا تبع لاختلافهم في تفسير قوله تعالى: ﴿مكنا له في الأرض﴾ و﴿آتيناه من كل شيء سبباً﴾.

ففي البداية والنهاية: أي وسعنا مملكته في البلاد وأعطيناه من آلات المملكة ما يستعين به على تحصيل ما يحاوله من المهمات العظيمة والمقاصد الجسيمة. قال قتيبة عن أبي عوانة عن سماك عن حبيب بن حماد قال: كنت عند علي بن أبي طالب وسأله رجل عن ذي القرنين كيف بلغ المشرق والمغرب؟ فقال له: (سخر له السحاب ومدت له الأسباب وبسط له في النور) وقال: أزيدك؟ فسكت الرجل وسكت علي رضي الله عنه[4].

---

(١) إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، جـ ٤ ص ٣٠٥ دار المعرفة ـ بيروت.

(٢) الرسالة القشيرية في علم التصوف ص ١٦١ دار الكتاب العربي ـ بيروت، لأبي القاسم القشيري.

(٣) إحياء علوم الدين جـ٣ ص ١٨٤.

(٤) البداية والنهاية جـ٢ ص ١٠٦.

وذكر عن عبيد بن عمير وابنه عبد الله وغيرهما، أن الله سخر لذي القرنين السحاب يحمله حيث أراد ـ والله أعلم[1] ـ. وروى ابن أبي شيبة من حديث علي مرفوعاً أنه قيل له: كيف بلغ ذو القرنين المشرق والمغرب؟ قال: سخر له السحاب وبسط له النور وبدت له الأسباب[2]. وفي روح المعاني: ... قيل تمكينه في الأرض من حيث إنه سخر له السحاب ومدّ له في الأسباب وبسط له النور فكان الليل والنهار عليه سواء. قال: وفي ذلك أثر ولا أراه يصح[3].

إلا أن ابن كثير الدمشقي ذكر أن خبر تسخير السحاب ورد في (المختارة) للحافظ الضياء المقدسي من طريق قتيبة عن أبي عوانة، عن سماك بن حرب، عن حبيب بن حماد قال: كنت عند علي رضي الله عنه، وسأله عن ذي القرنين: كيف بلغ المشارق والمغارب؟ فقال: سبحان الله، سخر له السحاب، وقدر له الأسباب وبسط له اليد[4].

و(المختارة في الحديث) للحافظ ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي، قال عنه ابن كثير في البداية والنهاية: وكتاب المختارة، فيه علوم حسنة حديثية وهي أجود من مستدرك الحاكم لو كمل[5]. وفي كشف الظنون أن المقدسي التزم في المختارة الصحة، فصحح أحاديث لم يسبق إلى تصحيحها، توفي المقدسي سنة ٦٤٣[6].

وأرى أن سبب استبعاد الآلوسي صحة خبر تسخير السحاب لما قورن بتفسيره من أخبار بعيدة عن الواقع، أشبه ما تكون بالإسرائيليات[7]. فقول

---

(١) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٠٣.
(٢) فتح الباري جـ ٦ ص ٢٧٤.
(٣) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء ابن كثير الدمشقي جـ ٥ ص ١٨٧ دار الشعب تحقيق د. محمد إبراهيم البنا، محمد أحمد عاشور، عبد العزيز غنيم.
(٥) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٧٠.
(٦) كشف الظنون جـ ٢ ص ١٦٢٤.
(٧) انظر مثالاً على الإسرائيليات حول تسخير السحاب وغير ذلك في روح البيان جـ ٢ ص ٥١٤.

علي رضي الله عنه أن السحاب قد سخر له لا يعني أنه كان يركبه وجيشه حيث يشاء. . . فقد وردت آيات كثيرة تذكر أنه تعالى سخر السحاب والأرض والسموات والبحار والفلك للإنسان. . ويستفيد منها الإنسان حسب قدراته وما علمه الله تعالى. . وكذلك تفسير بقية أسباب تمكين الأرض لذي القرنين. وما أيسر فهم ما أخرجه الطبري عن خالد بن معدان الكلاعي ـ وكان خالد رجلاً قد أدرك الناس ـ أن رسول الله ﷺ سئل عن ذي القرنين فقال: ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب[1]. فما أكثر أن تُعدَّ أسباب وأسباب، من مادية ومعنوية. ولا شك أن منها العظيمة الشأن في التملك. وأنها كانت بتأييد من الله تعالى.

فعن الحسن قال: كان ذو القرنين ملك بعد النمرود، وكان من قصته أنه كان رجلاً مسلماً صالحاً أتى المشرق والمغرب، مدّ الله له في الأجل، ونصره حتى قهر البلاد واحتوى على الأموال، وفتح المدائن، وقتل الرجال، وجال في البلاد والقلاع فسار حتى أتى المشرق والمغرب[2]. وقيل: تمكينه بكثرة أعوانه وجنوده والهيبة والوقار وقذف الرعب في أعدائه وتسهيل السير عليه وتعريفه فجاج الأرض واستيلائه على برها وبحرها[3]. وذكر أن من تأييد الله له وتمكينه في الأرض هو بأسباب النبوة وإجراء المعجزات[4]. وفي هذا القول خلاف بين العلماء سيمر بك.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير قوله تعالى: ﴿ وآتيناه من كل شيء سبباً ﴾ يعني علماً. وقال له قتادة ومطر الوراق: معالم الأرض ومنازلها وأعلامها وآثارها.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ـ يعني الألسنة ـ. كان لا يغزو قوماً إلا حدثهم بلغتهم. والصحيح أنه يعم كل سبب يتوصل به إلى نيل مقصوده في المملكة وغيرها، فإنه كان يأخذ من كل إقليم من الأمتعة

(١) انظر تفسير الطبري جـ ١٦ ص ١٧.
(٢) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٠٦.
(٣) انظر تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي جـ ٦ ص ١٥٩.
(٤) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٠.

والمطاعم والزاد ما يكفيه ويعينه على أهل الإقليم الآخر[1].

نبـيٌّ أم مَـلِـكٌ؟:

لا شك أن أمر ذي القرنين غامض من جميع الجوانب، فلا يكاد يستقر للعلماء رأي في شأن من شؤونه.. وهذا دأب أية شخصية تاريخية عفا عليها الزمن ولم تذكر أمورها في كتب تاريخية صحيحة..

ومن الخلاف في ذي القرنين: القول في وظيفته.. فقد ذهب العلماء في هذا إلى عدة وجوه:

١ ـ القول بنبوته:

قيل: إن ذا القرنين كان نبياً، وقيل: رسولاً[2]. وذكر الإمام القرطبي قولاً أيضاً بأنه نبي مبعوث فتح الله تعالى على يديه الأرض[3]. وروى القول بنبوته أبو الشيخ في (العظمة) عن أبي الورقاء عن علي كرّم الله تعالى وجهه، وإلى ذلك ذهب مقاتل ووافقه الضحاك[4]، والثعلبي[5]. وروي ذلك عن وكيع، عن إسرائيل عن جابر، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو[6]. فقد أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عمرو قال: ذو القرنين نبي[7]. وفي كتاب (صور الأقاليم) لأبي زيد البلخي أنه كان مؤيداً بالوحي[8]. قال الحافظ ابن حجر: وعليه ظاهر القرآن[9]. ونقل عن ابن منبه قوله: لقيت عامة من العلماء كانوا يزعمون أن لقمان وذا

---

(١) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

(٢) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٠٣.

(٣) تفسير القرطبي جـ ١١ ص ٤٦.

(٤) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٠.

(٥) قال الإمام الثعلبي في قصص الأنبياء: والصحيح إن شاء الله أنه كان نبياً غير مرسل. انظر قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس تأليف أبي إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري المعروف بالثعلبي المتوفى سنة ٤٢٧ هـ ص ٣٢٤ المكتبة الثقافية ـ بيروت.

(٦) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٠٣.

(٧) فتح القدير جـ ٣ ص ٣١٠.

(٨) روح المعاني للعلامة الألوسي جـ ١٦ ص ٢٥.

(٩) فتح الباري للحافظ ابن حجر جـ ٦ ص ٢١٧.

القرنين ودانيال أنبياء غير مرسلين، وعامة يقولون عباد صالحون[1].

واحتج من قال بنبوته بوجوه:

الأول : قوله تعالى: ﴿ إنا مكنا له في الأرض ﴾ وحمل على التمكين في الدنيا، والتمكين الكامل في الدين هو النبوة[2]. يقول الإمام الرازي معلقاً: يحتمل أن يكون المراد منه التمكين بسبب النبوة، ويحتمل أن يكون المراد منه التمكين بسبب الملك من حيث إنه ملك مشارق الأرض ومغاربها. والأول أولى، لأن التمكين بسبب النبوة أعلى من التمكين بسبب الملك، وحمل كلام الله على الوجه الأكمل الأفضل أولى[3].

الثاني : قوله تعالى: ﴿ وآتيناه من كل شيء سبباً ﴾ وهذا يدل على أنه تعالى آتاه من النبوة سبباً[4]. قال الإمام الرازي: إن الذين قالوا إنه كان نبياً قالوا: من جملة الأشياء: النبوة. فهذه الآية تدل على أنه تعالى أعطاه الطريق الذي به يتوصل إلى تحصيل النبوة. والذين أنكروا كونه نبياً قالوا: المراد به وآتيناه من كل شيء يحتاج إليه في إصلاح ملكه سبباً، إلا أن لقائل أن يقول: إن تخصيص العموم خلاف الظاهر فلا يصار إليه إلا بدليل[5].

الثالث : قوله: «يا ذا القرنين إما أن تعذب...» الخ. والذي يتكلم الله معه لا بدّ أن يكون نبياً[6].

الرابع : كونه مأموراً بالقتال معهم، كما قال عليه السلام: «أمرت أن أقاتل

---

(١) الإكليل للهمداني جـ ٨ ص ١٨٤ تحقيق نبيه أمين فارس. دار العودة ـ بيروت.

(٢) انظر التفسير الكبير للإمام الرازي جـ ٢١ ص ١٦٥، ط ٢ دار الكتب العلمية ـ طهران، وانظر مثله التفسير المسمى بالسراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للشيخ الإمام الخطيب الشربيني جـ ٢ ص ٣٢٨ المطبعة الخيرية.

(٣) التفسير الكبير للرازي جـ ٢١ ص ١٦٥.

(٤) التفسير الكبير للفخر الرازي جـ ٢١ ص ١٦٥. والسراج المنير للشربيني جـ ٢ ص ٣٢٨.

(٥) التفسير الكبير جـ ٢١ ص ١٦٥.

(٦) التفسير الكبير جـ ٢١ ص ١٦٥، والسراج المنير للشربيني جـ ٢ ص ٣٢٨.

الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» كما في التأويلات[1].

مناقشـــة وتحليـــل:

يقول الإمام الآلوسي: ومن لم يقل بنبوته قال: كان الخطاب بواسطة نبي في ذلك العصر، أو كان ذلك إلهاماً لا وحياً، بعد أن كان ذلك التخيير لشريعة ذلك النبي.

وتعقب بأن مثل هذا التخيير المتضمن لإزهاق النفوس لا يجوز أن يكون بالإلهام دون الإعلام وإن وافق شريعة. ونقض ذلك بقصة إبراهيم عليه السلام في ذبح ابنه بالرؤيا، وهي دون الإلهام، وفيها أن رؤيا الأنبياء عليهم السلام وإلهاماتهم وحي.. والكلام هنا على تقدير عدم النبوة، وهو ظاهر. ثم قال:

والحق أن الآية ظاهرة الدلالة في نبوته، ولعلها أظهر في ذلك من دلالة قوله تعالى: ﴿ وما فعلته عن أمري ﴾[2] على نبوة الخضر عليه السلام. وكأن الداعي إلى صرفها عن الظاهر الأخبار الدالة على خلافها، ولعل الأولى في تأويلها أن يقال: كان القول بواسطة نبي[3]!

إلا أن العلامة القاسمي رد على الأدلة التي أوردها الإمام الرازي قائلاً: لا يخفى ضعف الاستدلال بهذه الأدلة على نبوته، لأن مقام إثباتها يحتاج إلى تنصيص وتخصيص. وأما تعمق الجري وراء العمومات لاستفادة مثل ذلك فغير مقنع[4]. قال:

وأما قوله تعالى: ﴿ قلنا يا ذا القرنين ﴾ فقدمنا أنه كناية عن تمكينه تعالى له منهم[5]، لا أنه قول مشافهة. وإلا لو كان ذلك لكان مخيَّراً منه

---

(١) روح البيان جـ ٢ ص ٥١٤.

(٢) سورة الكهف، الآية ٨٢.

(٣) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٤.

(٤) تفسير القاسمي المسمى (محاسن التأويل) تأليف علامة الشام محمد جمال الدين القاسمي (١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ) جـ ١١ ص ٤١١٠ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

(٥) أي تمكينه من القوم الذين وجدهم في المغرب. يقصد أن الآية إشارة إلى أنه تعالى مكنه =

تعالى وملقّناً ما يفعل بهم. فأنى يسوغ له نقضه باجتهاد آخر؟ ولا يقال إن الأصل في الإطلاق الحقيقة، لأنا نقول به ما لم يمنع منه مانع من نحو ما ذكرناه. وللتنزيل الكريم أسلوب خاص، عرفه من أنعم النظر في بديع بيانه. نعم، لو كان مراد القائل بنبوته أنه من الملهمين ـ ذهاباً في النبوة إلى المعنى الأعم من الإيحاء بشرع أو من الإلهام ـ لكان قريباً، فتكون نبوته من القسم الثاني وهو الإلهام. ويطلق الصوفية على مثله الوارد. وجاء في الحديث تسمية صاحبه محدَّثاً[1]. وإطلاق النبوة عليه، وإن كان محظوراً في الإسلام، إلا أنه كان معروفاً قبله في العباد الأخيار[2].

أما الرد على الدليل الرابع، فقد رد عليه الحدادي بقوله: لا يمكن إثبات نبوة إلا بدليل قطعي[3].

وعندما ذكر وهب بن منبه أن ذا القرنين كان نبياً، وقال عنه إنه كان خارجياً في قومه، ولم يكن بأفضلهم نسباً ولا حسباً ولا موضعاً، رد عليه النويري بقوله: ولا يكون الأنبياء إلا من أفضل قومهم حسباً وأشرفهم نسباً. قال: وقد يكون هذا النقل لاختلاف الروايات، وما آفة الأخبار إلا رواتها[4].

وأخيراً أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد أنه قال: ذو القرنين بلغ السدين وكان نذيراً ولم أسمع بحق أنه كان نبياً، وإلى أنه ليس بنبي ذهب الجمهور[5].

= منهم وأظهره بهم وحكمه فيهم وجعل له الخيرة في شأنهم في قوله تعالى: ﴿ قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذبهم وإما أن تتخذ فيهم حسناً ﴾. انظر قوله في تفسيره جـ ١١ ص ٤١٠٠.

(١) يشير إلى الحديث النبوي الشريف الذي أخرجه البخاري عن أبي هريرة في: ٦٠ كتاب الأنبياء، ٥٤ باب حدثنا أبو اليمان، عن النبي ﷺ أنه قال: «إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون، وإنه وإن كان في أمتي هذه منهم فإنه عمر بن الخطاب». انظر الهامش في المصدر نفسه.

(٢) انظر تفسير القاسمي جـ ١١ ص ٤١١٠.

(٣) روح البيان جـ ٢ ص ٥١٤.

(٤) انظر نهاية الأرب في فنون الأدب تأليف شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري جـ ١٤ ص ٢٩٩، دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٣٦٢ هـ ـ ١٩٤٣ م.

(٥) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٠.

وهذا رد آخر على وهب، عندما قال: إن عامة من العلماء ذهبوا إلى كونه نبياً!.

يقول أبو الحسن في قصيدته:

وذو القرنين لم يُعرف نبياً كذا لقمان فاحذر عن جدال[١]

٢ ـ القول بأنه مَلَك:

وأغرب من هذا من قال بأنه ملك من الملائكة.

وقد حكي هذا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. فإنه سمع رجلاً يقول لآخر: يا ذا القرنين! فقال: مه، ما كفاكم أن تتسموا بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة؟! ذكره السهيلي[٢].

وأخرج ابن عبد الحكم وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في كتاب الأضداد، وأبو الشيخ عن عمر بن الخطاب أنه سمع رجلاً ينادي بمعنى يا ذا القرنين، فقال عمر: ها أنتم قد سميتم بأسماء الأنبياء فما بالكم وأسماء الملائكة[٣]؟.

والغريب أن الإمام القرطبي ذكر أنه قد روي عن علي بن أبي طالب

---

(١) انظر كتاب أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ: تأليف أبي العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي الشهير بالقرماني ص ٢٣٠. بغداد ١٢٨٢ هـ.

(٢) البداية والنهاية جـ٢ ص ١٠٣.

(٣) انظر فتح القدير جـ٣ ص ٣١٠. ومن أنكر الأقوال في هذا الباب ما رواه الجاحظ أن بعضاً من القوم تناولوا قول عمر بن الخطاب عندما ذكر أنه من الملائكة، فزعموا أن ذا القرنين كان من نتاج ما بين الملائكة والأنس.. وقد ادعوا مثل ذلك في هاروت وماروت وأبي جرهم، وهي من حماقات العوام غير مستنكر. انظر كتاب (ذو القرنين) للأستاذ الطباخ ص ٢٢ باختصار. ولا غرو أن أمثال هذه الخرافات والقصص المستهجنة إسرائيليات دخيلة، بعيدة عن الدين والواقع.

وربما نقلت أمثال هذه الأساطير من ترجمة بعض الكتب اليونانية. فاليونان القدماء كانوا يرون أن كثيراً من أبطالهم هم نتيجة زواج الآلهة بالبشر! وترى مثل هذا كثيراً في ملحمة الإلياذة ـ مثلاً ـ.

رضي الله تعالى عنه مثل قول عمر[١] كما أن ذلك روي عن جبير بن نفير أيضاً[٢].

مناقشـــة وتحليـــل:

قال الإمام السهيلي: إن كان عمر قاله[٣] بتوقيف من الرسول عليه السلام فهو ملك، لا يقول رسول الله ﷺ إلا الحق، وإن كان قاله بتأويل تأوله، فقد خالف علياً في الخبر المتقدم[٤].

والله أعلم أي الخبرين أصح نقلاً.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي جـ ١١ ص ٤٦.

(٢) روح المعاني جـ ١٦ ص ٢٤.

(٣) يقول الأستاذ عبد الرحمن الوكيل: إنه يستطيع الجزم بأن الخبر المنسوب إلى عمر خبر غير صحيح لأنه يخالف هدي القرآن ويخالف المعروف من سيرة عمر وعلمه وفقهه. انظر الروض الأنف بتحقيقه جـ ٣ ص ١١٨١ الهامش. وكنت أتمنى أن يكون ذلك الزعم غير صحيح بالبيان، فليت الأستاذ المحقق بين لنا ضعف السند وحقق كما يكون التحقيق.. لا أن يجزم دون برهان.. وإني ألمح من بعض تعليقاته العاطفة المهيجة والجرح النافذ.. وأسلوب التحقيق يلزمه الكثير من التروي والهدوء..

(٤) أي كونه مَلِكاً صالحاً. وسيمر بك البحث في الفقرة التالية.

وقال الإمام السهيلي: كان من مذهب عمر رحمه الله كراهية التسمي بأسماء الأنبياء، فقد أنكر على المغيرة تكنيته بأبي عيسى، وأنكر على صهيب تكنيته بأبي يحيى، فأخبر كل واحد منهما أن رسول الله ﷺ كناه بذلك؛ فسكت. وكأن عمر إنما كره من ذلك الإكثار، وأن يظن أن للمسلمين شرفاً في الاسم إذا سمي باسم نبي أو أن ينفعه ذلك في الآخرة، فكأنه استشعر من رعيته هذا الغرض أو نحوه، هو أعلم بما كره من ذلك، وإلا فقد سمى بمحمد طائفة من الصحابة منهم أبو بكر وعلي وطلحة وأبو حذيفة وأبو جهم بن حذيفة، وخاطب وخطاب ابنا الحارث كل هؤلاء المحمدين كانوا يكنون بأبي القاسم إلا محمد بن خطاب، وسمى أبو موسى ابناً له بموسى، فكان يكنى به، وأسيد بن حضير سمي ابنه بيحيى، وعلم به النبي عليه السلام فلم ينكر عليه، وكان لطلحة عشرة من الولد كلهم يسمى باسم نبي، منهم موسى ابن طلحة، وعيسى، وإسحق، ويعقوب، وإبراهيم، ومحمد. وكان للزبير عشرة، كلهم يسمى باسم شهيد. فقال له طلحة: أنا أسميهم بأسماء الأنبياء وأنت تسميهم بأسماء الشهداء، فقال له الزبير: فإني أطمع أن يكون بنيَّ شهداء ولا تطمع أنت أن يكون بنوك أنبياء. ذكره ابن أبي خيثمة. وسمى رسول الله ﷺ ابنه إبراهيم. والآثار في هذا المعنى كثيرة. وفي السنن لأبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «سموا بأسماء الأنبياء» وهذا محمول على الإباحة، لا على الوجوب. وأما التسمي بمحمد ففي مسند الحارث عن رسول الله ﷺ قال: من كان له ثلاثة =

غير أن الرواية المتقدمة عن علي يقويها ما نقله أهل الأخبار عن ذي القرنين، والله أعلم[1].

إلا أن العلامة الآلوسي علق على الخبر الذي روي عن عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ بقوله: هذا قول غريب، بل لا يكاد يصح، والخبر على فرض صحته ليس نصاً في ذلك، إذ يحتمل ولو على بعد، أن يكون المراد أن هذا الاسم من أسماء الملائكة عليهم السلام، فلا تسموا به أنتم، وإن تسمى به بعض من قبلكم من الناس[2].

٣ ـ عبد صالح: ويعارض ما ذكر سابقاً ما أخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر، وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف، وابن أبي عاصم في السنة، وابن مردويه من طريق أبي الفضل؛ أن ابن الكواء سأل علياً كرّم الله تعالى وجهه عن ذي القرنين أنبياً كان أم ملكاً؟ قال: (لم يكن نبياً ولا ملكاً ولكن كان عبداً صالحاً أحب الله تعالى فأحبه، ونصح الله تعالى فنصحه)[3]. وفي بعض الروايات عن أبي الطفيل عن عليّ أيضاً[4].

= من الولد ولم يسم أحدهم بمحمد فقد جهل. وفي (المعيطي) عن مالك أنه سئل عمن اسمه محمد ويكنى أبا القاسم، فلم ير به بأساً، فقيل له: أكنيت ابنك أبا القاسم واسمه محمد؟ فقال: ما كنيته بها، ولكن أهله يكنونه بها، ولم أسمع في ذلك نهياً، ولا أرى بذلك بأساً. وهذا يدل على أن مالكاً لم يبلغه، أو لم يصح عنده حديث النهي عن ذلك وقد رواه أهل الصحيح فالله أعلم. ولعله بلغه حديث عائشة أنه عليه السلام قال: ما الذي أحلّ اسمي وحرم كنيتي؟ وهذا هو الناسخ لحديث النبي والله أعلم.

وكان ابن سيرين يكره لكل أحد أن يتكنى بأبي القاسم كان اسمه محمداً أو لم يكن. وطائفة إنما يكرهونه لمن اسمه محمد. وفي (المعيطي) أيضاً أنه سئل عن التسمية بمهدي فكرهه. وقال: وما علمه بأنه مهدي. وأباح التسمية بالهادي، وقال: لأن الهادي هو الذي يهدي إلى الطريق. وقد قدمنا كراهية مالك للتسمي بجبريل، وقد ذكر ابن إسحق كراهية عمر للتسمي بأسماء الملائكة. وكره مالك التسمي بياسين. انظر الروض الأنف جـ ٢ ص ٦٠ ـ ٦١.

(١) الروض الأنف للإمام السهيلي جـ ٢ ص ٦٠.

(٢) روح المعاني للإمام الآلوسي جـ ١٦ ص ٢٤.

(٣) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٠، وفتح القدير جـ ٣ ص ٣٠٩ ـ ٣١٠.

(٤) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٠٤. ولا أدري مدى صحة هذا الخبر، فقد ناقش الحافظ ابن حجر الخبر الذي رواه أبو الطفيل كالتالي: قال الزبير في أوائل كتاب النسب: حدثنا =

وقال إسحق بن بشر عن عثمان بن الساج، عن حضيف، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان ذو القرنين ملكاً صالحاً رضي الله عمله وأثنى عليه في كتابه وكان منصوراً[1]. قال الإمام السهيلي: هذا أصح ما جاء في ذلك[2].

قال ابن حجر: وعليه الأكثر، وقد تقدم من حديث علي ما يومىء إلى ذلك[3].

٤ ـ **التوقف**: توقف بعض العلماء لما أخرجه عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أدري أتبَّع كان لعيناً أم لا، وما أدري أذو القرنين كان نبياً أم لا، وما أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا»[4]. ورواه أيضاً الحافظ ابن عساكر من حديث أبي محمد بن أبي نصر، عن أبي إسحق بن إبراهيم بن محمد ابن أبي ذؤيب، حدثنا محمد بن حماد، أنبأنا عبد الرزاق، عن معمر، عن أبي ذؤيب، عن المقبري، عن أبي هريرة.. الحديث[5].

مناقشـــة وتحليـــل:

ربما يكون هذا الحديث منسوخاً بأحاديث شريفة أخرى. فعنه ﷺ أنه قال لأصحابه في مجلس: «تبايعوني ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا ولا

= إبراهيم بن المنذر عن عبد العزيز بن عمران، عن هشام بن سعد، عن سعيد بن أبي هلال، عن القاسم بن أبي بزة، عن أبي الطفيل، سمعت أبا الكوى يقول لعلي بن أبي طالب: أخبرني ما كان ذو القرنين؟ قال: (كان رجلاً أحب الله فأحبه، بعثه الله إلى قومه فضربوه على قرنه ضربة مات منها، ثم بعثه الله إليهم فضربوه على قرنه ضربة مات منها، ثم بعثه الله، فسمي ذا القرنين). قال ابن حجر: وعبد العزيز ضعيف، ولكن توسع على أبي الطفيل. أخرجه سفيان بن عيينة في جامعه، عن ابن أبي حسين، عن أبي الطفيل نحوه وزاد: وناصح الله فناصحه، وفيه: لم يكن نبياً ولا ملكاً. وسنده صحيح، سمعناه في الأحاديث المختارة للحافظ الضياء. قال ابن حجر: وفيه إشكال، لأن قوله ولم يكن نبياً مغاير لقوله بعثه الله إلى قومه إلا أن يحمل البعث على غير رسالة النبوة. انظر فتح الباري جـ ٦ ص ٢٧١.

(١) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٠٣.
(٢) الروض الأنف للإمام السهيلي جـ ٢ ص ٥٩.
(٣) فتح الباري جـ ٦ ص ٢٧٢.
(٤) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٠ ـ ٣١.
(٥) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٠٣.

تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب شيئاً من ذلك فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب شيئاً من ذلك فستره الله عليه فأمره إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه». زاد عبادة ابن الصامت في رواية: «فبايعناه على ذلك». رواه الخمسة إلا أبا داود[1]. قال صاحب التاج قوله: «فهو كفارة له»، صريح في أن الحدود مكفرات لا زاجرات، وفي رواية للترمذي: «ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فالله أكرم من أن يثنّي العقوبة على عبده في الآخرة» وعلى هذا الجمهور. وقال بعضهم: إنها زاجرات فقط وعليه العقاب في الآخرة. والنفس إلى الأول أميل فإنه هو الأليق بالكرم الإلٓهي[2].

ولأحمد والطبراني: «لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم»[3].

فقد ثبت إسلام تبع بهذا الحديث، وقال قتادة: إن كعباً يقول في تبع الرجل الصالح.

وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: (لا تسبوا تبعاً قد كان رجلاً صالحاً) والله أعلم[4].

وعلق العلامة الآلوسي على الحديث بقوله: وأنت تعلم أن هذا النفي لم يكن ليستمر لرسول الله ﷺ، فيمكن أن يكون درى عليه الصلاة والسلام فيما بعد أنه لم يكن نبياً كما يدل عليه ما روي عن علي كرم الله تعالى وجهه فإنه لم يكن يقول ذلك إلا عن سماع، ويشهد لذلك ما أخرجه ابن مردويه عن سالم بن أبي الجعد قال: سئل علي كرم الله وجهه عن ذي القرنين أنبي هو؟ فقال: سمعت نبيكم ﷺ يقول: «هو عبد ناصح الله تعالى فنصحه»[5]. ونرى أن الإمام الثعلبي لم يتأكد من صحة الحديث، ولو صح عنده لما كان

---

(١) التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ﷺ للشيخ منصور ناصف جـ٣ ص ٣٧.
(٢) التاج الجامع للأصول جـ٣ ص ٣٨ الهامش.
(٣) التاج الجع للأصول جـ٣ ص ٣٠٢.
(٤) التاج الجامع للأصول جـ٣ ص ٣٠٢ الهامش.
(٥) روح المعاني جـ١٦ ص ٣١، وفتح القدير جـ٣ ص ٣٠٩.

منسوخاً، فهو يقول: لو صح الحديث لكان الخوض في هذه المسألة تكلفاً[1]!.

ونرى أن الأستاذ سيد قطب توقف أيضاً لدى تفسيره قوله تعالى: ﴿ قلنا يا ذا القرنين ﴾، قال: كيف قال الله هذا القول لذي القرنين؟ أكان ذلك وحياً إليه أم أنه حكاية حال؟... قال: كلا القولين ممكن، ولا مانع من فهم النص على هذا الوجه أو ذاك[2].

الترجيح:

ونحن نرى أن الأقرب هو ما ذكر قبل قليل من أنه كان عبداً صالحاً، آتاه الله بسطة في الملك والسلطان، وقد رأيت آثاراً متعددة عن السلف الصالح تذكر هذا، فهي تعضد بعضها بعضاً، وقد مر أن الأكثر على هذا، وهو أصح ما جاء في هذا الباب.

النبيّ الذي عاصر:

اختلف أيضاً في الفترة الزمنية التي عاش فيها ذو القرنين.. وهذا الخلاف ليس على بضع سنين أو بضع عشرة منها.. بل إنها بالمئات.. وربما الألوف[3]!.

واختلاف الأخبار هنا هو بسبب:

أ - عدم ورود أخبار صحيحة عنه في هذا الشأن.

ب - الخلاف حول شخصيته، إذ لا يعرف من هو بالضبط.

---

(١) قصص الأنبياء للثعلبي ص ٣٢٤.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب جـ ٤ ص ٢٢٩١، طبعة دار الشروق.

(٣) ترتيب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - المذكورين في القرآن الكريم من حيث الزمن هو كالتالي: آدم - نوح - هود - صالح - إبراهيم - لوط - إسماعيل - إسحق - يعقوب - يوسف - شعيب - موسى - هارون - إلياس - يونس - إدريس - داود - سليمان - أيوب - اليسع - ذو الكفل - زكريا - يحيى - عيسى - محمد - عليهم من الله تعالى أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

عن كتاب (آيات للسائلين) ص ١١٩ - ١٢٠ هامش. طبع في المطبع الكريمي - لاهور. تأليف عناية الله الأثري.

فقد نقل عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه من القرن الأول من ولد يافث ابن نوح[1].

وعن الحسن أنه كان بعد ثمود[2].

وقيل: إنه (أفريدون) الذي قتل (بيوراسب بن أرونداسب) الملك الطاغي على عهد إبراهيم عليه السلام أو قبله بزمان[3].

وعن الحسن البصري ـ رضي الله عنه ـ أيضاً، أنه كان ملكاً، وغزا النمرود بن كنعان[4].

وذكر بعض المفسرين أنه كان بعده[5].

وذكر الأزرقي وغيره أن ذا القرنين أسلم على يدي إبراهيم الخليل، وطاف معه بالكعبة المكرمة هو وإسماعيل عليه السلام[6]. وكذا قال الشيخ الأيجي في تفسيره أنه كان في زمن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وطاف بالبيت ووزيره الخضر[7].

---

(١) انظر البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي جـ ٦ ص ١٥٨ مكتبة ومطابع النصر الحديثة ـ الرياض.

(٢) البحر المحيط جـ ٦ ص ١٥٨. وعند إطلاق اسم (الحسن) يعنى به الحسن البصري رحمه الله تعالى.

(٣) تفسير القرطبي جـ ١١ ص ٤٧. وهو ابن اثفيان بن جمشيد خامس ملوك الفرس الفيشدادية وكان ملكاً عادلاً. . روح المعاني جـ ١٦ ص ٢٥.

(٤) انظر كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور تأليف الشيخ محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ص ١٣٧ طبعة ١٢٩٦ هـ.

(٥) الكشاف للزمخشري جـ ١ ص ٥٧٨، وتفسير النسفي جـ ٣ ص ١٤٣. وروح البيان جـ ٢ ص ٥١٢.

(٦) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٠٣. وانظر شبيهاً بهذا الفتوحات الإلٓهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية جـ ٣ ص ٤٤ تأليف العلامة سليمان الجمل. وحاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين جـ ٣ ص ٢٤ للعلامة الشيخ أحمد الصاوي المالكي. الناشر المكتبة الإسلامية.

(٧) انظر تفسير (جامع البيان) للشيخ الأيجي جـ ١ ص ٤٢٥.

وروي عن عبيد بن عمير وابنه عبد الله وغيرهما أن ذا القرنين حج ماشياً، وأن إبراهيم لما سمع بقدومه تلقاه، فلما اجتمعا دعا له الخليل ووصاه بوصايا، ويقال: إنه جيء بفرس ليركبها، فقال: لا أركب في بلد فيه الخليل(١). . الخ.

وفي (محاضرة الأوائل) أن أول من صافح وعانق إبراهيم عليه السلام، حكى بعض الثقات من المؤرخين أنه اجتمع في الحرم المكي مع اسكندر ذي القرنين الكبير وعانقه وصافحه وأعطاه الراية وتشرع بشريعته ودخل ملته ودعا الناس إلى أحكام شرعه(٢).

وقال في شرح العيني، بعد تعدد الأقوال: الأصح أنه كان في أيام إبراهيم الخليل عليه السلام واجتمع به في الشام، وقيل بمكة(٣).

وذكر من قصته معه أنه حكم لإبراهيم عليه السلام في بئر السبع حين حاكم إليه فيها(٤). قال الحسن البصري: قضى لإبراهيم في وادي السبع لما رحل عن قومه. . .

وكان اسكندر إذا مر بمكان إبراهيم نزل عن فرسه حتى يفوت ويركب(٥). .

وذكر ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ أن الخضر كان وزيره(٦). وأنه كان على مقدمة جيشه، وكان عنده بمنزلة المشاور الذي هو من الملك

---

(١) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٠٨.

(٢) انظر محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر للشيخ علاء الدين علي دده السكتواري البسنوي ص ٣٩ الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

(٣) عمدة القاري شرح صحيح البخاري جـ ١٥ ص ٢٣٣.

(٤) على قول من قال إنه الصعب بن ذي مراثد. الروض الأنف جـ ٢ ص ٥٩.

(٥) بدائع الزهور ص ١٣٧.

(٦) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٠٣.

بمنزلة الوزير في إصلاح الناس اليوم[١]. وقيل: إنه كان ابن خالته[٢]. وقيل: إنه كان وزيراً عند ملك يقال له ذو القرنين أيضاً لكنه غير هذا، ووقع الاشتباه في ذلك[٣]. وقد ذهب بعضهم إلى أنه تعالى كان يوحي إلى وزيره الخضر، الذي كان مرافقاً له فيعلمه ذلك.

ويقول العلامة الآلوسي: قيل: يمكن أن يكون عليه السلام في جملة الحكماء الذين معه، وكالوزير عنده، ولا يقدح في ذلك استشارة غيره في بعض الأمور. وكان مشتهراً إذ ذاك بالحكمة دون النبوة. وفي الأعصار القديمة كانوا يسمون النبي حكيماً، ولعله كان مشتهراً أيضاً باسم آخر، وعدم تعرض المؤرخين لشيء من ذلك لا يدل على العدم، وقيل: لا نسلم عدم التعرض، بل قولهم إن الخضر كان وزير ذي القرنين قول بأنه كان وزير الاسكندر[٤] المذكور عند القائل بأنه ذو القرنين، ولا يمنع من ذلك كون الخضر على الأصح نبياً[٥]، والاسكندر ليس كذلك... لأن المراد من وزارته له تدبير أموره ونصرته، ولا ضرر في نصرة نبي وتدبيره أمور ملك صالح غير نبي، وهو واقع في بني إسرائيل[٦].

المبحث الثاني
تاريخ ذي القرنين

تمهيـــد:

أريد أن أذكر القارىء في بداية هذا البحث أن تاريخ ذي القرنين لم

(١) البداية والنهاية جـ٢ ص ١٠٣.

(٢) الفتوحات الإلّهية جـ٣ ص ٤٥. وذكر المقدسي أن كثيراً من الناس يرى أنه كان وزيراً له وابن خالته، البدء والتاريخ للمقدسي جـ ٣ ص ٧٨ مكتبة خياط ـ بيروت.

(٣) روح المعاني جـ١٦ ص ٢٩.

(٤) يطلق بعضهم اسم الاسكندر على ذي القرنين، وهو ليس موضع اتفاق بين المؤرخين بل إنه خطأ كما سترى.

(٥) انظر دلائل نبوة الخضر عليه السلام في كتاب (الخضر عليه السلام بين الواقع والتهويل) للمؤلف.

(٦) روح المعاني للعلامة الآلوسي جـ١٦ ص ٢٩.

يثبت منه شيء إلا ما ذكره الله عز وجل وما نوه إليه الرسول ﷺ في أحاديث قليلة جداً. . . مع شذرات من التاريخ. . نادرة!.

ومهمتنا هنا أن نلملم بعض ما كتب من نثرات عن ذي القرنين، وما وردت من أخبار مبعثرة في بطون الكتب القديمة. . ونحاول جهدنا أن نوصلها ببعضها البعض حتى يعرف القارىء سيرته كما روتها الكتب التاريخية. . .

ولا نقول بأننا سننقي الشوائب من تاريخه حتى لا تنطلي على خبره الحقيقي أخبار أخرى غير صحيحة. . لأننا إذا تتبعنا هذا الأمر بتدقيق وتحقيق. . فلن نسطر عن حياته إلا النزر اليسير.

وأنا بهذا لا أقصد أن أشكك القارىء في هذا البحث. . كما أنني لا أقصد حشو الكتاب بما لا يهم. . وأعيد لأذكر القارىء بأنني أحببت أن يكون هذا الكتاب مرجعاً في هذا الأمر. . يستطيع الباحث أن يرجع إلى الموضوع في مظانه من الكتب التي أشرت إليها في النقل. .

كما أن القارىء يستطيع أن يتعرف على ما قيل عن هذه الشخصية العالمية المذهلة. . من حقائق وأباطيل. .

واضطررت في كثير من الأحيان ألّا أذكر أساطير وخرافات وإسرائيليات كثيرة قيلت عن هذا القائد العالمي. . وذلك لتفاهة بعضها وبعدها عن الواقع والحقيقة. . ولقلة فائدتها. . بل عدمها. . اللهم إلا إشباع الخيال المريض. . ولكنني لم أنسَ أن أنوّه إلى المصادر التي ذكرت تلك الأمور ليكتمل الهدف من الكتاب. .

وقد آثرت في هذا البحث أن أفرز الموضوعات فرزاً. . وأن أضع أخبار كل موضوع على حدة، حتى لا يختلط الأمر على القارىء.

ولما كان الخلاف عميقاً بين المؤرخين عن المقصود بذي القرنين. . ويأخذ كل طرف يدلي بحجته على ما ذهب إليه ويسرد تاريخه، فقد تأكدت

ضرورة فرز هذه الموضوعات أكثر. وسأحـاول أن أحقق في الأخبار.. والخلافات ما وجدت إلى ذلك سبيلاً... وأبقي الصحيح منها إلى نهاية البحث..

وسيكون الأمر كالتالي:

- تاريخ ذي القرنين.. وأقصد بذلك الأخبار القديمة التي قيلت عنه كما أتت على سجيتها.. وتتضمن سيرته عند أهل الكتاب وغيرهم من أهل القصة والرواية..

- الإسكندر المقدوني: تاريخه، وأقوال العلماء والمؤرخين أنه ذو القرنين، والتحقيق في ذلك..

- ذو القرنين.. الملك الحميري.. أقوال العلماء والتحقيق..

- كورش الأخميني، وآراء معاصرة، تؤيد أنه هو المقصود بذي القرنين.. مع ردود وتعقيبات..

- الأخبار الصحيحة التي وردت عن ذي القرنين.. وأقصد بذلك الآيات الكريمة..

وسأتناول تفسيرها بإسهاب إن شاء الله تعالى.. في فصل مستقل، مع الأحاديث التي وردت في هذا المجال، وأخبـار أخرى.. ونتائج.

- وفي الفصل الأخير كتبت بحثاً خاصاً عن ياجوج وماجوج وسد ذي القرنين..

- ولم أنس ذكر مقارنة بين حضارة الإيمان ـ كما أسسها ذو القرنين ـ وبين المدنية المادية الحديثة.. ولو تلميحاً..

تـاريــخ ذي القرنيــن

لا تنس أنك تقرأ الآن سيرة فريدة من نوعها.. لا تشبه سيرة كثيـر من الناس.. فلا غرو أن تصطدم بأشياء تبهر عقلك، وترفض بعضها لدى قراءتك لها..

وإذا أحببت أن أقول كلمة قبل أن ندخل في التفاصيل، فأقول بأنني أعتقد أن معظم الأخبار التاريخية عن ذي القرنين.. بل ربما كلها، هي من رواية أهل الكتاب.. إذ لم يكن لدى العرب في ذلك الوقت أي علم به.. أو إلمام بتاريخه.. ولو لم يكن ذلك لما أخبر اليهود ـ لعنة الله عليهم ـ وفداً من قريش ليمتحنوا الرسول الكريم ﷺ بالسؤال عنه.. وعندما نزلت الآيات القرآنية بشأنه ومشيدة بعدله وقوته.. أخذت الأخبار الغريبة ـ بعد وفاته ﷺ ـ تحوم من حوله على ألسنة بعض من عنده علم أهل الكتاب.. حتى ذكر كعب الأحبار أنه كان يعلق خيله بالثريا!!.

والأساطير ـ عادةً ـ تكبر وتكثر حول الشخصيات التاريخية القوية.. وتكون مرتعاً خصباً لأخبار القصاصين.. وعشاق المسامرات..

فإذا قرأت هذه الأخبار.. وعلمت أنها خليط من حديث أهل الكتاب وكلام القصاصين.. وبعضها الآخر سجلت كما سمعت قديماً.. فستقرأ أيضاً حكم الأخذ بها.. ومعرفة مدى صحتها، في نهاية البحث إن شاء الله.

* * *

ذكر أن ذا القرنين هو من أولاد سام بن نوح، وكان ابن عجوز ليس لها غيره وكان أسود اللون[1]. وربما كان هذا من قول وهب بن منبه، ففي تفسير ابن جرير الطبري أنه حدث أن ذا القرنين كان رجلاً من الروم، ابن عجوز من عجائزهم، ليس لها ولد غيره، وكان اسمه الاسكندر[2].

ولم أرَ قصصاً عن نشأة حياة ذي القرنين إلا تلميحاً أو اختصاراً ومعظم

---

(١) الفتوحات الإلهية جـ ٣ ص ٤٤ وحاشية الصاوي على تفسير الجلالين جـ ٣ ص ٢٤.
(٢) انظر تفسير الطبري جـ ١٦ ص ١٧. ولا يوافق كل العلماء على هذا الاسم، وسترى أقوالاً أخرى غير هذه ذكرت عن وهب، ونحن الآن في مجال سرد الحوادث لا تحقيقها.

الكتب تدخل فجأة في فترة حياته الملكية، وتذكر بطولاته وقصصه العجيبة أثناء حروبه وفتوحاته الخارقة.

فقد ذكر وهب أن ذا القرنين كان رجلاً من أهل الاسكندرية... وكان خارجاً عن قومه، ولم يكن بأفضلهم حسباً ولا نسباً، ولكنه نشأ في ذات حسن وجمال وحلم ومروءة وعفة من لدن كان غلاماً إلى أن بلغ رجلاً، ولم يزل منذ نشأ يتخلق بمكارم الأخلاق، ويسمو إلى معالي الأمور، إلى أن علا صيته، وعزّ في قومه، وألقى الله تعالى عليه الهيبة، ثم إنه زاد به الأمر إلى أن حدث نفسه بالأشياء. فكان أول ما أجمع عليه رأيه الإسلام. فأسلم ثم دعا قومه إلى الإسلام فأسلموا عنوة منه عن آخرهم، ثم كان أمره ما كان[1].

وفي تفسير التبيان ـ وأظن أن الخبر من الإسرائيليات ـ أنه كان ملكاً جباراً، فلما هلك أبوه وُلّيَ مكانه فعظم تجبره وتكبره. فقيّض الله له قريناً صالحاً فقال له: أيها الملك! دع عنك التجبر وتب إلى الله تعالى قبل أن تموت، فغضب عليه الاسكندر وحبسه، فمكث في المحبس ثلاثة أيام، فبعث الله إليه ملكاً كشف سقف المحبس وأخرجه منه وأتى به منزله، فلما أصبح أخبر الاسكندر بذلك، فجاء إلى السجن فرأى سقف السجن قد ذهب فاقشعرَّ جلد الاسكندر وعلم أن ملكه ضعيف عند قدرة الله تعالى، فانصرف متعجباً، وطلب الرجل المحبوس فوجده قائماً يصلي على جبل (طالس) فقال الرجل لذي القرنين: تب إلى الله. فهمَّ بأخذه وأمر جنوده به، فأرسل الله عليهم ناراً، فأحرقتهم، وخرَّ الاسكندر مغشياً عليه، فلما أفاق تاب إلى الله تعالى، وتضرع إلى الرجل الصالح، وأطاع الله وأصلح سيرته وقصد الملوك الجبابرة وقهرهم ودعا الناس إلى طاعة الله وتوحيده؛ وكان من أول أمره أن بنى مسجداً واسعاً طوله أربعمائة ذراع، وعرض الحائط اثنان وعشرون ذراعاً، وارتفاعه في الهواء مائة ذراع[2].

---

(١) انظر تفسير روح البيان، للشيخ إسماعيل حقي جـ ٢ ص ٥١٦.

(٢) روح البيان جـ ٢ ص ٥١٦.

ونقل عن وهب أنه لما بلغ وكان عبداً صالحاً، قال الله تعالى: يا ذا القرنين إني باعثك إلى أمم الأرض وهم أمم مختلفة ألسنتهم، وهم أمم جميع الأرض، وهم أصناف: أمتان بينهما طول الأرض كله، وأمتان بينهما عرض الأرض كله، وأمم في وسط الأرض منهم الجنّ والإنس، ويأجوج ومأجوج، فأما اللتان بينهما طول الأرض، فأمة عند مغرب الشمس يقال لها (ناسك)، وأما الأخرى فعند مطلعها ويقال لها (منسك)، وأما اللتان بينهما عرض الأرض فأمة في قطر الأرض الأيمن يقال لها (هاويل)، وأما الأخرى التي في قطر الأرض الأيسر يقال لها (تاويل). فقال ذو القرنين: إلٓهي! فقد ندبتني لأمر عظيم لا يقدر قدره إلا أنت؛ فأخبرني عن هذه الأمم بأي قوة أكاثرهم؟ وبأي صبر أقاسيهم؟ وبأي لسان أناطقهم؟ فكيف لي بأن أفقه لغتهم وليس عندي قوة[1]؟ وزاد الثعلبي ـ ولم ينسبه إلى وهب ـ: وبأي سمع أسمع أقوالهم، وبأي بصر أنقدهم؟ وبأي حجة أخاصمهم، وبأي عقل أعقل عنهم، وبأي قلب وحكمة أدبر أمرهم، وبأي قسط أعدل بينهم، وبأي حلم أصابرهم، وبأي معرفة أفصل بينهم، وبأي علم أتقن أمورهم، وبأي يد أسطو عليهم، وبأي رجل أطؤهم، وبأي طاقة أحصيهم، وبأي جند أقاتلهم، وبأي رفق أؤلفهم؛ وليس عندي يا إلٓهي شيء مما ذكرت يقوم لهم ويقويني عليهم وأنت الرؤوف الرحيم لا تكلف نفساً إلا وسعها، ولا تحملها فوق طاقتها ولا تشقيها بل أنت ترحمها. فقال الله تعالى: سأطوقك ما حملتك، وأشرح لك سمعك وصدرك، فتسمع وتعي كل شيء، وأشرح لك فهمك فتفقه كل شيء، وأبسط لك لسانك فتنطق بكل شيء، وأفتح لك بصرك فتنقد كل شيء، وأحصي لك قوتك فلا يفوتك شيء، وأشد لك عضدك فلا يهولنك شيء، وأشد لك ركنك فلا يغلبك شيء، وأشد لك قلبك فلا يفزعك شيء، وأشد لك يديك فتسطو على كل شيء، وأشد لك وطأك فتهلك كل شيء، وألبسك الهيبة فلا يروعنك شيء، وأسخر لك النور والظلمة وأجعلهما جنداً

---

(١) انظر تفسير القرطبي جـ١١ من ص ٥٠، وانظر ـ مع اختلاف قليل في بعض الكلمات ـ قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، تأليف أبي إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري المعروف بالثعلبي المتوفى سنة (٤٢٧) ص ٣٢٤ المكتبة الثقافية.

من جنودك، يهديك النور أمامك، وتحوط بك الظلمة من ورائك[1]!.

وحكي أن ذا القرنين أتى على أمة من الأمم ليس بأيديهم شيء مما يستمتع به الناس من دنياهم، قد احتفروا قبوراً، فإذا أصبحوا تعهدوا تلك القبور وكنسوها وصلوا عندها ورعوا البقل كما ترعى البهائم، وقد قيّض لهم في ذلك معايش من نبات الأرض. وأرسل ذو القرنين إلى ملكهم فقال له: أجب ذا القرنين. فقال: ما لي إليه حاجة، فإن كان له حاجة فليأتني! فقال ذو القرنين: صدق. فأقبل إليه ذو القرنين وقال له: أرسلت إليك لتأتيني فأبيت، فها أنا قد جئت. فقال: لو كان لي إليك حاجة لأتيتك. فقال له ذو القرنين: ما لي أراكم على حالة لم أر أحداً من الأمم عليها؟ قال: وما ذاك؟ قال: ليس لكم دنيا ولا شيء، أفلا اتخذتم الذهب والفضة فاستمتعتم بها؟ قالوا: إنما كرهناهما لأن أحداً لم يعط منهما شيئاً إلا تاقت نفسه إلى ما هو أفضل منه. فقال: ما بالكم قد احتفرتم قبوراً فإذا أصبحتم تعاهدتموها فكنستموها وصليتم عندها؟ قالوا: أردنا إذا نظرنا إليها وأملنا الدنيا منعتنا قبورنا من الأمل. قال: وأراكم لا طعام لكم إلا البقل من الأرض أفلا اتخذتم البهائم من الأنعام فاحتلبتموها وركبتموها فاستمتعتم بها؟ قالوا: كرهنا أن نجعل بطوننا قبوراً لها ورأينا في نبات الأرض بلاغاً، وإنما يكفي ابن آدم أدنى العيش من الطعام وأيما ما جاوز الحنك من الطعام لم نجد له طعماً كائناً ما كان من الطعام! ثم بسط ملك تلك الأرض يده خلف ذي القرنين فتناول جمجمة؛ فقال: يا ذا القرنين أتدري من هنا؟ قال: لا؛ ومن هو؟ قال: ملك من ملوك الأرض أعطاه الله سلطاناً على أهل الأرض فغشم وظلم وعتا؛ فلما رأى الله سبحانه ذلك منه جسمه بالموت فصار كالحجر الملقى، وقد أحصى الله عليه عمله حتى يجزيه به في آخرته؛ ثم تناول جمجمة أخرى بالية فقال: يا ذا القرنين، هل تدري من هذا؟ قال: لا أدري، ومن هو؟ قال: هذا ملك ملكه الله بعده، قد كان يرى ما يصنع الذي قبله بالناس من

---

(١) انظر قصص الأنبياء للثعلبي ص ٣٢٥. . وانظر بقية القصة الطويلة في تفسير القرطبي جـ ١١ ص ٥١ ـ ٥٢ وكذلك قصص الأنبياء، للثعلبي ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨.

الغشم والظلم والتجبر فتواضع وخشع لله عز وجل وأمر بالعدل في أهل مملكته؛ فصار كما ترى وقد أحصى الله عليه عمله حتى يجزيه به في آخرته. ثم أهوى إلى جمجمة ذي القرنين فقال: وهذه الجمجمة [كأن] قد كانت كهذين فانظر يا ذا القرنين ما أنت صانع؟ فقال له ذو القرنين: هل لك في صحبتي فأتخذك أخاً ووزيراً وشريكاً فيما آتاني الله من هذا المال؟ قال: ما أصلح أنا وأنت في مكان ولا أن نكون جميعاً. قال ذو القرنين: ولم؟ قال: من أجل أن الناس كلهم لك عدو، ولي صديق. قال: ولم؟ قال: يعادونك لما في يديك من الملك والمال والدنيا ولا أجد أحداً يعاديني لرفضي لذلك ولما عندي من الحاجة وقلة الشيء. قال: فانصرف عنه ذو القرنين متعجباً منه ومتعظاً به[1].

وذكر أنه دخل (جزيرة العباد) فوجدها قفاراً غير حشيش فيها وغدران، ووجد فيها قوماً قد نهكتهم العبادة وصاروا كالحمم من سواد الألوان، فوقف بهم وسلم عليهم، فردوا عليه، فقال لهم: ما عيشكم في بلادكم هذه؟ فقالوا: ما يأتينا من رزق من أسماك البحر وضروب الحشيش، وما نشربه من ماء هذه الغدران. قال: أفلا أنقلكم إلى موضع أخصب لكم من هذا المكان؟ فقالوا: وما نصنع به؟ إن عندنا في جزيرتنا هذه ما نغني به عن جميع العالم، ويكفيهم لو أنهم وصلوا إليه. قال: وما هو؟ قال: فانطلقوا به إلى واد لهم يسرج من ألوان الدر والياقوت فوق ما تتوهم النفس. وأخرجوه من هناك إلى أرض واسعة كثيرة الفواكه فيها من أصناف الثمرات ما لا يوجد مثله ببلد من البلدان. فقالوا له: أتصل بنا إلى أكثر من هذا؟ قال: والله ولا إلى بعضه. فقالوا: فهذا بين أيدينا، فما نلتفت إلى شيء منه، وإنا لنؤثر الحشيش عن هذه الفواكه. فذهب أصحابه ليأخذوا من ذلك الجوهر شيئاً فمنعهم وودع القوم، وانصرف إلى مركبه متعجباً منهم[2]!.

---

(١) إحياء علوم الدين جـ ٣ ص ٢٧٣ - ٢٧٤. وليس كل ما ورد في هذه الحكاية صحيح، التي ربما كانت مولدة. فاكتساب المال من حله مأمور به، والأمل المحمود غير مذموم، وليس النبات وحده مما سخره الله للإنسان ليتغذى به.. وهناك أمور أخرى في أمثال هذه الحكايات لا يخفى على القارىء الحصيف وهنها وضعف ما فيها.

(٢) أخبار الزمان ومن أباده الحدثان للمسعودي ص ٤٦ - ٤٧ ط ١، ١٣٥٧ هـ.

وحكي أنه ذكرت له جزيرة في البحر الأخضر فيها قوم حكماء، فصار إليهم فرأى قوماً سرابيلهم ورق الشجر وبيوتهم الكهوف وعليهم السكينة فسألهم عن مسائل من الحكمة فأجابوه، فقال لهم: سلوني ما أحببتم. فقالوا له: إنا نسألك الخلد. فقال: أنّى لي به ولا أقدر على زيادة نفس واحد من أنفاسي! فقالوا: فعرفنا بقية آجالنا. فقال: أنا لا أعرف بقية أجلي فكيف لي بمعرفة أجل غيري! قالوا: فامنحنا منحة تبقى لنا ما بقينا. فقال: وهذا ما لا أبلغه لنفسي فكيف لغيري؟ قالوا: فدعنا نطلب ذلك ممن يقدر عليه!.

وجعل الناس منهم يتطاولون بالنظر إلى عساكر الاسكندر، وكان على شاطىء البحر رجل حداد لا يرفع بصره إليه ولا إلى شيء من عساكره. فعجب الاسكندر من ذلك فأقبل عليه وقال له: ما منعك من النهوض إليّ والنظر إلى عسكري؟ فقال له: لا يعجبني ملكك فأنظر إليه! قال: ولم؟ قال: إني عاينت قبلك ملكاً لا يبلغ ملكك ملكه، وكان في جواري رجل مسكين لا يملك شيئاً، فمات الملك والمسكين في يوم واحد، ودفنا في ناحية واحدة، فكنت أتعاهدهما حتى بليت أكفانهما وبقيت رممهما ثم اختلطا، فجهدت أن أعرف الملك والمسكين فلم أقدر على ذلك، فهان عليّ كل ملك بعد ذلك!.

قال: فصناعتك تكفيك؟ قال: أنا أكسب بها ثلاثة دراهم كل يوم، أنفق درهماً، وأقضي درهماً، وأسلف درهماً. فالدرهم الذي أنفق هو مؤنتي ومؤنة عيالي، والدرهم الذي أقضيه عما يلزمني في كراء بيتي وموضع عملي، والدرهم الذي أسلفه هو الذي أنفقه على ولدي، لينفقه عليّ إذا كبرت.

قال: أفلا تنفق ذلك على أصحابك؟ قال: هم لا يحتاجون إلى ذلك، وأنا لا أحتاج إليه، وإنما يحتاج إلى ذلك من لا ينصف عن نفسه. فأما من أنصف منها فلا يحتاج إلى شيء. فعجب ذو القرنين من حكمهم وانصرف عنهم[١].

---

(١) أخبار الزمان للمسعودي ص ٤٧ ـ ٤٨.

الرحلة في طلب.. عين الحياة!!:

في تفسير النسفي أن الرسول ﷺ قال عن سبب رحلة ذي القرنين هذه: «بدء أمره أنه وجد في الكتب أن أحد أولاد سام يشرب من عين الحياة فيخلُد، فجعل يسير في طلبها، والخضر وزيره وابن خالته فظفر فشرب ولم يظفر ذو القرنين»[1]. قال المقدسي: وفي كتاب أبي حذيفة رواية عن الحسن أن ذا القرنين وجد في الكتب أن رجلاً من ولد سام بن نوح يشرب من عين البحر وهي من الجنة فيعطى الخلد إلى يوم القيامة، فخرج في طلب تلك العين فشرب (الخضر) منها وتوضأ وأخبر ذا القرنين بذلك فقال: أنا طلبت وأنت أصبت، وقال: ذاك الذي حمله على أن طاف في الأرض[2]. وفي (الفتوحات الإلٓهية) أيضاً أنه لما استقصى في السير دخل في الظلمة فظفر الخضر بها، فاغتسل وشرب منها فلذلك لم يمت إلا بالنفخة الأولى. وذو القرنين لم يظفر بها مع أنه كان مصاحبه، فلذلك اعتراه الموت[3].

وذكر ابن عساكر من طريق وكيع عن أبيه، عن معتمر بن سليمان، عن أبي جعفر الباقر، عن أبيه زين العابدين خبراً مطولاً جداً فيه أن ذا القرنين كان له صاحب يقال له (رناقيل) فسأله ذو القرنين: هل تعلم في الأرض عيناً يقال لها عين الحياة؟ فذكر له صفة مكانها فذهب ذو القرنين في طلبها، وجعل الخضر على مقدمته، فانتهى الخضر إليها في واد في أرض الظلمات فشرب منها ولم يهتد ذو القرنين إليها[4].

---

(١) تفسير النسفي جـ ٣ ص ١٤٤. ولم أقف على تخريج لهذا الأثر!

(٢) انظر الخبر والتعليق من المقدسي في كتاب البدء والتاريخ للمقدسي جـ٣ ص ٨٠ ط ١٩١٩.

(٣) الفتوحات الإلٓهية جـ ٣ ص ٤٣.

(٤) انظر البداية والنهاية لابن كثير جـ ٢ ١٠٧. وساق القرماني عن صاحب (ابتداء الأخيار) قصة تختلف عن سوابقها تماماً، وفيها أخبار غريبة جداً، ويظهر الكذب واضحاً من سياق هذه الأسطورة، التي فيها التنجيم، الذي نهى الإسلام عن تصديقه. ولا شك أن أمثال هذه الخرافات من صنع اليهود، ودجل الكذابين وترويج الجهلاء، لإدخال السحر والشعوذة في كتب المسلمين، وإلهاء العامة بهذه القصص الخيالية والمنكرة التي تزيد الجاهل جهلاً! والقصة عن مراقبة والد الاسكندر، الذي يعني به ذا القرنين، النجم حتى إذا طلع من مكانه وطأ =

وفي الحكاية التي ساقها صاحب بدائع الزهور، عن الثعلبي ـ الذي زعم أنه عن علي رضي الله عنه ـ أن ذا القرنين ـ بعد أن أخبره الملك بذلك ـ جمع علماء زمانه وسألهم عن موضع العين، وأعد العدة للذهاب، ونصحه الناس أن لا يذهب لأن ذلك سيكون سبب هلاكه.. ولكنه قرر الذهاب بصحبة الخضر، وأخبرهم أنه إذا لم يرجع بعد اثنتي عشرة سنة فليمضوا إلى بلادهم، فمضوا في الظلمة ثمانية عشر يوماً، وأوحى الله إلى الخضر مكان العين، فاغتسل فيها وشرب منها، أما ذو القرنين فلم يهتد إليها[1].. وقال في (التبيان): لما وصل ذو القرنين إلى مغرب الشمس يطلب عين الحياة، قال له شيخه: هي خلف أرض الظلمة. ولما أراد أن يسلك في الظلمة سأل: أي الدواب في الليل أبصر؟ قالوا: الخيل. فقال: أي الخيل أبصر؟ قالوا: الإناث. فقال: أي الإناث أبصر؟ قالوا: البكارة. فجمع من عكسره ستة آلاف فرس كذلك. فركبوا الرماك[2]. وترك بقية عسكره، فدخلوا الظلمات، فساروا يوماً وليلة. فأصاب الخضر العين لأنه كان على مقدمة جيشه، صاحب لوائه الأكبر، فشرب منها واغتسل، وأخطأ ذو القرنين[3]!.

هذا وقد ضرب المثل بمسير ذي القرنين، حيث قال ابن النكل:

تولى شباب كنت فيه منعماً ... تروح وتغدو دائم الفرحات
فلست تلاقيه ولو سرت خلفه ... كما سار ذو القرنين في الظلمات[4]

تعقيب:

وبعد.. فإنه لم يرد أي خبر صحيح عن الرحلة في طلب عين الحياة.. ولا شرب مائها.. فلا الخضر شرب منها، ولا حاول ذو القرنين

= زوجته كي تنجب ولداً يخلد في الحياة.. ثم سماع أخت زوجته ذلك.. إلى آخر القصة في أخبار الدول وآثار الأول ص ٢٣١.

(١) بدائع الزهور من ص ١٤١

(٢) تطلق على أنثى الخيل والبغال.

(٣) انظر روح البيان في تفسير القرآن جـ٢ ص ٥١٤. وانظر قصة أخرى ساقها القرماني في أخبار الدول ص ٢٣٢.

(٤) ذو القرنين وسد الصين ص ٣٢. وقد ذكر المؤلف أنه نقل البيتين من ثمار القلوب للثعلبي لكنني لم أجده هناك، فلعله أخطأ.

ذلك. وكل ما يرد في هذا الموضوع هو من الإسرائيليات، والحكايات الشعبية الخرافية. وقد حققنا هذا بتفصيل في كتابنا (الخضر عليه السلام) وبيّنا أن الطبري أورد القول لأهل الكتاب، وابن حجر ذكره عن وهب، وصنّف أبو جعفر بن المنادي في ذلك كتاباً وقرر أن لا يوثق بالنقل فيما يوجد من الإسرائيليات.

وصيـــة الخضـــر. . درس لكل حاكـــم:

ذكر أن الخضر أوصى ذا القرنين فقال:

إن الله مكن لك في الأرض، وآتاك من كل شيء سبباً، ولم تعلم إلا ما شاء الله أن تعلمه من علمه، ولو ظهر إليك حرف مما غيب عنك لانصدع قلبك فرقاً. يا ذا القرنين: حملت أمانة لو حملت على السماء انفطرت، وعلى الجبال انهدمت، وعلى الأرض انشقت. أعطيت الصبر وأوتيت النصر، وسترى قوماً يرون أهل الأرض عبيداً لهم وأنهم شركاء الله في خلقه، وهم يأجوج ومأجوج. والله الطالب لا يفوته هارب ولا يغلبه غالب، والعقوبة بعد القدرة، والمنع قبل البذل، والغضب تحت الرضا، والوفاء بعد العهد. يا ذا القرنين: مرٌّ ينفع خير من حلو يضر؛ خذ ودع. خذ ما لزمك ودع ما لم يلزمك، يا ذا القرنين: ربما رأت عينك شيئاً لم تدركه يدك، ومثل لك أملك ما لم يبلغه عملك، وحال دونه أجلك. يا ذا القرنين: اعمل عمل من لا يموت، وازهد زهادة من نزل به الموت، واقنع من عيشك بالقوت. يا ذا القرنين: اجعل نفسك: يدك في الدنيا وعينك في الآخرة. امش مشي من لا يغفل. ولا تعجل ولا تمهل فإن في الغفلة الهلكـة، وفي العجلة الندامة، ومن المهل العطب. كن بين حالين. سدد، ففي السداد الرشاد، والحق دليل فاستدل ترشد، والغنى لهو ومهلكة وأنى يفي غاولاه. يا ذا القرنين: من نظر إلى الدنيا بعين سقيمة نظرت إليه بعين صحيحة، وأرته النجاة وأعاضته جدة لا تخلق. ومن نظر إليها بعين صحيحة شوقته بالآمال الكاذبة، وكان حظه منها غدراً، وزادته ندماً.

يا ذا القرنين: من عاش كذب ومن مات صدق. مدة غايتها القطع

كذب وغرور. وأبداً لا يفي. فالمطمئن إلى الحياة مخدوع، والميت في منزل الأموات قدّم علمه وأخر أجله فذلك الحي الذي لا يموت. يا ذا القرنين: الناس عبيد الدنيا، فمن نصح نفسه أعتقها، ومن خلط طال رقه. راحة النفس القناعة، وعذابها الحسد، وزينتها العفاف. يا ذا القرنين: خذ ما أتيت بحزم وعزم، واجعل الصبر دثاراً والحق شعاراً، والخوف من الله جُنَّة يزكو لك العمل وتأمن من هول الأجل. خذ بيدك سيف الله فإنه ليس له دافع ولا لنصره مانع، وحسبك من كان الله له ناصراً(١).

● وذكر أن ذا القرنين لقي ملكاً فقال: علمني علماً أزداد به إيماناً ويقيناً. قال: لا تغضب، فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب. فرد الغضب بالكظم، وسكنه بالتؤدة.

وإياك والعجلة، فإنك إذا عجلت أخطأت حظك.

وكن سهلاً، ليناً للقريب والبعيد، ولا تكن جباراً عنيداً(٢).

● وقيل أيضاً: إنه رأى ملكاً عندما بلغ مغرب الشمس فقال له ذو القرنين: أوصني. فقال له:

يا ذا القرنين: لا يهمنك رزق غد ولا تؤخر عمل اليوم لغد، ولا تحزن على وفاتك، وعليك بالرفق، ولا تكن جباراً متكبراً(٣).

.. وقد سقت هذه النصائح للعبرة فقط.

إصـــلاح وعمـــران:

هذا وقد عرف عن ذي القرنين حبه للبناء والعمران.. فكان يشيد المدائن، ويبني السدود، ويصلح بين الناس ويحب لهم الخير والسعادة، ويعمل معهم للرفع من شأنهم إلى حيث المدنيـة والحضارة.. والعيش بسلام.

وقد نسب إليه بنـاء مدن كثيـرة.. ولكنها تختلف بـالخلاف فـي شخصيته..

---

(١) انظر كتاب التيجان لوهب بن منبه ص ٩٣ ـ ٩٤.

(٢) إحياء علوم الدين جـ ٣ ص ١٦٥.

(٣) روح البيان جـ ٢ ص ٥١٥.

فقد ذكر أنه هو الذي بنى همدان، والدبوسية، وشيرك، وبرج الحجارة ببعلبك، وسرنديب بالهند وغير ذلك[1].

وقال أحمد الطيني في حكاية عن سمرقند: زعموا أن ذا القرنين لما طاف الأرض ووصل إلى أرض سمرقند كان معه من يعز عليه مريضاً، وكان الحكماء يعالجونه، فلما وصل إلى هذه الأرض فنزلوا بها أشاروا إلى ذي القرنين بالمقام فيها، وقالوا إن هذا المريض قد انحط مرضه في هذا اليوم، ولا نعلم له سبباً غير صحة هواء هذه الأرض ويرجى برؤه إذا أقمت فيها. فأقام، فأمر معه من الملوك والأمراء أن يبني كل واحد منزلته التي نزل بها ويسوق إليها نهراً. ففعلوا، وكانوا اثني عشر ألفاً. فبنوا اثني عشر ألف دار، وشقوا اثني عشر ألف نهر[2]!!.

مــدتــه:

ذكر بعض أهل الكتاب أنه مكث ألفاً وستمائة سنة يجوب الأرض ويدعو أهلها إلى عبادة الله وحده لا شريك له[3]. وذكر أنه مات وعمره ثلاثة آلاف سنة[4]. وفي (التبيان) أن مدة دوران ذي القرنين في الدنيا خمسمائة سنة[5]. وفي (روضة الصفا) ـ أيضاً ـ أن طول أيام سلطنته كانت خمسمائة سنة[6].

* * *

---

(١) انظر كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور تأليف الشيخ محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ص ١٤٤.

وهذا الكتاب منتشر بين الناس، ولكنه ـ للأسف ـ فيه أخبار كثيرة غير صحيحة، وأظن أن وراء انتشار أمثال هذه الكتب أيدي غير سليمة.

(٢) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر لشمس الدين أبي عبد الله محمد أبي طالب الأنصاري ص ٢٢٢ ط ١٢٨١ هـ.

(٣) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٠٧، وروح البيان جـ ٢ ص ٥١٢. وانظر تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٩٠.

(٤) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٠٩. وسيأتي الرد على ما قيل.

(٥) روح البيان في تفسير القرآن جـ ٢ ص ٥١٢.

(٦) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للشيخ الآلوسي جـ ١٦ ص ٢٥.

وفي عامة التواريخ أنه ملك الأرض وقسمها بين بنيه الثلاثة: (ايرج وسلم وتور). فأعطى (ايرج) العراق والهند والحجاز وجعله صاحب التاج. وأعطى (سلم) الروم وديار مصر والمغرب. وأعطى (تور) الصين والترك والمشرق. ووضع لكل قانوناً يحكم به[1]..

نهــايتــــه:

ذكر إسحق بن بشر عن عبد الله بن زياد عن بعض أهل الكتاب وصية ذي القرنين وموعظة أمّه موعظة بليغة فيها حكم وأمور نافعة[2].

وروي عن كعب الأحبار أنه قال لمعاوية: إن ذا القرنين لما حضرته الوفاة أوصى أمه إذا هو مات أن تصنع طعاماً وتجمع نساء أهل المدينة وتضعه بين أيديهن وتأذن لهن فيه إلا من كانت ثكلي فلا تأكل منه شيئاً، فلما فعلت ذلك لم تضع واحدة منهن يدها فيه، فقالت لهن: سبحان الله! كلكن ثكلى؟ فقلن: إي والله ما منا إلا من أثكلت، فكان ذلك تسلية لأمه[3].

أخبــار فــي الميـــزان:

لقد وردت أخبار غير دقيقة ولا ممحصة عن ذي القرنين العظيم.. ولا يخلو كتاب تاريخ أو تفسير من هذه الأخبار المشوهة.. إذا جاء ذكر هذا القائد الفاتح.

وأذكّر أن بعض هذه الأخبار التي ذكرت طرفاً منها، لا تفيد شيئاً.. إلا زيادة خيال شاعر أو لفت انتباه فنّان.. أو أن هذه الأساطير تزيد من أفق الطفل إذا أحسن استعمالها.. لكن لا أن تنسب إلى ذي القرنين.. حتى لا تشوه هذه الأعلام القرآنية.

وقد مرت بك بعض هذه الأخبار، في سبب لقبه بهذا اللقب، وبعض ما ذكر من أسباب ملكه للعالم، وقصصٌ أثناء بحثه عن عين الحياة، وقصصٌ

---

(١) روح المعاني جـ ١٦ ص ٢٥.

(٢) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٠٩.

(٣) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٠٩.

أخرى في هذا الفصل، وأكثر هذه الأخبار تذكر عند لقائه بأمتي يأجوج ومأجوج، ولن أنقل عنهم شيئاً الآن.. فله بابه الخاص من هذا الكتاب..

ومن هذا الباب ما ذكره أبو داود الطيالسي عن الثوري قال: بلغنا أن أول من صافح هو ذو القرنين[١]، وذكرت في ذلك أسطورة[٢].

وقيل أيضاً: إنه أول من لبس العمامة[٣]، وذكر في سبب هذا أنه كان له قرنان كالظلفين، وأنه كان يلبسها ليسترهما بـه، وأن كاتبه لمح ذلك عندما دخل الحمام، فأمره ألا يذكر لأحد، ورغم احتفاظ كاتبه بهذا السر إلا أنه انتشر في أسطورة غريبة[٤]. ومنها سيره نحو المغرب، وهذه الظلمة التي تغشي كل من لا يجيبه.. وتدخل بيوتهم وحصونهم وأبصارهم.. ثم رؤيته للجبل الذي يحيط بالأرض (جبل قاف) والملك الذي يقبضه، والحوار الذي دار بينهما[٥].. وأخبار عجيبة أخرى عن حديث الملك (رفائيل) لذي القرنين بشأن عين الحياة، وذهاب الأخير إليها ومعه الخضر، بعد مشاورات، وحديث الطير معه، والصور الذي في فم الملك[٦]...

ووردت هذه الأخبار في مصادر عدة، حيث يرى ذو القرنين في رحلته أيضاً ـ إلى تلك العين ـ أشياء غريبة جداً.. منها الخرزات العجيبة، والقصر الذي في الظلمات، والحجر الذي أعطاه الملك، وقصته الغريبة البعيدة عندما وضع في الميزان[٧].. الخ.

ومنها أنه أثناء رجوعه بجيشه من بحر الظلمات ساروا على حصحاص

---

(١) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٠٩، وفتح الباري جـ ٦ ص ٢٧١، وروح البيان جـ ٢ ص ٥١٢.
(٢) انظرها في روح البيان جـ ٢ ص ٥١٢.
(٣) روح المعاني جـ ١٦ ص ٢٤، وروح البيان جـ ٢ ص ٥١٢.
(٤) انظر هذه الأسطورة في روح البيان جـ ٢ ص ٥١٢ ـ ٥١٣.
(٥) روح البيان جـ ٢ ص ٥١٥.
(٦) انظر هذه الإسرائيليات في عرائس المجالس من ص ٣٣٠ ـ ٣٣٢، وانظر كيفية طلب ذي القرنين عين الحياة في قصة خرافية طويلة نقلها جعفر بن محمد الشيخ عبد الرحمن الصفوري في كتابه نزهة المجالس ومنتخب النفائس جـ ٢ ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ مطبعة حجازي بالقاهرة.
(٧) انظر بداية القصة ص ١٤١ ـ ١٤٤ من كتاب بدائع الزهور.

من حجارة لا يدرون ما هي، فسألوه عنها، فقال الاسكندر: خذوا من هذه الحجارة ما استطعتم فإنه من أقلَّ منها ندم، ومن أكثر منها ندم. فأخذوا وملؤوا مخاليّ دوابهم من تلك الحجارة، فلما خرجوا نظروا إلى ما في مخاليهم فوجدوه زمرداً أخضر! فندموا كلهم، لكونهم لم يكثروا من ذلك[1]! كما أنهم رأوا في طريقهم نملاً ضخماً عجيباً[2]!

وأبعد ما تكون عن الواقع قصة جيش ذي القرنين عندما وقعت مراكبه في (جزيرة بيضاء نقية) وصورة خلق الإنسان هناك، وغيابهم، وقصة تلك الشجرة الخيالية وأخذهم لبعض ورقها. والآثار التي ظهرت بعد هذا العمل ونصيحة ذي القرنين لهم أن لا يتعرضوا لتلك الشجرة كيلا يهلكوا[3].

ومنها قصة العلمين العجيبين اللذين كانا معه في حروبه وفتوحاته[4]..

ومنها ما قيل إنه كان يطبخ من كفر في القدور[5]، فليس هذا من صنيع الأبطال والعظماء الفاتحين، وليس هو من دأب القادة المصلحين، بل تمجه المروءة والخلق الإنساني.

ومنها أنه كان له حبل من نور، وكان ملك يمشي به بين يديه فيتبعه[6].

وقد وردت عنه أخبار أخرى كثيرة.. غير ما ذكرنا[7].

وإذا كان القدماء قد ابتلوا بنقل هذه الأخبار، فليس للكاتب المسلم

---

(١) روح البيان في تفسير القرآن جـ ٢ ص ٥١٤.

(٢) انظر الحديث عن هذا في أخبار الدول وآثار الأول ص ٢٣٣.

(٣) انظر كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران تصنيف المؤرخ أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ص ٤٦.

(٤) انظر القصة في تاريخ الخميس جـ ١ ص ١٠١.

(٥) ورد هذا في بعض التفاسير أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿ فسوف نعذبه... ﴾ انظر روح البيان جـ ٢ ص ٥١٤، والكشاف جـ ١ ص ٥٧٩.

(٦) نقل هذا الإمام السهيلي عن ابن هشام في تفسير الآية: ﴿ فأتبع سبباً ﴾ انظر: الروض الأنف جـ ٢ ص ٥٩.

(٧) انظر هذه الأخبار مفرقة في: تفسير القرطبي جـ ١١ ص ٤٦، ونزهة المجالس ومنتخب النفائس جـ ٢ ص ٢٥٦ فما بعد.

المعاصر عذر أن يسردها كما هي ويحشو بها كتبه دون إشارة أو تحقيق أو تمحيص. . فإن هذا له أثره السيء بين الأجيال[1]. .

دراســـة ونـقـــد:

هذه الأخبار التي قرأتها، وأخبار كثيرة مثلها في تاريخنا القديم، تملأ الكتب التي تبحث في حـوادث الزمـان الغابـرة. فمـا مـدى صحتهـا؟ وما مدى التحقيق العلمي الذي كتب على أسسه المؤرخون؟ وما حكم الأخذ بها؟.

إن الجواب عن هذا ليس بالسهل الميسَّر. فكل خبر قيل قديماً أصبح له موضع في التاريخ، فإما أن يكون صحيحاً وإما أن يكون باطلاً.

لكن التاريخ القديم لا يستطيع أن يجزم فيه الدارسون بأحد هذين الصفتين دائماً بل يبقى الأمر أحياناً في حكم الظن والشك. ذلك أن المواد التي استعان بها هؤلاء المؤرخون غائبة عنا الآن. وإذا لم نجد كتابات أثرية أو نقوشاً، أو مصادر موثوقة تدل على صحة ما كتبوا، بقي كلامهم ـ في ميزاننا ـ مرجوحاً بين الصدق والكذب. وبخاصة هذه الأخبار الأسطورية، التي تكون بعيدة عن مقياس العمل الإنساني واجتماعيته، فإنهـا تشكك الباحثين كثيراً في مدى صحتها. ولهم الحق في ذلك إلا أن يخلطوا قصص الأنبياء المعجزة معها. فإن المعجزات أشياء خارقة للعادة، يحدثها الخالق عز وجل على أيدي الأنبياء عند التحدي، وليعلم الناس أن النبي رجل صادق ومؤيد من عند الله، ولا أحد يستطيع أن يفعل مثله. وحتى هذه المعجزات لم تخل بعضها من تذييلها بالإسرائيليات، فطولتها وحرفت منها وبدلت. .

وللباحث حق في نقد مثل هذه الأمور، وتصفيتها ما أمكن. فالتاريخ له مكانته بين الشعوب، وفي تربية الأجيال، وعلاقته بحيوية الأمة وتنمية مواهب أفرادها وتأسيس أفكارهم.

---

(١) انظر بعض الخرافات المبثوثة في كتاب النور المبين في قصص الأنبياء المرسلين لنعمة الله الجزائري (الشيعي) من ص ١٤٠ ـ ١٥٣ دون أن ينبه إليها المؤلف.

وباختصار فإن التاريخ القديم لم يبن على أسـس علمية متقنة على أيدي المؤرخين، بل إنها أخبار شعبية تلقفتها الأفواه من جيل إلى جيل.. ولكل جيل وقفة طويلة أمام هذه الأخبار، يتناولها وينقلها بعد أن يصوغها بكلماته ومعانيه وعواطفه وظروفه الخاصة.. إذا لم يكن هناك ضابط ورادع لأمانة النقل..

وأقدم مصدر تاريخي إسلامي صحيح هو القرآن الكريم، الذي هو تنزيل من رب العالمين. فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهو إضافة لكونه أساس التشريع الإسلامي، ومصدره الأول، فإنه يعتبر أيضاً المصدر الأساسي للتاريخ القديم..

فالقرآن يعتبر ميزاناً لصحة الأخبار.. وما عداه يحال إليه، فإن وافقه اعتبر صحيحاً، وإن خالفه فهو كذب، ومـا عدا ذلـك يبقى في ميزان التحقيق.. ومنها الإسرائيليات، التي سنقف على حكم الأخذ بها..

الإســرائيليــات:

أعتقد أن الموضوع المهم هنا هو موضوع الإسرائيليات.. ويمكن أن نعتبر أغلب ما مرَّ معنا عن حياة ذي القرنين من الإسرائيليات، ما دام لم يثبت منها شيء. فما هي الإسرائيليات؟ وما أقسامها؟ وما حكم روايتها والأخذ بها؟.

يذكر الدكتور محمد حسين الذهبي أن لفظ الإسرائيليات، وإن كان يدل بظاهره على اللون اليهودي للتفسير، وما كان للثقافة اليهودية من أثر ظاهر فيه، إلا أنا نريد به ما هو أوسع من ذلك وأشمل، فنريد به ما يعم اللون اليهودي واللون النصراني للتفسير، وما تأثر به التفسير[١] من الثقافتين اليهودية والنصرانية، وإنما أطلقنا على جميع ذلك لفظ الإسرائيليات من باب التغليب للجانب اليهودي على الجانب النصراني فإن الجانب اليهودي هو الذي اشتهر

---

(١) نحن نعلم أن الإسرائيليات لم تدخل كتب التفاسير فقط. لكن الدكتور يذكر ذلك لما هو بصدد موضوعه في كتابه (التفسير والمفسرون).

أمره، فكثر النقل عنه، وذلك لكثرة أهله وظهور أمرهم، وشدة اختلاطهم بالمسلمين من مبدأ ظهور الإسلام إلى أن بسط رواقه على كثير من بلاد العالم، ودخل الناس في دين الله أفواجاً(١).

ومنهم من قال: يطلق علماء المسلمين كلمة إسرائيليات على جميع العقائد غير الإسلامية، ولا سيما تلك العقائد والأساطير التي دسها اليهود والنصارى في الدين الإسلامي منذ القرن الأول الهجري(٢).

ومنهم من قال: الإسرائيليات اصطلاح أطلقه المدققون من علماء الإسلام على القصص والأخبار اليهودية والنصرانية، التي تسربت إلى المجتمع الإسلامي بعد دخول جمع من اليهود والنصارى إلى الإسلام أوتظاهرهم بالدخول فيه(٣).

نخلص إلى القول إن استعمال لفظ الإسرائيليات يعني عند الدارسين كل دخيل على التاريخ الإسلامي أو غيره، ولو كان من عند غير اليهود أو النصارى، كديانات وطوائف ومذاهب دينية غير إسلامية، وهذا ما اصطلحت عليه عند إطلاقه.

ويرى الأستاذ أمين الخولي أن اختلاط الثقافة الإسلامية بالإسرائيليات اليهودية كانت كالتالي: قال: كان اليهود في ماضيهم الطويل قد شرقوا راحلين من مصر ومعهم آثار حياتهم فيما معهم، ثم أبعدوا مشرقين إلى بابل في أسرهم.. وقد حملوا من أقصى المشرق في بابل وأقصى المغرب في مصر ما حملوا، وجاء البيئة العربية الإسلامية من كل هذا المزيج ما جاء، إلى جانب ما بعث إليها الديانات الأخرى التي دخلت تلك الجزيرة،

---

(١) انظر (التفسير والمفسرون) للدكتور محمد حسين الذهبي ص ١٦٥ الطبعة الثانية ١٣٩٦ هـ ـ دار الكتب الحديثة.

(٢) الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير للدكتور رمزي نعناعة ص ٧٣ ٢ ١٣٩٠ هـ نقلاً عن السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية ـ فان فلوتن ـ ص ١٠٩ ترجمة وتعليق الدكتور حسن إبراهيم حسن ومحمد زكي إبراهيم.

(٣) الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير ص ٧٣ نقلاً عن (الآلوسي مفسراً) رسالة مخطوطة بجامعة القاهرة ص ٣١٩ محسن عبد الحميد.

وألقت إلى أهلها ما ألقت من خبر وقصص ديني، وكل أولئك قد تردد على آذان قارئي القرآن، ومتفهميه، قبلما خرجوا إلى ما حول جزيرتهم شرقاً وغرباً فاتحين، ثم ملأ آذانهم حين خالطوا أصحاب تلك البلاد التي نزلوها وعاشوا بها، وإن كان الذي اشتهر من ذلك هو اليهودي، لكثرة أهله، وظهور أمرهم فدعيت تلك التزيدات التي اتصلت بمرويات التفسير النقلي باسم الإسرائيليات[1].

وتقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن:

ومن أوائل العهد المدني، حيث خالط اليهود المهاجرين والأنصار، تتابعت آيات القرآن تحذر المؤمنين من شر أولئك المزيفين المرابين.

﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴾[2]؟.

﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون. فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾[3].

﴿ وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾[4].

لكن يبدو أن المسلمين في عصر الصحابة والتابعين، كانوا مطمئنين إلى كونهم بمنأى عن الخطر، إذ القرآن موثق محفوظ، نصاً ورسماً وقراءةً، فلا بأس عليهم من سماع تأويلات لأهل الكتاب لا يمس القرآن منها أي تحريف أو تبديل.

---

(١) الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير ص ٧٤ ـ ٧٥ عن دائرة المعارف الإسلامية المجلد الخامس ص ٣٥١ تعليق الأستاذ أمين الخولي تحت مادة «تفسير».

(٢) سورة البقرة، الآية ٧٥.

(٣) سورة البقرة، الآية ٧٨ ـ ٧٩.

(٤) سورة آل عمران، الآية ٧٨.

وهون عليهم أمرها، أنها لم تكن تدون، وأن العقيدة الإسلامية في إقرارها لحرية العقل والفكر، لم تأخذهم بحظر تراث الملل والعقائد قبلها أو مصادرته. بل وجد اليهود منفذاً إليهم من الإيمان بأن القرآن مصدق لما سبقه من رسالات الدين جميعاً. والقرآن وإن حذر المسلمين من مفتريات أهل الكتاب، لم يحرم عليهم سماع أقوالهم. ونبي الإسلام عليه الصلاة والسلام، لم ينه أصحابه وأمته عن سماعها، وإنما نهى عن العمل بها. فكيف إذا جاءت الإسرائيليات مروية عمن دخلوا في الإسلام من يهود عصر المبعث؟.

ثم إن المسلمين كانوا ينظرون إلى هذه الإضافات المروية عن أهل الكتاب في تأويل القرآن بما ليس فيه، على أنها من القصص الديني لا التفسير. ولم يسموا من يحكيها مفسراً، وإنما هو قاص تحديداً لصفته بما يخرج حكاياته عن نطاق التفسير[1].

أقسام الإسرائيليات:

ونتجاوز التفاصيل، لنأتي إلى أقسام الإسرائيليات باعتبار الموافقة لما في شريعتنا والمخالفة لها وهي:

١ ـ موافقة لما في شريعتنا.
٢ ـ مخالفة لما في شريعتنا.
٣ ـ مسكوت عنها وليس في شريعتنا ما يؤيدها ولا ما ينقضها[2].

وواضح أن القسم الأول مقبول، والآخر مردود، والثالث متوقف فيه.

حكم رواية الإسرائيليات[3]:

وهناك آثار توهم التعارض، بعضها تجيز رواية الإسرائيليات، وبعضها تمنع.

(١) انظر كتاب الإسرائيليات في الغزو الفكري، تأليف الدكتورة عائشة عبد الرحمن ص ٨٧ ـ ٨٩ طبعة ١٩٧٥ م.
(٢) انظر بالتفصيل مع الأمثلة الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير ص ٨٢ ـ ٨٥.
(٣) انظر هذا الموضوع بالتفصيل في كتاب الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير ص ٨٦ ـ ٩٧.

وحديث الإسرائيليات حديث طويل ومتشعب وذو شجون. وأنا هنا أكتفي بالإشارة والإيجاز، لنكون على بصيرة فيما نـأخذ ممـا كتبناه في موضوعنا.

وأدلة المنع، منها ما رواه الإمام أحمد والبزار ـ واللفظ له ـ عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: نسخ عمر كتاباً من التوراة بالعربية، فجاء به إلى النبي ﷺ فجعل يقرأ ووجه رسول الله ﷺ يتغير، فقال له رجل من الأنصار: ويحك يا ابن الخطاب! ألا ترى وجه رسول الله ﷺ؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل، والله لو كان موسى بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني».

وكذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: ﴿ آمنا بالله وما أنزل إلينا.. ﴾ الآية».

وما روي أيضاً أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ نهى كعب الأحبار عن التحديث وأوعده بالنفي إلى بلاده، وقال له: لتتركن الحديث عن الأول أو لألحقنك بأرض القردة ـ يقصد أرض اليمن ـ!.

أما أدلة الجواز فكثيرة. منها قوله تعالى: ﴿ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾[1]. وقد فعلها ﷺ واقتدى بالنبي ﷺ في ذلك الصحابة رضوان الله عليهم لاعتقادهم أن ذلك سنة؛ فاحتجوا عليهم بكتابهم مما يؤيد ديننا ويبين ضلالهم.

وأقوى دليل هنا، ما رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٩٣.

يقـول الدكتور رمزي نعناعة: إن وجه التوفيق بين هذه الأحاديث التي تفيد النهي عن سؤال أهل الكتاب وحديث عبد الله بن عمرو بن العاص الذي يجيز التحديث عنهم؛ يتبين لنا من شرح معنى حديث عبد الله بن عمرو. فإن معنى قوله ﷺ: «وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» أن حدثوا عنهم بما تعلمون صدقه وهو ما يوافق القرآن أو السنة الصحيحة، لما في الحديث عنهم من العظة والاعتبار، ولا يجوز أن يكون المعنى: حدثوا عنهم بكل حديث حق أو باطل. إذ من المعلوم ضرورة أن النبي ﷺ لا يجيز التحديث بالكذب، كما لا يجوز أن يكون المعنى: حدثوا عنهم بما تعلمون كذبه.

أما حديث: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء...»، فقال ابن حجر في شرحه: والذي ظهر أن كراهية ذلك للتنزيه لا للتحريم، والأولى في هذه المسألة التفرقة بين من لم يتمكن ويصر من الراسخين في الإيمان، فلا يجوز لـه النظر في شيء من ذلـك؛ بخلاف الـراسخ فيجـوز له، ولا سيما عند الاحتياج إلى الرد على المخالف، ويدل على ذلك نقل الأئمة قديماً وحديثاً من التوراة وإلزامهم اليهود بالتصديق بمحمد ﷺ بما يستخرجونه من كتابهم، ولولا اعتقادهم جواز النظر فيه لما فعلوه وتواردوا عليه.

وقد نقل ابن بطال عن المهلب أنه قال: هذا النهي إنما هو في سؤالهم عما لا نص فيه، لأن شرعنا مكتفٍ بنفسه، فإذا لم يوجد فيه نص ففي النظر والاستدلال غنى عن سؤالهم، ولا يدخل في النهي سؤالهم عن الأخبار المصدقة لشرعنا والأخبار عن الأمم السالفة.

وفي الموضوع مناقشات كثيرة[1].

وقال الحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم» أي إذا كان ما يخبرونكم به محتملاً لئلا يكون في

---

(١) يراجع هذا البحث بالتفصيل كما ذكرت مع بيان مصادره في الإسرائيليات للدكتور نعناعة من ص ٨٦ - ٩٧.

نفس الأمر صدقاً فتكذبوه أو كذباً فتصدقوه فتقعوا في الحرج، ولم يرد النهي عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه...

وقال ابن كثير: إذا تقرر جواز الرواية عنهم فهو محمول على ما يمكن أن يكون صحيحاً، فأما ما يعلم أو يظن بطلانه بمخالفته الحق الذي بأيدينا الذي هو عن المعصوم، فذلك متروك مردود لا يعرج عليه.

وأما سر نهي عمر كعباً عن التحديث وتهديده إياه بالنفي، وقوله له أيضاً: إن كنت تعلم أنها التوراة التي أنزل الله على موسى فاقرأها آناء الليل والنهار، فهو خشية عمر على عامة الناس عندما يسمعون أحاديث كعب فلا يميزون بين الحق والباطل منها فتشوش عليهم عقائدهم، ويرى أن مدارسة القرآن والحديث أهم من هذه الإسرائيليات التي يرويها كعب.

يقول الدكتور رمزي نعناعة: وجملة القول: إن حكم رواية الإسرائيليات هو الجواز المقيد ضمن دائرة محدودة بينتها السنة وأقوال الصحابة وعملهم؛ فكل رواية من هذه الأحاديث الإسرائيلية إن صدقها الشارع فهي مقبولة يقيناً، وإن كذبها فهي مردودة يقيناً.

وإن كان الشارع ساكتاً عن التصديق والتكذيب لها فنسكت عنها فلا نصدق ولا نكذب، وهذا منهج سديد لا تخشى منه غائلة الإسرائيليات، لأن من ذكرها إنما ذكرها على أنها إسرائيليات خاضعة لذلك المعيار السديد. فإذن لا كعب ولا غيره من رواة الإسرائيليات أثروا ولا يستطيعون أن يؤثروا على عقائد الإسلام وما شرعه من أحكام أصلاً. ما دامت روايتهم تعرض على ذلك المحك الدقيق.

ولكن ينبغي أن يلاحظ أن إباحة التحدث عنهم فيما ليس عندنا دليل على صدقه أو كذبه شيء[1]. ويضيف قائلاً:

كما لا ينبغي أن يتخذ من رواية هذه الإسرائيليات وسيلة للطعن في

(١) الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير ص ٩٧.

رواتها من أمثال كعب[١]، ووهب ممن أثنى عليهم الصحابة وزكاهم أهل البصر بالتعديل والتجريح..

وذلك لأنهم حكوها عن كتب غير مصدقين لها على الإطلاق، بل كانت عقيدتهم فيها كعقيدة الصحابة: ما جاء على وفق شرعنا صدقوه، وما خالفه كذبوه، وما لم يوافق أو يخالف شرعنا ردوا فيه لعلم الله عز وجل، وما مثلهم فيما ينقلون ويحكون إلا كمثل رجل أمين أراد أن يطلعك على مؤلف بغير لسانك، فترجمهُ إلى لغة تفهمها لتعرف ما فيه، إن صدقاً أو كذباً. وليس أمثال ابن مسعود وابن عباس وأبي هريرة وعبد الله بن عمرو بالقاصرين عن تمييز الخبيث من الطيب حتى يقال إن نقلها إليهم يشوش على أفكارهم وعقائدهم[٢].

وبعد أن يرد الدكتور الذهبي على من طعن في كعب وأضرابه بالكذب يقول في حكمة وموضوعية: ونحن نميل إلى القول بأن كعباً كان يروي ما

---

(١) هو أبو إسحق، كعب بن ماتع الحميري، المعروف بكعب الأحبار من آل ذي رعين، وقيل من ذي الكلاع، وأصله من يهود اليمن، ويقال إنه أدرك الجاهلية وأسلم في خلافة أبي بكر، وقيل في خلافة عمر، وقيل إنه أسلم في عهد النبي ﷺ وتأخرت هجرته. وقال ابن حجر في الفتح: إن إسلامه في خلافة عمر أشهر، وبعد إسلامه انتقل إلى المدينة، وغزا الروم في خلافة عمر، ثم تحول في خلافة عثمان إلى الشام فسكنها إلى أن مات بحمص سنة ٣٢ هـ على أرجح الأقوال في ذلك، وقد بلغ مائة وأربعين سنة، روى عنه معاوية وأبو هريرة وابن عباس وعطاء بن أبي رباح وغيرهم. وكان له مبلغ عظيم من العلم، ولهذا كان يقال له: كعب الحبر، وكعب الأحبار. ولقد نقل عنه في التفسير وغيره ما يدل على علمه الواسع بالثقافة اليهودية والإسلامية، وكان لا يزال بعد إسلامه يرجع إلى التوراة والتعاليم الإسرائيلية. أما ثقته وعدالته فهذا أمر نقول به، ولا نستطيع أن نطعن عليه كما طعن بعض الناس، فابن عباس على جلالة قدره، وأبو هريرة على مبلغ علمه، وغيرهما من الصحابة كانوا يأخذون عنه ويروون له. ونرى الإمام مسلماً يخرج له في صحيحه. فقد وقعت الرواية عنه في مواضع من صحيحه في أواخر كتاب الإيمان، كما نرى أبا داود والترمذي والنسائي يخرجون له. وهذا دليل على أن كعباً كان ثقة عند هؤلاء جميعاً. وتلك شهادة كافية لرد كل كلمة تلصق بهذا الحبر الجليل. انظر حياة كعب بإسهاب، والرد على من طعنوا فيه، في كتاب التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي ص ١٨٨ ـ ١٩٤. الجزء الأول.

(٢) كتاب الإسرائيليات للدكتور نعناعة ص ١١٨ ـ ١١٩.

يرويه على أنه صحيح لم يبدل ولم يحرف، فهو لم يتعمد كذباً، ولا ينسب إلى كذب، وإن كان ما يرويه كذباً في حد ذاته، خفي عليه كما خفي على غيره، ولهذا التحريف والتبديل نهى رسول الله ﷺ عن تصديق أهل الكتاب وعن تكذيبهم فيما يروونه من ذلك، لأنه ربما كان صدقاً فيكذبونه، أو كذباً فيقعون في الحرج.

اللهم إني لا أقول إلا أن كعباً له مكانته، وثقة له قيمته، وعدل له منزلته وشهرته[1].

عـــود علـى بـــدء:

وفيما مر معنا من أخبار، نذكر موقفاً مشهوراً لمجابهة أمثال هـذه الروايات؛ واجه بها معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله تعالى عنهما ـ كعب الأحبار، عندما ذكر أن ذا القرنين كان يعلق خيله بالثريا!!.

ففي تفسير ابن كثير أن ابن لهيعة قال: حدثني سالم بن غيلان عن سعد بن أبي هلال: أن معاوية بن أبي سفيان قال لكعب الأحبار: أنت تقول إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا؟ فقال له كعب: إن كنت قلت ذاك فإن الله تعالى قال: ﴿ وآتيناه من كل شيء سبباً ﴾.

وأترك التعليق لابن كثير حيث يقول:

وهذا الذي أنكره معاوية ـ رضي الله عنه ـ على كعب الأحبار هو الصواب، والحق مع معاوية في الإنكار، فإن معاوية كان يقول عن كعب: «إنا كنا لنبلو عليه الكذب». يعني فيما ينقله، لا أنه كان يتعمد نقل ما ليس في صحيفته. ولكن الشأن في صحيفته أنها من الإسرائيليات التي غالبها مبدّل مصحف محرّف مختلق، ولا حاجة لنا مع خبر الله ورسوله إلى شيء منها بالكلية، فإنه دخل منها على الناس شر كثير وفساد عريض. وتأويل كعب قول الله: ﴿ وآتيناه من كل شيء سبباً ﴾، واستشهاده في ذلك على ما يجده في صحيفته من أنه كان يربط خيله بالثريا غير صحيح ولا مطابق، فإنه لا

---

(١) التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي باختصار جـ١ ص ١٩٤.

سبيل للبشر إلى شيء من ذلك ولا إلى الترقي في أسباب السماوات. وقد قال تعالى في حق بلقيس: ﴿ وأوتيت من كل شيء ﴾[1] أي: مما يؤتى مثلها من الملوك. وهكذا ذو القرنين، يسَّر الله له الأسباب، أي الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرساتيق (السواد والقرى) والبلاد والأراضي وكسر الأعادي وكبت ملوك الأرض وإذلال أهل الشرك، قد أوتي من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سبباً، والله أعلم[2].

وقال ابن كثير: وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار في الأرض مدة والشمس تغرب من ورائه فشيء لا حقيقة له. وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب، واختلاق زنادقتهم وكذبهم»[3].

وكذلك لم يرد أي خبر صحيح في تسخير النور والظلمة له، أو السحاب على الصورة التي يذكرها البعض، ولا لقاؤه بالملائكة، وكذلك خبر عين الحياة[4]، وجبل قاف!!.

وبقية الأخبار تبقى ظنية.

وقد رأيت الخلاف في مدته، وعندما ذكر بعض أهل الكتاب أنه مكث ألفاً وستمائة سنة.. قال ابن كثير: وفي كل هذه المدة نظر والله أعلم[5]. واستغرب أيضاً عندما قيل إنه مات وعمره ثلاثة آلاف سنة[6]. وعندما ذكر ابن عساكر أنه قد بلغه من جهة أخرى أن ذا القرنين عاش ستاً وثلاثين سنة، وقيل اثنتان وثلاثين سنة، وكان بعد داود بسبعمائة سنة وأربعين سنة، وكان بعد آدم بخمسة آلاف ومائة وإحدى وثماني سنوات وكان ملكه ست عشرة سنة؛ اعترض عليه ابن كثير بقوله: وهذا الذي ذكره إنما ينطبق على اسكندر الثاني لا الأول[7]!.

---

(١) سورة النمل، الآية ٢٣.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٨٦.

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٨٧.

(٤) انظر التحقيق في هذا الموضوع كتاب (الخضر عليه السلام) للمؤلف. ص ١٩٣ - ١٩٤ ط ١.

(٥) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٠٧، وروح البيان جـ ٢ ص ٥١٢.

(٦) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٠٩.

(٧) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٠٩.

والقول بأنه هو باني سمرقند غير متفق عليه، فقد زعم بعضهم أن الذي بنى سمرقند هو سمر ذو الجناح بن العطاف من ملوك قحطان وحمير. والأصح أن بانيها الاسكندر، لأن شمر كان قائد جيش تبع ذي كرب ولم يكن ملكاً مستبداً[1]. . .

ونذكر أن هذه الأخبار ليست صافية ولا هي مسندة تماماً إلى ذي القرنين، فلربما سمع بعضهم أخباراً عن الاسكندر اليوناني وبعض ملوك حمير، وظن أن المقصود بهما ذو القرنين المذكور في القرآن!.

ونضرب مثالاً لذلك، قصة تعزية ذي القرنين لأمه كما مرّ بنا، إذ إن هناك رواية شبيهة بها عن الاسكندر المقدوني. فقد ذكر أنه كتب إلى أمه قبل وفاته بقليل: إذا وصل إليك كتابي هذا فاجمعي أهل بلدك وأعدي لهم طعاماً ووكلي بالأبواب من يمنع من أصابته مصيبة في أم أو أب أو أخ أو أخت أو ولد. ففعلت فلم يدخل إليها أحد، فعلمت أن الاسكندر عزاها في نفسه[2]!.

محاولـة يـائسـة:

وبالمقابل إذا نظرنا إلى دائرة المعارف الإسلامية ـ التي هي من تأليف المستشرقين ـ فإننا نرى إلحاحاً شديداً في رد هذه القصة وغيرها من القصص القرآني إلى خرافات وأساطير شعبية قديمة جداً. . وكأنها هي المصدر. . والقرآن إنما يستخدمه!!.

ولقد لمحت من وراء هذا الإلحاح والتعب الشديدين ـ من هؤلاء المستشرقين ـ أنهم يبذلون أقصى جهودهم في تشـويه الحقـائق، وجعل كتاباتهم وتحقيقاتهم في زي النقد العلمي والدراسة الموضوعية. . !.

لكنني أهدىء من ثورة هؤلاء وغضبهم على القرآن لأقول لهم ولأمثالهم ببرود: لقد حاول كثير من أمثالكم تبديل وتشويه حقائق الإسلام، لكن أعمالهم ذهبت أدراج الرياح، وبقي القرآن شامخاً، نقياً في عليائه.

---

(١) نخبة الدهر ص ٢٢٢.

(٢) المستطرف في كل فن مستظرف تأليف شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي المحلي ـ جـ٢ ص ٣٠٤. دار إحياء التراث العربي (الطبعة الأخيرة).

إن هذا كلام الله ونوره، وليس في مقدور أحد أن يطفىء هذا النور الرباني . . .

يقول مؤلفو الدائرة: يمكن تتبع القصة القرآنية وردها إلى مصادر رئيسية ثلاثة هي: ملحمة جلجاميش[1]، وقصة الاسكندر، والأسطورة

(١) في عام ١٨٧٢ أعلن الباحث الانكليزي جورج سميث أنه قد توصل لحل رموز أحد ألواح مكتبة الملك الآشوري: «آشور بانيبال» في نينوى الذي حكم في القرن السابع قبل الميلاد. وأن هذا اللوح يحتوي على نص للطوفان. فتتابعت البعثات التنقيبية على المنطقة لاكتشاف المزيد إلى أن تم العثور على الألواح الاثني عشر التي تشكل ملحمة جلجامش التي تأخذ قصة الطوفان معظم اللوح الحادي عشر منها. وقد أقحمت أسطورة الطوفان على سياق الملحمة، ولا علاقة لها بمجريات الحوادث مما يدل على أنها في الأصل أسطورة منفصلة جرى تداولها بمعزل عن الملحمة إغناء للنص وتنويعاً في السرد. فـ«جلجاميش» البطل يفقد صديقه القديم «انكيدو» الذي رافقه في غزواته ومغامراته ولهوه فيحزن لفقده، ويحاول عبثاً إعادة الحياة له، فيهيم على وجهه في البراري والقفار باحثاً عن سر الخلود راغباً في إكسير للحياة يدفع عنه قدر الإنسان الفاني. فهو رغم كونه «نصف إله»! ورغم أن أمه إحدى «الآلهات» الخالدات! فإن نسبه البشري يشده إلى القدر المشترك لبني الإنسان. وبعد لأي، قصد جلجاميش إلى «أوتو بايشتيم» الإنسان الذي منت عليه «الآلهة» بالحياة السرمدية! ليسأله عن سر الخلود ويصل إليه بعد أهوال ومصاعب ويسأله عن سبيل الخلود، فيقص عليه «أوتون بشتيم» كيف حصل على نعمة الحياة الأبدية بحادث فريد لن يتكرر، وهو الطوفان الكبير الذي غمر العالم منذ أزمان بعيدة. انظر هذا وأساطير الطوفان في (مغامرة العقل الأولى ـ دراسة في الأسطورة ـ سوريا ـ أرض الرافدين) تأليف فراس سواح ص ٢١١ ـ ٢١٢ ط ١٩٧٦ م دمشق. وانظر النص الكامل لملحمة جلجاميش ص ٢١٢ ـ ٢٢٣. وليس في النص ما يدل على أنه ذهب إلى البحار، أو بنى السد، أو حارب، أو فتح وملك العالم. . . الخ. ولنفرض أن قصة ما تشابهت مع قصة أخرى في نقطة أو نقطتين، فهل يعني هذا أنها هي؟ أَوَهكذا يكون التحليل العلمي والدراسة الموضوعية؟! إن الأمر كله هنا يتعلق بالطوفان. فبعد إرساء السفينة، يصعدها (انليل) ـ سيد العاصفة ـ ليقول لـ (أوتونابشتيم) ـ وهو من سأله جلجاميش عن سر خلوده وزوجته:

«ما كنت يا أوتو بشتيم إلا بشراً فانياً
ولكنك وزوجك منذ الآن ستغدوان مثلنا (خالدين)
وفي القاصي البعيد عند فم الأنهار ستعيشان. .»
ثم أخذوني وأسكنوني في البعيد حيث فم الأنهار!

أما البحث عن عين الحياة أو إكسيرها، فما أكثر القصص والأساطير التي ترد فيها ذلك، ولن يكون هذا نقطة تحليلية معتبرة، ومن ثم متفقاً عليها. كما أذكر أن قصة البحث عن عين الحياة لم تثبت في نص إسلامي قط!.

اليهودية الخاصة بإيليا والرباني يوشع بن ليفي[1].

وإذا تكلموا عن (اسكندرنامه) ـ قصة الاسكندر ـ قالوا: تدل سورة الكهف على أن العرب كانوا يعرفون قصة الاسكندر (المنسوبة إلى كلستنيس) منذ زمن بعيد، فإن الآية ٥٩ وما بعدها من سورة الكهف تحكي قصة موسى ما ذكر فيها عن موسى مأخوذة في الواقع عن قصة الاسكندر. . .

ويرى (نلدكه) أنه يجب البحث عن أصل هذه القصة كما عرفها السريان والعرب في القصص الفهلوي الساذج، ويرى فرانكل أن مؤلف هذه القصص ربما كان مسيحياً من السوريين وأنه كتبها بالفارسية[2]. . !!

أي أن القرآن لا يكون بحال من الأحوال هو المصدر الصحيح لهذه القصص!.

والتناقض العجيب هو قولهم إن العرب كانوا على علم بهذه القصة!!.

إذاً فلماذا علم اليهودُ العربَ امتحان محمد ﷺ بهذا السؤال المعجز؟!!.

وقد علق الأستاذ مهدي علام على أحابيلهم هذه تعليقاً جيداً، قال: ليس ثمة ما يستدعي التجني على القرآن بأنه يستمد ما فيه من مصادر سابقة، سواء أكانت سامية أم غير سامية. فإذا كان فيه ما يشبه ما في التوراة أو الإنجيل، قيل: إن محمداً نقله عنهما لسابق علمه بهما! وإذا جاء فيه ما ليس له فيهما ذكر، قيل: إنه قد استمده من قصص أخرى لم يكن للساميين علم بها! وإذا لم يمكن العثور على أصل يعزى إليه النقل عنه قيل إنه نقل من مصادر، «لم تتخذ سبيلها إلى الأدب على الإطلاق»! كأنه لا بد أن يكون القرآن ناقلاً عن غيره في أية حالة! وكأنما كان محمد رجلاً مثقفاً واسع

---

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية جـ ٨ ص ٣٤٧ أصدرها بالألمانية والانكليزية والفرنسية: فنسك هوتسما ـ ارنولد ـ هفنج ـ بروفنسال ـ باسيه ـ هارتمان ـ جب. ترجمة أحمد الشنتناوي وإبراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة «اسكندرنامه» من ص ١٣٠.

الاطلاع على كل ما سبقه من القصص والتواريخ! وكل ما يمكن أن يقال هنا هو أن بعض التفصيلات التي طمسها تقادم الدهر في تلك القصة قد ذكرها القرآن؛ فإن لم يكن في ذلك دليل على شيء فإنه دليل على أنه من وحي الله العليم بكل شيء[1].

* * *

بعد هذا كله نرى أن كثيراً من الكتب التي تبحث في التاريخ القديم، قد اشتملت على موضوعات وروايات إسرائيلية مكذوبة؛ يظنها من يغتر بها أنها من الروايات الإسلامية! وليست منها في شيء، والأخباريون والمؤرخون، من شأنهم التساهل في إيراد الأخبار التاريخية، ولا يدققون تدقيق المحدثين، وبخاصة فيما يتعلق ببدء الخلق، وأسرار الوجود؛ وأحوال الأمم السابقة، والملاحم، والفتن المنتظرة. يقول ابن جرير، في مقدمة تاريخه: ... فما كان في كتابي هذا، مما يستنكره قارئه أو سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت ذلك من قبلنا، وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا، وإنما أدينا ذلك على نحو ما أُدي إلينا.

وذكر الإمام أحمد من الكتب التي لا أصل لها: الملاحم والمغازي.

وقد نقد المحدثون من تصدوا للتاريخ والأخبار، وبينوا منزلتهم في الحديث[2].

النتيجة:

نصل إلى أن الإسرائيليات دخلت عامة كتبنا من تاريخ قديم وتفسير، بقصد التزود من الثقافة التاريخية القديمة، التي لم ترد في القرآن والسنة.

---

(١) انظر الهامش في دائرة المعارف الإسلامية جـ ٨ ص ٣٤٩.

(٢) انظر باختصار الإسرائيليات لنعناعة ص ٢٠٩. وانظر تأثير هذه الإسرائيليات في المجال التاريخي إلى كتاب الإسرائيليات في الغزو الفكري للدكتورة عائشة عبد الرحمن ص ٢٥ ـ ٤٩ ط ١٩٧٥ م.

لكن معظم هذه الأخبار كانت مشوهة وغريبة. . فمنها ما هو موافق لما في شريعتنا، ومنها ما هو مخالف، ومنها ما هو مسكوت عنه.

أما حكمها من حيث القبول والرد، فواضح أنها مقبولة إذا صدقها الشارع ومردودة إن كذبها، ومسكوت عنها إن كان الشارع ساكتاً. فلا نصدق ولا نكذب. .

وننتهي إلى القول إن الروايات الإسرائيلية المتناثرة في تاريخنا، أو تفاسيرنا، ليست من الروايات الإسلامية في شيء، بل إنها كانت تورد للعبرة والتذكرة. . .

* * *

فإذا كانت هذه الروايات مرجوحة بين الصدق والكذب، فإن الأخبار لا تثبت بهذه الحال. . . لقد وقع فيها الظن والشك.

ولا نستطيع أن نلبس أخباراً ظنية على علم قرآني عظيم. . هو ذو القرنين. . الذي آتاه الله من كل شيء سبباً!.

الفصل الثاني

الإسكندر المقدوني



مقدمــة:

ما كنت بحاجة إلى هذا الاستطراد الطويل، الذي سأتحدث فيه عن الاسكندر المقدوني وعقيدته، والخلاف في الكتابة عنه بين مؤرخينا ومؤرخي الغرب، لولا أني رأيت انحرافاً واضحاً في فهم الخط الفاصل بينه وبين ذي القرنين، رغم وضوحه وجلائه... والأدهى من هذا، إصرار بعض علمائنا الأجلاء على أن ذا القرنين هو الاسكندر المقدوني دون غيره، ويأخذك العجب إذا قلتُ بأن الجمهور على أنه هو!!.

وأدهى من كل هذا ما ذهب إليه بعض الباحثين المعاصرين - من المسلمين - من جرِّ ذي القرنين إلى حلبة الشك، وعدم بيان إيمانه، حتى يمكن القول بأنه الاسكندر!.

والأمر في هذا الموضوع ينقسم إلى عدة آراء:

١ - قسم يطلق اسم الاسكندر على ذي القرنين، ولا يعني به الاسكندر المقدوني.

٢ - وقسم يرى أن هناك فرقاً بين الاسكندر الرومي والاسكندر اليوناني، وأن الأول قديم، والآخر كان قبل عيسى عليه السلام، بثلاثة قرون.

٣ - وقسم يرى أنه الاسكندر المقدوني، وهؤلاء فريقان:

أ ـ فريق يرى أن الاسكندر المقدوني رجل مؤمن، وأن عقيدته لا تخالف الدين فهو ذو القرنين.

ب ـ فريق آخر يرى أن ذا القرنين لم يصرح بإيمانه في القرآن، فهو الاسكندر المقدوني على ما كتب عنه الغربيون.. وهناك أقوال أخرى مختلفة.

وإليك القصة.. والخلافات من بدايتها..

ويأتيك التذييل والتحقيق بعدها، إن شاء الله.

أقوال العلماء والمؤرخين:

يورد الإمام الآلوسي بعض هذه الأقوال، فبعد أن ذكر أنه الاسكندر المقدوني وناقش هذا القول ذكر أقوالاً أخرى منها أنه الاسكندر الرومي، وهو متقدم على اليوناني بكثير ويقال له ذو القرنين الأكبر واسمه قيل: مرزبان بن مردبة، من ولد يافث بن نوح عليه السلام وكان أسود[١]. وقال إسحق بن بشر عن سعيد بن بشير عن قتادة قال: اسكندر هو ذو القرنين وأبوه أول القياصرة. وكان من ولد سام بن نوح عليه السلام[٢]. وقال محمد بن إسحق: حدثني من يسوق الأحاديث عن الأعاجم فيما توارثوا من علمه أن ذا القرنين كان رجلاً من أهل مصر اسمه مرزبان بن مرذبة[٣] اليوناني من ولد يونان بن يافث ابن نوح[٤]؛ وقيل اسمه عبد الله بن الضحاك، وقيل مصعب بن عبد الله بن قينان بن منصور بن عبد الله بن الأزد بن عون بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يعرب بن قحطان. وجعل بعضهم هذا الخلاف في اسم ذي القرنين اليوناني بعد أن نقل القول بأن اسمه الاسكندر بن الفيلقوس... وذهب بعض المحققين إلى أن الاسكندر اليوناني والاسكندر الرومي كلاهما يطلقان على غالب دارا الأصغر. والتاريخ المشهور بالتاريخ الرومي ويسمى أيضاً السرياني

---

(١) روح المعاني للآلوسي ج ٢، ص ٢٦.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ٢، ص ١٠٥.

(٣) مردبة بدال مهملة وقيل بزاي، انظر فتح الباري ج ٦، ص ٢٧٢.

(٤) السيرة النبوية القسم الأول، ج ١، ص ٣٠٧.

والعجمي ينسب إليه في المشهور. . . وبعض المحققين ينسبه إلى (سولونس ابن الطبوخوس) الذي أمر ببناء أنطاكية وهو الذي صححه ابن أبي الشكر وتوقف بعضهم (كالغ بك) عن نسبته إلى أحدهما لتعارض الأدلة.

ونفى بعضهم أن يكون في الزمن المتقدم بين الملوك اسكندران، وزعم أنه ليس هناك إلا الاسكندر الذي غلب دارا واستولى على ملك فارس. وقال: إن ذا القرنين المذكور في القرآن العظيم يحتمل أن يكون هو ويحتمل أن يكون غيره، والذي عليه الكثير أن المسمى بالاسكندر بين الملوك السالفة اثنان، بينهما نحو ألفي سنة، وأن أولهما هو المراد بذي القرنين، ويسميه بعضهم الرومي وبعضهم اليوناني وهو الذي عمر دهراً طويلاً. فقيل عمر ألفاً وستمائة سنة، وقيل ألفي سنة، وقيل ثلاثة آلاف سنة، ولا يصح في ذلك شيء[١].

وقد تكررت آراء من يرى أنه الاسكندر المقدوني في عدة مراجع. . منها التنبيه والإشراف للمسعودي[٢]، والمواعظ والاعتبار للمقريزي[٣]، وقصص الأنبياء للثعلبي[٤]، ولسان العرب لابن منظور[٥]، ونزهة المشتاق للإدريسي[٦]، والأخبار الطوال للدينوري[٧]، والقاموس المحيط للفيروزأبادي، والنهاية لابن الأثير الجزري، وتفسير القاسمي[٨]، وغيرها من

---

(١) روح المعاني ج ١٦، ص ٢٧.

(٢) ص ١٠٠ للعلامة المؤرخ الجغرافي أبي الحسن علي بن الحسين المسعودي المتوفى سنة (٣٤٥) هـ ط ١٣٥٧ هـ ١٩٣٨ م.

(٣) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للعلامة تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد المعروف بالمقريزي جـ ١ ص ١٥٣ المطبعة الأميرية سنة ١٢٧٠ هـ.

(٤) ص ٣٢٢.

(٥) لسان العرب للإمام العلامة أبي جمال محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري جـ ١٣ ص ٣٣٣ دار صادر بيروت.

(٦) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني ص ١٠٣ طبعة روما.

(٧) ص ٣٧ و٣٩.

(٨) جـ ١١ ص ٤٠٩٩.

المراجع التاريخية التي أشرنا إليها . .

قلنا إن الجمهور يرى أن ذا القرنين هو الاسكندر المقدوني، لكن منهم، بل أكثرهم يذكر نسبته خطأ، وقد يخلط أحياناً بين هذا الاسكندر وغيره[1]! ونذكر هنا أقوال بعض العلماء والمؤرخين:

إذا تصفحنا كلام العلامة الجغرافي المسعودي، نرى أنه يسوق وقائع حدثت لذي القرنين، من بناء السد على يأجوج ومأجوج وغير ذلك، ثم يبين أنه الاسكندر بن فيلبس، وحسب تأريخه لبعض الوقائع، فإن ملك الاسكندر كان قبل هجرة الرسول ﷺ بـ (٩٢٢) سنة[2]. وواضح أنه يقصد المقدوني[3].

---

(١) هناك الاسكندر الأفروديسي، نسبة إلى أفروديسيا بآسيا الصغرى، ولد فيها وعاش في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث للميلاد، فيلسوف يوناني مشائي تتلمذ في الفلسفة على أرسطوقليس المعلم الأرسطاطاليسي المشهور. . . يعد أكبر شراح أرسطو، ولهذا لقبه خلفاؤه بأرسطو الثاني. انظر باختصار الموسوعة العربية الميسرة ص ١٥١ ط ٢ عام ١٩٧٢ م.
- وهناك الاسكندر الأكبر (اسكندر الثالث) ٣٥٦ - ٣٢٣ ق. م. ملك مقدونيا ابن فيليب الثاني من أوليمبياس تتلمذ على أرسطو، وهو الشخصية التي نحن بصددها.
- وهناك اسكندر بالاس: وهو من أصل وضيع ادعى أنه ابن أنطيوفوس الرابع وارتقى عرش سوريا بعد هزيمة «ديمتريوس الأول» ومقتله، تزوج كليوباترة، ابنة بطليموس السادس ثم قضي عليه. . يعتبر عهده (١٥٠ - ١٤٥) ق. م. بداية فترة الحروب الأهلية التي سارعت بانحلال امبراطورية السلوقيين. انظر الموسوعة العربية الميسرة ص ١٥٢.
- وهناك اسكندر الرابع (٣٢٣ - ٣١٠) ق. م. أنجبته روكسانا من اسكندر الأكبر بعد وفاته بثلاثة أشهر تقريباً. خلف أباه على عرش الامبراطورية المقدونية بالاشتراك مع عمه، وخلع عليهما في مصر ألقاب الفراعنة التقليدية. حاول قواد أبيه استغلاله في تطاحنهم لتحقيق أطماعهم، قتله (كاساندروس) ليخلو له الجو في مقدونيا. انظر الموسوعة ص ١٥٢.
- وهناك اسكندر زابنياس: تاجر اسكندري لكنه ادعى أنه ابن اسكندر بالاس. قتل (١٢٣) ق. م. الموسوعة ص ١٥٢.
- وهناك اسكندر سيفروس، امبراطور روماني (٢٢٢ - ٢٣٥) م. ولد في سوريا، قام بحملة ناجحة ضد (أردشير) الأول ملك الفرس. . قتل. انظر الموسوعة ص ١٥٢. وربما كانت تلك الأعوام مدة ملكه.

(٢) انظر كتاب التنبيه والإشراف للعلامة المسعودي، الصفحات: ٢٤، ٨٤، ٩٨.

(٣) التنبيه والإشراف ص ١٠٠.

وفي كتاب آخر له ذكر قولاً، وهو أن بعض التبابعة غزا مدينة رومية، وأسكنها خلقاً من اليمن، وأن ذا القرنين الذي هو الاسكندر من أولئك العرب المتخلفين بها، والله أعلم[1].

ونقل بعضهم قولاً آخر وهو أنه اسكندر بن دارب ملك اصطخر وبابل والمدائن بالمشرق[2]. .

وذكر الإدريسي أن ذا القرنين وصل إلى جزيرتي مسفهان وجزيرة لفوس (وتسمى الخالدات)[3]. ويقصد به الاسكندر.

وقال الإمام أبو حيان الأندلسي: ذو القرنين هو الاسكندر اليوناني، ذكره ابن إسحاق، وقال وهب: هو رومي.. قال: والمشهور أنه الاسكندر[4].

وذكر المؤرخ الكبير ابن الأثير الجزري أن الاسكندرية بناها ذو القرنين الاسكندر[5]، وفي ذكره لذي القرنين قال: هذا لقب الاسكندر الرومي، وقيل اليوناني، لقب به لأنه بلغ المشرق والمغرب، وقيل غير ذلك[6].

وذهب الفيروزأبادي إلى أنه الاسكندر الرومي[7].

ونرى خطأً وخلطاً في ذكر هذا الاسكندر، فيفهم من كلام بعض المؤرخين أن الاسكندر الرومي هو القديم الذي كان معاصراً لسيدنا إبراهيم عليه السلام، ويرى البعض الآخر غير ذلك.

---

(١) كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي جـ ١ ص ٣١٨ دار الأندلس.
(٢) بدائع الزهور في وقائع الدهور تأليف الشيخ محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ص ١٣٧.
(٣) نزهة المشتاق، لعبد الله بن إدريس الحمودي الحسني ص ١٠٣.
(٤) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي جـ ٦ ص ١٥٨.
(٥) اللباب في تهذيب الأنساب للمؤرخ عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن الأثير (٥٥٥ - ٦٣٠) جـ ١ ص ٤٦ طبعة ١٣٥٧ هـ. ومن الثابت تاريخياً أن الذي بناها هو المقدوني.
(٦) اللباب في تهذيب الأنساب جـ ١ ص ٤٤٥.
(٧) انظر القاموس المحيط مادة (القرن).

فيقول الشيخ الأيجي: المشهور أنه الاسكندر الرومي. وما يعلم من تاريخ الأزرقي وغيره أنه غيره، فهذا الرومي كان قبل المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة، ووزيره أرسطاطاليس الفيلسوف. وأما هذا الاسكندر فقد كان في زمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وطاف بالبيت معه ووزيره الخضر[١].

وفي تفسير أبي السعود أنه الاسكندر بن فيلفوس اليوناني[٢].

وذهب إلى هذا الإمام الغرناطي أيضاً[٣].

وقال النيسابوري أيضاً: وأصح الأقوال أن ذا القرنين هو الاسكندر بن فيلقوس الرومي الذي ملك الدنيا بأسرها[٤].

وذكر الحافظ ابن عساكر نسبه فقال: هو اسكندر بن فيلبس بن مصريم ابن هرمس بن ميطون بن رومي بن لنطى بن يونان بن يافث بن يونة بن شرخون بن رومة بن شرفط بن توفيل بن رومي بن الأصفر بن يقز بن العيص ابن إسحق بن إبراهيم الخليل[٥]!.

ويورد ياقوت الحموي أقوال آخرين أن الاسكندر الأول (ذا القرنين الرومي) هو الذي جال الأرض وبلغ الظلمات، وهو صاحب موسى والخضر عليهما السلام، وهو الذي بنى السد، وهو الذي لما بلغ إلى موضع لا ينفذه أحد، صوّر فرساً من نحاس وعليه فارس من نحاس ممسك يسرى يديه على عنان الفرس وقد مدَّ يمناه، وفيها مكتوب: ليس ورائي مذهب. وزعموا أن بينه

---

(١) انظر جامع البيان في تفسير القرآن للشيخ السيد معين الدين محمد بن عبد الرحمن الحسني الحسيني الأيجي الشافعي (٨٣٢ - ٨٩٤) جـ ١ ص ٤٢٥.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لقاضي القضاة الإمام أبي السعود محمد بن محمد العماد المتوفى سنة (٩٥١) هـ. جـ ٥ ص ٢٣٩ الناشر دار المصحف بالقاهرة.

(٣) انظر كتاب التسهيل لعلوم التنزيل تأليف الإمام الحافظ أبي القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي جـ ٢ ص ٣٥٤. تحقيق محمد عبد المنعم اليونسي وإبراهيم عطوة عوض. دار الكتب الحديثة.

(٤) غرائب القرآن ورغائب الفرقان تأليف نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابوري المتوفى سنة ٧٢٨ هـ جـ ١٦ ص ٢١ ط ١ عام ١٣٨٥ هـ.

(٥) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٠٥.

وبين الاسكندر الأخير، صاحب دارا، المستولي على أرض فارس، وصاحب أرسطاطاليس الحكيم، الذي زعموا أنه عاش اثنين وثلاثين سنة، دهر طويل[1] . . .

وقال الإمام الثعلبي: قال أكثر أهل السير: هو الاسكندر بن فيلبش بن بطريوس بن هرمس بن هردوس بن منطون بن رومي بن لطين بن يونان بن يافث. ويقال: نسبه ينتهي إلى العيص بن إسحق بن إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام[2].

ومن العلماء المعاصرين الذين ذهبوا إلى هذا القول أيضاً، إبراهيم الأبياري في موسوعته[3]، وكذلك عبد الكريم الخطيب في تفسيره، إذ قال بوضوح:

ذو القرنين هو الاسكندر الأكبر، ملك مقدونيا، من بلاد اليونان.. والذي استطاع أن يضم بلاد اليونان كلها إلى ملكه الذي ورثه عن أبيه، ثم استطاع كذلك أن يوسع دائرة مملكته شرقاً وغرباً، حتى ضمّ إليه بفتوحاته معظم العالم المعمور الذي كان معروفاً في وقته[4]. . . أما محمد علي الصابوني، فقد حمَّل المفسرين تبعة هذا القول.. فأورد أنهم قالوا إنه الاسكندر اليوناني.. ولم يفعل شيئاً بعد هذا[5]!!.

ويذهب إلى هذا أيضاً، محمد فريد وجدي في دائرته[6]، وكذا في الموسوعة العربية الميسرة[7].

* * *

(1) معجم البلدان جـ ١ ص ١٨٤.

(2) انظر قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس تأليف أبي إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري المعروف بالثعلبي المتوفى سنة ٤٢٧ هـ ص ٣٢٢.

(3) انظر الموسوعة القرآنية الميسرة لإبراهيم الأبياري جـ ٣ ص ٢٦٥ طبعة ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م.

(4) انظر التفسير القرآني للقرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب جـ ٨ ص ٧٠٠ مطبعة السنة المحمدية ـ القاهرة.

(5) صفوة التفاسير جـ ٢ ص ٢٠٤ ط ٤ سنة ١٤٠٢ هـ. دار القرآن الكريم ـ بيروت.

(6) دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي جـ ١ ص ٣٢٢.

(7) الموسوعة ص ٨٤٧.

وحتى يتبين الأمر بشكل واضح، أرى لزاماً عليّ أن أكتب ولو بشكل موجز، عن حياة الإسكندر المقدوني، ولن أزيد أو أتوسع في هذا الفصل، فما كتب عنه معروف ومتوفر. .

ومع هذا فإن إيرادنا لبعض أخباره المتفرقة سيكون موازنة وتحقيقاً أكثر مما يكون سرداً لقصة حياته وحروبه. . ذلك أن المؤرخين المسلمين يختلفون عن المؤرخين الغرب في جوانب من سيرته، والسبب في هذا هو خلطهم بينه وبين ذي القرنين القديم، وإلصاقهم القصص والأساطير الشعبية بسيرته وفتوحاته. وهذا أمر كل شخصية مختلف فيها. .

وقد بادرت نفسي وأنا أكتب هذه الأبحاث، بسؤال، طالما شغل نفسي وأشغلت به غيري. . ألا وهو: ممن نأخذ أخبار غير المسلمين؟ والقديمة منها خاصة؟ من مصادرنا أم من مصادرهم؟.

وعندما كنت أناقش مع البعض هذا الأمر كانت تأتيني أجوبة مختلفة، وهو سؤال حري بكتابة موضوع كامل عنه، ولا بد أن يكون الباحث أو الناقد مطلعاً على التاريخين، الإسلامي والغربي، ويقارن بين الوقائع والأحداث التي وردت فيهما بنزاهة وموضوعية. وسترى ملاحظات عامة على هذا السؤال وآراء البعض في آخر هذا البحث إن شاء الله تعالى.

إلا أن الخلط بين تاريخه وبين ما يروى من تاريخ ذي القرنين القديم ربما ليس عند كل المؤرخين المسلمين، فإن الطبري قد تحدث عن تاريخه مطولاً، دون أن يكتب مرة أنه ذو القرنين، اللهم إلا عنوان البحث، ولا أدري هل هذا العنوان من كتابة يده أم من ترتيب من أتى بعده. . لكنه لم ينج من إدخال بعض الأخبار في بعضها الآخر، وهي قليلة كما سترى بعد قليل.

وقد رأيت أن أنقل سيرته من مصادر مختلفة، معظمها أجنبية، ثم أذيل ذلك بمقارنة يسيرة، أو إيرادات عامة، سجل عنه بعض الكتاب المسلمين عند اختلافهم فيه ليكون لنا هذا عوناً في الوصول إلى الهدف الذي كتبنا من أجله كل هذا البحث، ألا وهو: هل حقاً إن الاسكندر المقدوني هو ذو القرنين العظيم؟ كما قال بذلك الكثير من العلماء والمؤرخين؟.

الاسكنــدر المقـدونــي

بداية حياته: هو ابن فيليب، ولد بمدينة (بِلّا) سنة (٣٥٦) ق. م. وقد ظهرت مخائل الفتوة الملكية فيه من صغره، إذ روي عنه أنه قال وهو صغير: «إن أبي لم يترك إليّ بلاداً أفتتحها» حين سمع بالانتصارات الباهرة المتوالية التي كانت من حظ أبيه، ولما قيل له وهو صغير: ألا تدخل إلى المسابقة لنيل الجائزة في الألاعيب الأولمبية؟ فأجابهم: نعم، لو وجدت هنالك ملوكاً من المناظرين.

أما أخلاقه فكان هيناً ليناً، حاذقاً، جريئاً، مقداماً. وكانت ألاعيبه التي يفضلها: الرياضات الشاقة للصيد والقنص.

وعندما أعجب والده ببطولاته مرة، ضمه إلى صدره، وقال له: يا بني اذهب فابحث لك عن ملك أوسع، فإن مقدونيا لا تسعك!.

ولما بلغ السنة الثالثة عشرة، وأتم دراسته الأولية، أسلمه والده إلى الفيلسوف أرسطو ليربيه. وكتب إليه هذا الخطاب الرقيق وهو: «من فيليب إلى أرسطو. سلام عليك، أخبرك أن قد ولد لي غلام. فأشكر الآلهة على أن أوجدوه في زمان أرسطو أكثر مما أشكرهم على أن منحونيه».

فقرأ الاسكندر على أستاذه كل المعارف الإنسانية المعروفة إذ ذاك بين شعر وسياسة وأخلاق وفصاحة وطبيعة وطب. الخ[١].

الاسكندر الملك: ولما بلغ عمره عشرين سنة مات أبوه، فخلفه على مقدونيا[٢]، سنة (٣٣٦) ق. م. فلـم يكد ينتشر خبر موت أبيه حتى حاولت

---

(١) من أخباره مع أستاذه، أن أستاذه سأله وهو في المكتب: إن أفضي إليك هذا الأمر يوماً أين تضعني؟ قال: حيث تضعك طاعتك ذلك الوقت. فهذا من حكمته. وقيل له: إنك تعظم مؤدبك أكثر من تعظيمك والدك؟ قال: لأن أبي كان سبب حياتي الفانية، ومؤدبي سبب حياتي الباقية. انظر الملل والنحل جـ٣ ص ٦٤ لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني - الطبعة الأولى ١٣٢٠ هـ المطبعة الأدبية.

(٢) هي قطر من أوربا، واقع في شمال البلاد اليونانية، مساحته ٩٤٠٠٠ كم^2.. اشتهرت مقدونيا في زمن الاسكندر الأكبر، ومدت نفوذها على جميع بلاد اليونان وممالك شاسعة من آسيا ثم =

القبائل المتوحشة التي دوخها أبوه، والمدائن التي افتتحها، التخلص من نير مقدونيا، وكان الخطيب (ديموستين) قد أثار على الاسكندر المدائن اليونانية بخطبه الساحرة، فأسرع الاسكندر سرعة الصاعقة إلى كبح جماح التراسيين والجتيين والتريباليين، وعاهد بعض القبائل المتوحشة من بينهم السليتيين النازلين على شواطىء بحر الأدرياتيك، الذين ظنهم قد خافوا بطشه، فأجابوه بشمم أنهم لا يخشون إلا سقوط السماء على الأرض فقط، ثم أتمَّ بعد ذلك إخضاع بلاد اليونان الثائرة، وفتح (طيبة) بعد قتال عنيف، وهدمها هدماً، وباع من أهلها ثلاثين ألفاً، وذبح ستة آلاف منهم، ولم يبق إلا على أسرة الشاعر (بيندار). فلما سمعت مدائن اليونان بهذه الفاجعة، خشيت أن تحل بها مثلها، فسلمت إليه أثينا، وطلبت عفوه، وتبعه سواها. وأجمع اليونان على تعيين الاسكندر قائداً لهم سنة (٣٣٥) ق. م.

لما ترك الاسكندر مقدونيا أناب عنه (أنتيباتر) وقسم أملاكه على أصحابه... وسافر لفتح أعظم مملكة في العالم، وهي مملكة الفرس سنة (٣٣٤) وسنه ٢٢ سنة... وكان قد علم بصفاء فكره مبلغ ضعف تلك الدولة الضخمة التي يحاول ملاشاتها من الوجود، فقد كان الفساد السياسي والاجتماعي قد بلغا منها مبلغاً فظيعاً، استأهلت معهما أن تحل بها قارعة تثوب بها إلى الرشد. سنة الله في كل أمة، ولن تجد لسنة الله تبديلاً[1].

فتوحات الاسكندر:

يضرب بالاسكندر المثل في تطوافه، فهو كالفلك الدوار، أو الكوكب السيار. يقول أبو الفداء:

أبالاسكندر الملك اقتديتم فلا تضعون في أرض وسادا

= صارت إيالة رومانية سنة (١٦٨) ثم فتحها العثمانيون في القرن الخامس عشر. ولما حدثت الحرب البلقانية سنة ١٩١٣ التي اتحدت فيها بلغاريا وصربيا واليونان والجبل الأسود على الدولة العثمانية، خرج هذا القطر من حكم هذه الدولة، وانقسم بين بلغاريا واليونان وصربيا. ثم لما حدثت الحرب العامة سنة ١٩١٤ اضطربت مقدونيا، فاحتل الحلفاء (سالونيك) وهي من أملاك اليونان. انظر دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي جـ ٩ ص ٣٠٩.

(١) مقاطع من دائرة معارف القرن العشرين جـ ١ ص ٣١٢ - ٣١٤.

لعلك يا جليد القلب ثانٍ   لأولِ ماسحٍ مسح البلادا[1]

فتح الاسكندر بحكمته وشجاعته الفائقتين بلدان الدنيا[2].. وما كان يمر بمدينة إلا وجد له عزم فيها وإن لاقى في ذلك صعوبات طبيعية، أو استعصاءات عسكرية.. ومن المدن التي مر بها أثناء سفره للفتوحات: الهلسبون، ورأس سيجية، وممر (الغرانيوم) الذي منه فتح أبواب آسيا الصغرى وامتلك سواحلها.. ثم تقدم لفتح (الكاري) وليدبا وأيونيا وليسيا وبامغيليا ثم بيزيديا وفريجيا.. ثم ذهب ليفتح (بافلاغونيا) وكابادوس، فاجتاز نهر التوروس، ودخل سيلسيا وافتتح مدينة (تارس) حيث مرض هناك فعالجه طبيبه فيليب حتى شفي. ثم قابل دارا نفسه وقهره في سهول السوسي سنة (٣٣٣) ق. م... وهاجم سورية وفنسيا ويهوذا فأخضع جميع المدائن بسهولة إلا مدينة (صور) فإنها قاومت سبعة أشهر، ومدينة (غزة) فلم يصادف فيها كبير مقاومة، فوضع أساس مدينة الاسكندرية في بقعة مناسبة لما أنشئت لأجله، فصارت نقطة اتصال بين قارات العالم الثلاث وورثت مدينة صور في تجارتها.

فتمّ للاسكندر امتلاك سائر سواحل الفرس، بعد أن نظم حكومة البلاد التي افتتحها اجتاز (سيليزيرزيا) وعدا نهر الفرات إلى تابساك متجنباً في سيره الصحارى العربية وسار قاصداً جزيرة (ابن عمرو)[3] ودخل مدينة بابل و(سوس) و(برسيبوليس) وتابع طريقه في (ميديا) و(باكتريان)..

ثم تتبع القبائل المتوحشة النازلة على سواحل بحر قزوين فأخضعها، ووصل إلى حيث يقيم (السيتيون) فيما وراء نهر (اكسبارت) وخلد وصوله إلى هنالك ببناء مدينة أخرى سماها الاسكندرية لا تزال قائمة باسم (كاندهار).

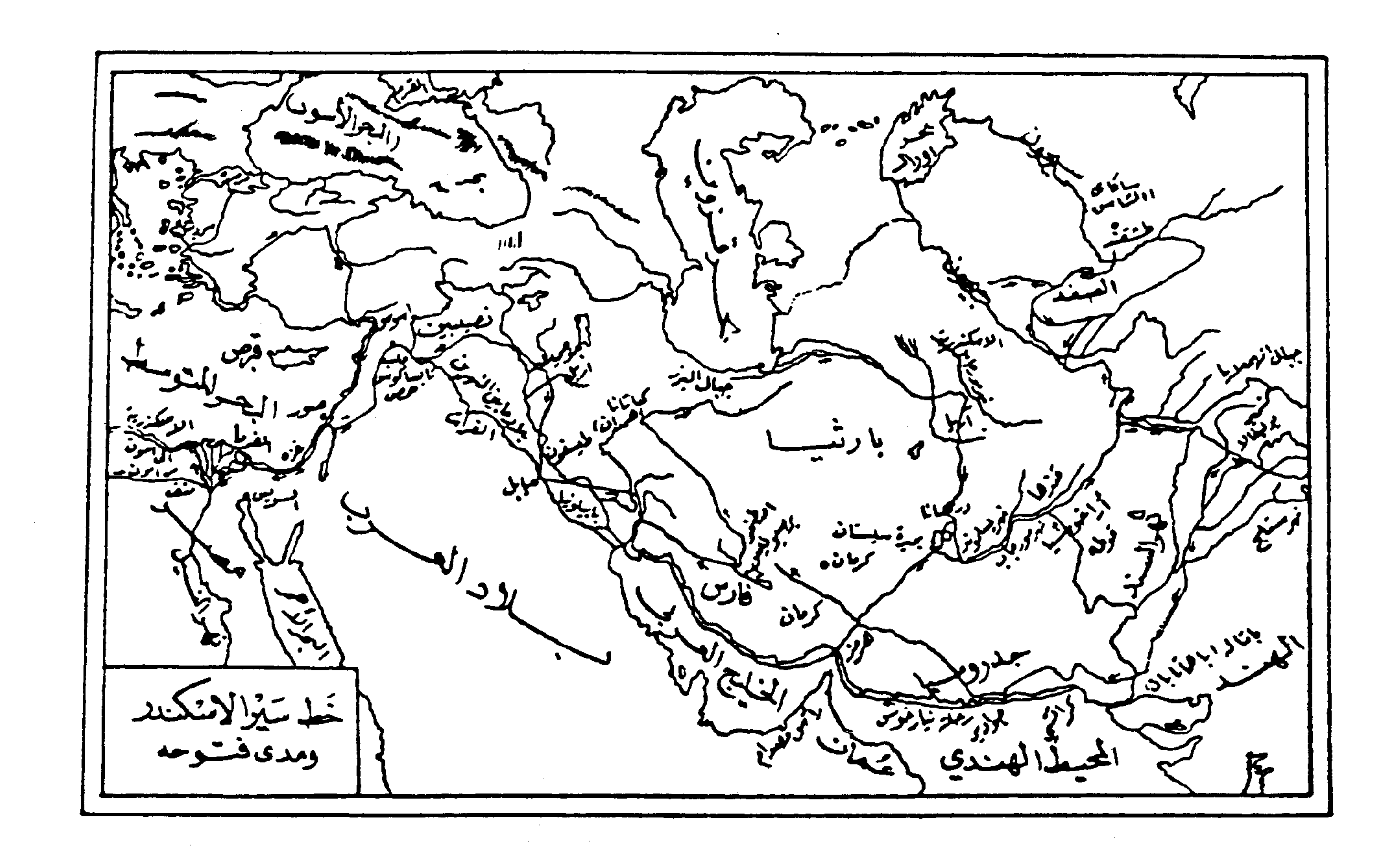
وأخذ بعد ذلك في تنظيم هذه المملكة العظيمة، مقيماً الحصون والقلاع في البلاد المشكوك في إخلاصها..

---

(١) انظر طبقات الشافعية الكبرى للسبكي جـ ٩ ص ٣٤٣ الطبعة الأولى.

(٢) هذا كلام مبالغ فيه، وقد يكون تعبيراً من عند (وجدي) الذي يرى أنه ذو القرنين.

(٣) المعروفة عندنا بجزيرة بوطان، تقع في بلاد تركيا، وبوطان قبيلة كردية مشهورة.


خط سير الاسكندر
ومدى فتوحه
البحر الأسود
قبرص
البحر المتوسط
نصيبين
بحر قزوين
بارثيا
فارس
كرمان
بلاد العرب
الخليج العربي
عمان
المحيط الهندي
جدروسيا
الصغد
بابل
السويس
الهند
السند

وفي سنة (٣٢٧) ق. م. عزم على فتح الهند، فكانت خطواته مصحوبة بالنصر، ولم يصادف مقاومة تذكر إلا على شواطىء (هيلاسب) حيث قابله الراجا الهندي (بوروس) وبعد قتال عنيف وقع الأمير الآسيوي في قبضته أسيراً، فأكرمه الاسكندر ورد إليه ملكه، وجعله معيناً له على حرب ملك هندي آخر خطير يدعى (تاكسيل) وبلغ نهر الهيفاز وأمر ببناء أسطول على نهر (هيداسب) ثم (الأندوس) حتى وصل إلى المحيط وهو في طريقه يقهر الأمم ويؤسس المدن ويبني المرافىء ويؤسس دوراً لصناعة السفن تاركاً في كل جهة أثراً من آثار فتوحاته الباهرة..

فلما وصل إلى المحيط أمر أسطوله باكتشاف سواحل الخليج (الفارسي) ورجع هو برّاً مع جيشه مخترقاً صحراء (جيدروزي) في وسط الأخطار والمعاطب وقلة الماء والغذاء.. ولما وصل إلى بابل سنة (٣٢٥) ق. م. وفد عليه فيها وفود الأمم، وأنمى فيه عاطفة الأثرة وحب التملك فعزم أن يبني أسطولاً مكوناً من ألف مركب ليفتح به بلاد العرب ويدور حول أفريقيا كلها ثم يعود إلى البحر الأبيض ويخضع لسلطانه مملكة (قرطاجة) ويجعل العالم كله مملكة واحدة عاصمتها الاسكندرية خاضعة لأمره ونهيه. ولكن منيته كانت له بالمرصاد، فبينما كان مشتغلاً بالإصلاحات الداخلية يأمر ببناء مرفأ لبابل، وبرفع الحوائل من أسفل نهر الدجلة لتسهيل الملاحة، وبإحداث أمور أخرى لتحسين طرق الريّ، إذ أصابته حمى لم تمهله غير أحد عشر يوماً، فمات ولم يبلغ الثالثة والثلاثين من عمره، سنة (٣٢٣) ق. م.

هذه لمحات عن حياة الاسكندر وفتوحاته من كتاب دائرة المعارف لوجدي. وقد صرح هناك أنه نقلها من مصادر أجنبية[١].

الاسكنـدريـة:

وقبل أن ننتقل إلى أخبار أخرى عنه، لا بد أن نعرج على أشهر مدينة بناها وذاع صيتها في العالم قديماً، وما زالت بارزة بآثارها وعمرانها ونشاطها في مختلف ميادين الحياة، ألا وهي، مدينة الاسكندرية.

---

(١) انظر دائرة معارف القرن العشرين جـ ١ ص ٣١٤ ـ ٣١٨.

نقل الجغرافي الكبير (ياقوت الحموي) عن أهل السير، أن الاسكندر بنى ثلاث عشرة مدينة، وسمّاها كلها باسمه، ثم تغيرت أساميها بعده. وصار لكل واحدة منها اسم جديد فمنها:

أ ـ الاسكندرية التي بناها في باورنقوس.

ب ـ ومنها الاسكندرية التي بناها تدعى المحصّنة.

جـ ـ ومنها الاسكندرية التي بناها ببلاد الهند.

د ـ ومنها الاسكندرية التي في جاليقوس.

هـ ـ ومنها الاسكندرية التي على شاطىء النهر الأعظم.

و ـ ومنها الاسكندرية التي بأرض بابل.

ز ـ ومنها الاسكندرية التي هي ببلاد الصفد وهي سمرقند.

ح ـ ومنها الاسكندرية التي تدعى مرغبلوس وهي مرو.

ط ـ ومنها الاسكندرية التي في مجاري الأنهار بالهند.

ي ـ ومنها الاسكندرية التي سميت كوش وهي بلخ.

ك ـ ومنها الاسكندرية العظمى التي ببلاد مصر.

ل ـ ومنها الإسكندرية التي في بلاد السقوياسيس.

قال ياقوت الحموي: فهذه ثلاث عشرة اسكندرية نقلها من كتاب الفقيه كما كانت فيه مصورة[١].

ويذكر علماؤنا خلافاً في أول من بناها، لكن المشهور أن الاسكندر المقدوني هو الذي أنشأها واتخذها مقر ملكه ليكون وسطاً بين بلاد العالم الذي يطمع في فتحه. فعمرت بسرعة غريبة، وأقيمت فيها المباني الفخمة والقصور الشاهقة، وأصبحت بفضل موقعها مركزاً تجارياً كثير الحركة.

وإلى هذا ذهب ابن هشام أيضاً[٢]، وكذلك ياقوت الحموي[٣]، وغيرهما.

---

(١) معجم البلدان جـ ١ ص ١٨٣ وهي اثنتا عشرة اسكندرية كما ترى!.

(٢) السيرة النبوية القسم الأول جـ ١ ص ٣٠٧.

(٣) انظر معجم البلدان جـ١ ص ١٨٤. وانظر قصة بناء الاسكندرية في (كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار)، وصف مكة والمدينة ومصر (بلاد المغرب) لكاتب مراكشي من كتاب القرن =

وذكر صاحب (قاموس الجغرافية القديمة) أن اسمها كان عند قدماء المصريين (راكوتي) وعند اليونان (راكوتيس) وعنهما (راقودة) في كتب العرب مثل المقريزي وغيره[1]. فالاسكندرية هي الثغر المصري المشهور على البحر الأبيض المتوسط، بناها الاسكندر الأكبر سنة (٣٣١) ق. م[2]. على الأرض الواقعة بين بحيرة مريوط والبحر الأبيض المتوسط[3]، وهي تبعد عن القاهرة بنحو (٢٠٨) كم[4].

= السادس الهجري (١٢ م). نشر وتعليق د. سعد زغلول عبد الحميد. ص ٩١ ـ ١٠٧ ط ١٩٥٨ م.

(١) انظر قاموس الجغرافية القديمة تأليف أحمد زكي بك ص ١١ ط ١٣١٧ هـ. وذكر (أوليري) أن موقعها كان مشغولاً من قبلها بمدينة (راقودة) المصرية (Rakota) فكان هذا هو الاسم الذي أطلق على الاسكندرية في اللغة القبطية الدارجة... انظر مسالك الثقافة الاغريقية إلى العرب تأليف أوليري نقله إلى العربية د. تمام حسان ص ٢٧ مكتبة الأنجلو المصرية.

(٢) يذكر أوليري أنها أسست عام ٣٢٣ ق. م. انظر مسالك الثقافة الاغريقية إلى العرب ص ٢٧.

(٣) كان اختياره لموقعها ليشيد عليه سوق العالم المركزية، اختياراً يعد في ذاته آية من آيات عبقريته. انظر تاريخ العالم جـ٣ ص ١٣ نشره بالانكليزية السيرجون أ. هامرت. ترجمته إدارة الترجمة بوزارة المعارف العمومية المصرية. مكتبة النهضة المصرية.

(٤) دائرة معارف القرن العشرين جـ ١ ص ٣٢٩. فتحت الاسكندرية سنة عشرين من الهجرة في أيام عمر بن الخطاب [لم يتفق المؤرخون على أنها فتحت في هذه السنة. فقد ذكر بعضهم أنها فتحت سنة خمس وعشرين، ومنهم من قال بأنها فتحت سنة ٢٦. انظر قصة الفتح الإسلامي لمصر والاسكندرية في تاريخ الطبري جـ ٤ ص ٢٢٦ فما بعد والبداية والنهاية جـ ٧ ص ٩٧ فما بعد] على يد عمرو بن العاص بعد قتال وممانعة، فلما قتل عمر ووليَ عثمان رضي الله عنه ولّى مصر جميعها عبد الله بن سعد بن أبي سرح أخاه من الرضاعة. فطمع أهل الاسكندرية ونقضوا، فقيل لعثمان: ليس لها إلا عمرو بن العاص، فإن هيبته في قلوب مصر قوية. فأنفذه عثمان ففتحها ثانية عنوة وسلمها إلى عبد الله بن أبي سرح وخرج من مصر، فما رجع إليها إلا في أيام معاوية. انظر معجم البلدان لياقوت الحموي جـ ١ ص ١٨٨. من آثارها القديمة قبر دانيال عليه السلام والمنارة العظيمة. وقد عدَّ الأقدمون هذه المنارة التي بناها بطليموس فيلادلف سنة ٢٨٣ ق. م. إحدى عجائب الدنيا السبع. فلقد كانت في قاعدتها بناء مربعاً متسعاً من الرخام الأبيض مصنوعاً على أجمل طراز يعلوه برج من الرخام الأبيض أيضاً. ارتفاعه أربعمائة قدم وكانت تعلوه مرآة تنعكس عليها صورة السفن القادمة فيراها من فيه قبل أن تدركها العين. تهدمت هذه المنارة في سنة (١٥١٨) فبنى السلطان سليم فاتح مصر على أنقاضه قصراً جميلاً ومسجداً وهما موجودان الآن. ومن آثارها عمود من الصوان يقال له عمود السواري طوله (٢٩) متراً وكان بهما عمودان آخران نقل أحدهما إلى لندن والثاني إلى نيويورك. انظر دائرة معارف القرن العشرين جـ ١ ص ٣٣٠. =

. . . .

= وكان بطليموس سويتر لما تولى ملك مصر بعد موت الاسكندر، عزم على جمع ما تشتت من الفلسفة اليونانية، وما تفرق من أعلامها في الأرض، فحشر إليه أولئك الأفاضل من جميع أصقاع الأرض وبنى لهم مدرسة تمت في عهد بطليموس الثاني ابنه، وكانت من الاتساع وجمال البناء بحيث تستوقف النظر، وناهيك بمعهد علمي يجتهد ملكان في إقامته غير مدخرين له وسعاً وقد قسمت تلك المدرسة إلى أقسام، منها مساكن للعلماء وغرف للتدريس، وحدائق للحيوانات وأخرى للنباتات ومحال للكتب. . . ثم خربت هذه المدرسة عندما هجم عليها الرومان تحت قيادة قيصر الروماني، واحترقت مكتبتها، ولم يجتمع بعد ذلك لهؤلاء العلماء شمل وانشقت عصاهم. . . انظر دائرة معارف القرن العشرين جـ ١ ص ٣٢٩.

هذه المكتبة التي طار في العالم صيتها قديماً وحديثاً أوجدها أولاً الملك بطليموس سويتر وجلب إليها من نفائس الكتب وذخائر القرائح بما لا يسع المكان تعداده هنا. ونقول إجمالاً عن المؤرخين (أولوجيل) و(إميان مارسيليان) أنه كان بها سبعمائة ألف مجلد في العلوم المختلفة.

والغريب أن (أبا الفرج مطران حلب) روى في تاريخه أن العرب لما استولوا على الاسكندرية أمر عمرو بن العاص بإحراقها بأمر من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فأوقدوا بها حمامات المدينة نحواً من ستة أشهر إلى أن قالت دائرة معارف القرن التاسع عشر عقب ذلك: «إن مسألة احتراق مكتبة الاسكندرية بواسطة العرب أثارت في أيامنا هذه شكوك النقد التاريخي وحوّمت حولها الريب والاعتراضات» ثم ذكرت أنه يوجد كثير من الكتاب يذهبون خلاف هذا المذهب، وينكرون احتراق مكتبة الاسكندرية. . وفي (خطط الفرنساوية) أن هذه الحادثة لم يتكلم عليها أحد من المؤرخين في عصره من النصارى وغيرهم، ولم يظهر ذلك إلا في القرن الثالث عشر من الميلاد عن كتاب ينسب إلى أبي الفرج بطريق حلب. . .

يقول المؤرخ رفيق العظم في كتابه (أكبر مشاهير الإسلام): (لغط بعض المتأخرين بحادثة حريق مكتبة الاسكندرية وأن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية وجد فيها مكتبة عظيمة فاستأذن أمير المؤمنين عمر عن حرقها وأحرقها. وهو خبر مختلق لا أصل له من الصحة وأغرب ما فيه من الإغراق في الكذب الذي يدل على عدم صحته أن قالوا إن عمرو بن العاص أمر بتوزيع تلك الكتب على الأربعة آلاف حمام في كل يوم مائة مجلد (وهو قليل) إذاً لبلغ عدد المجلدات التي أحرقت (٧٢) مليون مجلد. فأي مكتبة في العالم يوجد فيها مثل هذا العدد من الكتب؟ وأي عاقل يتصور صدق هذا الخبر الذي ينقض بعضه بعضاً. على أن المشهور عن هذه المكتبة طروء الحريق عليها أكثر من مرة قبل الفتح الإسلامي. وأن الذي بقي منها نقل بعضه امبراطور الرومان إلى القسطنطينية، وما بقي أحرقه الامبراطور (تيودوروس) لما أمر بحرق الهياكل الوثنية في الاسكندرية، وأيد هذا الرأي (سديو) في تاريخه المسمى (خلاصة تاريخ العرب).

والذي يدلك على اختلاق هذا الخبر أنه لم يرد في تواريخ المتقدمين من أهل الأخبار كالطبري واليعقوبي والكندي وابن عبد الحكم والبلاذري، وهذه هي التواريخ التي نقل عنها =

حربــه مــع الفــرس:

وأكثر ما يورد المؤرخون المسلمون من حياة الاسكندر، هو حربه مع دارا وانتصاره الساحق عليه، فبعد قصة رمزية متبادلة بينهما، تأهب الاسكندر وسار نحو بلاد دارا. وبلغ ذلك دارا، فزحف إليه فالتقت الفئتان واقتتلا أشد القتال، وصارت الدبرة على جند دارا، فلما رأى ذلك رجلان من حرس دارا، يقال إنهما كانا من أهل همذان، طعنا دارا من خلفه فأردياه من مركبه[1]، وأرادا بطعنهما إياه الحظوة عند الاسكندر والوسيلة إليه، ونادى الاسكندر أن يؤسر دارا ولا يقتل، فأخبر بشأن دارا فسار الاسكندر حتى وقف عنده فرآه يجود بنفسه، فنزل الاسكندر عن دابته حتى جلس عند رأسه وأخبره أنه لم يهم قط بقتله وأن الذي أصابه لم يكن عن رأيه. فقال له: سلني ما بدا لك، فأسعفك فيه. فقال له دارا: لي إليك حاجتان: إحداهما أن تنتقم لي من الرجلين اللذين فتكا بي وسماهما وبلادهما. والأخرى أن تتزوج ابنتي

= المتأخرون أخبار الفتح. ولم يأت في تلك الأخبار ذكر المكتبة الاسكندرية البتة؛ بل أغرب من ذلك أن (يوتيخوس) الذي هو مؤرخ معاصر لذلك الفتح لم يذكر حريق تلك المكتبة. وهذه كتب المحدثين التي حصلت بالسند الصحيح كل سيرة عمر بن الخطاب لم يرد فيها شيء من ذلك البتة، وإنما نقل هذا الخبر بعض المتأخرين من غير روية ولا تحقيق، ونقله الافرنج على صورته الغريبة عن أبي الفرج الملطي مع أنه لم يرد في تاريخ أحد من المتقدمين على تلك الصورة الغريبة ولا على غيرها. على أن الخبر على ما فيه من الغرابة والإغراق في الباطل الذي يكذب بعضه بعضاً قد صار عند علماء البحث مفروغاً منه لتحقيق بطلان نسبة حرق هذه المكتبة لعمرو بن العاص، وإنما أوجد فكرة هذا البحث وجود ذلك الخبر في تاريخ أبي الفرج.

انظر لدحض هذه الفرية بإسهاب، دائرة معارف القرن العشرين جـ ١ ص ٣٣١ - ٣٣٧. وفيه كلام الأستاذ شبلي النعماني الهندي مدير مدرسة حيدرآباد الدكن الذي نقل فيه كلام بعض المؤرخين المسلمين وحقيقة ذلك، وفيه أيضاً رد مصنف دائرة المعارف الأستاذ وجدي.

(١) حدث الطبري عن هشام بن محمد قال: ملك من بعد دارا بن أردشير، دارا بن دارا أربع عشرة سنة فأساء السيرة في رعيته، وقتل رؤساءهم وغزاه الاسكندر على تإفّة ذلك وقد ملّه أهل مملكته، وسئموه وأحبوا الراحة منه فلحق كثير من وجوههم وأعلامهم بالاسكندر فأطلعوه على عورة دارا وقوّوه عليه فالتقيا ببلاد الجزيرة، فاقتتلا سنة ثم إن رجالاً من أصحاب دارا وثبوا به فقتلوه.. وذكر أن وزيره أفسد قلبه على أصحابه وحمله على قتل بعضهم، فاستوحشت لذلك منه الخاصة والعامة ونفروا عنه، وكان شاباً غراً حمياً حقوداً جباراً. تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٦.

(روشنك) فأجابه إلى الحاجتين، وأمر بصلب الرجلين اللذين انتهكا من دارا ما انتهكا. فتزوج روشنك وتوسط بلاد دارا وكان ملكه له[1].

بعد أن ضمّ الاسكندر ملك دارا إلى ملكه ذكر الطبري أنه ملك العراق والروم والشام ومصر، وعرض جنده بعد هلاك دارا فوجدهم فيما قيل ألف ألف وأربعمائة ألف رجل، منهم من جنده ثمانمائة ألف، ومن جند دارا ستمائة ألف. وذكر أنه قال يوم جلس على سريره: (قد أدالنا الله من دارا ورزقنا خلاف ما كان يتوعدنا به) وأنه هدم ما كان في بلاد الفرس من المدن والحصون وبيوت النيران وقتل الهرابذة وأحرق كتبهم ودواوين دارا، واستعمل على مملكة دارا رجالاً من أصحابه، وسار قدماً إلى أرض الهند، فقتل ملكها وفتح مدينتها، ثم سار منها إلى الصين، فصنع بها كصنيعه بأرض الهند، ودانت له عامة الأرضين وملك التبت والصين، ودخل الظلمات مما يلي القطب الشمالي والشمس جنوبية في أربعمائة رجل يطلب عين الخلد [وهذا ما وقع فيه الإمام الطبري من الخلط]، فسار فيها ثمانية عشر يوماً ثم خرج ورجع إلى العراق وملك ملوك الطوائف، ومات في طريقه (بشهرزور) وكان عمره ستاً وثلاثين سنة في قول بعضهم، وحمل إلى أمه بالاسكندرية[2]...

قال الإمام الطبري: وبين مولد عيسى عليه السلام وقيام الاسكندر ثلاثمائة سنة وثلاث سنين[3].

من أخبار الاسكندر وأقواله:

- ذكر أنه في فتوحاته كان يقهر الأمم، ويؤسس المدن، ويبني المرافىء، ويؤسس دوراً لصناعة السفن، تاركاً في كل جهة أثراً من آثار فتوحاته الباهرة!.
- عاقب المتهمين من رجاله بالرشوة عقاباً شديداً[4].

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٧ ـ ٨.
(٢) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٩.
(٣) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ١٠.
(٤) دائرة معارف القرن العشرين جـ ١ ص ٣١٨.

- أغلظ له رجل من أهل أثينة، فقام إليه بعض قواده ليقابله بالواجب، فقال له الاسكندر: دعه، لا تنحط إلى دناءته، ولكن ارفعه إلى شرفك.

- سأل الاسكندر ديوجانس[1] يوماً فقال: بأي شيء يكتسب الثواب؟ فقال: بأفعال الخيرات. وإنك لتقدر أيها الملك أن تكتسب في يوم واحد ما لا يقدر عليه الرعية أن تكتسبه في دهرها.

- من أقواله: من الواجب على أهل الحكمة أن يسرعوا إلى قبول اعتذار المذنبين، وأن يبطئوا عن العقوبة.

- السعيد من لا يعرفنا ولا نعرفه، لأنا إذا عرفناه أطلنا يومه، وأطرنا نومه!.

- استقلل كثير ما تعطي، واستكثر قليل ما تأخذ، فإن قرة عين الكريم فيما يعطي، ومسرّة اللئيم فيما يأخذ. ولا تجعل الشحيح أميناً، ولا الكذاب صفياً، فإنه لا عفة مع شح، ولا أمانة مع كذب[2].

- وفي سير العجم أن رجلاً وشى برجل إلى الاسكندر فقال: أتحب أن نقبل منه عليك ومنك عليه؟ قال: لا. قال: فكف الشر يكف عنك الشر[3]!.

من أخباره العسكرية:

من سياسته العسكرية، أنه بدأ بفتح أبواب آسيا الصغرى ليمتلك سواحلها، ويمنع بذلك قطع الفرس خط رجعته والنزول منها إلى بلاد اليونان أو مقدونيا. هذا الاحتياط كان كلما ذكره نابليون أعجب به كثيراً[4].

وكتب نابليون في مذكراته التي عملها في (سانت هيلين) وهو منفي:

---

(١) هو من قدرية الفلاسفة.
(٢) مقاطع من الملل والنحل للشهرستاني جـ٣ ص ٦٤ فما بعد.
(٣) فجر الإسلام ص ١١٩ لأحمد أمين الطبعة العاشرة ١٩٧٥ م.
(٤) دائرة معارف القرن العشرين جـ١ ص ٣١٤.

«إن الاسكندر قد فتح بشرذمة قليلة من الرجال قارة من الكرة الأرضية. ولكن هل كان ذلك منه من قبيل الاندفاع أو الثوران؟ لا، ولكنه كان سائراً بحسبان دقيق، فنفذ مشروعاته بجسارة، وقادها بعقل ورزانة. فالاسكندر قد جمع في نفسه بين الجندي الكبير والسياسي الخطير والمشرع العظيم[1].

الاسكندر في الكتابات الأجنبية المعاصرة:

هناك كتاب (الاسكندر المقدوني) تأليف هارولد لامب الذي ولد في عام ١٨٩٣ م في نيوجرسي، وهو مؤرخ عالمي، وله قراء وناقدون كثيرون معجبون بأسلوبه. مات سنة ١٩٦٢. والكتاب من ترجمة الدكتور عبد الجبار المطلبي ومحمد ناصر الصانع، ومراجعة الدكتور محمود الأمين، طبعة ١٩٦٥، ويقع في (٤٠٠) صفحة.

ويتحدث الكتاب في البداية، عن طفولة الاسكندر وغرامه بكتاب (الإلياذة)، وتعلقه بالكتب بشكل عام ـ والحياة في عهده مليئة بالآلهة والاستنجاد بها واللجوء إليها ـ وعن تدريبه وتعليمه وحبه للتمرن والاستطلاع، ويتتلمذ بعدها على أرسطو، وكان يدور بينهما نقاش حاد، وكان الاسكندر يصر على رأيه أحياناً، إلا أنه كان يسرع في قراءة كل المخطوطات التي يعيره إياها أرسطو، وكان عمره ستة عشر عاماً حين انغمر في امتحان السياسة أو حكم المدينة، وكان ذلك آخر عمل له تحت إشراف أرسطو، وكان والده يكلفه أحياناً بإدارة أعمال الجيش وبعض الفتوحات، ويعينه والده مرة أخرى قائد كتيبة، وينتهي من معركة شديدة الوطيس هي معركة (خيرونيا) الشهيرة، ويحتفظ مرة أخرى به ليرقب أعمالاً خاصة بتطورات الدولة على حين جعل على رئاسة أركان حربه مع قوات مدربة (بارمينو).

وكان والده (فيليب) دائم السكر، مخموراً، وكانت أمه تخشى عليه فتقول: «لقد نذرت منذ زمن بعيد إلى الإآله الرب وأنا أحملك تحت قلبي،

(١) دائرة معارف القرن العشرين جـ١ ص ٣١٩. هذا قول نابليون. أما في عقيدة المسلمين فالمشرع هو الله ورسوله.

أنني لن أنتهي عن حمايتك في الحياة». وكانت الحياة الاجتماعية والاقتصادية، بل حتى الحربية منها، مليئة بالجدال والنقاش حول أفكار فلسفية من أقوال أفلاطون وأرسطو وغيرهما.

وتنتهي حياة فيليب بمدية يغمدها رجل في ظهره فيقضي عليه، وكانت العيون تتجه نحو رجل من أصحاب الاسكندر الذي كان فيليب قد نفى قسماً منهم، وكأن الدافع لذلك كان الاسكندر، فلقد تخاصم علانية مع أبيه خصاماً عنيفاً، وعرف عنه أنه لا يمكن السيطرة على مزاجه.. ولكن انتهى البحث عن القاتل عند نقطة، وهي أنه في قانون العشيرة لا يمكن أن يكفر أو يحكم ذوو القربى أو القواد على قتل أحد أفراد الأسرة المالكة من قبل آخر الأسرة ذاتها[١].

وأراد مجلس القبيلة أن يختار رجلاً بدل فيليب بن أمنيتاس، وأشاروا إلى أنه يلزمهم رئيس اسمي من دم فيليب. وكانت ضد اختيار الاسكندر أمور عدة: الشائعة القائلة إن فيليب لم ينجبه، واستغراقه غير الاجتماعي في الدراسة، وعدم خبرته في القيادة، وخصومة الدم التي بدأت بقتل فيليب.. ووقع الاختيار أخيراً على الاسكندر. ففيليب لم يعين خليفة له، ولكنه عين ولده ذا العشرين عاماً لمهمة في الجيش، وقام بعد معركة (خيرونيا) بمعركة أخرى مثلها، والآن هو ملك المقدونيين.

وتتغير حياة الاسكندر بعد سنة من إعلان ملوكيته، فبينما كان عالمه عالم خيال، يتخيل مدناً تقع وراء الأفق، وسلاسل جبال هي (البرا بانيسادس) تقطنها آلهة روحية، وبينما كان منطوياً على نفسه، واعتاد أن يثق بالناس عند أول نظرة، وأن يأخذ بنصيحة الأصدقاء.. بعد كل هذا صار

---

(١) يقال إن قتل فيليب كان بتحريض من زوجه أوليمبيا التي كان قد طلقها منذ وقت قريب جداً. انظر موسوعة تاريخ العالم تأليف وليام لانجر جـ١ ص ٦٤ مكتبة النهضة المصرية. وفي (تاريخ العالم) أيضاً: بينما كان فيليب يعد جيشه ليكفل سلامة مروره إلى الركن الشمالي الغربي من آسيا الصغرى، وكان على وشك الزحف بقواته الرئيسية، إذا هو يسقط صريعاً بيد قاتل لعله مبعوث أوليمبياس زوجته وأم ولده العظيم التي كان قد أساء إليها وهجرها، ولم يكن تجاوز السادسة والأربعين من عمره. انظر تاريخ العالم المجلد الثالث ص ١٠ ـ ١١.

رجلاً آخر، لا يثق بالنصيحة ولا يعبأ بالمخاطر، فيجري إليها بلا تردد، وقد عقد العزم على أن يقود جيشه في آسيا، بعيداً عن وطنه، وكانت له في السنين التي تلت ذلك ملكة في القيادة الملهمة، وقدرة على توجيه الحوادث وقيادتها على أراض وبحار بعيدة وغريبة. ولم يعد يخشى من ذوي قرباه شيئاً، فقد تلقى نبأ الوفيات في (بيلا) قرية والده بسرعة شديدة، فقد مات ابن عمه أمنيتاس مسموماً، ووجد أن كليوباترا الرضيع مات مخنوقاً. وإذا أزيح هذان الاثنان، فلم يبق من الذكور من ذوي قرباه غير (أريدايوس) المعتوه..

وسار الجيش المقدوني في صف طويل ليلقن درساً للقبائل، ويضم الجميع إلى أراضي وجيش مقدونيا. نجح الاسكندر في ذلك. واتجه إلى الفتوحات في المشرق. ولكن بعض الفلاسفة كانوا ينصحونه أن يقصر نشاطه على مقدونيا وحدها، ففيها يستطيع الهيمنة على الأحداث، ولكنه كان ذا روح نفاذة، فكان يقرأ الكتب الحربية ويفرق في السؤال من العيون الذين اجتازوا الطرق في آسيا محاولاً تصوير البلاد الحقيقية التي يعينها... وفي سنة (٣٣٤) ق. م تحرك الجيش المقدوني سالكاً طريق الملك باتجاه مياه الدردنيل، وكان الاسكندر يسير في صفوف القطعات المتحركة وسط الغبار. لقد سار الاسكندر، ولكنه لم يعد إلى بلاده أبداً!

ويشتبك الاسكندر مع بعض قوات الفرس وينتصر عليهم، وأعد ثلاثمائة بزة قتال آسيوية لتقدم هدية إلى معبد المارثينون في أثينا وأن يكتب فيه العبارة الآتية: «يقدم الاسكندر بن فيليب والإغريق جميعهم باستثناء الأسبارطيين، هذه التقدمة التي غنمت من الأجانب القادمين من آسيا».. ويدخل جيشه المدن (الإيونية) ويقطع الاسكندر الممر الكثير المزالق والعوارض الصخرية وسلالم البحر، وكانت مخاطرة ما بعدها مخاطرة، وبدأ الاسكندر مع أشد جنوده بأساً يستعد إلى حملة الشتاء في هضبة آسيا الصغرى المكسوة بالجليد، واستطاع أن يضمهم إلى جيشه، وهم من المنحدرين من الحثيين الأشداء والكمريين، وكانوا أكثر إيماناً بالخرافات من المقدونيين قوم الاسكندر.

فكانت العربة المربوطة بحبل معقود من لحاء شجر الكورنيل قد أخذ صيته بأن من يحله سوف يحكم على آسيا كلها، فضرب الاسكندر بسيفه على العقدة فقطعها. .

وعندما سمع القوم أصوات الرعد والبرق في تلك الليلة تأكدوا أن الشاب المقدوني ذا الشعر الذهبي له قوة إلّهية. . وأن القدر قد اختاره ليكون ملكاً على هذه البلاد. وصوت المجلس بالمضي إلى الأمام، رغم أن الجيش المقدوني كان يبدو مقطوع الصلة بمقدونيا.

وإلى الجنوب عبر الاسكندر الجيش من ممر كيليكيا، ودخل منطقة الأعداء، وشكل جواسيس من التجار والزوار إلى المعابد المقدسة والبحارة، وأرسلت قوات سريعة الحركة إلى طرسوس الواقعة على نهر سيدنوس قبل أن يستطيع العدو الدفاع عنها أو تهديمها، وقد اضطجع الاسكندر في طرسوس مريضاً عدة أسابيع بسبب الحمى التي أصابته لعدم اهتمامه بنفسه. وكان عدد المرضى من قواته بازدياد، وكان السوريون سكان الساحل يتهكمون على الجنود الذين يتحسسون طريقهم في جو مثقل ببخار المستنقعات الحارة.

وأخبرهم الاسكندر بعدها بأنهم سوف يشتبكون مع قوات الفرس وعلى رأسهم ملكهم عند طريق ضيق إلى خليج أسوس الواسع وكان جيشاً أكثر منهم بثلاثة أو أربعة أمثال. وبخطة حربية ماكرة هي استعمال الخيالة لاختراق صفوف العدو وتدريب مسلحين سريعي الحركة، هي الخطة السرية للجيش المقدوني، أكسبتهم النصر تلو النصر. وكان من حظ الاسكندر أن يكون دارا جباناً، والقوات الاحتياطية التي كانت تغير على جيش الاسكندر تدور على غير هدى وتتخبط، حيث إن دارا لم يستطع أن يجمع أكثر من أربعة آلاف مقاتل نظامي في أثناء تراجعه السريع نحو الشرق في اليوم التالي لذلك. وقد استمر في تراجعه بغير توقف إلى أن جعل نهر الفرات حداً فاصلاً بينه وبين المقدونيين المرعبين[1].

---

(١) ذكر أن معظم المؤرخين العسكريين اتبعوا أسلوباً من التعليق في ذكرهم بأن دارا قد اقترف خطأً فظيعاً حين جمع قوته المتفوقة في العدد في منطقة ضيقة من أرض وعرة يصعب على =

وأصيب الاسكندر بضربة سيف في عجزه فألزمه العلاج الدائم، وأعفى أهالي أسوس الضريبة، وأمر بتوزيع جزء كبير من الخزينة الفارسية التي استولى عليها المعسكر على الضباط الذين أبلوا في القتال بلاءً حسناً. . وما كان يرغب الاسكندر في خلق أعداء آخرين على طول هذا الساحل من آسيا، وكانت سياسته المغرقة في التسامح قد تركت انطباعاً حسناً في نفوس الأقوام المرتابة به كثيراً. .

وفي فتوحاته كان يزهد في النساء فلم يعجب ذلك ضباط الجيش، واتهمه بعضهم بما لا يحسن ذكره. . وكان يصدر أوامره باحترام نساء الحلفاء سواءً أكانوا برابرة أم آسيويين أم إغريقاً مثلما يحترمون نساءهم، وأعطى تعليمات لليونانيين بشأن نساء الأسرة المالكة الفارسية بأنهن سيكن الآن كما كن من قبل، وسيتقاضين من المال ما كان يدفع لهن من قبل ولن يقترب منهن بغير أن تؤدى لهن المراسيم اللائقة بهن. .

ولإلحاح أصدقائه عليه تزوج بـ (بارسين) أرملة ممنون الـرودسي، ووجد الاسكندر راحة عند سكونها وحبها للطف والهدوء.

وهاجم الاسكندر (صور) وسكانها من الفينيقيين والكنعانيين، ودام حصارها سبعة أشهر،أما حصار غزة فاستغرق شهرين. وفي غزة عندما نفذ سهم من ترس الاسكندر كسرت عظام كتفـه اليسرى، وحصـل الجيش المقدوني على الصخور المدرجة من جنوبي اليونان إلى البر الآسيوي، وعلى شرقي البحر المتوسط بزحفه على سواحله لأكثر من ألف وخمسمائة ميل حول البحر. وينحدر الاسكندر في نهر النيـل حتى يصل البحـر ويبني هناك الاسكندرية، وهي أولى ثلاث عشرة اسكندرية بناها أو أكثر، وكان عمره آنذاك ثلاثاً وعشرين سنة.

= الخيالة أن تقوم فيها بواجباتها العسكرية بسهولة ويتعذر فيها استخدام جميع ما لديه من قاذفات اللهيب التي كان متفوقاً فيها والتي أصبحت في هذه الجبهة عديمة الفائدة، كل هذا حقيقة إلا أن دارا لم يكن قادراً على أن يتنبأ بأن حرباً واسعة ستجري في هذا المكان بالذات وعلى الساحل عند خليج أسوس. انظر الاسكندر المقدوني لهارولد لامب ص ١٦٢ الهامش.

ويتجه الاسكندر إلى الشرق في بلاد مصر، وقد حقق كل طلبات وفود البلاد العربية الذين تهافتوا على خيمته كالنسور التي ترى الطعام فتحوم عليه لتلتقطه. . وكانت مصر ترفض إلا أن تلقبه بـ (فرعون). . فقد أصبح «إلَهاً» ما دام أنه ملك مصر. . ولما طلبت القبائل العربية منه في الداخل أن يعين لها حاكماً اختار لها حاكماً يونانياً شرقياً وحذره بقوله: «لا تحدث أي تغيير فيما تعودوه»!.

وسار الاسكندر إلى جهة الصحراء حول جبل حرمون ماراً بدمشق متجهاً إلى الشمال، ليتجنب حرارة السهل السوري الوسط، وعبر نهر الفرات على جسور أعدت لهذه الغاية والتحق بهم مجندون جدد حتى بلغوا خمسة وثلاثين ألفاً يتلمسون طريقهم فوق السهل الواقع بين النهرين دجلة والفرات. . ولقد سار إلى الشمال الشرقي نحو النهر الآخر بدلاً من الاتجاه المنتظر وهو الشرق إلى أن تغيرت الأرض فأصبحت حمراء مرة أخرى. . وكل هذا ليواجه الجيش الجرار الذي أعدته له فارس هذه المرة، وانتصر عليهم في معركة حاسمة رغم تخوف جنوده، وولى الجيش الفارسي أدباره منهزماً. ولما أصبح كل شيء واضحاً أمام الاسكندر، بدأ يعمل بلا تردد. . فتحرك بقطعاته بأقصى سرعة إلى جنوبي وادي ما بين النهرين المحصورة بين دجلة وسلسلة الجبال. . ووصل إلى بابل وسوسة (قريبة من الأهواز) ودخل بحذر شديد. ووصلوا إلى «برسيبولس» قلب فارس، وبقوا هناك شهراً أو شهرين. . وبعد رجوعهم مروراً بهمذان التقى المقدونيون بجيش فارسي جديد في باكتيريا. . والتحم الجيشان في القتال. . وقبل الفجر وجد أن دارا قد اغتيل بيد ضباطه أنفسهم، فما كان من الاسكندر إلا أن نزع سترته البيضاء وغطى بها جسد الملك العظيم القتيل. وكان الاسكندر في زحفه على هذه البلاد يرتاد الصيد ويشرب الخمر دون إدمان. ويستمع إلى النقاش والجدال الذي يجري بين أصدقائه دون أن يزعجه ذلك، ونادراً ما كنت تجده غاضباً.

ووجدوا أنفسهم ـ بعد مقتل دارا ـ يطأون طريق القوافل العظيمة، تلك الطريق التي تصل بين الشرق والغرب. . واتجهوا نحو بحر قزوين ثم

جرجان.. ثم قرب الحدود الشمالية لأفغانستان، وانحرفوا إلى الجنوب، إلى (هرات) ثم طريق القوافل من نهر السند إلى برسيبولس، ويبني الملك اسكندريتين عند قندهار وكابل.. وترك مدينة سمرقند، واستمر في طريقه متحسساً الاسكيثيين، وهو في طريقه لا يفتأ يبني المدن والمستشفيات ويزرع الأشجار ويوزع الحكام، ويرشدهم بآرائه.. كما أنه يستمد آراءه ومغامراته الحربية من متخصصين في جيشه. ووصلوا طشقند، واقتحم صخرة الصفد التي كان فيها أسرة يوكزيارت وهو زعيم باكتيري، وقتل بعض المقربين إليه حين اشتد غضبه عليهم، ولكنه كان يشعر بعدها بالإثم القاهر. وعقد العزم ليسير إلى ساحل المحيط المظلم وشجع جيشه في ذلك.

وفي طريقه كان يحب الارتياد والاستكشاف.. ورأى أقواماً كثيرة، وأنس بالهنود وقبلوه سيداً أعلى لهم بلا تردد. وحافظ الاسكندر على خط الزحف بعيداً في الشمال عند سفوح تلال البنجاب. وكان بعض الجنود والضباط يملون من فتوحاته المتكررة ويقولون بأنه لا نهاية لها، فيجيبهم الاسكندر أن ليس من نهاية لجهد الرجل الشجاع غير غاية الجهد ذاته، أتخشون أن يوقف تقدمنا برابرة آخرون؟!.

ولكنه في منطقة التحول، وعلى ضفة نهر (بيز) أمر الاسكندر جيشه بالقفول إلى الغرب لقد اندفع أكثر من ثمانية أعوام نحو الشرق، فلما هجر الزحف جرّ ذلك تغييراً طبيعياً فيه أو كاد، وانطفأ فيه ذلك الشيء من الثقة بالنفس، وحل محله نكد وتقلب في المزاج.. وبدا عندئذ حريصاً على أن يرتب أموره وشؤون بيته.. ورجع بالجيش الذي اعتنى به في زحفه نحو الشرق وقد قال مرة: إنه لا يجرؤ أي مقدوني على أن يتبعه إن لم يكن راغباً في ذلك، ورأوا في طريقهم مصاعب ومحناً، وكانوا يشكـون من إغارة ومهاجمة البرابرة، وأقام الاسكندر في سوسة أضخم احتفالاته العسكرية ليشير في الظاهر إلى فاتحة زحفهم الطويل.. وكان يهدف إلى تشجيع الزواج المختلط بين رعاياه، وتزوج هو بنت دارا الكبرى زوجة ثانية له ليكون قدوة لهم.

واستمر في طريقه، لأن بابل ستكون عاصمة ملكه، ورجع داخلاً من الباب المائي للمرة الثانية، وقضى الاسكندر تلك الليلة يحتسي الخمر حتى مطلع الفجر، ولم ينم من شدة القلق، وإذ لم يستطع النوم نزل إلى النهر ليسبح، وبعد أن وضع قربان الصباح على مذبح المعبدِ عبر إلى الجانب الآخر، إلى سرادق قرب حوض، حيث يستطيع أن يتمدد ويتبرد في هاجرة النهار. وشعر بالحمى ترتفع فيه، فاستحم مرة أخرى. وهاجت الحمى فيه خلال الليل أكثر.. ولم يستطع في اليوم الثاني حين قدم قرباناً أن يبقى هادئاً.. ودخل عليه الضباط.. فلما دخلوا الغرفة عرفهم، ولكنه لم يستطع الكلام إليهم، وتخيل الجنود عندئذ، وقد سمعوا رواية في ذلك أنه ربما مات وأخفى عنهم الحقيقة خواص الضباط فزحم جماعة منهم القصر حزانى، وشقوا طريقهم إليه فمروا به واحداً واحداً، ولما كان غير قادر على الكلام فقد حيّاهم بيده اليمنى ورفع رأسه بصعوبة لكل واحد، وما إن انتهى ذلك حتى مات الاسكندر، وقد عاش اثنين وثلاثين عاماً وثمانية أشهر.

مات على غير توقع في قصر نبوخذنصر. وربما كان موته نتيجة نهك جسمي وجراح أكثر من كونه نتيجة حمى، ومات شاباً، لم يتم مما حلم به من سلطان إلا نصفه. اهـ.

* * *

وفي دائرة معارف وجدي: ظن بعضهم أنه قتل مسموماً، ولكن هذا لم يتأكد، وليس قائلوه بمن يعتد بهم. والحقيقة أنه أهلك نفسه باللهو والقصف، ويجوز أن يكون مناخ تلك البلاد، والنشاط المتواصل في العمل قد زاد في حالته خطراً[1].

وذكر المقدسي أن الاسكندر تطير من دخول بابل فراراً من القدر، فانتهى إلى ناحية السواد، وغلبه النوم، فطرحت تحته لأمة (درع) فاضطجع عليها، وأظل عليها بمحفة من ذهب، فلما انتبه نظر إلى حالته فاستيقن بالموت. فأوصى أن تجعل جثته في تابوت من زجاج، ويحمل إلى

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين جـ ١ ص ٣١٨.

الاسكندرية، وكتب إلى والدته كتاباً بالوصاة والتعزية، وجعله دَرْجَ كتاب. مضمون ما في الدرج: إذا أتاكِ كتابي هذا فاصنعي طعاماً وادعي الناس إليه ولا تأذني لأحد في تناول شيء من طعامك إلا من لم يصب بأب ولا أم ولا أخ ولا أخت ولا ابن ولا ابنة ولا قريب ولا حبيب؛ ثم فكي الكتاب المدرج فيه واعملي عليه واتعظي بالله والسلام. ففعلت الوالدة كما أمر، فلم يمسّ أحد من الناس شيئاً من الطعام. ثم فكت الكتاب وقرأته ولم تدمع عينها، ولا تغيرت حالتها لبليغ عظته وحسن وصيته. قالوا: ولما وُضع الاسكندر في تابوته، قامت الحكماء الذين كانوا يصاحبونه ويسايرونه، فتكلم كل واحد بكلام وخبر بليغ[1]..

- قال (سوس): كم قد أمات هذا الشخص لئلا يموت، فمات، فكيف لم يدفع الموت عن نفسه بالموت؟.
- وقال حكيم: طوى الأرض العريضة فلم يقنع حتى طوي منها في ذراعين.
- وقال آخر: ما سافر الاسكندر سفراً بلا أعوان ولا آلة ولا عدة إلا سفره هذا.
- وقال آخر: ما أرغبنا فيما فارقت وأغفلنا عما عانيت.
- وقال آخر: لم يؤدبنا بكلامه كما أدبنا بسكونه.
- وقال آخر: من يرى هذا الشخص فليتق وليعلم أن الديون هكذا قضاؤها.

وقال (ميلاطوس):

خرجنا إلى الدنيا جاهلين، وأقمنا فيها غافلين، وفارقناها كارهين[2]!.

---

(١) كتاب البدء والتاريخ للمقريزي جـ٣ ص ١٥٤ ـ ١٥٥.

(٢) انظر الملل والنحل للشهرستاني جـ٣ ص ٦٧ ـ ٦٨ وفيه أقوال أخرى. وانظر ندبه في أقوال بعض الفلاسفة في مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي جـ١ ص ٢٨٩ ـ ٢٩١. وأخذ أبو العتاهية من كلام الفلاسفة لما حضروا تابوت الاسكندر، وقد أخرج ليدفن فقال بعضهم: كان الملك أمس أهيب منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس. وقال آخر: سكنت حركة الملك =

ملاحظات حول سيرة الاسكندر في تاريخ المسلمين:

ما كتبه مؤرخونا المسلمون، أمثال الطبري وغيره من أصحاب البحوث التاريخية المعتمدة، تتشابه في مضمونها، وهي من جهة أخرى تشبه ما كتب عنه المؤرخون الأجانب في الخطوط العريضة عن سيرته وفتوحاته، وفي أكثر المضمون. إلا أن كتاباتهم - بشكل عام - تتميز عن كتابات الأجانب ببعض المميزات، منها:

١ - أنهم يتجنبون كل ما كتب عنه من أمور الشرك والظلم وشرب الخمر. وهذا يعود إلى أن منهم من يعتقد أن المقصود به هو ذو القرنين، الذي أثنى الله تعالى عليه في القرآن الكريم، ودليلهم في هذا أن اليهود والنصارى قد بدلوا الكتب وشوهوا سيرة الأعلام الدينية.

٢ - عندما يصلون إلى فتوحاته، وخاصة اقترابه من الصين، يذكرون لقاءه بالشعوب العجيبة الأشكال، ولقاءه بأمتي يأجوج ومأجوج وبناءه للسد وسبب هذا يعود أيضاً لظنهم أن الاسكندر هو ذو القرنين.

= في لذاته وقد حركنا اليوم في سكونه جزعاً لفقده. فرثى أبو العتاهية صديقه علي بن ثابت (وكانت بينهما مجاوبات كثيرة في الزهد والحكمة) فقال:

مؤنس كان لي هلك ... والسبيل التي سلك
يا علي بن ثابت ... غفر الله لي ولك
كل حي مملك ... سوف يفنى وما ملك

وحضره وهو يجود بنفسه فلم يزل ملتزمه حتى فاض، فلما شدّ لحياه بكى طويلاً ثم أنشد يقول:

يا شريكي في الخير قربك الله ... فنعم الشريك في الخير كنتا
قد لعمري حكيت لي غصص المو ... ت فحركتني لها وسكنتا

ولما دفن وقف على قبره يبكي طويلاً أحرّ بكاء ويردد هذه الأبيات:

ألا من لي بأنسك يا أخيا ... ومن لي أن أبثك ما لديا
طوتك خطوب دهرك بعد نشر ... كذاك خطوبه نشراً وطيا
فلو نشرت قواك لي المنايا ... شكوت إليك ما صنعت إليا
بكيتك يا علي بدمع عيني ... فما أغنى البكاء عليك شيا
وكانت في حياتك لي عظات ... وأنت اليوم أوعظ منك حيا

انظر الأغاني لأبي فرج الأصفهاني جـ٣ ص ١٤٧ بتصرف يسير.

٣ ـ دخلت الإسرائيليات إلى كتابات المؤرخين المسلمين، فكانوا يذكرون أحياناً قصصاً بعيدة عن الواقع في تاريخ الاسكندر المقدوني.

ولا يعني هذا أن ما كتب عنه الأجانب هو الصحيح.. فقد شوِّه تاريخه عالمياً ـ إذا صح هذا التعبير ـ كما سنرى؛ لأن كل قوم كان يدعي أن الاسكندر هو منهم. وسترى مقارنات بسيطة وسريعة عما كتب عنه في الفقرات التالية إن شاء الله. كما أننا لن نناقش هنا آراء من ذكروا أنه ذو القرنين، فإن له موضعاً آخر. لكننا نورد هنا ملاحظات متفرقة تدعو إلى النظر والمراجعة والتأمل عمّا كتب عنه من جهة، والخلط الذي صار بين تاريخه وتاريخ ذي القرنين المذكور في القرآن من جهة أخرى.

وأظن أن من أسباب ذكر بعض المعلومات الخاطئة أو المشوهة عن الاسكندر وسيرته وعقيدته هي عدم تعمق المؤرخين[١] المسلمين في تاريخ اليونان القديم، لبدء الترجمة أو عدم الإحاطة بما كتبه اليونان من تاريخهم، ولذلك كانت تبقى فجوات في تاريخهم لا يعلمونها[٢].

يقول أحمد أمين في هذا: (فتاريخ اليونان عندهم يبتدىء بالاسكندر الأكبر أو قبله بقليل ـ مع امتلائه بالأساطير الخرافية ـ ولم يسمعوا كثيراً بتوسيديد، وقد سمعوا قليلاً عن هوميروس..)[٣].

(١) أما الفلاسفة المسلمون فقد عرفوا عقيدته وفسروها تفاسير مختلفة وستمر بك.

(٢) انظر مثلاً ما نقله صاحب تاريخ الخميس جـ ١ ص ١٠١، فقد خلط بين تاريخ ذي القرنين والاسكندر المقدوني، وإن فرق بينهما اسماً.

(٣) فجر الإسلام ص ١٣٦. ويقول (دي بور): كان العرب يحسبون أن تاريخ اليونان لم يبدأ إلا مع الاسكندر الأكبر، وقد وصل إليهم تاريخه محاطاً بالأساطير، ولا شك أن المنزلة التي كان يتبوؤها أرسطو عند هذا الملك العظيم في العصر القديم كانت سبباً في أن فلسفته نالت قبولاً حسناً في قصور خلفاء الإسلام (وهذا تعليل ساذج)، وكان العرب يعرفون ملوك اليونان حتى كليوباترة، وكانوا يعرفون أباطرة الرومان، أما أمثال «توكيديدس» من المؤرخين فلم يعرفوا عنهم شيئاً حتى ولا أسماءهم. انظر تاريخ الفلسفة في الإسلام تأليف (ت. ج ـ دي بور) نقله إلى العربية وعلق عليه الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة ص ٤٠ ـ ٤١ الطبعة الرابعة ١٣٧٧. والكتاب مملوء بالأخطاء والنظرات السطحية عن الإسلام. وللمؤلف أحكام جائرة على الفلسفة الإسلامية. (انظر بعض تعليقات المترجم على الهامش). وسبب منزلة أرسطو عند (العرب) ليست كما ذكرها المؤلف، بل لأسباب أخرى، منها أن أرسطو أخذ الوسطية =

ولو نظرنا إلى ما يقوله المسعودي، لرأينا أنه يلمح لذلك فيقول: كان أول من يعد من ملوك اليونانيين في التاريخ المقدم للحنفاء والقوانين والزيجات في النجوم وغيرها (فيلبس) أبو الاسكندر، ملك سبع سنين[١].

قال: وكان لليونانيين قبله ملوك سلفوا يتنازع في أعدادهم وسماتهم ومدة ما ملكوا من السنين. الثاني ابنه الاسكندر الملك، ملك خمس عشرة سنة، تسعاً منها قبل قتله دارا بن دارا، وستاً بعد قتله إياه على ما في ذلك من التنازع في ملكه بين المجوس والنصارى وغيرهم. وأفضى الملك إليه وله ست وثلاثون سنة والعوام تكثر من سنيه وهذا هو المعول عليه[٢].

ويسرد المسعودي سيرته، ويعني به ذا القرنين[٣].

ويتحدث المقريزي عن الاسكندر، ويذكر أن أباه (فيليبش) تولى الملك بعد أخيه الاسكندر، ثم ذكر أن أحد أحداث الروم غافله بطعنة فقتله بها ثأراً لأبيه عندما حضر لعباً كان على الخيل بين ولده الاسكندر وختنه الاسكندر /أخي امرأته/؛ ويذكر أن كليوباترة هي ابنة فيليبش الذي هو والد الاسكندر، ثم ذكر أن ابنه تولى الملك بعده[٤]. ويذكر بعدها حنكته وسياسته في جمع الجيوش والانتصارات الباهرة على الأعداء وخاصة على دارا، وذكر أنه قبل ذلك دخل بيت المقدس، وقرب فيه لله تعالى قرباناً.

ثم ذكر أنه دخل الشام وطرسوس ورودس ومصر وبنى الاسكندرية هناك.. وهو في هذا ينقل من كتاب (هروشيوش) ثم قال: فهذا هو الصحيح من خبر الاسكندر فلا يلتفت إلى ما خالفه[٥].

قال: ويقال إنه كان أشقر أزرق، وهو أول من سمر بالليل وكان له قوم

= والاعتدال بين الماديين والمثاليين، أمثال سقراط وأفلاطون، وهذا مذهب فلسفي أكثر قبولاً.

(١) التنبيه والإشراف للمسعودي ص ٩٧.

(٢) التنبيه والإشراف ص ٩٨.

(٣) انظر التنبيه والإشراف ص ١٠٠.

(٤) المواعظ والاعتبار للمقريزي جـ ١ ص ١٥٠.

(٥) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جـ ١ ص ١٥١.

يضحكون ويحكون له الخرافات، يريد بذلك حفظ ملكه وحراسة نفسه لا اللذة. وبه اقتدى الملوك في السمر واتخاذ المضحكين والمخرفين[١].

ثم ينقل كلاماً عن أبي الريحان البيروني وفيه أول تاريخ الاسكندر[٢]. وهو في هذا يوضح أن الاسكندر هو غير ذي القرنين المذكور في القرآن[٣].

ويتحدث الخازن عنْ فتوحاته ليقول: لما مات أبوه جمع ملك الروم بعد أن دان له طوائف، ثم مضى إلى ملوك العرب وقهرهم، ومضى حتى انتهى إلى البحر الأخضر، ثم رجع إلى مصر، وبنى الاسكندرية، وسماها باسمه، ثم دخل الشام، وقصد بيت المقدس، وقرب فيه القربان، ثم انعطف إلى أرمينيا، وبوب الأبواب، وبنى السدود، ودانت له ملوك العراق والنبط والبربر، واستولى على ممالك الفرس، ثم مضى إلى الهند والصين، وغزا الأمم البعيدة، ثم رجع إلى العراق ومرض بشهرزور ومات بها وحمل إلى حيث هو مدفون[٤].

وفي دائرة المعارف الإسلامية أنه لما كان الكتاب المتأخرون قد زادوا في هذه الأساطير ونمقوها، فإننا سنكتفي هنا بتلخيص ما رواه كتاب العرب القدماء في هذا الباب، وأول ما نلاحظه أن نسب الاسكندر قد وضع بصور شتى... ونجد بصفة عامة أن هؤلاء الكتاب قد أصابوا في ذكر أبيه فيليب الذي كثيراً ما يذكر باسم فَيْلقوس أو فِيْلقَوس وقد حرف هذا الاسم أحياناً كما حرف اسم أمه أوليمبياس، وتذكر بعض المصنفات اسم جده (آمنته) أو (آمنتاس)، كما تذكر حتى المصنفات القديمة هذه الرواية التي يرجع أصلها إلى اعتزاز الفرس بقوميتهم، والتي تقول إن الاسكندر لم يكن ابناً لفيليب وإنما كان ابناً لداراب (أي دارا الأكبر) وهو لذلك أخو دارا الأصغر آخر ملوك فارس لأبيه. ويقال إنه لما غزا داراب الملك فيليب وأرغمه على أن يدفع

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي جـ ١ ص ١٥١.
(٢) المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ١٥٢.
(٣) انظر المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ١٥٣.
(٤) انظر تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل) للعلامة علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي المعروف بالخازن جـ ٣ ص ٢٠٩، ط ١٣٢٨.

إتاوة سنوية من بيض الذهب، فإن ابنته التي أعطيت اسم هلاي (وقد ذكرها الفردوسي باسم آخر) زوجت من داراب. ولما أرادوا اشتقاق اسم عجيب للاسكندر، قالوا: إن هلاي زوجت من داراب، ولكنه سرعان ما كرهها لنتن رائحتها، وأعادها إلى أبيها بعد أن حاولوا عبثاً إزالة نتنها بالالتجاء إلى دواء يقال له «سندروس» فوضعت ولداً ذكراً سمي الاسكندروس نسبة إلى اسم أمه واسم الدواء معاً. ونشأ الصبي في بلاط جده، وعلمه أرسطو، ولما توفي أبوه فيليب خلفه على العرش، وامتنع عن دفع الإتاوة إلى ملك الفرس، وعندما طلب دارا ـ وكان قد ولي العرش ـ هذه الإتاوة، رد الاسكندر الرسول وهو يقول إنه قد ذبح هذه الدجاجة التي تبيض بيض الذهب وأكل لحمها، وحبس الخراج. وعندئذ تأهب الاسكندر للحرب، وجمع جيشاً لجباً وذهب به أول الأمر إلى مصر حيث أقام المباني.. وكذلك جمع دارا جنده، وتوجه الاسكندر لملاقاته، واقتتل الجيشان في وقعة حامية الوطيس عند الفرات (ويقال إنها نشبت في موضع آخر) خرج منها الاسكندر منتصراً، وفَرَّ دارا. إلا أن اثنين من رجاله غدرا به وجرحاه جرحاً مميتاً كي ينالا بذلك الحظوة عند الاسكندر، وتقول روايات أخرى إن معارك عدة نشبت بين الاسكندر ودارا ولكنها اتفقت في الخاتمة التي تقول إن الاسكندر لقي عدوه وهو يجود بنفسه، فطلب إليه دارا أن يعتني بزوجه، وأن يثأر له من قاتليه، وأوصاه أيضاً أن يتزوج ابنته روشنك، إلى غير ذلك من الشؤون، فوعد الاسكندر بتنفيذ هذه الوصية، وأمر أن تشيع جنازته بما يتفق ومقام الملوك. ومن ثم أصبح الاسكندر الحاكم الشرعي على بلاد الفرس. وأخذ في تصريف شؤون الدولة، ثم توجه إلى الهند لمقاتلة (فور) الذي كان حليفاً لدارا، ونشبت بينه وبين هذا الملك معركة هائلة لم يخلص فيها الاسكندر من (فور) إلا بعد أن أعمل الحيلة في التخلص من فيلته، ثم قهر خصمه آخر الأمر في مبارزة فردية، وخضع له مختاراً ملك آخر من ملوك الهند يدعى (كيد)، وبعث إليه بخمس هدايا عجيبة هي إناء لا ينضب ما فيه، وجارية رائعة الحسن، وطبيب حاذق لا يعجزه سؤال. وبعد ذلك عجب الاسكندر من البراهمة وناظرهم في عدة مسائل أجابوا عليها. وبعد أن فرغ من الهند، بدأ في غزو بقية بقاع

العالم، وهذه الغزوات التي ذكرها، أو قلْ أوجزها المؤرخون، تذهب إلى أنه فتح الصين وبلاد التبت، وأخيراً دخل أرض الظلمات، وقابل الخضر. ويلوح لنا أن المؤرخين يعرفون الشيء الكثير عن هذا الموضوع، ولكنهم أحجموا عن روايته، إما لأنهم ظنوا أنه لم يك معاصراً لدارا وأن البطل الحقيقي لهذه الحوادث (ذو القرنين) آخر متقدم عن هذا، وإما لأسباب أخرى. . . ونكتفي هنا بالقول بأن الاسكندر توفي في عودته إلى فارس عند شهرزور، أو عند بابل، أو في بيت المقدس كما يقول الدينوري، بالغاً من العمر ثلاثاً وستين سنة، بعد أن حكم ثلاثة عشر عاماً (وقد أوردوا أرقاماً كثيرة أخرى). وتقول بعض الروايات إنه توفي مسموماً، وأنه لما أحس دنو أجله أرسل كتاباً إلى أمه في الاسكندرية يشجعها فيه. ووضع جثمانه في تابوت من ذهب، وتعاقب الفلاسفة على رثائه بكلمات موجزة، ووصفوا فيها غرور العظمة الدنيوية. وبعد ذلك حمل التابوت إلى الاسكندرية ودفن فيها. ويقول المسعودي: إن قبره كان لا يزال موجوداً عام ٣٢٢ هـ ـ ٩٦٤ م. وليس الاسكندر عند المشارقة فاتحاً للدنيا ومشيداً للمدائن (ويقال إنه ابتنى اثنتي عشرة مدينة سميت كلها باسم الاسكندرية) وإنما هو البطل الذي وصل إلى أطراف الأرض. ولم يكن الدافع له على الغزو حب الشهرة في الغزو وحده، وإنما الدافع هو الظمأ إلى المعرفة، ولذلك صحبه الفلاسفة إلى كل بقعة حل فيها، وقد كان يعنى بنوع خاص بالمسائل الصعبة وعجائب الطبيعة، ولذلك نجد مبشر بن فاتك والشهرزوري قد تحدثا عن ذلك فيما نقله عنهما ميرخواند، وقد ذكر الاسكندر عند ذكرهما لسير حكماء اليونان. . . وأظهراه في نفس الوقت بمظهر المدافع عن العقيدة الصحيحة، لأن لقبه «ذو القرنين» الذي اختلف في تفسيره أدى إلى اعتباره عين النبي (!!) المعروف بهذا الاسم والمذكور في القرآن (سورة الكهف آية ٨٣ وما بعدها) ولا يقر هذا جميع المفسرين، ويقول غالبهم بوجود اثنين يلقبان بـ«ذو القرنين» أحدهما متقدم والآخر متأخر، إذن هو عين الاسكندر[١] . . .

* * *

(١) انظر دائرة المعارف الإسلاميه جـ٢ ص ١٢٦ ـ ١٢٨.

وبعـــد. . فإننا نرى أن (وجدي) لم يكن دقيقاً في نقل حياة الاسكندر كما وردت في التاريخ الإسلامي.

فما نقله روايات ذكرها البعض. . وهناك روايات أخرى كثيرة تتفق وما كتبه المؤرخون الأجانب.

* * *

ربما يأخذك العجب وأنت تقرأ أن الاسكندر فتح كل هذه البلاد وهو في هذه السن. . وهذا ما استغربه صاحب معجم البلدان (ياقوت الحموي) عندما قال: وهذا، إن صحّ فهو عجيب مفارق للعادات، والذي أظنه، والله أعلم، أن مدة ملكه، أو حدة سعده هذا المقدار، ولم تحسب العلماء غير ذلك من عمره، فإن تطواف الأرض بسير الجنود مع ثقل حركتها لاحتياجها في كل منزل إلى تحصيل الأقوات والعلوفة ومصابرة من يمتنع عليه من أصحاب الحصون، يفتقر إلى زمان غير زمان السيـر، ومن المحال أن تكون له همة يقاوم بها الملوك العظماء، وعمره دون عشرين سنة، وإلى أن يتسق ملكه ويجتمع له الجند وتثبت له هيبة في النفوس، وتحصل له رياسة وتجربة، وعقل يقبل الحكمة التي تحكى عنه، يفتقر إلى مدة أخرى مديدة، ففي أي زمان كان سيره في البلاد وملكه لها ثم إحداثه ما أحدث من المدن في كل قطر منها واستخلافه الخلفاء عليها؟ إلا أنه يعود ليقول:

على أنه قد جرى في أيامنا هذه وعصرنا الذي نحن فيه في سنة سبع عشرة وثماني عشرة وستمائة من التتر الواردين من أرض الصين ما لو استمر لملكوا الدنيا كلها في أعوام يسيرة، فإنهم ساروا من أوائل أرض الصين إلى أن خرجوا من باب الأبواب وقد ملكوا ما وراء النهر وخراسان وخوارزم وبلاد سجستان ونواحي غزنة وقطعة من السند وقومس وأرض الجبل بأسره غير أصبهان وطبرستان وأذربيجان وأرّان وبعض أرمينيا وخرجوا من الدربند، كل ذلك في أقل من عامين. وقتلوا كل مدينة ملكوها ثم خذلهم الله وردهم من حيث جاؤوا، ثم إنهم بعد خروجهم من الدربند ملكوا بلاد الخزر واللان وروس وسقسين وقتلوا القبقجاق في بواديهم حتى انتهوا إلى بلغار في نحو

عام آخر؛ فكأن هذا عضد قصة الاسكندر. على أن الاسكندر كان إذا ملك البلاد عمرها واستخلف عليها، وهذا يفتقر إلى زمان غير زمان الخراب فقط[1].

* * *

ثم نرى أن الإمام الطبري بعد أن سرد حرب الاسكندر مع دارا قال: وزعم بعض أهل العلم بأخبار الأولين أن الاسكندر ـ هذا الذي حارب دارا الأصغر ـ هو أخو دارا الأصغر الذي حاربه، وأن أباه (دارا الأكبر) كان تزوج أم الاسكندر وأنها ابنة ملك الروم واسمها (هلاي)[2]. . .

قال بعضهم: ويدل على أنه ولده أنه لما أدرك دارا الأصغر ابن دارا الأكبر وبه رمق، وضع رأسه في حجره وقال له: يا أخي أخبرني عمن فعل هذا بك لأنتقم منه؟.

قال العلامة الآلوسي: وهو زعم باطل، وقوله يا أخي من باب الإكرام ومخاطبة الأمثال[3].

وذكر الإمام الطبري في سيرة الاسكندر أنه (دخل الظلمات) في أربع مائة رجل يطلب عين الخلد، فسار فيها ثمانية عشر يوماً كما مر، ولا شك أنه يعني به المقدوني، فقد ذكر اسم والده وأنه من اليونان، وذكر المعركة التي دارت بينه وبين الاسكندر، وكونه قبل عيسى عليه السلام بثلاثمائة وست سنين، وكل هذا لا يقال إلا عن المقدوني.

كما يرى المسعودي وابن الأثير أنه هو الذي بنى الردم المذكور في القرآن الكريم لأنه يرى أن الاسكندر هو ذو القرنين. قال المسعودي: وأقصى العمران في المشرق أقصى حدود بلاد الصين والسيلي، إلى أن ينتهي ذلك

---

(١) معجم البلدان جـ ١ ص ١٨٢ ـ ١٨٣.
(٢) انظر تكملة الرواية في تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٧ ـ ٨.
(٣) روح المعاني للآلوسي جـ ١٦ ص ٢٥.

إلى ردم يأجوج ومأجوج الذي بناه الاسكندر دافعاً بيأجوج ومأجوج عن الفساد في الأرض[1].

ونرى أن الدينوري يذكر سيرة الاسكندر كما هي ويعني به ذا القرنين وعندما يصل إلى قصة يأجوج ومأجوج يقول عنه مباشرة: إنه تنكب أرض الصين وسار إلى الأمة التي قص الله جل ثناؤه قصتها[2]. . . الخ؛ ولا يعني هذا أن معظم المؤرخين يقولون هذا، فقد استبعد أبو الفداء ـ مثلاً ـ وغيره أن يكون الاسكندر قد وصل حتى إلى مكان السد[3].

وذكر أن الاسكندر هلك ببيت المقدس، ثم جعل في تابوت من ذهب، وحمل إلى الاسكندرية[4].

وهناك خلاف بين مؤرخينا فيمن بنى الاسكندرية، فيقول ياقوت الحموي في ذلك: ولا شك أن البلد الذي اشتهر به عن الاسكندر بناؤه وبقي أثره حتى الآن هو اسكندرية مصر، إلا أني رأيت خلافاً في أقوال من بناها أولاً: فمن قائل إنه إرم ذات العماد، ومن قائل إن الاسكندر والفَرَمَا أخوان، بنى كل واحد منهما مدينة بأرض مصر وسماها باسمه، وآخر يذكر أنه الاسكندر المقدوني، وآخر يذكر أن الذي بناها هو الاسكندر الأول ذو القرنين الرومي، واسمه أشك بن سلوكس، وذكر محمد بن إسحق أن يعمر بن شداد هو الذي أنشأ الاسكندرية، وقال ابن عفير: إن بانيها جبير المؤتفكي[5]. . .

ونقل صاحب المستطرف أن ذا القرنين هو الذي بنى منارة الاسكندرية العجيبة[6]. ولا عجب في هذا إذا علمنا أنه يقصد به الاسكندر المقدوني.

---

(١) التنبيه والإشراف للمسعودي ص ٢٤. والكامل لابن الأثير جـ ١ ص ٢٣٨ بيروت ١٣٨٥ ـ ١٩٦٥.

(٢) الأخبار الطوال للدينوري ص ٣٧.

(٣) انظر تاريخ أبي الفداء جـ ١ ص ٤٥. وهو (المختصر في أخبار البشر) لعماد الدين إسماعيل أبي الفداء. الطبعة الأولى ـ المطبعة الحسينية المصرية.

(٤) الأخبار الطوال ص ٣٩.

(٥) انظر الأقوال في هذا بالتفصيل في معجم البلدان جـ ١ ص ١٨٣ ـ ١٨٥.

(٦) المستطرف جـ ٢ ص ١٦١.

إلا أن الإمام السهيلي علق على كلام ابن هشام بقوله: قول بعيد مما تقدم، ويحتمل أن يكون الاسكندر (يقصد المقدوني) سمي ذا القرنين أيضاً تشبيهاً له بالأول. لأنه ملك ما بين المشرق والمغرب فيما ذكروا أيضاً وأذل ملوك فارس وقتل دارا بن دارا وأذل ملوك الروم وغيرهم[1].

وعندما ذكر ابن عساكر أنه قد بلغه من جهة أخرى أن ذا القرنين عاش ستاً وثلاثين سنة وقيل اثنتان وثلاثين سنة وكان بعد داود بسبعمائة سنة وأربعين سنة، وكان بعد آدم بخمسة آلاف سنة ومائة وإحدى وثمانين سنة، وكان ملكه ست عشرة سنة؛ اعترض عليه ابن كثير بقوله: وهذا الذي ذكره إنما ينطبق على اسكندر الثاني لا الأول[2].

ومنهم من أخطأ في عمره وابتعد كثيراً[3].

وقال الطبري: وأما الفرس فإنها تزعم أن ملك الاسكندر كان أربع عشرة سنة، والنصارى تزعم أن ذلك كان ثلاث عشرة سنة وأشهراً[4]!.

وعلى قول من قال إن ذا القرنين هو الاسكندر المقدوني، ذكر أنه لما رجع إلى العراق، مرض بشهرزور ومات بها[5]. وقيل مات برومية المدائن[6]، ووضعوه في تابوت من ذهب وحملوه إلى الاسكندرية[7].. وفي

---

(١) الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام للفقيه المحدث أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي السهيلي (٥٠٨ ـ ٥٨١ هـ) جـ٢ ص ٥٩ دار الفكر.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ٢ ص ١٠٩.

(٣) انظر الفتوحات الإلّهية جـ٣ ص ٢٥.

(٤) تاريخ الطبري جـ٢ ص ٩.

(٥) وذكر أنه دفن فيها. انظر روح البيان للشيخ إسماعيل حقي جـ٢ ص ٥١٢.

(٦) ذكر ياقوت الحموي أن (رومية) كثير في كلام الروم وبلادهم. وهما روميتان: إحداهما بالروم، والأخرى بالمدائن، بنيت وسميت باسم ملك. انظر معجم البلدان جـ٣ ص ١٠٠.

(٧) انظر روح المعاني جـ١٦ ص ٢٥.

(التبيان) أنه لما فرغ من بناء السد، رجع إلى بيت المقدس ومات بها[1]، وقيل ببابل[2].

ومن القصص البعيدة عن الواقع ما ذكر أنه عندما سار إلى بحر الظلمات رأى أناساً وأسماكاً وقصوراً وقناديل عجيبة[3]!.

وروي أنه كان يستخدم حجر (الماطليس) في عسكره الذي لا يؤثر فيه الحديد، والبيت الذي يكون فيه لا يدخله السحر ولا الجن[4]!.

وحكي أن الاسكندر تملك بعض البلاد، فدخل هيكلًا، فوجد فيه امرأة تنسج ثوباً، فقالت: أيها الملك أعطيت ملكاً ذا طول وعرض، ثم دخل عليها وإلى بلدها، فقالت له: إن الاسكندر سيعزلك، فغضب، فقالت: لا تغضب، إن النفوس تعلم أموراً بعلامات، وإن الاسكندر لما دخل كنت أدير طول الثوب وعرضه، وأنت لما دخلت فرغت منه وأردت قطعه[5]!.

وحدث الزبير بن بكار عن أبي الحسن المدائني قال: قال بسيل

---

(١) روح البيان جـ ٢ ص ٥١٢.

(٢) وهي مدينة بالعراق، وأول من بناها وسكن بها نوح عليه السلام. انظر معجم البلدان جـ ١ ص ٣٠٩. وفي هامش الأخبار الطوال أنها عاصمة الكلدانيين القدماء ومكانها يبعد عن بغداد بمقدار ٩٣ كم إلى الجنوب على شاطىء نهر الفرات، وقد بناها نمرود وشيد بها معبداً كبيراً لعبدة الشمس، وقد زادت شهرتها في التاريخ القديم بعد خراب نينوى وعظم عمرانها حتى إن حدائقها المعلقة اعتبرت من عجائب الدنيا السبع، وقد استعملت أنقاض بابل في تعمير بغداد وفي عهد أبي جعفر المنصور، وتقوم الآن بعثات أوربية بالتنقيب عن آثارها بجوار قرية (حلة) فعثرت على بعض الآثار وعلى كتيبات من عهد بخت نصر والملوك القدماء. انظر الأخبار الطوال ص ٤. الهامش.

(٣) انظر القصة في المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي جـ ٢ ص ١٥٤.

(٤) المستطرف جـ ٢ ص ١٦٤.

(٥) انظر كتاب الأساطير والخرافات عند العرب تأليف الدكتور محمد عبد المعيد خان (سلسلة العلوم الاجتماعية) ص ٢٨ دار الحداثة ط ٢، ١٩٨٠ نقلاً عن مدنية العرب لمحمد رشدي ص ١٩ مطبعة السعادة سنة ١٩١١ م. وقد كتب المؤلف هذه الحادثة في موضوع العرافة. وأوردها صاحب المستطرف أيضاً في باب الكهانة والقيافة والعرافة، وروي أن المرأة قالت للاسكندر في الأخير: فلا تغضب فإن النفوس تعلم أشياء بعلامات. قال الراوي: فكان كذلك. المستطرف جـ ٢ ص ٩٤.

الترجمان[1]: كنت مع الرشيد في بلاد الروم، فلما افتتح أنقرة، فإذا بحجر عظيم منصوب على باب الحصن فيه كتاب باليونانية، وهي الرومية القديمة، وكان ذو القرنين من ولد يونن بن يونان، فجعلتُ أقرأه وأنقله إلى العربية والرشيد ينظر، فإذا فيه: بسم الله الملك الحق المبين، يا ابن آدم عامص (فاجىء) الفرصة عند إمكانها، وكِلِ الأمور إلى واليها، ولا يحملنك إفراط السرور على مأتم، ولا تحملن على نفسك همَّ يوم لم يأتك فإنه إن يكن من أجلك يأتِ الله فيه برزقك. لا تكـن أسوأ المغرورين في جمع المال، فكم قد رأينا من جامع جمع مالاً لبعل حليلته على أن تقتير المرء على نفسه توفير منه على خزانة غيره. ينبغي لحكماء اليونان أن ينظروا في هذا الكتاب كل يوم، قال: فنظرت فإذا تأريخه أكثر من ألفي سنة[2].

هذه بعض الأخبار الجانبية التي رأيناها في زوايا كتب مختلفة، ولو لم يكن بعضها معتمداً، وذلك للتنويه والبيان. . .

مقارنة بين المصادر الأجنبية الحديثة:

لا أستطيع أن أوازن وأقارن بين الأخبار التي وردت عن الاسكندر كما كتبها المؤرخون والباحثون الأجانب قديماً وحديثاً. .

لكن المصادر الحديثة التـي بين يدي أستطيع أن أقول إنها تتفق في أكثر سيرة حيـاته. وتختلف في بعض النقـاط وأحيانـاً عن سيرة حيـاته الشخصية. وكنت قد ذكرت موجزاً شديداً عن حياة الاسكندر كما كتبها (هارولد لامب)، ونرى أن المعلومات التي وردت في (موسوعة تاريخ العالم) توافق ما جاء في كتاب الاسكندر المقدوني لـ (لامب)؛ وذكر هنا أنه ـ بعد مقتله لصديقه (كليتوى) وتزوجه بـ (روكسانا) الفارسيـة ـ بدأ يحث على الاعتقاد في ألوهيته، كأفضل وسيلة لمعاملة اليونانيين كحاكم مطلق، من غير

(١) هو بسيل الرومي الترجمان، انظر الطبري ٩/٦٩ و٧٠.

(٢) انظر الأخبار الموفقيات تأليف الزبير بن بكار تحقيق الدكتور سامي مكي العاني مطبعة العاني بغداد ص ٣٦.

أن يؤذي شعورهم بالحرية[١].. فأمر الحكومات اليونانية أن تعترف به ابناً لـ (زوس أمون)[٢].

وكذلك فإن تاريخه المختصر في (تاريخ العالم) يشبه ما كتب عنه (هارولد لامب)[٣]. وهناك كتاب (الاسكندر المقدوني) وهو عبارة عن مسرحية، والعنوان الأصلي للمسرحية (Adventure Story) أي قصة مغامرة تأليف (تيرانس راتيجان) (Terence Rattigan) الذي ولد في مدينة لندن سنة (١٩١١) والكتاب من ترجمة وتقديم محمد كامل كمالي ومراجعة الدكتور محمد سمير عبد الحميد سنة ١٩٧٠. والمسرحية ـ كما يقول صاحب التقديم ـ: تستمد مادتها من التاريخ السحيق.. وقائعها درست وأصبحت عبراً ومثلات عبر القرون التالية[٤]...

ولا يخفى أن المسرحية شيء والتاريخ شيء آخر، فلا بدّ من التحقيق العلمي والدقة والمراجعة في التاريخ، أما المسرحية فإن خيال الكاتب وفنه يعملان فيها التحوير والتذييل. يقول المقدم:

ومن هنا يكون دور الفنان المبدع الذي يجهد خياله الخصيب المطوع ليقدم للناس صورة بالغة الإشراق، موغلة في الإمتاع، بما يضفي على تلك الحقائق التاريخية من المعاني ما قد يخفى على العالم الباحث أو يدق عن تصوره ما وسعته قدراته وملكاته وأخيلته إلى ذلك سبيلاً[٥].

والمسرحية من فائدتها أنها تبعث في النفس روح المغامرة والبطولة والعمل، وتفهم شخصية الاسكندر الامبراطورية المتفردة بروح الملوكية والتسلط والحرب... الخ ويصور المسرحي نفسية الاسكندر في ذلك.

وهناك مسرحية أخرى كتبها راسين (Jean Racine) ١٦٣٩ ـ ١٦٩٩

---

(١) موسوعة تاريخ العالم ص ١٦٦.
(٢) موسوعة تاريخ العالم ص ١٦٧.
(٣) انظر من صفحة ١٠ إلى ١٥.
(٤) انظر المسرحية ص ٧.
(٥) المصدر نفسه ص ٧.

الأديب الفرنسي بعنوان (الاسكندر) كتبها عام ١٦٦٥ وترجمتها الدكتورة كوثر عبد السلام البحيري وتقع في اثنتين وثمانين صفحة من القطع المتوسط وذُكر في المقدمة على أن أخطر مطعن في المأساة ينحصر في أن المؤلف قد جعل شخصية الاسكندر شخصية مهزوزة؛ فصار أعظم فاتح في العصور القديمة مجرد عاشق ولهان على الطريقة الرومانسية. كما أخذوا عليها أنها تجعل من (بوروس) شخصية أعظم من شخصية الاسكندر: ولكن يذكر راسين (صادقاً) أن أحداثه هذه أحداث تاريخية استقاها من مصدرين هما المؤرخان اللاتينيان (جوستان) و (كنت كورس).

وتقع المسرحية في خمسة فصول: الفصل الأول: بوروس وتاكسيل ملكان من ملوك الهند يتنافسان في طلب يد الملكة أكسيان والاسكندر يهدد ممالكهم، ولكن كليوفيل أخت تاكسيل تحب الاسكندر، وتتلقى منه رسائل الحب فتنصح أخاها بالاستسلام إليه. وهذا الاستسلام لا يجلب عليه احتقار بوروس وحده، بل احتقار أكسيان أيضاً التي تشارك بوروس بغضه للفاتح المقدوني.

الفصل الثاني: يبعث الاسكندر بإفستيون رسولاً من لدنه ليعرض السلام على الأميرين، فيصده بوروس بعنف. أما تاكسيل، فيظهر ميله منذ الوهلة الأولى، لقبول هذه الصداقة السامية، ولكن يبدو أن توسلات إكسيان تثير نخوته، فيتردد بعض الوقت بين هذا القبول وامتشاق الحسام لقتال الاسكندر، وفي الوقت نفسه تلمح إكسيان لبوروس بأنه هو الذي يملك قلبها.

الفصل الثالث: يأتي تاكسيل مسرعاً مبهور الأنفاس ليعلن إلى أخته وإلى الملكة أن بوروس قد باء بالهزيمة. ثم لا يلبث الاسكندر أن يحضر فيعلن حبه لكليوفيل، ويعدها بإتمام زواج إكسيان وتاكسيل.

الفصل الرابع: تنتحب إكسيان على بوروس الذي نبئت بموته وتقول إنها لن تعطي يدها إلا لمن ينتقم لموت بوروس.

الفصل الخامس: وهنا ترد الأخبار فجأة منبئة بظهور بوروس الذي كان قد أعلن موته، ويقاد أسيراً أمام الاسكندر والأميرتين، فيعلن إليهم موت تاكسيل الذي جاء يتحداه في ميدان المعركة. وحينئذ يعيد إليه الاسكندر ملك ولايته ويبارك زواجه من إكسيان[1].

هذا ما استطعت جمعه عن الاسكندر من المصادر الأجنبية الحديثة التي ترجمت إلى اللغة العربية[2]، وأظن أن سيرته قد اعتراها بعض التحريف والكثير من المبالغة، ولو كان كتابها من اليونان أنفسهم.. فقد اشتهروا بقصص خرافية عن آلهتهم القديمة، وأشعار قصصية شهيرة تسمى بـ (الملاحم) وهي التي تصف حروبهم وأبطالهم، وفيها الكثير من الحماسة الخيالية والوصف المبالغ فيه..

كما أنهم كانوا يتخيلون وقائع حربية كثيرة، ويصبون فيها ما اجتمع في أدبهم من تشابيه وكنايات وصور. أقول: ولا عجب أن يكون قد دخل في سيرة الاسكندر مثل هذا، وإن كان تهويلاً.. فالامبراطور الذي يفتح كل هذه البلاد، لا بد وأن يكون قوياً وعجيباً في أمره، وأن يتعرض لحروب ومصاعب وكوارث، وتمر به وقائع وتجارب كثيرة وغريبة..

وهذا أحمد أمين، يذكر أن السريانيين كانوا ينقلون الكتب اليونانية بدقة وأمانة فيما لم تمس الدين، كالمنطق والطبيعة والطب. أما الإلّهيات ونحوها، فكانت تعد بما يتفق والمسيحية، حتى لقد حولوا أفلاطون في كتابتهم إلى راهب شرقي فقالوا إنه بنى لنفسه معبداً في برية بعيداً عن الناس وظل يتعبد فيها سنين[3].

---

(١) انظر مسرحيات راسين المجلد الأول ص ١٦٦، جامعة الدول العربية، الإدارة الثقافية، دار المعارف بمصر.

(٢) ترجم لحياةالمقدوني المؤلف التركي (ايتمش أولوب) في لغات إسلامية مختلطة بكتابة عربية وعنوانه (كتاب تاريخ اسكندر بن فيلبوس) المطبوع في مطبعة بولاق بمصر سنة ١٢٥٤ هـ.
كما أن هناك مسرحية باسمه للكاتب المعروف مصطفى محمود.

(٣) فجر الإسلام لأحمد أمين ص ١٣١.

اتفاق المصادر الأجنبية والعربيَّة:

يتفق المصدران على أكثر نواحي حياة الاسكندر، منها أنه بنى ثلاث عشرة مدينة باسم الاسكندرية وكذلك حربه مع دارا وأن الأخير قد اغتاله قومه، وزواجه من ابنته وأيضاً البلدان التي فتحها وسيرته العسكرية بشكل عام وغير ذلك مما مرَّ بك.

بين مصادرنا ومصادرهم:

نرى خلافاً بين المؤرخين المسلمين والأجانب في جوانب مهمة.

فقد ورد في تاريخ الأجانب أنه ادعى الربوبية ونرى بالمقابل في (الملل والنحل) أنه نهى عن السجود له وقال: لا يجوز هـذا إلا لباري الكل[1]!.

كما أن المصادر الإسلامية لا تذكر عبادته للآلهة وتقريبه القـرابين للمعابد واحتساءه للخمر. أما الأجنبية فعامرة بذلك، وفيها أيضاً أنه كان زاهداً في النساء وكان دائم المعاتبة من قبل أصدقائه في ذلك.

وهي تذكر أنه تغير تماماً في آخر حياته وأصبح ينتقم ويقتل ويدمر، أما المصادر الإسلامية فتجعل حياته العسكرية رتيبة كما هي منذ البداية.

وتذكر مصادرنا أنه ملك أكثر المعمورة، ولكن ورد في كتاب (هارولد لامب) أنه مات شاباً ولم يتم مما حلم به من سلطان إلا نصفه.

ولم أر ذكراً لخبر بنائه السد في كتابات الأوروبيين إلا من استند إلى القرآن وظن أن المقصود به هو الاسكندر المقدوني، ونرى أن هارولد لامب نفى أن يكون هو باني السد كما يذكر بعض المؤرخين[2] وأظن أن سبب إيراد مؤرخينا لبنائه هو ظنهم أنه ذو القرنين.

---

(١) انظر الملل والنحل للشهرستاني جـ٣ ص ٦٥.

(٢) فيعلق على من ادعى ذلك، ناقداً كتّاب الفرس بعد أن أصبحوا مسلمين: (وقد أضيف إليها =

وأرى أن هناك سبباً مهماً آخر، وهو استناد كل مؤرخ ورجوعه إلى المصادر التي سبقت الكتابة في ذلك. وهكذا انتشر الخبر، وساعده غموض شخصية ذي القرنين.

وعن كيفية موته فقد رأينا أن المقدسي يذكر في (البدء والتاريخ) أنه تطير من دخول بابل خوفاً من القدر، وأنه يكتب وصيته لأمه قبل أن يموت. وهذا ما لم تذكره المصادر الأجنبية رغم انتشار هذه الوصية في كتبنا.

حتى إننا نرى خلافاً على من خلفه[1].

إن كتابات المؤرخين المسلمين عن الاسكندر تنقسم إلى قسمين:

١ ـ من يرى أنه ذو القرنين، فإنه يخلط أحياناً في الكتابة من حيث تاريخه أو عمره أو جوانب من سلوكه العملي.

٢ ـ أما من يرى أنه غير ذي القرنين بل هو الاسكندر قاتل دارا فتقترب كتاباتهم كثيراً من كتابات الأوروبيين، خاصة بعد ترجمة الكتب اليونانية إلى اللغة العربية.. فهذا صاحب نهاية الأرب في فنون الأدب ينقل عن كتاب (بطليموس)[2]. و(بطليموس) هذا كما ذكره هارولد لامب في كتابه الاسكندر المقدوني هو أول من كتب عن الاسكندر. وإذا رأينا لهم كتابات أخرى، فلا يخلو الأمر، إما أن يذكر الكاتب القول بضعفه ويشير إلى ذلك، أو أن يكون ذكراً دون إشارة للمصدر ومن غير تأكيد، كقول من قال إنه من ولد دارا الأكبر وأنه أخو دارا الأصغر، فقد تعجب من ذلك النويري[3].

= زيف آخر، وهو أن الاسكندر قد اجتهد في تلك المسيرة أن يبني سوراً عظيماً مشبعاً بالزيت، ثم أشعل فيه النار، وبإقامة هذا الجدار الملتهب، فقد حصر اسكندرهم في الشمال القوى المخربة لقبائل يأجوج ومأجوج!! انظر الاسكندر المقدوني ص ٢٩٦.

(١) انظر في هذا تاريخ الطبري جـ ٢ ص ١٠ ـ ١٢ ودائرة معارف القرن العشرين جـ ١ ص ٣١٨ ـ ٣١٩ وآخر ما كتبه هارولد لامب في كتابه الاسكندر المقدوني.

(٢) نهاية الأرب تأليف شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري جـ ١٥ ص ٢٣٥.

(٣) نهاية الأرب جـ ١٥ ص ٢٤٢.

مصادرنـــا الحديثـــة:

يظهر أن معظم الباحثين في عصرنا هذا، يميلون إلى الاعتماد على ما يكتبه الأجانب عن التاريخ اليوناني، لأنهم يرون أن هذا تاريخ خاص بهم، فهم أولى أن يكونوا مصدر هذا العلم.

ولا شك أن الدراسة تدعـو إلى الموازنـة والمقارنـة، ثم التحقيق والتمحيص، ثم التفضيل والترجيح، حسب الدلائل والقرائن.

ويرى الأستاذ وجدي أن الأفضل هو نقل هذا التاريخ عن الغربيين لأسباب عديدة:

أولها : أن الإسكندر كان قريباً إليهم، بل هو منهم، وقبيل الرجل أعرف بأمره.

ثانياً : أنهم أحرص على تمحيص سيرته وتطهير سمعته. فلو وجدوا لذلك مساغاً لفعلوا.

ثالثاً : أن مؤرخي العرب كانوا يتلقفون هذه الأخبار من أفواه اليونانيين الذين احتكوا بهم في صدرهم الأول. ولم يكن أمر الاسكندر لديهم مهتماً حتى يمحصوا تاريخه ويبالغوا في نقده، لكن الأوروبيين إنما نقلوا ما كتبوه عن مصادره الأصلية، وأعملوا فيه النقد العلمي الصارم[١]!.

ويوافق رأيه كتابات عربية كثيرة في هذا الوقت كما هو شأن صاحب كتاب البحر الزاخر[٢].

فنرى أنه يتحدث أو ينقل عن حياة الاسكندر كما هو في كتـاب الاسكندر المقدوني لهارولد لامب، مع ذكر فروع أخرى[٣].

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين جـ ١ ص ٣٢٢.

(٢) البحر الزاخر في تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر، تأليف محمود فهمي المهندس المتوفى سنة ١٣١١ هـ. الطبعة الأولى سنة ١٣١٢ هـ.

(٣) انظر الحديث عنه في المجلد الأول الجزء الثاني من ص ١٣٤ - ١٥٢.

كما أننا نلمس أن المؤلف يميل إلى أن الاسكندر هو ذو القرنين، رغم أنه يورد أخباراً كثيرة عنه، هي أبعد ما تكون عن ذي القرنين، كتقريبه القرابين للآلهة.. يقول: ورجع إلى الجهة الغربية من نهر جيحون، وقضى فصل الشتاء في (زارياسبه) وأجرى حركاته العسكرية على الصيطيائيين، فحصل له خسارات جمة، والتزم بأن يقفل عليهم الدروب بالسور أو السد المشهور المذكور في القرآن الشريف، في أقصى الجهات الشمالية الشرقية من نواحي (جموشتبه) من الجهة الشرقية[1]... الخ.

ومع هذا، فإنه تبقى أبحاث كثيرة عن حياة الاسكندر غير مؤكدة، ولا تتجاوز حدود الظن، وبخاصة إذا علمنا أن تاريخه لم يدون إلا بعد أربعمائة سنة من ولادته!!.

تاريخ الاسكندر في الميــزان:

جاء في دائرة معارف القرن التاسع عشر الفرنسية أن الأمم الشرقية من الاسكندر في أمر مريج، فالفرس يدعون أنه من أصل فارسي، ويزعمون له الأعاجيب التي تفوق العقل، وينسبونه إلى العائلة المالكة في بلادهم، فيقولون إنه ابن الشاه (دارات) وإنه إنما هاجم بلادهم ليستخلص ملكه من يد أخيه (دارا)، وأما المؤلفون الشرقيون من المسيحيين، فإنهم مثل (مارهبروس) وابن البطريق، قد زعموا أن الاسكندر من أصل مصري، قائلين: إن (نيكامبوس) لما طرده الملك الفارسي (ارتكسركسيس) من ملكه التجأ إلى مقدونيا وتظاهر بعلم النجوم، وكانت له علاقات مع (أولمبياس) امرأة فيليب، فولدت الاسكندر[2].

ويقول (هارولد لامب): إنه ضاع معظم تلك المذكرات التي كتبت بالإغريقية، ولم يصل إلينا كاملاً إلا تآليف الكتاب الرومان المتأخرة، وقد راجت عند نهاية القرن الأول بعد المسيح كتب الاسكندر[3]. قال: وآخر

---

(١) البحر الزاخر جـ ٢ ص ١٤٨.

(٢) انظر هذا الكلام في دائرة المعارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي جـ ١ ص ٣٢٢.

(٣) باختصار الاسكندر المقدوني لهارولد لامب ص ٣٩٢.

جماعة كتاب السير هذه هي (آريان فلافيوس أريانوس) وهو إغريقي الولادة وحاكم في آسيا الصغرى، وقد كتب أتم قصة لمسير الاسكندر المقدوني وأسماها (صمود الاسكندر).

وقال: كتبت عن الاسكندر أساطير منها قصة الصعود (الأناباس) كتبها كالستينس وكانت ملقاً وتحريفاً. ومدحه زوج تاييس الملك بطليموس بن لوكوس لأسباب سياسية، وكذلك الكاتب المسمى أرستوبولوس[١].

وتقبل الأوروبيون ـ والطبيعة الإنسانية هي هي ـ الأسطورة المصرية التي سرعان ما دعيت (عهد الاسكندر) حقيقة تفوق حقائق التواريخ الرومانية. وكذلك جعل الإيرانيون الاسكندر حاكماً وجعلوه إيرانياً. فقد أصبح في أسطورتهم الابن الحقيقي لآخر ملك من سلسلة كورش الإخمينية وليس من فيليب[٢].

واحتفظت القبائل العربية في صحاراها بشخصية الاسكندر في خيالهم زاعمة أن الاسكندر ذا القرنين كان (مثل موسى) بطلاً قديساً في الإسلام أطاح بآلهة غريبة معادية للإسلام وهي آلهة أمم مشركة.

وجعل الأحباش على جانبهم من البحر الأحمر كما هو المتوقع معجزة خارقة من الشخص الغامض ابن فيليب الشهير الذي ظهر رسولاً مسيحياً[٣].

واقتبس الأرمن والسوريون أجزاء من الأسطورة العجيبة التي أصبحت عندئذ شيئاً من مأثرة عالمية. واتخذ حتى البيزنطيون المتحذلقون من الاسكندر ملكاً بطلاً لهم[٤].

ولما دخل الصليبيون الشرق الأدنى سمعوا بالأسطورة من المغنين في

(١) الاسكندر المقدوني ص ٣٩٢.
(٢) باختصار عن الاسكندر المقدوني لهارولد لامب ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤ وسيمرّ بك فصل كامل عن هذا الملك.
(٣) الاسكندر المقدوني ص ٣٩٤.
(٤) الاسكندر المقدوني ص ٣٩٤.

القاعات ومن القصاص في السوق، فرأوا فيه بطلاً مسيحياً ذهب قبلهم[1].

وأظن أن هذا رأي سديد اطلع فيه المؤلف على آراء أقوام عديدين ومذاهبهم في الاسكندر، فذكر ما ذكر. . . لكن هل سلم المؤلف نفسه من هذه الأخطاء؟ لا أظن.

وعن مدى تشويه تاريخه نقلنا لك فيما سبق أن السريانيين كانوا ينقلون الكتب اليونانية التي تتعلق بالإلٰهيات ونحوها بما يتفق والمسيحية.

ويذكر أحمد أمين أن الفرس ترجموا الكتب اليونانية إلى الفهلوية[2]. فلا غرابة أن يكون هناك تحريف أثناء هذه الترجمة.

ويذكر أيضاً أن المؤرخين المسلمين القدماء عندما كانوا ينقلون تاريخه، ينقلونه مجرداً عن ذكر الآلهة ويضيفون إلى سيرته بناء السد على يأجوج ومأجوج ظناً منهم أنه ذو القرنين!.

* * *

الخلاصة:

وهكذا فإننا نجد أن تاريخ الاسكندر لم ينقل إلينا كله بشكل صحيح، وإنما هو أخبار وملاحم كتبت بعد مولده بقرون، ثم نقلها وترجمها المؤرخون القدامى عن سابقيهم على علاتها، وزاد من بعدهم ونقصوا حسب مصالحهم وعقائدهم.

هل الاسكندر المقدوني مؤمن؟:

أظن أن الأمر كله يتعلق بهذا السؤال. فلا أحد يقول إن الاسكندر هو ذو القرنين، إذا عرف أنه على ملّة باطلة وعقيدة ضالة. .

ذلك أن الله تعالى قد أثنى على ذي القرنين في كتابه العزيز، لعدالته وحبه للإصلاح وإيمانه بالله واليوم الآخر. .

(١) الاسكندر المقدوني ص ٣٩٥.

(٢) فجر الإسلام لأحمد أمين ص ١٣١.

فمن قال إن الاسكندر رجل مؤمن، لم يستبعد أن يكون هو ذا القرنين.

ومن رأى أنه على عقيدة باطلة نفى أن يكون هو..

ومن علمائنا من فرق بينهما، ومنهم من ذهب إلى أنه الاسكندر المقدوني ودعم رأيه بأدلة توضح إيمانه.. ورد عليهم آخرون..

فمن قال إن هذا هو ذو القرنين؟ وما دليله؟ وكيف يقال بأنه مؤمن؟.

تحقيق الآلوسي: كتب العلامة الآلوسي - يرحمه الله تعالى - تحقيقاً حول هذا الموضوع مبيناً آراء كثير من المؤرخين وأدلتهم وقوة حجتهم، ووضعها جميعاً في ميدان النقد الموضوعي، وانتهى إلى آراء، ربما ارتاح لها القارىء، أو أبدى رأيه في هذا الخلاف الشائك..

وقد ألمحنا قبل قليل إلى بعض هذه الخلافات، ونبذة عن حياةالاسكندر ليكون القارىء على اطلاع، ومن ثم يدخل مع الدارس في هذا البحث..

بعد أن ذكر أبو الفضل شهاب الدين الآلوسي الكلام عن الاسكندر عندما قتل دارا الأصغر قال: والملك الذي اشتهر في كتب التواريخ أنه بلغ ملكه إلى هذا الحد ليس إلا هذا الاسكندر.. ثم أخذ يعد هذه البلاد التي فتحها كما أوردناها سابقاً، وبين الخلاف في المكان الذي مات فيه، وذكر أنه عاش ستاً وثلاثين سنة ومدة ملكه ست عشرة سنة[1].. ثم قال: فلما ثبت بالقرآن أن ذا القرنين ملك أكثر المعمورة، وثبت بالتواريخ أن الذي هذا شأنه هو الاسكندر، وجب القطع بأن المراد بذي القرنين هو الاسكندر، كذا ذكره الإمام[2]. ثم قال: وهذا القول هو الأظهر للدليل المذكور. إلا أن فيه

---

(١) روح المعاني جـ ١٦ ص ٢٥.

(٢) وكذا ذكره أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط حيث قال: قال بعض المفسرين. انظر جـ ٦ ص ١٥٨ - ١٥٩. وكلاهما يقصدان الإمام الرازي، حيث ذكر ذلك في التفسير الكبير. انظر جـ ٢١ ص ١٦٣ - ١٦٤.

إشكالاً قوياً، وهو أنه كان تلميذ أرسطو الحكيم المقيم بمدينة (أثينة)، أسلمه إليه أبوه فأقام عنده خمس سنين وتعلم منه الفلسفة وبرع فيها، وكان على مذهبه، فتعظيم الله تعالى إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطو حق، وذلك مما لا سبيل إليه.

وأجيب بأنا لا نسلم أنه كان على مذهبه في جميع ما ذهب إليه، والتلمذة على شخص لا توجب الموافقة في جميع مقالات ذلك الشخص. ألا ترى كثرة مخالفة الإمامين لشيخهما الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه؟ فيحتمل أن يكون مخالفاً له فيما يوجب الكفر.

وفي ذبحه في مذبح بيت المقدس[1] دليل على أنه لم يكن يرى جميع ما يراه الحكماء.

ولا يخفى أنه احتمال بعيد. والمشهور أنه كان قائلاً بما يقوله الحكماء، والذبح المذكور غير متحقق والاستدلال به ضعيف.

وقيل: إن قوله بذلك وتمذهبه بمذهب أرسطو لا يوجب كفره إذ ذاك، فإنه كان مقراً بالصانع تعالى شأنه، معظماً له غير عابد سواه من صنم أو غيره، كما يدل عليه ما نقله الشهرستاني[2] أن الحكماء تشاوروا في أن يسجدوا له (أي الاسكندر) إجلالاً وتعظيماً فقال: لا يجوز السجود لغير باريء الكل! ولم يكن مبعوثاً إليه رسول، فإنه كان قبل مبعث عيسى عليه السلام بنحو ثلاثمائة سنة، وكان الأنبياء عليهم السلام إذ ذاك من بني إسرائيل ومبعوثين إليهم ولم يكن هو منهم، فكان حكم أهل الفترة.

وتعقب بأنه على تسليم ذلك لا يحسم مادة الإشكال، لأن الله تعالى لا يكاد يعظم من حكمه حكم أهل الفترة مثل هذا التعظيم الذي دلت عليه الآيات والأخبار. وأيضاً الثابت[3] في التواريخ أن الاسكندر المذكور كان

(١) ربما كان هذا من الطقوس الوثنية في ذلك الوقت، وأظن أن المقصود به هو ذبح القرابين للآلهة لدفع سخطها أو جلب رضاها، وكان هذا منتشراً بين اليونانيين.

(٢) انظر الملل والنحل جـ٣ ص ٦٥ وقد مر بك.

(٣) في الأصل: «الثالث» وربما كان هذا خطأً مطبعياً.

أرسطو بمنزلة الوزير عنده، وكان يستشيره في المهمات ويعمل برأيه، ولم يذكر فيها أنه اجتمع مع الخضر عليه السلام، فضلاً عن اتخاذه وزيراً، كما هو المشهور في ذي القرنين.

واعترض أيضاً بأن اسكندر المذكور لم يتحقق له سفر نحو المغرب في كتب التواريخ المعتبرة، وقد نبه على ذلك (كاتب جلبي) عليه الرحمة[1].

ترجيح الآلوسي ورأيه: وبعد أن أورد أقوالاً وآراءً أخرى ذكرنا معظمها، قال: وكأني بك بعد الاطلاع على الأقوال وما لها وما عليها تختار أنه الاسكندر بن فيلقوس غالب دارا، وتدعي أنه يقال له اليوناني، كما يقال له الرومي، وأنه كان مؤمناً بالله تعالى، لم يرتكب مكفراً من عقد أو قول أو فعل، وتقول إن تلمذته على أرسطو لا تمنع من ذلك.

فموسى الذي رباه جبريل كافر   وموسى الذي رباه فرعون مرسلُ!

وقد تتلمذ الأشعري على المعتزلة، ورئيس المعتزلة على الحسن، وقد خالف أرسطو أفلاطون في أكثر المسائل، وكان تلميذه، والقول بأن أرسطو كان بمنزلة الوزير عنده وكان يستشيره في المهمات ويعمل برأيه لا يدل على اتباعه له في سائر اعتقاداته، فإن ذلك على تقدير ثبوته إنما هو في الأمور الملكية لا المسائل الاعتقادية. على أن (الملا صدر الدين الشيرازي) ذكر أن أرسطو كان حكيماً عابداً موحداً قائلاً بحدوث العالم ودثوره المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب ﴾[2]، وما شاع عنه في أمر العالم توهم ناشىء من عدم فهم كلامه، ومثله في ذلك سائر أساطين الحكماء، ولا نسلم عدم سفره نحو المغرب، ولا ثبوت أن الخضر كان وزير ذي القرنين، وإن اشتهر ليقدح عدم كونه وزيراً عنده في كونه ذا القرنين. وقيل إنه كان وزيراً عند ملك يقال له ذو القرنين أيضاً، لكنه غير هذا، ووقع الاشتباه في ذلك.

---

(١) روح المعاني جـ ١٦ ص ٢٦.
(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠٤.

وقيل: يمكن أن يكون عليه السلام في جملة الحكماء الذين معه، وكان كالوزير عنده، ولا يقدح في ذلك استشارة غيره في بعض الأمور، وكان مشتهراً إذ ذاك بالحكمة دون النبوة، وفي الأعصار القديمة كانوا يسمون النبي حكيماً، ولعله كان مشتهراً أيضاً باسم آخر، وعدم تعرض المؤرخين لشيء من ذلك لا يدل على العدم، وقيل لا نسلم عدم التعرض، بل قولهم إن الخضر كان وزير الاسكندر المذكور عند القائل بأنه ذو القرنين ولا يمنع من ذلك كون الخضر على الأصح نبياً، والاسكندر ليس كذلك. . لأن المراد من وزارته له تدبير أموره ونصرته ولا ضرر في نصرة نبي وتدبيره أمور ملك صالح غير نبي. . وهذا واقع في بني إسرائيل[١].

وإن لم تختر ما ذكرنا فإن اخترت أنه من ملوك اليمن أو اسكندر آخر يلزمك إما القول بأنه لم يكن في زمن إبراهيم عليه السلام، وإما القول بأنه كان في زمنه بعد نمرود أو معه إلا أنه تحت إمرته، ولم يكن (فريدون) إذ ذاك، ويلزمك طي الكشح عن كتب التواريخ، كما يلزمك على أتم وجه لو اخترت أنه (فريدون).

قال: والأقرب عندي ـ لإلزام أهل الملل والنحل الضالين الذين يشق عليهم نبذ كتب التواريخ وعدم الالتفات إلى ما فيها بالكلية مع كثرتها وانتشارها في مشارق الأرض ومغاربها وتباين أديان مؤلفيها واختلاف أعصارهم ـ اختيار أنه الاسكندر بن فيلقوس غالب دارا:

وما عليّ إذا ما قلت معتقدي دع الجهول يظن الجهل عدوانا

واليهود قاطبة على هذا لكنهم ـ لعنهم الله تعالى ـ وقعوا في الاسكندر ونسبوه أقبح نسبة، مع أنهم يذكرون أنه أكرمهم حين جاء إلى بيت المقدس وعظم أحبارهم. والله تعالى أعلم[٢].

---

(١) روح المعاني جـ ١٦ ص ٢٩.

(٢) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٠.

تأييـــد وتوضيـــح:

كان هذا رأي الآلوسي رحمه الله. وقد رأيت حجته في ذلـك، وملخصها أن الاسكندر ملك مؤمن فتح المعمورة كلها، ولا يصدق ما كتب عنه اليهود والنصارى، فهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يعني كونه تلميذاً لأرسطو أنه كان يعتقد بكل ما يقوله.

وهناك علماء آخرون ذهبوا إلى ما ارتآه الآلوسي، بل ذكر أبو حيان أن هذا هو المشهور[1]!.

ونرى أن أشد من انتصر لهذا القول حديثاً هو العلامة القاسمي، يقول:

إن المرجع في ذلك هم أئمة التاريخ، وقد أطبقوا على أنه (أي ذا القرنين) الاسكندر الأكبر ابن فيلبس، باني الاسكندرية بتسعمائة وأربـع وخمسين قبل الهجرة، وثلاثمائة واثنتين وثلاثين سنة قبل ميلاد عيسى عليه السلام. وقد أصبح ذلك من الأوليات عند علماء الجغرافيا، وأما دعوى أنه كان مشركاً يعبد الأصنام، فغير مسلّم، وإن كان قومه وثنيين لأنه كان تلميذاً لأرسطاطاليس. وقد جاء في ترجمته ـ كما في طبقات الأطباء وغيرها ـ أنه كان لا يعظم الأصنام التي كانت تعبد في ذلك الوقت، وأنه بسبب ذلك نسب إلى الكفر، وأريد السعاية به إلى الملك. فلما أحس بذلك شخص عن أثينا، لأنه كره أن يبتلي أهلها بمثل ما ابتلوا به سقراطيس معلم أفلاطون. فإنه كان من عبادهم ومتألهيهم، وجاهرهم بمخـالفتهم في عبادة الأصنـام وقابـل رؤساءهم بالأدلة والحجج على بطلان عبادتها. فثوروا عليه العامة واضطروا الملك إلى قتله. فأودعه السجن ليكفهم عنه. ثم لم يرض المشركون إلا بقتله، فسقاه السم خوفاً من شرهم، بعد مناظرات طويلة جرت له معهم كما في (طبقات الأطباء وتراجم الفلاسفة). فالوثنية وإن كانت دين اليونانيين واعتقاد شعبهم، إلا أنه لا ينافي أن يكون الملك وخاصته على اعتقاد آخر يجاهرون به أو يكتمونه، كالنجاشي ملك الحبشة، فإنه جاهر بالإيمان بالنبي ﷺ، وشعبه وأهل مملكته كلهم نصارى. وهكذا كان الاسكندر وأستاذه

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي جـ ٦ ص ١٥٨.

والحكماء قبله. فإن الممعن في تراجمهم يرى أنهم على توحيد وإيمان بالمعاد. قال القاضي صاعد: كان فيثاغورث ـ أستاذ سقراط ـ يقول ببقاء النفس وكونها، فيما بعد، في ثواب أو عقاب على رأي الحكماء الإلّهيين. فتأمل قوله: (على رأي الحكماء الإلّهيين) يتحقق ما ذكرناه[1].

وأما قول الرازي: (إن في كون الاسكندر ذا القرنين إشكالاً قوياً، وهو أنه كان تلميذ أرسطاطاليس الحكيم وكان على مذهبه، فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حق وصدق وذلك مما لا سبيل إليه)، فلا يخفى دفع هذا اللزوم. فإن من كان تابعاً لمذهب فمدح لأمر ما يوجب مدحه لأجله، فلا يلزم أن يكون المدح لأجل مذهبه ومتبوعه. إذ قد يقوم فيه من الخلال والمزايا ما لا يوجد في متبوعه، وقد يبدو له من الأنظار الصحيحة ما لا يكون في مذهبه الذي نشأ عليه مقلداً، أفلا يمكن أن يكون حراً في فكره ينبذ التقليد الأعمى ويعتنق الحق. ومن آتاه الله من الملك ما آتاه، أفيمتنع أن يؤتيه من تنور الفكر وحرية الضمير ونفوذ البصيرة ما يخالف به متبوعه؟ هذا على فرض أن متبوعه مذموم. وقد عرفت أن متبوعه (أعني أرسطاطاليس)، كان موحداً. وهو معروف في التاريخ لا سترة فيه. على أنه لو استلزمت الآية مدح مذهب أستاذه لكان ذلك في الأصول التي هي المقصودة بالذات، وكفى بها كمالاً[2].

ويدافع الأستاذ عبد الكريم الخطيب عن هذا الرأي فيقول: وقد تتلمذ الاسكندر على الفيلسوف اليوناني العظيم، أو المعلم الأول «أرسطو».. وساعده نبوغه العبقري على أن يهضم فلسفة «أرسطو» في فترة قصيرة وأن يتمثلها تمثيلاً صحيحاً، وأن يصفّيها من كل شائبة.. فكانت تلك الفلسفة غذاءً صالحاً لهذا العقل السليم المتفتح لاستقبال كل ما يمده بطاقات من النور تزداد بها بصيرته نفوذاً إلى أعماق الأشياء، والوصول إلى لبابها..

---

(١) تفسير القاسمي جـ ١١ ص ٤١٠٧، ٤١٠٨.

(٢) تفسير القاسمي جـ ١١ ص ٤١٠٨ ثم قال: وللرازي فرص يغتنم بها التنويه بالحكماء والتعريف لمذهبهم، وهذه منها. وإن صبغها ـ سامحه الله ـ في هذا الأسلوب. عرف ذلك من عرف.

فالاسكندر بذكائه وعبقريته، وباستعداده الموروث للملك والسلطان، استطاع أن يحول فلسفة أرسطو إلى واقع عملي وإلى قوة منطلقة معه لتحقيق آماله الكبيرة وبناء هذه الدولة العظيمة التي تحركت لها همته على أساس وطيد من العدل والإحسان. . وذو القرنين ـ كما يذكره القرآن ـ رجل مؤمن بالله، التقى فيه هذا الإيمان بطبيعة قوية تنفي الخبث وتعاف المنكر من الأمور، وتأبى أن تنزل إلى ما يمس المروءة ويجوز على الشرف والكرامة. . فكانت خطواته كلها قائمة على طريق الحق والعدل والخير. والاسكندر أشبه الناس بذي القرنين هذا؛ فقد كان مؤمناً بالله، وقد فتح له الطريق إلى هذا الإيمان أستاذه أرسطو الذي كان موحداً يقول بالصانع الأول وبالعقل الأول وبالمحرك الأول وبالسبب الأول. . إلى غير ذلك من المقولات التي تجعل على الوجود قوة عاقلة، يدور في فلكها كل موجود!.

وإذا كانت تصورات أرسطو لله سبحانه وتعالى يحفها الغموض، فإنها تصورات في صميمها تبلغ بمن يأخذ طريقه معها على هدى وبصيرة إلى التصور الصحيح لله سبحانه وتعالى، وليس بالبعيد أن يكون الاسكندر قد اهتدى في طريقه إلى الله بما لم يهتد إليه أستاذه، فآمن بإله متفرد بكل كمال منزه عن كل نقص لا يشاركه أحد في ملكه، مما كان يقول به أستاذه، وتقول به الفلسفة اليونانية من العقول السبعة النابعة من العقل الأول والعاملة معه[1]!. .

وعندما يشك الأستاذ الخطيب فيما نقل عن الاسكندر أو أرسطو، ويخشى أن يكون ما استنتجه غير سليم يستدرك الأمر ليقول: «وعلى أي فإن ذا القرنين سواء أكان هو الاسكندر الأكبر أو غيره من عباد الله فإنه على صفتين:

أولهما: أنه ذو سلطان متمكن. . .

وثاني الصفتين: أنه مؤمن بالله، وأنه أقام هذا الملك الواسع العريض

(١) انظر التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، جـ٨ ص ٧٠٠ ـ ٧٠١.

على الحق والعدل والإحسان[1]. . .

وعندما يخلط الأمر على الشيخ محمد الجمال ـ أيضاً ـ بين الملك الحميري والاسكندر المقدوني يقول:

وسواء كان هذا أو ذاك، فالمهم من ذكر قصته في القرآن العبرة والعظة، وكان ملكاً صالحاً عادلاً أو ولياً ملهماً، وكان على ملة إبراهيم عليه السلام[2].

وأظن أن مثل هذا القول ليس بالحل، بل إنه هروب من التحقيق والواقع. . فكيف لا يهم هذا والفرق هو الإيمان أو الكفر؟!.

نظرة في عقيدة أرسطو[3] وفلسفته:

إذاً فالأمر ـ كما ذكرنا ـ يتعلق بعقيدة أرسطو ومدى موافقتها أو مخالفتها للدين. . ومن ثم مدى تأثر الاسكندر بهذه الفلسفة، واعتناقه لأفكارها. . وهي تظهر في سلوكه وسيرته في الحياة.

أرسطو يتشبث بدنيا الواقع والحس فينكر (عالم المثل) وينظر إلى الطبيعة نظرة علمية مدققة يسير فيها بمنطق تدريجي متسلسل لا قفزة فيه ولا طفرة.

---

(١) انظر باختصار التفسير القرآني للقرآن جـ ٨ ص ٧٠٢ ـ ٧٠٣.

(٢) انظر التفسير الفريد للقرآن المجيد للدكتور محمد عبد المنعم الجمال جـ ٣ ص ١٨١١. دون ذكر اسم المطبعة أو الناشر أو العام الذي طبع فيه الكتاب!.

(٣) ولد سنة (٣٨٤) ق. م في أسطاجير، وكانت مستعمرة يونانية على بحر إيجة، وهو من أسرة عريقة في الطب. . فقد أباه وهو صغير، تعلم مع فيلبس أبي الاسكندر، ظهرت عليه مخايل النجابة والذكاء في أكاديمية أستاذه أفلاطون الذي لزمه عشرين سنة حتى وافته منيته. . استقدمه فيلبس من مدينة (ميتيلين) ليتولى تعليم ابنه الاسكندر. كان من عادته أن يلقي دروسه وهو يمشي في رواق ومعه تلاميذه فعرف هو وأتباعه باسم (المشائين). . غادر أثينا بعد وفاة الاسكندر وفرَّ إلى مدينة خلقيس فمات فيها بعد سنة وهو في الثالثة والستين من عمره. انظر باختصار شديد كتاب (مع الفلسفة اليونانية) للدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا ص ١٥١ ـ ١٥٣ ط ١٩٨٠. له مؤلفات في الطبيعة وما بعد الطبيعة والنفس والأخلاق والسياسة والخطابة والحيوان.

ـ فلسفته منطقية طويلة النَفَس. كل شيء يجري في دقة باردة ويدور على منوال التجريد.

ـ فلسفة واقعية تنفذ في أغوار الوجود المحسوس بأقصى ما تستطيع من التحليل والعمق..

ـ طلب دائم للمعقول الذي هو شغلها الشاغل.. قواعده أوليات العقل وبديهياته.

ـ التجريد عند أفلاطون المبدأ والنهاية، وعند أرسطو تابع للوجود الحسي ونتيجة من نتائجه، لا وجود له إلا بوجود العقل.

لم يتخلص أرسطو من سيطرة أفلاطون، فقد ظل المنطقي عنده أولى من العيني، وفهم الأشياء بطريق التفكير أجدى منه بطريق الحسّ[١].

وقد كتب أرسطو في علوم عديدة[٢]..

وفي فلسفته عن علم ما وراء الطبيعة يرى أن هذا العلم هو علم الوجود بما هو موجود. أي هو العلم الذي يبحث في وجود الوجود. أعني كنه الوجود وما به قوامه، أو قل هو العلم الذي يبحث في أوائل الموجودات.. وتعنى خاصة بمعرفة الله (علة العلل) ولذلك يطلق عليها اسم العلم الإلّهي[٣]..

ومذهب أرسطو في الطبيعة والحياة مذهب غائي، فالطبيعة عنده ليست كتلة من الحوادث الهوجاء، وإنما هي ممتلئة بالمظاهر التي يدل نظامها على أنها تتجه نحو هدف معين، فكل شيء موضوع لغاية، أو إنما يسعى لغاية[٤]..

.. والغائية عند أرسطو ليست شيئاً خارج الكائن الجامد أو الكائن

---

(١) انظر باختصار شديد (مع الفلسفة اليونانية) ص ١٥٦ ـ ١٥٩.

(٢) انظر أصناف العلوم التي كتب فيها في كتاب مع الفلسفة اليونانية ص ١٥٤ ـ ١٥٦.

(٣) مع الفلسفة اليونانية ص ١٨٧ باختصار.

(٤) مع الفلسفة اليونانية ص ١٩٥.

الحي وإنما هو توجه من باطن... وهنا تبرز مشكلة جديدة في فلسفة أرسطو، لأنه إذا كانت الغائية إنما تحرك الموجود من باطن، وكانت هي الموجهة لعلته الفاعلة وكان الله غاية الغايات، أفلا يؤدي هذا إلى نوع وحدة الوجود وحلول الله في صميم الأشياء[1]؟!.

والعالم عند أرسطو قديم. فالهيولى موجودة بالقوة منذ الأزل[2]..

واستبعد أرسطو فكرة الخلق، وقصر فعل الله في العالم على تحريكه فقط بطريق العشق! وجعل هذا التحريك فعلاً ضرورياً لا إرادة فيه بوجه، لا سيما وقد رأينا أن الحركة أزلية والزمان أزلي، وكلها مفاهيم تحول دون نسبة الخلق إلى الله[3].

إن العالم لا يحتاج إلى موجد أوجـده، فكل شيء فيه أزلي أبدي لا يفتقر إلى خالق يخرجه إلى حيز الوجود وإلا لم يتحرك.. فالحركة لا بد لها من موضوع تقوم فيه، والهيولى هي الموضوع[4].. الخ.

وعلى كل حال إن العالم موجود منذ الأزل وسيظل موجوداً إلى الأبد وكل ما هنالك من صلة بين الله وبين الأشياء فإنما هي صلة تجاور في الوجود بمعنى أن الأشياء موجودة كما أن الله موجود، وإن كان وجود الله غير وجود الأشياء، والمهم أن نعلم أن الله لم يخلق العالم، لأن الله ثابت يظل هو هو دائماً له نفس القدرة دائماً[5]..

فلا خلق إذن ولا إيجاد من العدم، وإنما كل شيء قديم لا أول له في الوجود. فالعدم لا ينتج وجوداً كما أن الوجود لا يستحيل عدماً[6].

والله عند أرسطو وحيد غير قابل للتحول، وهو ـ في زعمه ـ ليس

---

(١) مع الفلسفة اليونانية ص ١٩٦ باختصار.
(٢) مع الفلسفة اليونانية ص ١٩٦.
(٣) مع الفلسفة اليونانية ص ١٩٦.
(٤) مع الفلسفة اليونانية ص ١٩٦.
(٥) مع الفلسفة اليونانية ص ١٩٧.
(٦) مع الفلسفة اليونانية ص ١٩٧.

الخالق، لأن الهيولى والصورة أزليتان، وتجسم الصور في الهيولى أزلي أبدي. على أنه على وجه ما تبدو الأشياء جميعها مسوقة نحو الله، فهو الغاية التي يبتغيها العالم، ومجرد وجوده يبعث الأشياء إلى سلوك سبل التطور لمراتب أعلى، فهو «المحرك الذي لا يتحرك» للكون، وإنما تجري الدنيا في أفلاكها بباعث من محبته[1].

فصفات الإلّه عند أرسطو أنه علة العلل، وهو المحرك الأول لا يتحرك، وهو واحد من كل وجه، بسيط لا تركيب فيه ولا كثرة، وهو صورة محضة لا تشوبها هيولي أو أي شائبة من شوائب الهيولى، وهو خير محض، وأخيراً هو عقل. لكن ماذا يعقل وفيمَ يفكر؟ إنه لا يتعقل أي شيء كان، ولا يفكر في أي موضوع اتفق، فهذا لا يليق بالكامل المطلق، إنما يليق به أن يتأمل من هو في مرتبة ذاته كمالاً ورفعةً!.

لكن إذا كان الله لا يفكر إلا في ذاته ولا يتأمل إلا ذاته مكتفياً بها فكيف يعقل العالم وكيف يعقل ما يجري فيه؟ إن أرسطو ينفي علم الله بالعالم لأن في ذلك سقوطاً يجب تنزيه الله عنه.. فلا يليق أن يعلم الله العالم وهو أقل منه، فالله لا يعلم ما دونه وإلا كان ناقصاً.. فإذا علم شيئاً غيره لحقه ودنسه وفسد بفساده وصار ناقصاً مثله. لكن إذا كان الله لا يعلم العالم فكيف يحركه؟ ليت شعري كيف يصح تسميته بالمحرك الأول وما وجه هذه التسمية؟ يجيب أرسطو عن هذا السؤال بأن الله إنما يحرك العالم على سبيل الشوق ويشرح ذلك بمقابلة الهيولى بالصورة... فتأثير الله بالعالم إذن ليس أكثر من تأثير صورة يتعشقها محبوها، إذ هو لا يؤثر فيه إلا بجاذبيته وجماله.. يا لها من ألوهية عظيمة شريفة قصد بها أرسطو تنزيه الله وإبعاده عن كل نقص. ولكنه أخطأ المرمى، فإذا كان الله لا يتصل بالعالم لا من جهة العلم ولا من جهة الخلق ولا من جهة التدبير فما مبرر القول به إذن؟ أما قوله إنه يحرك العالم على سبيل الشوق فلا يفسر شيئاً لأنه أدنى إلى الشعر منه إلى الفلسفة.

(١) انظر كتاب عرض تاريخي للفلسفة والعلم تأليف: ا. وولف ص ٢٨ طبعة ١٩٣٦ بتصرف يسير.

لقد كان أرسطو يجل الله وينزهه عن كل نقص، ولكنه ذهب في ذلك مذهباً شططاً حتى جعل من الله محركاً جاهلاً وقائداً لا علم له بجيشه وعلة لا فعل لها في معلولها. .

لقد انتقد أرسطو أستاذه أفلاطون بأنه قال بعالم المثل ثم عجز عن تفسير نشأة الأشياء من عالم المثل. وها هو ذا أرسطو يقع فيما وقع فيه الأستاذ، فيضع العالم في جانب ويضع الله في الجانب الآخر دون أن يفسر تأثير أحدهما في الآخر تفسيراً يزيل الشك ويقطع دابر الاشتباه، فيظلان متقابلين لا اتصال بينهما ولا تأثير، والنتيجة الحتمية لهذا، ألّا حاجة له بالعالم، ولا حاجة للعالم بالله. وما أقبحها من نتيجة[1]!.

هذه رؤوس أقلام موجزة عن بعض ما ذكر من آراء أرسطو في هذا الموضوع، وقد كتب عنها فلاسفة مسلمون قدماء، ونقدوا نظرياته وأشاروا فيها إلى مواضع الخطأ، وبينوا وجهة نظر الإسلام وحكمه في كل أمور الحياة. . وما بعد الموت.

وقد تأثر بهذه الآراء فلاسفة من البلاد الإسلامية، فضلوا وأضلوا ومنهم من حاول التوفيق بين هذه الآراء والنصرانية، أو تقريبها إلى نظرات إسلامية.

كما أن هناك ـ بالمقابل ـ علماء مخلصين لم يدركوا أبعاد هذه الفلسفة، وجميع مقاصدها، فلم ينقدوها، لاكتفائهم بإيمان أرسطو بالله! وزاد الطين بلّة عندما نقلت إليهم بعض آرائه خطأ. . فذهب بعضهم إلى مدح كثير من جوانبها، كما مرّ بك.

ويرى (دي بور) أن الشرقيين لم يستطيعوا أن يفهموا فلسفة أرسطو فهماً خالصاً من الخطأ، لأنه:

---

(١) انظر باختصار شديد، مع الفلسفة اليونانية ص ١٩٧ ـ ٢٠٤. وانظر أيضاً الفلسفة اليونانية ص ١٦٧ ـ ١٧٦ تأليف شارل ذرنر، ترجمة تيسير شيخ الأرض. الطبعة الأولى ١٩٦٨. هذا وقد رد حجة الإسلام الإمام الغزالي على أفكار الفلاسفة ومنهم أرسطو في كتابه القيم (تهافت الفلاسفة).

١ ـ كان يعوزهم الإلمام بحياة اليونان.
٢ ـ ولأنهم لم يكونوا متهيئين لتذوق هذه الحياة[١].

ويقول الأستاذ أحمد أمين أنه نقل إلى العرب حكم نسبت لسقراط وأفلاطون وأمثالهم، بعضها تصح نسبتها إليهم وبعضها ليست من أقوالهم عزيت إليهم.. ثم يذكر من ذلك قول أرسطو: «اعلم أنه ليس شيء أصلح للناس من أولي الأمر إذا صلحوا، ولا أفسد لهم ولأنفسهم منهم إذا فسدوا، فالوالي من الرعية بمنزلة الروح من الجسد الذي لا حياة له إلا بها». وقوله: «لن يسود من يتبع العيوب الباطنة من إخوانه»[٢].

ويكتب الأستاذ (البدوي) في صدر كتابه عن أرسطو، وكأنه يرد على من نقد مؤرخي المسلمين للفلسفة اليونانية بعدم التثبت من التحقيق العلمي في انتسابها لأشخاصها فيقول:

لكل فكر ممتاز حياة حافلة في الضمير الواعي المتطور للإنسانية على تباين عصورها وأجناسها، وبقدر تعدد صور هذه الحياة وعمق تكوينها وتلوينها يكون خصبها وعظمة صاحبها، ولا جناح عليها أن تتعاورها ضروب من التعديل والتبديل وفقاً لعوامل يتصل بعضها بالأسانيد التاريخية وبعضها الآخر ـ وهو الأهم ـ بالشعوب والأفراد الذين يتمثلون تلك الحياة وذلك الفكر[٣]... الخ.

قال: وتلك مبادىء علينا أن نجيد استخدامها وتطبيقها في إدراكنا لأرسطو عند العرب، فلأرسطو ـ وإن قلَّ في هذا شيئاً عن أفلاطون ـ صور متعددة بقدر الحيوات التي قضاها في ضمائر الشعوب، بل الأفراد، الذين مرّ بهم. فأرسطو عند الرومان غيره عند العرب، وهو عند الآخرين مختلف عنه عند الغربيين في العصور الوسطى، بل هو في داخل الحضارة الواحدة يتلون وفقاً لأدوارها[٤]..

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام ت. ج. دي بور ص ٤٠.
(٢) فجر الإسلام ص ١٣٨.
(٣) انظر (أرسطو عند العرب) لعبد الرحمن بدوي ص ٦ ط ٢، ١٩٧٨ م.
(٤) أرسطو عند العرب ص ٦.

ثم قال: وفي تقديرنا لهذه العوامل يجب أن نتجافى عن كل تقويم يتصل بما يسمونه الخطأ في الإسناد التاريخي. فليس هنا خطأ وصواب، إنما هي الضرورة التاريخية تعمل عملها. وبالنسبة إلى الضرورة ينتفي معنى الخطأ والصواب.

وعلى ضوء هذه الواقعة نفهم لماذا نُسب إلى أرسطو ـ في الحضارة (العربية)! مثلاً ـ ما نسب إليه من كتب[1]..

ثم يضع طائفة من نصوص يدرسها بالتفصيل، وضعها شراح أرسطو من بين اليونان والعرب، لابن سينا.

وإذا كان هناك ملاحظات حول ما ذكره الأستاذ البدوي فإننا نذكر أن علماءنا لا يثقون بكل ما ينقل من الأخبار عن هؤلاء الفلاسفة، بل كثير منهم يرى أن يد التحريف قد نالت منها ما نالت.. خاصة من الناحية العقدية..

* * *

وماذا عن الإسكندر؟:

لقد مرّ بك تاريخ الاسكندر، في القديم والحديث، وعند المسلمين والأجانب، وقد لاحظت معي فروعاً في كتابتهم لذلك.. منها ناحية العقيدة والسلوك.. وما يهمنا هنا، هو أنه ذكر عن الاسكندر في الكتب الأجنبية أنه كان على عقيدة أهل اليونان، من عبادة للآلهة وذبح القرابين لها..

ـ منها ما روي أنه أثناء مطالعته (لم يترك عمله في حجرته إلا حين يقدم قرباناً، أو يمشي بين التلال في ساعات الليل)[2].

ـ وقبل سفره للفتوحات أراد أن يستخير الآلهة في معبد دلف على عادتهم. فلما رفض القس الصعود على محل الاستخارة جذبه الاسكندر

---

(١) انظر (أرسطو عند العرب) ص ٦ ـ ٧.

(٢) الاسكندر المقدوني لهارولد لامب ص ٤٥.

بعنف، فقال له القس: يا بني إنك لا تقاوم. فقال الاسكندر: حسبي هذا الفأل حسبي[1]!.

ـ وكان يقدم وحده قبل شروق الشمس على الساحل السوري قرباناً على الصخور خارج السرادقات وهو يشرف على البحر[2].

ـ وعندما زار أورشليم، دخل معبدها وخضع أمام قسيسها الأكبر وهو يهودي[3]!.

ـ وذكر صاحب البحر الزاخر أنه بعد أن شفي من الحمى الشديدة التي أصابته، قرب القربان إلى (عسكولا بيوس) شكراً على ما حصل له من الشفاء[4]. وفي مكان آخر أنه بينما كان جيشه يأخذ راحة السفر، توجه هو إلى رأس جبل وقرب القربان للآلهة على حسب عوائد بلاده في مشاعل من النور[5]..

ـ وذكر أن الاسكندر في آخر فتوحاته شيد اثني عشر مذبحاً ضخماً بالصورة المقدونية علامة على النصر والظفر، ونذر هذه المذابح للآلهة، واحتفل عندها بمواكب الألعاب وتقريب القربان[6]..

ـ ولما دخل مدينة بابل، وكان بها الصنم المشهور باسم (بعل) قرب له قرباناً على عادته في عبادة كل إله يصادفه في فتوحاته، ووجد في هيكله ملاحظات فلكية عملها سدنة هذا الهيكل في مدى ألفي سنة، فأخذها وأرسلها إلى أرسطو ليطلع عليها[7].

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين جـ١ ص ٣١٣.
(٢) الاسكندر المقدوني لهارولد لامب ص ١٧٢.
(٣) دائرة معارف القرن العشرين جـ١ ص ٣١٥ بتصرف يسير.
(٤) البحر الزاخر في تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر لمحمود فهمي المهندس جـ٢ ص ١٣٦.
(٥) البحر الزاخر جـ٢ ص ١٣٧.
(٦) المصدر نفسه جـ٢ ص ١٥٠.
(٧) دائرة معارف القرن العشرين جـ١ ص ٣١٦.

ـ وذكر أنه عندما عاد إلى بابل، وفي وسط استعداداته الأخيرة لبلاد العرب، وفي أثناء المأدبة التي عملت وقت سفره لتلك الجهة، وفي أثناء حالة الشرب، شرب الملك كثيراً من الشراب. ولما فرغ من شرب آخر كأس أصابته الحمى[1]...

ـ وكان يناقش مع حكيم مصري بأن الإله الأب قد انحدر من صلب (زيوس) هو آمون رع حقيقة، وأن أبولو قد يكون (أوزيرس) الذي ذبح لكي يبعث إلى الحياة مرة أخرى[2]!.

ويذكر أنه ليس في ذلك غرابة، فإن الاسكندر أدى واجبات العبادة لكل الآلهة التي صادفها في البلاد التي افتتحها، كأنه يعتقد أن كل هذه الآلهة واحدة في حقائقها وإن اختلفت في أسمائها[3]!.

أما ما قيل من أنه تغير بعد فتوحاته، فأبطرته النعمة، وأطغته العظمة، فقد ذكر أنه أصغى للوشاة والدساسين. ولم يمنعه فضله وعلمه وكونه تلميذ الفيلسوف الأكبر أرسطو، من أن ينساق مع ميوله التي ورثها عن قومه المقدونيين الذين كانوا إلى ذلك الحين نصف متوحشين، فأوقع بأصدق أصدقائه لأقل تهمة وجهت إليهم بحق أو بباطل، وانهمك على اللذات واللهو، فأنشأ لنفسه سرايا على نسق ملوك الشرق وإحاطة نفسه بالندمان وأهل الخلاعة، واتخذ لنفسه حرساً من الآسيويين ليكونوا ضد رفقائه المقدونيين الذين كانوا يتآمرون عليه، فينحي عليهم بالقتل وأفظع أنواع التعذيب، وتغلغل في متاهات الغلو حتى ادعى أنه هو وحده يرجع إليه الفضل في هذه الفتوحات، ثم تنمّر حتى ادعى أنه ابن الإله (جوبتر) ودعا إلى عبادته!.

---

(١) البحر الزاخر جـ ٢ ص ١٥٢.
(٢) الاسكندر المقدوني لهارولد لامب ص ١٩٥ ـ ١٩٦.
(٣) دائرة معارف القرن العشرين جـ ١ ص ٣١٥.

ومن آثار جبروته قتله صديقه (فيلوتاس)، وأخص المخلصين له (بارمينيون) الذي قال عنه لأم دارا إنه هو أيضاً الاسكندر، وأوقع بـ (كليتوس) الذي نجاه من الموت، ثم أخذ يبل جثته بدموعه ندماً على ما فرط منه في حقه، وكان قتله بيده لأنه فاه بكلمة خالها مهينة له وهو سكران في وسط مأدبة فخيمة، وأعدم الفيلسوف (كاللستين) لأنه أبى أن يركع أمامه على طريقة الشرقيين أمام ملوكهم، ولكن كل هذه الأعمال الجبروتية سترها عن العامة لأداء أعماله الباهرة التي أتى بها في عهده الماضي[1]!.

هذا ما تكتب عنه المصادر الأجنبية. أما الإسلامية فلا تذكر عنه هذا البتة، بل إن الكاتب المسلم كان يتجنب الحديث عما يتصل بالآلهة.. فهل يعني هذا أن تاريخه لم يدون على حقيقته؟ والجواب ما ذكرناه سابقاً بوضوح. لكن علماءنا عندما كانوا ينقلون أو يكتبون عن حياته ويصلون إلى مثل هذه المواضع يشيرون إليها إما تصحيحاً أو تجريداً.

فنرى المقريزي يذكر أنه عندما ذهب إلى بيت المقدس قرب قرباناً لله تعالى[2]. وعندما يتحدث صاحبا تفسيري الخازن وروح المعاني يقولان بأنه قرب فيه القربان[3]. ألا يدل هذا بأنهم كانوا يرون في كتابات اليونان أنه كان يقرب الآلهة لكنهم كانوا يعدلون عن ذكرها؟ وما كانوا يثقون في كل ما ينقلون عنهم، فرائحة الشرك تفوح من كل كتاباتهم.. وعلى رأسها كتب عقيدتهم!.

أما من ذهب من علمائنا إلى أن الاسكندر ليس هو ذا القرنين فيرى أنه كان مشركاً، يعبد الآلهة. وكافراً معتنقاً لآراء أرسطو الفلسفية..

الفرق بين ذي القرنين والاسكندر:

وبسبب هذا التناقض الصريح والفرق الواضح والاختلاف الظاهر بين ذي القرنين المذكور في القرآن، والاسكندر المقدوني اليوناني فرق علماء

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين جـ ١ ص ٣١٧.

(٢) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للعلامة المقريزي ص ١٥١.

(٣) انظر تفسير الخازن ج ٣ ص ٢٠٩ وروح المعاني ج ١٦ ص ٢٥.

باحثون أجلاء بينهما، وأظهروا الخطأ البين الذي وقع فيه غيرهم، وذكروا أسباباً لهذا الخطأ.

وقد رأيت من أشد المنكرين على هذا الاتجاه الحافظ ابن كثير الدمشقي، فهو يذكر أن هذا المقدوني، اليوناني، المصري، باني الاسكندرية الذي يؤرخ بأيامه الروم، كان متأخراً عن الأول بدهر طويل، كان هذا قبل المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة، وكان أرسطاطاليس الفيلسوف وزيره، وهو الذي قتل دارا بن دارا وأذل ملوك الفرس وأوطأ أرضهم[1].

قال: وإنما نبهنا عليه لأن كثيراً من الناس يعتقد أنهما واحد، وأن المذكور في القرآن هو الذي كان أرسطاطاليس وزيره، فيقع بسبب ذلك خطأ كبير وفساد عريض طويل كثير. فإن الأول كان عبداً مؤمناً صالحاً وملكاً عادلاً، وكان وزيره الخضر... وأما الثاني فكان مشركاً، وكان وزيره فيلسوفاً، وقد كان بين زمانيهما أزيد من ألفي سنة. فأين هذا من هذا، لا يستويان ولا يشتبهان إلا على غبي لا يعرف حقائق الأمور[2].

وقد اعترض ابن كثير على ابن عساكر في خلطه في أول الترجمة وآخرها بين الاسكندر الأول والثاني. قال: والصواب التفرقة (بينهما) اقتداء بجماعة من الحفاظ والله أعلم[3]. وقال أيضاً: وممن جعلهما واحداً الإمام عبد الملك بن هشام راوي السيرة. وقد أنكر ذلك عليه الحافظ أبو القاسم السهيلي رحمه الله إنكاراً بليغاً، ورد قوله رداً شنيعاً وفرق بينهما تفريقاً جيداً... قال: ولعل جماعة من الملوك المتقدمين تسموا بذي القرنين تشبهاً بالأول والله أعلم[4].

وينقل ياقوت الحموي آراء البعض فيذكر أن الأول كان مؤمناً كما قص الله عنه في كتابه، وعمّر عمراً طويلاً، وملك الأرض. وأما الأخير، فكان يرى

---

(١) البداية والنهاية جـ٢ ص ١٠٥.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ٢ ص ١٠٦.

(٣) البداية والنهاية جـ٢ ص ١٠٩.

(٤) البداية والنهاية جـ٢ ص ١٠٩. وانظر كلام الإمام السهيلي في الروض الأنف جـ٢ ص ٥٩.

رأي الفلاسفة. ويذهب إلى قدم العالم كما هو رأي أستاذه أرسطاطاليس، وقتل دارا، ولم يتعدَّ ملكه الروم وفارس[1].

وممن فرق بينهما أيضاً النويري وابن الوردي، وابن تيمية، يرحمهم الله[2].

ويقول ابن القيم في (إغاثة اللهفان) في الكلام على الفلاسفة: ومن ملوكهم الاسكندر المقدوني، وهو ابن فيلبس، وليس بالاسكندر ذي القرنين الذي قص الله تعالى نبأه في القرآن، بل بينهما قرون كثيرة، وبينهما في الدين أعظم تباين. فذو القرنين كان رجلاً صالحاً موحداً لله تعالى، يؤمن بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وكان يغزو عباد الأصنام، وبلغ مشارق الأرض ومغاربها، وبنى السد بين الناس وبين يأجوج ومأجوج؛ وأما هذا المقدوني فكان مشركاً يعبد الأصنام هو وأهل مملكته، وكان بينه وبين المسيح نحو ألف وستمائة سنة[3].

أما الإمام الرازي فيظهر أنه أتى بأدلة عديدة توضح أن ذا القرنين المذكور في القرآن هو الاسكندر المقدوني، وقد أيده في هذا بعض العلماء وعارضه آخرون... فيذكر الإمام الشوكاني أن الذي يستفاد من كتب التاريخ هو أنهما اثنان كما ذكره السهيلي والأزرقي وابن كثير وغيرهم، لا كما ذكره الرازي وادعى أنه الذي تشهد به كتب التواريخ[4].

وبعد أن يورد الإمام الرازي أدلته، يختمها بإشكال كبير، وهو أن الاسكندر تلميذ لأرسطو الفيلسوف، ومدح الله إياه يعني أن مذهب أرسطو

---

(١) معجم البلدان جـ ١ ص ١٨٤.

(٢) انظر نهاية الأرب جـ ١٥ ص ٢٣٥ وتتمة المختصر في أخبار البشر للعلامة زين الدين عمر بن الوردي إشراف وتحقيق أحمد رفعت البدراوي جـ ١ ص ٦٣. وفتاوى ابن تيمية جـ ١٧ ص ٢٣٢.

(٣) انظر إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١ هـ) جـ ٢ ص ٢٦٣ - ٢٦٤، تحقيق محمد حامد الفقي طبعة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٩ م.

(٤) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للإمام الشوكاني جـ ٣ ص ٣٠٧.

حق، فكيف يحل هذا الإشكال ليقال إن ذاك هو ذو القرنين؟!

وعندما رأينا أن البعض يدفع هذا الإشكال ويقول إن الاسكندر لم يكن يعتنق كل أفكار أستاذه، أو أن فلسفته ليست كلها باطلة، يعلق غيرهم فيقول:

هذا الإشكال لا يدفع البتة، فإن الاسكندر وأستاذه أرسطاطاليس لم يكونا مؤمنين، وهذا مما لا خلاف فيه. وذو القرنين المذكور في القرآن كان مؤمناً بدليل قوله تعالى فيما بعد: ﴿ وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً ﴾ بل بالغ بعض المفسرين فقال كما نقله الفخر، وجعله القول الرابع، إن ذا القرنين ملك من الملائكة، فكيف يكون المراد بذي القرنين الاسكندر اليوناني؟ هذا خلاف الصواب وبعيد عن الحقيقة بعد الأرض عن السماء وإن قال به بعض المفسرين. وذهب إليه العلامة راغب باشا في سفينته[1].

ويقول الأستاذ الندوي: اختلف المفسرون في شخصية هذا الرجل، والقول الشائع المشهور أنه الاسكندر المقدوني، وهو القول الذي انتصر له الإمام الرازي، وذهب إليه عامة علماء الإسلام، ولكنه قول لا وجه له، لأن الاسكندر المقدوني لا تتحقق فيه الصفات التي ذكرها القرآن في وصف ذي القرنين، من اتصافه بالإيمان بالله وخشيته، والعدل بالمفتوحين، وبناء السد العظيم. وأرجح أن هذا القول نشأ من عدم الاطلاع على تاريخ الاسكندر وسيرته في الحروب[2].

وأظن أن الإمام الرازي لم يكن منتصراً لهذا الرأي ـ كما ذكر كثير من العلماء ـ وإن كان يميل إليه. إنما دأبه في تفسيره الكبير أن يضع لكل آية، أو عدة آيات، مسائل ويأتي بالأدلة والحجج والردود للآراء. وهو هنا ذكر هذا الرأي وذكر غيره، إلا أنه توسع في الأول أكثر وأورد له براهين، لكنه أورد

(١) انظر كتاب (ذو القرنين) للأستاذ الطباخ ص ٥.

(٢) انظر (الصراع بين المادية والإيمان) للأستاذ أبي الحسن علي الحسيني الندوي ص ١٠٠، الطبعة الأولى.

إشكالاً في آخرها، وكان ذلك بمثابة شك لديه في أن يكون الاسكندر المقدوني هو ذا القرنين. فقد ذكر أن الاسكندر كان تلميذاً للفيلسوف أرسطو وكان على مذهبه، فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حق وصدق. قال: وذلك مما لا سبيل إليه والله أعلم[1]. وتوقف عند هذا الإشكال، فلا نستطيع أن نقول إنه انتصر لهذا الرأي ما دام أنه أورد عليه هذا الإشكال المعجز. لكن النقد الذي يوجه إليه أنه أورد أدلة هذا الرأي فقط.

أما الإمام البخاري، فقد أورد ترجمة ذي القرنين قبل إبراهيم عليه السلام، فهو إشارة منه إلى توهين قول من زعم أنه الاسكندر اليوناني.

قال ابن حجر: لأن الاسكندر كان قريباً من زمن عيسى عليه السلام وبين زمن إبراهيم وعيسى أكثر من ألفي سنة[2].

ويعلل كون الاسكندر قد لقب بذي القرنين تشبيهاً بالمتقدم لسعة ملكه وغلبته على البلاد الكثيرة، أو لأنه لما غلب على الفرس وقتل ملكهم انتظم له ملك المملكتين الواسعتين الروم والفرس، فلقب ذا القرنين لذلك[3].

وهذا ما يميل إليه الإمام السهيلي أيضاً[4].

ويذكر ابن حجر أن شبهة من قال إن ذا القرنين هو الاسكندر ما أخرجه الطبري ومحمد بن ربيع الجيزي في كتاب الصحابة الذين نزلوا مصر بإسناد فيه ابن لهيعة، أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن ذي القرنين فقال: كان من الروم فأعطي ملكاً فصار إلى مصر وبنى الاسكندرية فلما فرغ أتاه ملك فعرج به فقال: انظر ما تحتك؟ قال: أرى مدينة واحدة. قال: تلك الأرض وإنما أراد الله أن يريك وقد جعل لك في الأرض سلطاناً، فسر فيها وعلم الجاهل وثبت العالم. وهذا لو صح لرفع النزاع ولكنه ضعيف، والله أعلم[5].

* * *

(١) انظر التفسير الكبير للفخر الرازي جـ ٢١ ص ١٦٥.
(٢) فتح الباري جـ ٦ ص ٢٧٠.
(٣) فتح الباري جـ ٦ ص ٢٧٠ - ٢٧١.
(٤) الروض الأنف جـ ٢ ص ٥٩.
(٥) انظر فتح الباري جـ ٦ ص ٢٧١ ورده لآراء الغير، ثم انظر الرد على كل هذا بالتفصيل=

ويدرس الأستاذ (سيد قطب) قضية هذا الخلاف من جوانبها بموضوعية وحكمة فيقول يرحمه الله:

إن النص لا يذكر شيئاً عن شخصية ذي القرنين، ولا عن زمانه أو مكانه، وهذه هي السمة المطردة في قصص القرآن، فالتسجيل التاريخي ليس هو المقصود، إنما المقصود هو العبرة المستفادة من القصة، والعبرة تتحقق بدون حاجة إلى تحديد الزمان والمكان في أغلب الأحيان.

والتاريخ المدون يعرف ملكاً اسمه الاسكندر ذو القرنين، ومن المقطوع به أنه ليس ذا القرنين المذكور في القرآن، فالاسكندر الإغريقي كان وثنياً وهذا الذي يتحدث عنه القرآن مؤمن بالله، موحد معتقد بالبعث والآخرة[1].

رأي غـــريـــب:

للمرحوم (وجدي) رأي غريب، فيه جراءة على علم التفسير كله في هذا الموضوع، فهو يرى أن ذا القرنين هو الاسكندر المقدوني ولكنه يعطي براهين جديدة وعجيبة. . هي عكس ما يراه المفسرون. وأرى أن مذهبه هذا يتمشىٰ والأخبار الأجنبية التي نقل عنها. قال:

إن أكثر المفسرين على أن ذا القرنين المذكور في القرآن الكريم هو الاسكندر. حتى اضطر الرازي لأن يورد على هذا القول إشكالاً ولم يحله فقال: إذا كان الأمر كذلك فقد ثبت أن الاسكندر كان تلميذاً لأرسطو فيكون مذهب أرسطو حقاً، فرد عليه العلامة النيسابوري المفسر بأن مذهب الفلاسفة ليس بباطل كله، فربما كان الاسكندر على الحق الذي فيه دون الباطل[2].

قال: أما نحن فنقول إن ذا القرنين المذكور في القرآن هو الاسكندر. ولكن كيف يتفق ذلك مع ما علمته من أن الاسكندر قد فسد قلبه في آخر

= فيما كتبه الأستاذ الطباخ في كتاب (ذو القرنين) ص ٢٠ ـ ٢٤. وانظر رأي الجاحظ وما كتبه عن ترجيحه أن يكون هو الاسكندر واعتراضه.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، جـ ٤ ص ٢٢٨٩ فما بعد ـ دار الشروق.

(٢) دائرة معارف القرن العشرين جـ ١ ص ٣٢٢.

أيامه حتى دعا إلى عبادته والسجود أمامه؟ بل مع ما ثبت من أنه كان يعبد كل إلّه يصادفه ويقرب له القرابين والضحايا؟ ليس في وسع أحد أن يفتات على التاريخ فيزعم أن الاسكندر كان منزهاً عما لوثه به من الصفات ليوفق بين سيرته وما ورد عنه في كتب التفسير، كما أنه ليس في الوسع أن يقول قائل بأن ذا القرنين المذكور في القرآن ليس هو الاسكندر الذي يذكره التاريخ، إذ يبعد عن العقل أن يكون في رجالات الأعصر القديمة رجل بلغ قرني الدنيا ولم يمر على بال. فلأجل حل هذه الإشكالات كلها نقول:

أولاً: لم يذكر القرآن أن الاسكندر كان نبياً أرسل لهداية الناس إلى الدين. فغاية ما وصفه به أنه قال عنه إن الله مكن له في الأرض، وآتاه من كل شيء وسيلة توصله إليه.

وقوله تعالى: ﴿ قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً ﴾ لا يدل على أنه كان يوحى إليه، ولم يقل بذلك مفسر، بل يشير إلى أنه كان يلهمه بهذا العمل. وقول (الاسكندر): ﴿ أما من ظلم فسوف نعذبه ﴾ الآية. فلا يدل على أنه كان يخاطب الله، ولكنه كان من حديث نفسه جواباً على ذلك الإلهام الطيب، كما يحدث لأحدنا عند أي إلهام يلهم به في عمل من أعماله.

ثانياً: قوله: ﴿ وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى ﴾ فلا يدل على إيمان معين بدين من الأديان. بل المراد من آمن وعمل صالحاً على الإجمال في مقابل الأمم الكافرة بالإيمان التي لا تعمل الصالحات، ولم يرسل الاسكندر مفتشاً على الأديان حتى يقال إن المراد الإيمان بمعناه الكامل. فلا ينافي أن يكون المصريون والهنود والفرس وأكثر من مر بهم الاسكندر كانوا مؤمنين بهذا المعنى وعاملين صالحاً.

ثالثاً: القرآن لم يصرح بأن الاسكندر كان حكيماً أو صالحاً بل كان ما قال عنه إنه مكن له في الأرض. وقوله: ﴿قلنا يا ذا القرنين.. ﴾ الخ، لا يدل على صلاحه كما لا يدل قوله تعالى: ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ﴾ الآية. على صلاح النحل أو نبوتها!!.

وعليه فما جاء في القرآن كله لا ينافي أن يكون المقصود بذي القرنين هو الاسكندر المقدوني على ما كان فيه من الشذوذ في بعض الأمور. هذا ما نراه والله أعلم[1].

تعقيب:

لا أدري كيف سوغ المرحوم (وجدي) لفكره أن يرتئي هذا الرأي، الذي خالف فيه كل علماء الإسلام، من مؤرخين، وفقهاء ومفسرين[2]..

لا شك أن غيره كان ـ وما يزال بعضهم ـ يرى أن ذا القرنين هو الاسكندر، لكنهم لم يقعوا فيما وقع فيه (وجدي)، من أن ذا القرنين لم يكن ذا إيمان معين بدين من الأديان وأنه لم يكن حكيماً أو صالحاً، بل كان فيه شذوذ!.

إن هذا قول عظيم وإفك مفترى على هذا العلم القرآني العظيم، وهو كلام شاذ ومنكر، يجب أن يبعد ولا يقال.

فالصفات التي ذكرها (وجدي) لذي القرنين، ليست هي وحدها فقط. ما دام أنه يقول بهذا الرأي، بل إنها زيادة على ذلك كفر وشرك وعبادة للآلهة. وهذه هي عقيدة المقدوني الذي يرى (وجدي) أنه (ليس في الوسع أن يقول قائل بأن ذا القرنين المذكور في القرآن ليس هو الاسكندر الذي يذكره التاريخ) وهو ـ كما قد علمت ـ ما ورد تاريخه في الكتب الأجنبية من أنه كان تلميذ الفيلسوف أرسطو، ومعتنقاً لأفكاره، وملكاً على دين قومه، يعبد الآلهة بكل حرارة، ويدعو عندها بكل خشوع وخضوع، ويقدم لها القرابين ويذبحها بكل إخلاص.. ويدعي الربوبية، ويأمر بالسجود له. نعم

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي جـ ١ ص ٣٢٤، ٣٢٥.

(٢) وقع في هذا الخطأ أيضاً ـ ربما دون أن يدري ـ صاحب البحر الزاخر، فقد ذهب إلى كون الاسكندر هو ذا القرنين، على الرغم من ذكره أنه كان يعتنق الوثنية... انظر تاريخه من ص ١٣٤ ـ ١٥٢ جـ ٢، وقوله إنه ذو القرنين في جـ ٢ ص ١٤٨.

هذا هو تاريخ الاسكندر كما ذكرته المصادر الأجنبية، والتي نقل من بعضها (وجدي) نفسه!.

أهذا هو ذو القرنين القرآني الذي يقول عنه وجدي بأنه (كان يعبد كل إلّه يصادفه ويقرب له القرابين والضحايا)؟.

أم أنه ذلك الملك المؤمن العادل، الذي يقرأ عنه المسلمون في أقاصي الدنيا كلها في أيام الجمع وفي غيرها، فيبهرهم ملكه الكبير، وعدم غروره، وسماحته الكريمة، وإيمانه الكامل، وحبه للإصلاح، وإقامة العدل في أرض الله، فيقول عن الأمم الظالمة (الكافرة والمنحرفة عن طريق الصواب): ﴿أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً﴾.. ويقول عن الأمم الصالحة والمحبة للحق والخير: ﴿وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى﴾، والذي يحمد الله تعالى ويعلم أن ما أوتيه هو منه، ﴿ما مكني فيه ربي خير﴾، ﴿قال هذا رحمة من ربي﴾، ويقول أخيراً: ﴿وكان وعد ربي حقاً﴾.

أفبعد هذا البيان بيان؟ أولا يكفي أن يكون الله قد ذكر قصته في ست عشرة آية فقط ودل على إيمانه في ستة مواضع منها؟!

أَوَيكون مَنْ ذكر الله تعالى صفاته هذه مشركاً وشاذاً ومتألهاً؟ اللهم إني أبرأ إليك من هذا القول.

إن سبب الخطأ الذي وقع فيه وجدي هو اعتماده وتصديقه الكلي لما كتب الأجانب عن الاسكندر. لكنه عندما وجد أن حياته هي هذه المنكرة والملوثة من حيث العقيدة والسلوك، ولم يجد مفرّاً من القول بأنه هو (إذ يبعد عن العقل أن يكون في رجالات الأعصر القديمة رجل بلغ قرني الدنيا ولم يمر من التاريخ على بال) كما يقول هو، فقد آثر ليَّ أعناق النصوص وتأويل الآيات إلى أبعد احتمال، وأنكر رأي، وأشذ حكم! آثر هذا على عدم تصديق ما يكتبه الأجانب عن بعض رجالات التاريخ!

لقد كان الأولى به أن يفكر في أمرين:

١ ـ هل كل ما كتب عن الاسكندر صحيح؟
٢ ـ أليس من الأقرب أن يكون ذو القرنين هو غير الاسكندر اليوناني؟ بل يكون ملكاً قديماً، ملك ما ملك، ثم نسيت أخباره؟.

وأما ما ذكر من أن الآيات لا تدل على نبوة ذي القرنين، فنوافقه على ذلك، وليس صحيحاً أنه لم يقل بذلك أحد، فقد نقلت لك أن عدة علماء ذهبوا إلى هذا الرأي، مستندين إلى ظاهر قوله تعالى: ﴿ قلنا يا ذا القرنين.. ﴾، أما سائر العلماء، فقد ذهب جلّهم إلى كونه ملكاً صالحاً.. وليس المعنى أنه إذا لم يكن نبياً فهو غير مؤمن!.

وما ذكره من أن قوله تعالى: ﴿ وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى ﴾ لا يدل على إيمان معين بدين من الأديان، فنقول بأن العمل لا يكون صالحاً ومقبولاً إلا إذا توفر فيه شرطان:

١ ـ أن يكون موافقاً للشريعة.
٢ ـ أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى.

على أن الله تعالى لا يقرن العمل الصالح ـ في كتابه العزيز ـ بالإيمان إلا إذا عني به الإيمان الصحيح والمقبول عنده. وليكن الدين غير معين أو مجهولاً، فيكفي أن يكون هو (دين الله) الذي أمر باتباعه في ذلك الوقت وما الدين عند الله إلا الإسلام، وكل من أسلم وجهه لله ـ قديماً وحديثاً ـ يقول: ﴿ إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾[1] كما كان يقول إبراهيم عليه السلام.

وما أعجب قوله إن (الاسكندر) لم يرسل مفتشاً عن الأديان.

وهاتان آيتان من أصرح الآيات دلالة على ذلك:

﴿ أما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً ﴾ وقوله تعالى بالمقابل: ﴿ أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً ﴾.

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٦٢.

وليس هناك أظلم من تلك النفس التي تتبع هواها ولا تصيخ إلى صوت الحق ونور الإيمان. ولا شك أن ذا القرنين لم يكن فاتحاً للبلاد إلا ويفتح معها العقول والقلوب، كما أيده الله بذلك.

وزيادة في الإيضاح واليقين نقول بأن الآيات صريحة كل الصراحة في أن ذا القرنين كان مؤمناً باليوم الآخر، ولا يكون المرء مؤمناً به إلا ويكون مؤمناً بالله، مالك ذلك اليوم.

أفبعد كل هذا يصح أن يقال إن (القرآن لم يصرح بأن [الاسكندر] كان حكيماً أو صالحاً)؟.

وهل صحيح أن (كل ما قال عنه «القرآن» أنه مكن له في الأرض) فقط؟.

ألا فليسمح لي أن أنقل الإجماع عن علمائنا ومؤرخينا وفقهائنا أن ذا القرنين مؤمن بالله واليوم الآخر [وليس بكافر أو مشرك] بل هو زيادة على ذلك صالح وعادل، فإني لم أر خلافاً على ما ذكرت عند كل من كتب عنه، قديماً أو حديثاً. ولسنا بحاجة إلى هذا الإجماع، فإن صراحة الآيات القرآنية، ومدلولها البين، تغني عن ذلك.

وقد أورد القاضي البيضاوي الاتفاق على إيمانه وصلاحه[١].

وعفا الله عن المرحوم (وجدي) فما أظنه ـ وقد أفضى إلى ربه ـ إلا وقد اجتهد فأخطأ. لكن هذا درس لمن يسيل لعابه على كتابات المستشرقين وآراء الأجانب، ويعمى عن كل ما عدا ذلك!!.

وأخيراً.. رأي المؤلف:

إذا سمح لي القارىء أن أبدي رأيي في هذا الموضوع الشائك والذي أوردت دراسة طويلة عنه فأقول وبالله التوفيق:

إنه لا يوجد في نص من النصوص الإسلامية إشارة إلى تعيين شخصية

---

(١) انظر تفسير القاضي البيضاوي.

ذي القرنين. وما ذكره البعض إنما هو رأي واجتهاد. والذي أميل إليه أن الاسكندر ليس بذي القرنين في حال من الأحوال، فهو ليس بذاك البطل القديم والشخصية الغابرة التي عفا عليها الزمن منذ القرون الأولى من الحياة البشرية، إنه ليس بذاك العريق والضائع في أحقاب التاريخ حتى يختلف فيه وتنسى أخباره ويمتحن فيه الرسول ﷺ، فإن اليهود لا يسألون عن هذه الشخصية القريبة من ذلك التاريخ في مثل تلك الظروف؛ إنهم أهل الكتاب ويعلمون من أمور التاريخ ما لا يعرفه سكان جزيرة العرب كلهم.

وحينما أرادوا إحراج الرسول ﷺ أو وضع نهاية لقلقهم وخوفهم من أن يكون حقاً رسول الله فقد جمعوا أسئلة ثلاثة، ربما لم يجدوا أدق وأصعب منها في الدين والتاريخ الغابر السحيق! ليلقوها على الرسول ﷺ، ومنها السؤال عن ذي القرنين وأمره؟ وذلك عن طريق رسولَيْ قريش.

فهل الاسكندر هو تلك الشخصية القديمة جداً حتى تنسى؟ لا. إنه لم يكن قديماً إلى هذه الدرجة، وإن تاريخه إلى ذلك الوقت لم يتجاوز قروناً تسعة. وإن ملكاً كبيراً ملك أكثر العالم لا ينسى تاريخه وقد كانت له حروب وآثار في معظم المعمورة، فإن لم تعرف سيرته بين العرب، فلن يخفى عليهم اسمه. وتقريباً للأذهان فإننا نمثل بذلك تاريخ المغول والتتار ولنفترض أنه لا تتوفر وسائل الإعلام في ذلك إلا بعض الآثار القليلة، فهل كنا سننسى الآن اسم هولاكو وجنكيز خان، وما فعلاه من تدمير وخراب، ولو بعد قرون طويلة؟ لا أظن هذا. وهل سينسى صلاح الدين على مدى العصور وكر الدهور؟.

لا أظن أن تاريخ الاسكندر المقدوني أو على الأقل اسمه وما يتعلق به، كان مجهولاً عند العرب في ذلك الوقت، والدليل هو الروايات المتناثرة التي ذكرت عنه إثر بداية التدوين للتاريخ القديم. أما ذو القرنين فقد كان حقاً قديماً ومجهولاً وغائباً عن أذهان الناس، ولو لم يكن ذلك لما امتحن به الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

وأطمئن أكثر إلى هذا القول عندما أرى أن هذه الأخبار القديمة كانت

خاصة بأحبار اليهود وعلمائهم. ولا يستبعد أن يكون قد ورد ذكره في التوراة فحرفها أو محاها من تبعهم من أمثالهم، وما أسهل تحريف وتبديل كلمات الله على قوم قد مسخوا وعذبوا، وعبدوا العجل وقتلوا الأنبياء!!.

أما قول النيسابوري أنه لو كان غير الاسكندر لانتشر خبره[1]، فإن خبره كان منتشراً لكن قدم تاريخه، وكون العرب في ذلك الوقت بعيدين عن تأثير الأديان وأخبارها واستئثار اليهود بمثلها وإخفائها جعل خبره مخفياً.

حقاً إنه (لم يكن يعرف العرب من أخباره شيئاً أبداً)[2].

ولعل سائلاً يسأل، فكيف إذاً قال الكثير من العلماء إنه الاسكندر؟ وأكثر من هذا أن البعض نقل رأي الجمهور في ذلك؟.

أقول: إذا جمعنا الروايات كلها والتي تقول بأن ذا القرنين هو الاسكندر لكان هذا صحيحاً. لكننا إذا عرفنا أن هناك الكثير من العلماء يطلقون على ذي القرنين اسم الاسكندر وهم لا يعنون به المقدوني لرأينا أن (الجمهور) هذا قد انقسم إلى قسمين: قسم يرى أنه المقدوني، والقسم الآخر يرى أنه (الاسكندر). ولكن أي اسكندر هو هذا؟ منهم من لا يجيب، ومنهم من يرى أنه ذو القرنين المذكور في القرآن، ومنهم من يقول إنه الرومي، ومنهم من يذهب إلى أنه العربي، وغيرهم يرى أنه المقدوني... وهكذا فإنك ترى أن لا أغلبية في هذا الرأي.

وأرى أن اسم ذي القرنين أيضاً ليس بالاسكندر، فلا يوجد دليل على ذلك، وقد صار هناك اختلاط في الاسمين لشبه بين ذي القرنين والاسكندر المقدوني من حيث الملك، فعندما رؤي أن المقدوني ملك قرني الدنيا (المشرق والمغرب) قيل إنه ذو القرنين، شبهاً بما ملك. وعندما كان ذو القرنين أيضاً كذلك أطلق عليه اسم الاسكندر لذلك الشبه. وعندما أصبح

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تأليف نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابوري جـ١٦ ص ٢١.

(٢) التفسير الواضح جـ١٦ ص ٧.

هذا الخلط صعب التفريق قال أكثرهم إن هناك الاسكندر الأول (ويعنون به ذا القرنين) وهناك الاسكندر الثاني ويعنون به المقدوني، وقد رأيت معي تعليل الحافظ ابن حجر بأن يكون الاسكندر قد لقب بذي القرنين تشبيهاً بالمتقدم لسعة ملكه وغلبته على البلاد الكثيرة، أو لأنه لما غلب على الفرس وقتل ملكهم انتظم له ملك المملكتين الواسعتين الروم والفرس، لقب ذا القرنين بذلك. وهو الذي مال إليه الإمام السهيلي أيضاً[1].

ولعلك تقول: إذاً ما الداعي أن يقول بعض العلماء الأفاضل إنه المقدوني؟ أقول: لعل تاريخه الواسع وفتوحاته الكثيرة وسيرته الحميدة فيها وأحاديثه العجيبة في السفر والرحلات وبطولته وحكمته وعلمه، وكذلك إيمانه بالله وعدم جحوده للغيب، وقرب تاريخه ومعلوماته أكثر من أي ملك غابر كتب عنه، كان السبب في قولهم هذا. فإن قلت: لكن هناك ملوك آخرون قيل إنهم ملكوا العالم أمثال بختنصر وغيره فلماذا لم يطلق على أحدهم أيضاً (ذو القرنين)؟ أقول: إن اسم الاسكندر الذي غلب على ذي القرنين هو الذي أدى إلى ذلك، وأيضاً سيرته المعتدلة بين جيشه وشعبه والغرباء، أما أمثال بختنصر ونمرود وغيرهم، فقد نقل عنهم الكفر والظلم وهذا بعيد عن شخصية ذي القرنين. فإن قلت: ألم يقرأ علماؤنا عن كتب اليونان أن المقدوني كان يعبد الآلهة ويقرب لها القرابين؟ ألم يقرؤوا عن فلسفته وأفكاره وإيمانه بآراء أرسطو؟.

أقول: إنهم قرؤوا ذلك، ونظروا فيها، لكنهم كانوا يرون أن اليهود والنصارى قد شوهوا سيرته كما شوهوا كتبهم وتاريخ أنبيائهم وأوليائهم. ورأوا أن سيرته أقرب إلى فتوحات الاسكندر ما دام قد أشيع بأنه فتح الدنيا وملك أراضيها.

وإن البطولات الخارقة التي كانت تذكر عنه، وزهده فيما كان يسيطر عليه وحبه للبناء والعمران؛ جعله مقرباً لأن يفهم أنه ذلك الملك المؤمن الصالح والذي بنى السد على يأجوج ومأجوج.

---

(١) انظر فتح الباري جـ٦ ص ٢٧٠ ـ ٢٧١، والروض الأنف جـ٢ ص ٥٩.

وكان هذا هو السبب من وراء ثناء بعض علمائنا أو مؤرخينا على الاسكندر المقدوني، أو تقبل بعض أفكار أرسطو. يقول ابن تيمية ـ يرحمه الله ـ: (... فيظن من يعظم هؤلاء الفلاسفة ـ يقصد المشائين ـ أنه ـ أي أرسطو ـ كان وزيراً لذي القرنين المذكور في القرآن، ليعظم بذلك قدره، وهذا جهل! فإن ذا القرنين كان قبل هذا بمدة طويلة جداً.. وذو القرنين بنى سد يأجوج ومأجوج. وهذا المقدوني ذهب إلى بلاد فارس، ولم يصل إلى بلاد الصين فضلاً عن السد)[1].

ولا ننسى أن هناك أخباراً تاريخية قوية تذكر أنه كان على عقيدة قومه الوثنية ومعتنقاً لأفكار أستاذه أرسطو. فإذا قيل إنه هو، يكون هناك حرج شديد من هذا القول خشية الوقوع فيما وقع فيه (وجدي).

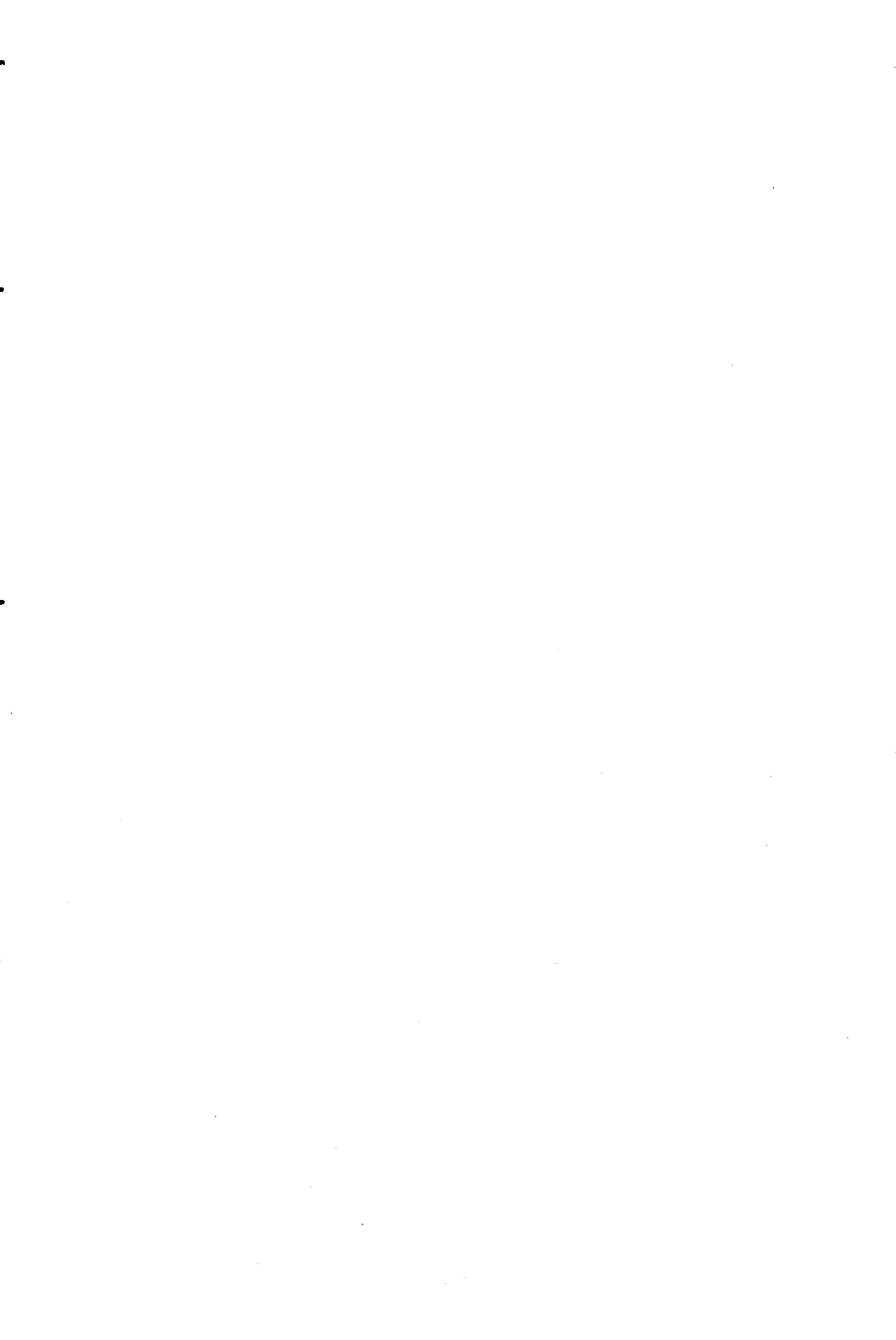
ولعلك تسأل: فمن هو إذن ذو القرنين إذا لم يكن الاسكندر؟ أقول: إذا أردت أن تعرف من هو فما عليك إلا أن تتابع معي البحث والتحقيق، وعلى الله قصد السبيل.

---

(١) انظر مجموعة فتاوى الإمام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي جـ ١٧ ص ٢٣٢، تصوير الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ، كتاب التفسير ـ الجزء الرابع.

الفَصل الثَالِث

المَلِكُ الحِمْيَرِيُّ ذُو القَرنَيْن



مقـــدمـــة:

لا أريد أن أطيل على القارىء في هذا الفصل كما أطلت في الفصلين السابقين.. ذلك أن تاريخ ملوك حمير معروف، وقد كتب عنهم الكثير، وأسهبوا في السرد والتفصيل.. وتناقل قصصهم الرواة، وسجلها المؤرخون على علاتها، فكانت خليطاً من الحقائق والمبالغات والأساطير..

ولم يعرف في تاريخ العرب الجاهلي كله أعقد من تاريخ ملوك اليمن، على ما أظن.

وقد تنبه إلى هذا كثير من مؤرخينا السابقين، فنوهوا إلى ذلك واستبعدوا كل ما قيل عنهم من مبالغات، وحديثاً حقق تاريخهم مفكرون وناقدون عصريون من مسلمين ومستشرقين، فرتبوا حياة ملوكهم، وقارنوا الروايات التاريخية المختلفة، وبحثوا في أنماط عهودهم، واستدلوا على حوادث ووقائع بالآثار والنقوش والكتابات القديمة.. فكان هذا حداً أو حلاً لبعض الخلافات..

لكن الأمر الذي ازداد فيه التعقيد والخلاف، هو ما ذكره بعض علمائنا السابقين من أن ذا القرنين المذكور في القرآن الكريم هو أحد ملوك حمير.. وأنه عربي من اليمن، فتح بلاد المشرق والمغرب، وبنى السد على يأجوج ومأجوج، وعرف بصلاحه وعدالته، تماماً كما ذكره الله تعالى. ويضاف إلى قصته، روايات وأخبار مختلفة من هنا وهناك..

وكان أول كتاب كُتب في هذا، هو كتاب (التيجان) الذي رواه وهب بن منبه، ففيه تاريخ التبابعة، مركزاً على حياة ذي القرنين من بينهم. ومال إلى هذا علماء أجلاء لا يستهان برأيهم، من مفسرين ومحدثين ومؤرخين.

وممن عالج هذا الموضوع وكتب فيه حديثاً وأتى بأدلة مسهبة وسرد تاريخ ذي القرنين العربي هو الأستاذ محمد راغب الطباخ، في كتابه الذي تحدثنا عنه في المقدمة: (ذو القرنين وسد الصين)، والذي لم يحد عن هذا الرأي، بل تحمس له بكل حرارة.

ونحن كعادتنا في هذا الكتاب، سنحاول أن نذكر بعض الآراء والخلافات التي قيلت في هذا الموضوع، ثم نسرد سيرة هذا الملك الحميري باختصار، ونعرض دلائل من قال إنه ذو القرنين، ثم دلائل المعارضين ونقدهم، وتليها المقارنة، ثم الترجيح إن شاء الله.

آراء وخلافات:

* أنشد تبع أبو كرب شعراً يفتخر بكون ذي القرنين أحد أجداده فقال:

قد كان ذو القرنين جدي مسلماً ... ملكاً تدين له الملوك وتحشد
بلغ المشارق والمغارب يبتغي ... أسباب أمر من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند غروبها ... في عين ذي خلب وثأط حرمد
من بعده بلقيس كانت عمتي ... ملكتهم حتى أتاها الهدهد[1]

* وذكروا أن اسمه الصعب ذي مراثد بن الحارث بن الرائش بن الهمال ذي سدد بن عاد ذي منح بن عامر الملطاط بن سكسك بن وائل بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، وأنه ملك من ملوك حمير وهم العرب العاربة، ويقال لهم أيضاً العرب العرباء[2].

---

(١) انظر الأبيات في البداية والنهاية جـ٢ ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٢) انظر كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي جـ١ ص ١٥٣؛ وانظر ـ مختصراً ـ فتح الباري جـ٦ ص ٢٧٢.

وبه جزم كعب الأحبار، وذكره ابن هشام في التيجان عن ابن عباس أيضاً[1]. وذكر أنه أول التبابعة، وهو الذي حكم لإبراهيم في بئر السبع. وفي خطبة قس بن ساعدة: يا معشر إياد: أين الصعب، ذو القرنين، ملك الخافقين، وأذلّ الثقلين، وعمّر ألفين، ثم كان ذلك كلحظة عين. وأنشد ابن هشام للأعشى:

والصعب ذو القـرنين أصبح ثـاوياً بالحنو[2] في جدث أميم مقيم[3]

* وقيل: مصعب بن عبد الله بن قنان بن منصور بن عبد الله بن الأزد ابن غوث بـن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن قحطان[4].

وقيل اسمه الهميسع، ذكره الهمذاني في كتب النسب، قال: وكنيته أبو الصعب، وهو ابن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ، وقيل ابن عبد الله بن قرين بن منصور بن عبد الله بن الأزد، وقيل بإسقاط عبد الله الأول[5].

* وقال الهمداني أيضاً: وعلماء همدان تقول ذو القرنين الصعب بن مالك بن الحارث الأعلى بن ربيعة بن مالك[6]. وقال عبيد بن شرية: إنه تبع الأقرن بـن شمر يرعش[7].

* وفي كتاب الإكليل قال عن نسب أولاد كهلان بن سبأ:

أولد كهلان بن سبأ زيداً، فأولد زيد عريباً ومالكاً وغالباً.

فأولد عريب عمراً، فأولد عمرو زيداً والهميسع (وهو ذو القـرنين

---

(١) فتح الباري جـ ٦ ص ٢٧٢.

(٢) قوله بالحنو يريد: حنو قراقر الذي مات فيه ذو القرنين بالعراق، /الروض الأنف جـ ٢ ص ٥٩.

(٣) الروض الأنف جـ ٢ ص ٥٩.

(٤) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٠٤.

(٥) فتح الباري جـ ٦ ص ٢٧٢.

(٦) انظر ذو القرنين وسد الصين ص ٧.

(٧) انظر أخبار عبيد بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن وأنسابها ص ٤٣٣.

السيار، ويكنى بالصعب) بقول أهل السجلّ وبني عريب بن زيد بن كهلان(١).

* وقيل إنه:

الصعب ذو القرنين السيار ابن مالك بن الحارث الأعلى بن الخيا بن مالك بن زيد بن كهلان(٢).

* كما أننا نجد قولاً آخر زعم أنه لعلي وابن عباس رضي الله تعالى عنهم، وهو أنه الصعب ذو القرنين بن عبد الله بن مالك بن زيد بن سدد بن زرعة(٣).

ولعلك تتفاجأ بهذا الاختلاف في النسب، رغم أن العرب اشتهروا بالمحافظة على أنساب قبائلهم وحفظها، والافتخار بها، ويجيبيك عن هذا السؤال الأستاذ محب الدبن الخطيب بقوله:

وأكثر ما ينشأ مثل هذا الاختلاف في أنساب السلف من أجداد العرب قبل الإسلام عن موت الرجل من إحدى القبائل عن ولد صغير تتزوج أمه برجل من قبيلة أو أسرة غير قبيلة زوجها الأول أو أسرته، فيكبر ابنها من زوجها الأول في بيت زوجها الثاني، فينسبه عارفوه إلى أبيه الحقيقي، وينسبه من يجهلون الحقيقة إلى زوج أمه الثاني، لأنهم رأوه نشأ في بيته وقبيلته. وهذا هو سبب اختلافهم في نسب قضاعة مثلاً، فاتصل نسبه في حمير عند من يعرفون أنه ابن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير ونسبه آخرون إلى معد (الزوج الثاني لأم قضاعة بعد موت زوجها الأول مالك) فنشأ الاختلاف من هنا. وقد يقع الاختلاف في الأنساب بسبب نزوح قبيلة عن ديار القبائل التي تجمعها بهن صلة النسب إلى ديار قبائل أخرى غريبة عنها، فتنسجم بها وتتحالف معها وتشاركها في سلمها وحربها، فينشأ أبناء

---

(١) انظر الإكليل تحقيق الأستاذ محب الدين الخطيب جـ ١ ص ١ ط ١٣٦٨ هـ.
(٢) الإكليل تحقيق محب الدين الخطيب ص ٦.
(٣) الإكليل تحقيق الأكوع جـ ٢ ص ١٦٢.

المتحالفين ممتزجين كامتزاج المتسلسلين من أصل واحد، فينسبهم من يعرف نسبهم إلى أصلهم الأول، ويلحقهم من يجهل ذلك بالقبائل التي طرأوا عليها والتحقوا بها. والمحققون من علماء الأنساب يجدون من القرائن للحالتين ما يستأنسون به في ترجيح النسب الحقيقي على النسب المشتبه أو المشتهر(١).

* * *

أقول: هذا بالنسبة للنسب..

أما بالنسبة للموضوع الذي نحن بصدده، فقد اختلف العلماء والمؤرخون في المقصود بذي القرنين من ملوك حمير، ذلك أن الكثير من هؤلاء رويت عنهم قصص الفتوحات والبطولات العجيبة والخارقة، فأخذ المؤرخون يبحثون عن أكثرهم شهرة بالعدالة والإصلاح والفتوحات، في الأخبار والأشعار، ليعرفوا المقصود به من هؤلاء، لكنهم اختلفوا، حسب وصول هذه الأخبار إليهم. وإذا رجعنا إلى الكتب القديمة المتنوعة، من تواريخ وتفاسير، وغيرهما، لرأينا آراء علماء أفذاذ، يميلون إلى كونه عربياً. وهؤلاء منهم من يطلق ويقول إنه من حمير، ومنهم من يحدد ويدلل على كلامه ويرد على غيره وهكذا..

وقد ورد في الإصابة لابن حجر في ترجمة ذي دجن: روى ابن شاهين من طريق ابن الكلبي عن وحشي بن حرب بن وحشي بن حرب عن أبيه عن جده قال: قدم ذو منادح وذو دجن وذو مهدم على النبي ﷺ فقال لهم: «انتسبوا»، فقال ذو مهدم:

على عهد ذي القرنين كانت سيوفنا   صوارم يفلقن الحديد المذكرا(٢)

وفي قصة أخرى روى وهب قال: حدثنا زياد البكائي عن محمد بن إسحاق المطلبي قال: أتى وفد اياد البيضاء إلى رسول الله ﷺ، فلما أسلموا، قال لهم رسول الله ﷺ: «هل فيكم قس بن ساعدة»؟ قالوا له: مات

(١) انظر الإكليل في أخبار اليمن وأنساب حمير جـ١ ص ١ ـ ٢، تحقيق محب الدين الخطيب.
(٢) انظر كتاب (الإصابة في تمييز الصحابة) للحافظ ابن حجر العسقلاني جـ٢ ص ٤١٣، تحقيق علي محمد البجاوي مطبعة نهضة مصر ـ القاهرة.

يا رسول الله في العام الأول. قال رسول الله ﷺ: «لقد شهدته بعكاظ وهو على جمل أحمر وهو يخطب ويقـول: معشر النـاس اجتمعوا واسمعـوا وعوا. . .»، ثم روى له رجل من الوفد أبياتاً له، وأكمل آخر قوله: أين الصعب ذو القرنين، جمع الثقلين، وأداخ الخافقين، وعمّر ألفين، لم تكن الدنيا عنده إلا كلحظة عين، من لم يتعظ اتعظ بها. . وقال أبياتاً أخرى له منها:

والصعب ذو القـرنين أصبح ثـاوياً بـالحنـو بين مـلاعب الأرواح[1]

ومما نقله ابن سعيد المغربي[2] أن ابن عباس رضي الله عنهما سئل عن ذي القرنين الذي ذكره الله في كتابه، فقال: هو من حمير. قال ابن الوردي: وهذا مما يقوي أنه الصعب المذكور، لأنه كان ملكاً عظيماً من ولد حمير[3].

وقال وهب أيضاً: حدثنا أسد عن أبي إدريس عن وهب عن عبد الله بن عباس أنه سئل عن ذي القرنين ممن كان؟ قال: هو من حمير وهو الصعب بن ذي مراثد، وهو الذي مكن الله له في الأرض وآتاه من كل شيء، فبلغ قرني الشمس وداس الأرض وبنى السد على يأجوج ومأجوج[4].

وعزا الهمداني صاحب الإكليل إلى حسان بن ثابت رضي الله عنه أبياتاً نسب فيها شعيباً إلى بني قحطان باليمن هي:

فنحن بنو قحطان والملك والعـلا ومـنـا نبـي الله هـودُ الأخـايـر
وإدريس ما إن كان في الناس مثله ولا مثـل ذي القرنين أبنـاء عابـر

(١) انظر القصة في (التيجان) ص ١١٥ ـ ١١٨، وسيمرُّ بك الرد على هذه الأدلة إن شاء الله.
(٢) ابن سعيد اسمه علي بن موسى، وله كتابان في التاريخ هما من جملة مصادر أبي الفداء ذكرهما في خطبة تاريخه، أحدهما (لذة الأحلام في تاريخ أمم الأعجام) في مجلدين. . والثاني (المغرب في أخبار أهل المغرب) في نحو خمسة عشر مجلداً. . انظر ذو القرنين وسد الصين ص ٥ الهامش.
(٣) انظر تتمة المختصر في أخبار البشر جـ١ ص ٣٩ ط ١٢٨٥ للشيخ زين الدين عمر بن الوردي.
(٤) نقلاً عن كتاب (ذو القرنين وسد الصين) ص ٨.

وصالح والمرحوم يونس بعدما ألات به حوت بأخلب زافر
شعيب وإلياس وذو الكفل كلهم يمانون قد فازوا بطيب السرائر[1]

وقال وهب: رفع الحديث إلى عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: كان ذو القرنين من حمير من أعظم تبابعتهم، وهو الصعب بن ذي مراثد الحميري[2].

وسئل كعب عن ذي القرنين، فقال: الصحيح عندنا من علوم أحبارنا وأسلافنا أنه من حمير وأنه الصعب بن ذي مراثد[3].. ونقل عن مقاتل أيضاً أنه من حمير، وفد أبوه إلى الروم فتزوج امرأة من غسان، فولدت له ذا القرنين عبداً صالحاً[4].

وإلى هذا ذهب الهمداني عندما قال: ... فولد عمرو زيداً والهميسع ويكنى أبا الصعب وهو ذو القرنين الأول، وهو المساح والبناء وفيه يقول النعمان بن بشير:

فمن ذا يعادينا من الناس معشر كرام وذو القرنين منا وحاتم

وفيه يقول الحارثي:

سموا لنا واحداً منكم فنعرفه في الجاهلية لاسم الملك محتملا
كالتبعين وذي القرنين يقبله أهل الحجا فأحق القول ما قبلا

وفيه يقول ابن أبي ذئب الخزاعي:

ومنا الذي بالخافقين تغربا وأصعد في كل البلاد وصوبا
فقد نال قرن الشمس شرقاً ومغرباً وفي ردم يأجوج بنى ثم نصبا

---

(١) نقلاً عن كتاب (بين التاريخ والآثار) تأليف عبد القدوس الأنصاري ص ٢٧١ الطبعة الثالثة ١٣٩٧ هـ.
(٢) (ذو القرنين وسد الصين) ص ٨.
(٣) ذو القرنين وسد الصين ص ٨.
(٤) ذو القرنين وسد الصين ص ١٠.

وذلك ذو القرنين تفخر حمير بعسكر قيل ليس يحصى فيحسبا[1]

وقال العلامة المقريزي تحت عنوان ذكر الفرق بين الاسكندر وذي القرنين أنهما رجلان: اعلم أن التحقيق عند علماء الأخبار أن ذا القرنين الذي ذكره الله في كتابه العزيز فقال: ﴿ ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً ﴾ الآية، عربي قد كثر ذكره في أشعار العرب، وأن اسمه الصعب بن ذي مراثد بن الحارث الرائش بن الهمال ذي سدد بن عاد ذي منح بن عامر المطاط بن سكسك بن وائل بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود بن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام، وأنه ملك من ملوك حمير وهم العرب العاربة ويقال لهم العارباء. وكان ذو القرنين تبعاً متوجاً ولما ولى الملك تجبر، ثم تواضع لله واجتمع بالخضر[2]. . ويقول الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى:

والذي يقوي أن ذا القرنين من العرب لكثرة ما ذكروه في أشعارهم، قال أعشى بن ثعلبة:

والصعب ذو القرنين أمسى ثاوياً بالحنو في جدث هناك مقيم

وقال الربيع بن ضبيع:

والصعب ذو القرنين عمر ملكه ألفين أمسى بعد ذاك رميما

وقال قس بن ساعدة:

والصعب ذو القرنين أصبح ثاوياً باللحد بين ملاعب الأرياح

وبعد رواية أبيات أخرى قال الحافظ ابن حجر: ويؤخذ من أكثر هذه الشواهد أن الراجح في اسمه الصعب. ووقع ذكر ذي القرنين أيضاً في شعر امرىء القيس وأوس بن حجر وطرفة بن العبد وغيرهم[3].

---

(١) ذو القرنين وسد الصين ص ٧.

(٢) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جـ ١ ص ١٥٣.

(٣) انظر فتح الباري لابن حجر العسقلاني جـ ٦ ص ٢٧٣.

وكان أقوى ما استند إليه الأستاذ الطباخ للاستدلال بأن ذا القرنين من حمير هو ورود اسمه في قصائد لشعراء كثيرين، يقول:

وفي كتاب التيجان في الكلام على الصعب ذي القرنين شعر كثير لعدة من شعراء العرب القدماء، وهذا يؤيد بل يوجب الجزم بأن ذا القرنين هو من العرب ومن ملوك حمير[1].

هذا وقد استدل بعض العلماء بكون ذي القرنين حميرياً لأن لفظة (ذو) مستعملة كثيراً في أسماء ملوك حمير.

فقد ذهب أبو الفداء إلى غلط من قال إن ذا القرنين هو الاسكندر المقدوني، ذلك أن لفظة ذو عربية محضة[2]، وذو القرنين من ألقاب العرب ملوك اليمن، وكان منهم ذو جدن وذو الكلاع وذو نواس وذو شناتر وذو القرنين الصعب بن الرائش، واسم الرائش الحارث بن ذي سدد بن عاد بن الماطاط بن سبأ[3]. . . وكان مما استدل به الأستاذ عبد القدوس الأنصاري من أن ذا القرنين حميري، هو ما ذكره أبو الريحان البيروني من أن «الأذواء» إنما يعرفون في بلاد حمير دون بلاد اليونان، وهو من الدولة الحميرية التي حكمت من سنة ١١٥ ق. م إلى ٥٥٢ ب. م[4].

وينقل العلامة الألوسي قوله من كتابه (الآثار الباقية عن القرون الخالية) إن ذا القرنين هو أبو كرب، سمي عمير بن أفريقيس الحميري[5]، وهو الذي

---

(١) انظر (ذو القرنين وسد الصين) ص ١٢.

(٢) (ذو) يستعمل عند الأوربيين أيضاً وهو يرجع إلى فكرة أسطورية قديمة. فنجد مثلاً أن نارام سن (Naram Sin) يصور على شكل الإله أداد (إله الريح والعاصفة عند البابليين) ويجعل له قرنان. . وقرنا جوبيتر أمون معروفان تمام المعرفة. انظر دائرة المعارف الإسلامية جـ ٩ ص ٤٠٣.

(٣) وهو نص كلام ابن الوردي. انظر تتمة المختصر في أخبار البشر (تاريخ ابن الوردي) جـ ١ ص ٦٣.

(٤) بين التاريخ والآثار ص ٣٠٦ الهامش.

(٥) في البحر المحيط خطأ عندما قيل: (هو أبو بكر بن سمي بن عمير بن أفريقيس. .) انظر جـ ٦ ص ١٥٨.

افتخر به تبع اليماني حيث قال:

قد كان ذو القرنين جدي مسلماً ملكاً علا في الأرض غير مفند

.. ثم قال: ويشبه أن يكون هذا القول أقرب، لأن الأذواء كانوا من اليمن، كذي المنار وذي نواس وذي رعين وذي يزن وذي جدن[1].

الحديث عن ملوك اليمن:

لعلك عرفت الآن أن هناك اتجاهاً قوياً يميل إلى القول بكون ذي القرنين عربياً. وقد أوردنا بعض هذه الأقوال على سبيل التنويه لا الحصر.

أما عن إيراد الأدلة، فقد ألمحنا إلى بعضها، ولسوف تمر بك البقية بعد الحديث عن حياة هذا الملك الحميري..

ولكن، من أين نبدأ؟.

إنه لا بد أولاً أن نمر مروراً سريعاً على ذكر أنساب ملوك اليمن وتاريخهم حتى نعرف مكان الملك المعروف بذي القرنين بينهم.. ومن ثم نعرف أخباره وفتوحاته وقصصه التي فاضت بها كتب التاريخ القديمة عند التعرض لملوك اليمن.

وأحيطك علماً ـ عزيزي القارىء ـ أنني لن أتعرض لحياة كل من قيل عنه إنه ذو القرنين من بين ملوك اليمن إلا بقدر ما يحتاج إليه الموضوع، لأن ذلك يخرج الكتاب من دائرة الدقة والحصر، ويجعله كتاباً تاريخياً متشعب الأطراف، مملوءاً بالخلافات والاستطرادات، لكنني سأتعرض لقصة (الصعب)، وهو الذي يعرف بذي القرنين، على رأي معظم من قال إنه حميري، وهو ما ترجم له الأستاذ الطباخ في كتابه (ذو القرنين وسد الصين)، أما الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر، فقد تعرض لحياة ثلاثة منهم، هم: شمر ـ عمر ـ أفريقس. وهذا الأخير يطلق عليه أحياناً: الصعب.

* * *

(١) انظر روح المعاني جـ ١٦ ص ٢٧.

وبنو قحطان هم من العرب المتعربة، فهم بنو قحطان بن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح. وقحطان المذكور، تفرع منه فرعان، أحدهما: ملوك اليمن، وهم التبابعة، جمع تبع[1]؛ وثانيهما: أمراء الحجاز، وهم جرهم الثانية من ولد قحطان، سكنوا الحجاز واتصل بهم إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام. ومن ذريته عدنان منتهى أجداد نبينا محمد ﷺ[2]...

فأما الفرع الأول، وهم ملوك اليمن والتبابعة. فقد ذكر الله أحدهم في القرآن العزيز، في سورة الدخان، عند قوله تعالى: ﴿أهم خير أم قوم تبع﴾[3]. قال الشيخ الآلوسي عند تفسير هذه الآية في روح المعاني: هو تبع الأكبر، أو الأوسط، لأنه ثبت في التاريخ أن قبله تبابعة[4]...

وأثناء الحديث عن تبع الأقرن، سأل معاوية عبيد بن شرية: هل كان فيهم تبع غير تبع واحد؟ قال: نعم، كانوا سبعة، ولكن تبع أسعد ملك فاشتد سلطانه، وطال ملكه، فذهب باسم من كان قبله، ونسب إليه من كان منهم بعدهم[5].

والدولة الحميرية الأولى كانت في (١١٥ ق. م. - ٣٠٠ م).

والدولة الحميرية الثانية كانت من (٣٠٠ - ٥٢٥) أو عصر التبابعة.

---

(١) وهو اسم يطلق على كل ملك من ملوك اليمن التي عواصمها حضرموت وسبأ وظفار وعدن وصنعاء واليمن، كما يسمى ملك الترك خاقان، وملك الروم قيصر، وملك الفرس كسرى، وملك الحبشة النجاشي.

(٢) وانظر ملخصاً عن قحطان الذي ينتهي إليه نسب جرهم وحمير وكهلان وأشعر وعمر وعاملة من العاربة، ونسبة هؤلاء الأحياء إليه وتاريخ تملك قحطان لليمن إذ ذاك في كتاب (النغمة الملوكية في أحوال الأمة العربية الجاهلية) تأليف السيد عمر نور الدين القلوصني الأزهري ص ١٠ ط ١٣١٥ هـ.

(٣) سورة الدخان، الآية (٣٧).

(٤) انظر كتاب (هذه رسالة فخر بني إرم في أن العرب أقدم وأعز الأمم) تأليف محمد أفندي عارف ص ٢٩ ط ١١٣٥ هـ.

(٥) انظر التيجان ص ٤٣٥.

ومؤسسها (شمر يهرعش) الذي يعرف عند الإخباريين بشمر يرعش، وهو عندهم تبع الأكبر[1].

قال هبّو: ومما يلفت النظر أن الأخبار تنقطع بعد وفاة تبع شمر يهرعش ويطرأ خلل في سلسلة الملوك. ولكن الكتابات الأثيوبية، تثبت أن ملك اكسوم بدأ عـام ٣٤٠ م يحمل لقب «ملك أكسوم وحمير وذي ريدان وحبشت وسبأ..»، مما يدل دلالة واضحة على أن الأحباش تمكنوا أخيراً من الوصول إلى حكم اليمن، وذلك عام ٣٤٠ م واحتفظوا به حتى عام ٣٧٨[2]...

وننقل لك أسماء ومدة حكم ملوك حمير من الطبقتين..

يذكر جرجي زيدان أن هذا الجدول يخالف ما ذكره العرب من بعض الوجوه، لكنه أقرب إلى الصواب، لأنه مبني على التحقيق ومقابلة ما كتبه العرب واليونان وما نقش على الآثار. ولعل السبب في زيادة عدد ملوك حمير عند العرب عما أثبتناه هنا أنهم أدخلوا في عداد أولئك الملوك أقيالاً أو أذواء اشتهروا في أثناء تلك الدولة فحسبوهم منها وأدخلوهم في عداد ملوكها، وإذا أمعنت النظر رأيت الطبقة الثانية من ملوك حمير تقابل دولة التبابعة في كتب العرب، لأن العرب يشترطون في التبابعة أن تكون حضرموت والشحر في سلطتهم، وهذا هو الواقع في ملوك الطبقة الثانية؛ أما الأولى فتقابل ما قبل التبابعة عند العرب، وإن اختلطت الأسماء والأزمنة، ويسمـونهم حمير، وعاصمتهم ظفار[3]. وكل هذا التاريخ يأتي بعد العصر السبئي الذي كان من ٨٥٠ ـ ١١٥ ق. م.

الطبقة الأولى من ملوك حميـر: ملوك سبأ وذو ريدان من سنة ١١٥ ق. م. ـ ٢٧٥ ب. م.

---

(١) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام. د. أحمد ارحيّم هبو، كلية الآداب جامعة حلب ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠، السنة الأولى ص ١٣٢.
(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام، هبو، ص ١٣٢.
(٣) العرب قبل الإسلام، جرجي زيدان ص ١٦٨ ط ١٩٦٦ م.

علهان نهفان	١١٥ - ٨٠ ق. م.
شعر وتار بن علهان نهفان	٨٠ - ٥٠ ق. م.
بريم أيمن بن علهان نهفان	—
فرع ينهب	٥٠ - ٣٥ ق. م.
اليشرح يخضب وابنه يزل بيين	٣٥ - ١٥ ق. م.
اليشرح يحمل بن يزل بيين	١٥ - ٥ ب. م.
وتار	٥ - ٣٥
كرب إيل وتار يوهنعم (وهو بريبلوس)	٣٥ - ٧٠
ذمر علي ذرح بن كرب إيل	٧٠ - ٩٥
هلك أمير بن كرب إيل	٩٥ - ١٢٠
ذمر علي بيين	١٢٠ - ١٤٥
وهب إيل يحز	١٤٥ - ١٧٠
(ملوك مجهولون)	١٧٠ - ٢٥٠
ياسر أنعم	٢٥٠ - ٢٧٥

الطبقة الثانية من ملوك حِمْيَر: ملوك سبأ وريدان وحضرموت وغيرها من سنة ٢٧٥ - ٥٢٥ م.

شمر يرعش	٧٥ - ٣٠٠ م
ذو القرنين أو أفريقيس (الصعب)	٣٠٠ - ٣٢٠
عمرو زوج بلقيس	٣٢٠ - ٣٣٠
بلقيس وتسمى الفارعة	٣٣٠ - ٣٤٥
الهدهاد أخوها	٣٤٥ - ٣٧٤
ملكيكرب يوهنعم (ينعم)	٣٧٤ - ٣٨٥
أبو كرب أسعد بن ملكيكرب	٣٨٥ - ٤٢٠
حسان بن أسعد	٤٢٠ - ٤٢٥
شرحبيل يعفر بن أسعد	٤٢٥ - ٤٥٥
شرحبيل ينوف	٤٥٥ - ٤٧٠

معدي كرب ينعم وابنه لحيعة	٤٧٠ ـ ٤٩٥
مرثد اللات ينوف	٤٩٥ ـ ٥١٥
ذو نواس (ويسميه اليونان دميانوس)	٥١٥ ـ ٥٢٥
ذو جدن (لم يكن له حكم)	٥٢٥ ـ ٥٣٣

وقد كتب زيد بن علي عنان في كتابه تاريخ حضارة اليمن القديم، جدولاً بأسماء الملوك من الطبقتين، فراجعه إن شئت[1]، مقارناً ذلك بجدول جرجي زيدان.

وذكر صاحب البدء والتاريخ، أن الحارث الرائش، مات في عصره لقمان صاحب النسور[2]، . . قالوا: وكان ملكه مائة وخمساً وعشرين سنة[3]. ثم ملك بعده أبرهة ذو المنار، وكان ملكه خمساً وعشرين سنة، ثم ملك هداد بن شراحيل بن عمرو بن الرائش أبو بلقيس. . ثم ملكت بلقيس أربعين سنة. . ثم ملك ناشر النعم وكان ملكه خمساً وثمانين سنة، ثم ملك شمر بن أفريقيس بن ذي المنار بن الرائش وهو الذي يدعى بشمر يرعش، وهو الذي غزا الصين وافتتح عامة فارس وسجستان وخراسان، وخرب سمرقند فسميت شمركند، وكان ملكه مائة وسبعاً وثلاثين سنة، ثم ملك بعده ابنه الأقرن بن شمر وغزا الروم قبل ظهور عيسى عليه السلام، ثم ملك بعده تبع الأقرن وهو تبع الأكبر. وأخذ في الغزو حتى بلغ الصين، وكان ملكه مائة وثلاثاً وستين سنة، ثم ملك بعده ملكيكرب بن تبع خمساً وثلاثين سنة، ثم ملك ابنه تبع الأوسط وهو أسعد أبو كرب. . وسار حتى بلغ الهند والروم، وكان ملكه ثلاثمائة وعشرين سنة، ثم ملك ابنه حسان ثم لقب ذو جيشان، ثم بايعوا أخاه عمرو بن تبع وكان ملكه ثلاثاً وستين سنة، ثم ملك بعده عبد كلال بن مثوب أربعاً وسبعين سنة، وآمن بعيسى عليه السلام، ثم ملك بعده تبع

(١) كما ذكر ذلك الدكتور عبد العليم خضر في كتابه مفاهيم جغرافية في القصص القرآني الصفحات من ١٣٨ ـ ١٤٣.

(٢) انظر الحديث عنه في كتابنا لقمان الحكيم وحكمه، دمشق، دار المصحف.

(٣) البدء والتاريخ جـ٣ ص ١٧٥.

الأصغر، وهو تبع بن حسان ثمانياً وسبعين سنة. . ثم ملك مرثد بن عبد كلال إحدى وأربعين سنة، وتفرق ملك حمير[1]. .

ولا تعجب ـ في مثل هذه الأخبار ـ إذا قيل لك إن (حمير فاتح عظيم ملك الأرض ومن عليها: فقد أمعن في المشرق حتى أبعد يأجوج ومأجوج إلى مطلع الشمس، كما دخل الشام ومضى إلى الحبشة يتبعهم حتى بلغ بهم إلى البحر المحيط من المغرب)[2]!!.

وقد ذكر (وجدي) أنه تلا الحارث الرائش ـ الذي هو والد ذي القرنين، كما هو في سلسلة نسبه في ملك حمير ـ أبرهة ذو المنار. . وذلك سنة (١٠٩٨) ق. م[3]، ولم يذكر قبله الصعب ذا القرنين كما في التيجان وغيره[4].

ونقل ابن خلدون أن ملوك اليمن يسمون التبابعة، إلا أنه ذكر قول المسعودي أنهم لم يكونوا يسمون الملك منهم تبعاً حتى يملك اليمن والشحر وحضرموت، وقيل حتى يتبعه بنو جشم بن عبد شمس ومن لم يكن له شيء من الأمر يسمى ملكاً، ولا يقال له تبع[5].

قال: وكان هؤلاء التبابعة ملوكاً عدة في عصور متعاقبة وأحقاب

---

(١) البدء والتاريخ باختصار وحذف جـ٣ ص ١٧٤ ـ ١٨١.

(٢) انظر كتاب (في تاريخ العرب قبل الإسلام) د. سعد زغلول عبد الحميد ص ١٧٣، طبعة ١٩٧٦ م.

(٣) دائرة معارف القرن العشرين جـ٢ ص ٥٢٤.

(٤) انظر التيجان ص ١٢٦، وانظر أخبار ملوك اليمن والتبابعة والخلافات المذكورة فيهم في تاريخ ابن خلدون جـ٢ ص ٥٠ ـ ٥٩.

(٥) انظر كتاب (العبر ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) المسمى تاريخ ابن خلدون، للعلامة عبد الرحمن بن خلدون المغربي جـ٢ ص ٥٠ ط ١٢٤٨ هـ. وفي دائرة معارف القرن العشرين أن المقصود بملوك التبابعة بنو حمير، وكانوا باليمن، وإنما سموا بتبابعة لأنه يتبع بعضهم بعضاً، كلما هلك واحد منهم قام بعده واحد آخر. ولم يكونوا يسمون الملك بتبع حتى يملك اليمن. انظر جـ٢ ص ٥٢٣. قال صاحب الدائرة: وأول من ملك منهم قحطان بن عابر بن صالح سنة (٢٠٣٠) ق. م. وآخرهم ذو نواس أو ذو جدن سنة (٥٢٩) م. على خلاف بين المؤرخين.

متطاولة، لم يضبطهم الحصر ولا تقيدت منهم الشوارد، وربما كانوا يتجاوزون ملك اليمن إلى ما بعد عنهم من العراق والهند والمغرب تارة ويقتصرون على يمنهم أخرى؛ فاختلفت أحوالهم واتفقت أسماء كثير من ملوكهم ووقع اللبس في نقل أيامهم ودولهم[1]. يقول ابن خلدون:

.. وملك أيضاً من شعوب قحطان نجران بن زيد بن يعرب بن قحطان، وملك حمير هؤلاء ثم من بني الهميسع بن حمير أبين بن زهير بن الغوث بن أبين بن الهميسع، وإليه نسب عرب أبين من بلاد اليمن، وملك منهم أيضاً عبد شمس بن وائل بن الغوث بن حيران بن قطن بن عريب بن زهير بن أبين بن الهميسع بن حمير، ثم ملك من أعقابه شداد بن الملطاط ابن عمرو بن ذي هرم بن الصوان بن عبد شمس، وبعده أخوه لقمان، ثم أخوهما ذو شدد وهدّاد ومداثر، وبعده ابنه الصعب ويقال إنه ذو القرنين، وبعده أخوه الحرث بن ذي شدد وهو الرائش جد الملوك التبابعة[2]..

سقت لك هذه الأخبار باختصار ـ وهناك أخبار أخرى كثيرة مثلها ـ لتعلم الفرق والمبالغة عند الحديث عن ملوك اليمن، والذي سيكون حجة لنا عند إبداء رأينا.

وعن نسب ذي القرنين، فإن الأمر قد اختلط كثيراً، حتى إنني لم أر له ذكراً بين أنساب حمير في كتاب (جمهرة أنساب العرب) لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، ولا في (سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب) أو تاريخ اليعقوبي[3]. وقد ذكر ابن حزم في آخر أنساب التبابعة أنه (في أنسابهم اختلاف وتخليط وتقديم وتأخير ونقصان وزيادة ولا يصح من

---

(١) تاريخ ابن خلدون جـ ٢ ص ٥٠.

(٢) تاريخ ابن خلدون جـ ٢ ص ٤٨.

(٣) انظر جمهرة أنساب العرب ص ٤٣٩ ط ١٣٨٢ هـ، وسبائك الذهب في معرفة قبائل العرب للشيخ أبي الفوز محمد أمين البغدادي الشهير بالسويدي ص ١٩ ـ ٢٢ المكتبة التجارية الكبرى بمصر. وتاريخ اليعقوبي، تأليف أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب المعروف بابن واضح الأخباري المتوفى سنة (٢٩٢) هـ جـ ١ ص ١٦٨ طبعة ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م.

كتب أخبار التابعة وأنسابهم إلا طرف يسير لاضطراب رواتهم وبعد العهد)[1].

ويناقش لنا الدكتور السيد سالم طرفاً من هذه الأخبار ليثبت لنا الغلو فيها و. . الشك في كثير منها. يقول: وآخر ملوك دولة حمير الأولى المعروفين في المصادر العربية باسم ناشر النعم أو ناشر ينعم أو ياسر ينعم، وهو عند الإخباريين مالك بن يعفر بن عمرو بن حمير بن السياب بن عمرو ابن زيد بن يعفر بن سكسك بن وائل بن حمير بن سبأ، ويزعمون أنه عرف بهذا الاسم لأنه أحيا ملك حمير بعد أربعين عاماً أيام سليمان بن داود، أي أنهم يرجعون عهده إلى أيام سليمان مع أنه من ملوك حمير في القرن الثالث الميلادي، وينسب الرواة إليه الفتوحات العظمى. . .

فخرج إلى المغرب حتى بلغ إلى البحر المحيط، فأرم ابنه شمر وهو شمر يرعش بن ناشر النعم. . أن يركب البحر المحيط[2]. . الخ، قال المؤلف: وواضح أن هذه الروايات خرافية، فقد عاش ناشر النعم هذا في القرن الثالث الميلادي، وورد اسمه في نقش مؤرخ في سنة ٢٧٠ م[3].

كما أن المؤلف يستبعد هذه الفتوحات التي نسبت إلى شمر يرعش (تبع الأكبر) مؤسس الدولة الحميرية الثانية، يقول: (ولا شك أن ما رواه العرب عن فتوحاته لا يعدو قصصاً خرافية، والثابت أنه انتصر على مناطق كثيرة من بلاد العرب الجنوبية وأنه تغلب على قبائل تهامة التي كانت تسكن على ساحل البحر الأحمر. . .)[4].

ونرى أيضاً أن الدكتور (هبو) يستبعد تلك الأخبار عن ملوك التابعة. .

---

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٤٣٩.

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام د. السيد عبد العزيز سالم ص ٥٢ ـ ٥٣ سنة ١٣٩٣ هـ.

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام، د. السيد سالم ص ٥٤.

(٤) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٥٥؛ ويمكن الرجوع إلى كتابه (تاريخ العرب في عصر الجاهلية) ص ١٤٠ ـ ١٥٣ ط ١٩٧١. وكذلك دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام جـ ١ ص ١١٤ ـ ١٢٧، فهي الأبحاث نفسها مكررة في الكتب الثلاثة.

يقول: (فعصر التبابعة عند العرب من أزهى العصور وأكثرها إثارة لخيالهم الخصب، إذ يروون القصص الخيالية والأساطير عن قوتهم وعظمتهم، فينسبون إليهم غزو أفريقيا والهند والصين وإخضاع فارس وبلاد ما وراء النهر «سمرقند» ومصر والمغرب.. مما دعا ابن خلدون إلى وصف هذه الروايات بالوهم والخلط)[1].

الصعب ذو القرنين:

ما نذكره الآن من حياة الصعب ذي القرنين هو من رواية وهب بن منبه[2]، ذكر أنه ولي الأمر بعد أبيه الحارث بن الهمال. فهو:

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور أحمد ارحيّم هبو ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

(٢) ترجم له الإمام النووي بقوله.. تابعي جليل من المشهورين بمعرفة الكتب الماضية... واتفقوا على توثيقه. توفي سنة أربع عشر ومائة، وقال ابن سعد سنة عشر ومائة. انظر تهذيب الأسماء واللغات لأبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي المتوفى سنة ٦٧٦ جـ٢ ص ١٤٩ الطباعة المنيرية.

وكان يمنياً من أهل ذمار، وأصله فارسي، وقيل إنه كان يهودياً وأسلم، وينسبون إليه معظم الإسرائيليات الواردة في المصادر العربية، وقد ركز وهب بن منبه اهتمامه على أخبار اليمن في الجاهلية، وهو في ذلك يعتمد على مصادر نصرانية، إذ إن روايته عن نصارى نجران تطابق الروايات النصرانية. ومن الكتب المنسوبة إليه كتاب «الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم»، وقد وصلت إلينا أجزاء منه في كتاب التيجان في ملوك حمير، لابن هشام.

ويغلب على أخبار وهب طابع القصص الشعبي الخرافي، وقد حمل ذلك المؤرخ هاملتون جب إلى القول بأن كتابي وهب بن منبه وعبيد بن شرية يمدانا ببرهان ساطع على أن العرب الأول كانوا يفتقرون إلى الحس والمنظور التاريخيين حتى عندما يتطرقان إلى ذكر أحداث تكاد تكون معاصرة لهما. وينسب إلى وهب كذلك «كتاب المبتدأ» الذي يشير عنوانه إلى ابتداء الخليقة، وهو أول محاولة عند العرب لكتابة تاريخ الرسالات، وقد اعتمد عليه ابن قتيبة في المعارف، والطبري في كتابه تاريخ الرسل والملوك، والمقدسي في كتابه البدء والتاريخ، وأحمد بن محمد الثعلبي في كتابه عرائس المجالس في قصص الأنبياء، وقد وجد اتجاهه في كتابة التاريخ العالمي منذ بدء الخلق صدى قوياً عند مؤرخ مشهور من مؤرخي المدينة هو ابن إسحق. كذلك ينسبون إلى وهب كتاب المغازي الذي لم يبق منه إلا مجموعة أوراق مخطوطة ما زالت محفوظة في مكتبة هيد لبرج بألمانيا، وكان قد عثر عليها الأستاذ بيكر. وقد اعتمد الطبري على كثير من أقوال وهب بن منبه في تفسيره الكبير وكان وهب بن منبه يجيد عدداً من اللغات القديمة، فقد كان يتقن اليونانية والسريانية والحميرية، كما كان يستطيع قراءة الكتابات =

الصعب ذو القرنين بن الحارث الرائش ذي مراثد بن عمرو الهمال ذي مناح بن عاد ذي شدد بن عامر بن الملطاط بن سكسك بن وائل بـن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود عليه السلام ابن عابر بن شالخ ابن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام؛ وذكر أنه كان في أول ملكه متجبراً شديد السلطان والسطوة، وكان يلبس ثياباً متوجة من الذهب، وذكر أنه رأى أربعة أيام متتالية أحلاماً عجيبة، ولما عرضها على أهل مشورته ووزرائه، أرشده حكيم أن يذهب إلى موسى الذي في القدس، فذهب إليه بجيش عرمرم ورآه هناك، وسأله عن نسبه، ثم قص عليه أحلامه، فبين له أنه سيملك الأرض وأن الملوك يتبعونه، والبهائم والريح تكون مسخرة له.. ثم ذكر مسير ذي القرنين ومعه الخضر، وأن الوحي كان يأتي للخضر، فيعلم بذلك ذا القرنين، حتى عاد إلى الحبشة والسودان، وإلى قوم سود زرق الأعين، وهو يقتل ويسبي وينقل الناس من أرض إلى أرض حتى انتهى إلى قوم بلق آذانهم كآذان الجمال، وأقواماً آخرين آذانهم كبار من أعلى رأس أحدهم إلى ذقنه، وبلغ أرض بني ماريع بن كنعان بن حام، فقتل وغنم ثم إلى جزيرة الأندلس ثم رام ركوب البحر المحيط، وكان يموج به وبجيشه، فبنى منارة وجعل عليها صنماً من نحاس عقد بها عاصفات الرياح ثم سكن البحر حتى انتهى إلى عين الشمس؛ ووجد هناك جزائر فيها أمم لا يفقهون كلاماً، ثم أمر بعض رجاله أن يعبروا وادي الرمل الذي وجده يسيل بالرمل كالجبال الرواسي، ثم انتهى إلى وادي الياقوت، وإلى الصخرة البيضاء، ولها حديث عجيب، وفيها عين الحياة التي شرب منها الخضر. ثم أمره الخضر أن ينتظر فقد بلغ مبلغاً ليس وراءه من مزيد ولا مرمى، حتى ناداه مناد من

= القديمة التي يتعذر على العلماء في زمنه قراءتها. انظر تاريخ العرب قبل الإسلام، السيد سالم ص ١٤٦ - ١٤٧.

ومما كتبه وهب في مقدمة كتاب له: قرأت ثلاثة وتسعين كتاباً مما أنزل الله على الأنبياء فوجدت فيهاأن الكتب التي أنزل الله على جميع النبيين مائة كتاب وثلاثة وستون كتاباً، قال الدكتور سعد زغلول عبد الحميد: وهذا الأمر المستغرب يدعو بطبيعة الحال إلى التأمل فيما يكتب، وممن نقل عنهم وهب إلى جانب عبيد بن شرية محمد بن السائب الكلبي. انظر في تاريخ العرب قبل الإسلام ص ٣٤.

السماء أن بلِّغ حجة الله وأقمها على من لا يعلم وعده ووعيده. ثم بدأ الخضر ينصحه ويعلمه بأمة يأجوج ومأجوج، فحمل عساكره يريد جزائر الأرض خلف جزيرة الأندلس، وهو ينشد أشعاراً طويلة بين كل فترة وأخرى، ثم أرسل بعض عساكره إلى الأندلس وأرسل الخضر إلى قمونية في عساكره. ومضى ذو القرنين في طريقه حتى وصل الشام، وهو لا يأتي على أمة إلا آمنت أو هلكت. والخضر يفعل كذلك في أرض بابليون ومرَّ هو إلى الشام، ثم سارا يريدان مطلع الشمس، حتى بلغ المحيط والعراق وفارس، ونزل القصر الأبيض قصر عابر بن شالخ، ثم إلى جابر وإلى هرات ومرو وسمرقند وجاجا وبلخا وحابلجا وبارد وأرض يأجوج ومأجوج، ماراً بأرمينية ونهاوند وباب الأبواب، وقاتل يأجوج ومأجوج فغلب عليهم وأناب أمة منهم وهم بنو علجان ابن يافث بن نوح، فتركهم في جزيرة أرمينية إلى ناحية جابرصا، فسموا الترك لأن ذا القرنين تركهم، ومضى يطلب يأجوج ومأجوج حتى لجج في أرضهم وغلب من بها، ووجد عند طلوع الشمس قوماً صغار الأعين، صغار الوجوه مشعرين، وجوههم كوجوه القردة، وهم لا يظهرون في النهار وإنما يظهرون في الليل، يختفون من حر الشمس في المغارات والكهوف في الجبال، وفي أطراف جزائر المحيط، وهم قوم سود زرق الأعين طوال الوجوه طـوال الأنوف، تشبه وجوههم وجوه الخنازير، وهم يختفون في النهار من حر الشمس، ويظهرون في الليل فدعاهم وآمنوا.. ثم ركب البحر المحيط فسار فيه حولاً حتى ترك الشمس عن يمينه ولجج في الظلمات حتى وصل إلى أرض بيضاء كالثلج، فساخت بهم الدواب، ثم ترك جيشه هناك ومضى هو فيها، وبعد أيام أشرف هناك على دار مفردة بيضاء فيها بيت واحد، وعلى باب الدار رجل أبيض قد أخذ شيئاً كمزمار في فمه، ثم تبين أنه إسرافيل، وأعطى لذي القرنين العنقود من العنب، وأمره أن يأكله وأن يأكل منه عسكره كي يبلغهم إلى أرض الإنس والجن، وأعطاه حجراً مثل البيضة وقال: زنـه بما ترى عينك في الدنيا، فإن لك فيه عظة، فعل ذلك بعد أن قال له: يا ذا القرنين، ارجع فليس لك مزيد.. فرجع ذو القرنين بالعنقود والحجر إلى عساكره، وأكل العنقود وأكل العساكـر كلهم ولا ينقص، حتى بلغ أرض

العمارة. أما الحجر فلم يوزنه شيء حتى أخذ قبضة من تراب فجعلها في الكفة وجعل الحجر في الكفة الأخرى فرجح عليها التراب، وخف الحجر، قال له الخضر: هذه عينك لا يملؤها إلا التراب وهو الغالب عليها.

ثم ذكر أن ذا القرنين رجع فبنى السد بين يأجوج ومأجوج وبين الناس، وذكر في طوله أنه ألف ذراع، وفي عظم جسمه ألف ذراع، ثم سار إلى الهند ووجد هناك أقواماً يسكنون القبور، ولا غني فيهم ولا فقير، ولا قاض فيهم ولا أمير، ولا ناه ولا آمر، فاستفسر عن ذلك ذو القرنين فقالوا: سكناها لئلا ننسى الموت ونطمئن إلى الحياة... ورأينا غني الدنيا فقيراً بالآخرة... ورأينا القرون من قبلنا والأمم في دهرنا يغصب القوي الجاهل الضعيف القليل الناصر، ويقهر العزيز القادر الذليل المهين... الخ. وقالوا: اجتزينا بالقوت ويسير المعاش.

ثم مضى إلى أرض سمرقند فوجد فيها الزط والكرد والصغد، فقتل منهم من قتل وأجاب من أجاب.. ثم أخذ أرض مرو فوجد فيها الخزر وفرغان والديلم وفعل بهم كذلك ثم مضى إلى أرض هراة فوجد فيها الخوز والإفرنج فأجابوه، ثم سار على البر إلى أرض الصين، ثم رجع إلى بابل فغلب عليها، ثم سار يريد أرض تهامة والحج بمكة، فلما صار بحنو قراقر من أرض برقة رحرحان من رمل العراق رأى الموت وأيقن به، وأخبره بذلك الخضر فقال: يا ذا القرنين انقضى الأمل وحان الأجل وبقي العمل، فحكم عليك البأس لما تقحم عليك الممات، فنزل الرضا وغاب عنك القضا وقد وعدك الله وعداً والله متم وعده...

ثم أنشد ذو القرنين أبياتاً ينعى فيها نفسه. ومرض ثماني ليال ثم مات ثم غاب الخضر فلم يظهر إلى أحد بعده إلا إلى موسى بن عمران النبي ﷺ ودفن ذو القرنين بحنو قراقر.

وذكر وهب بعد ذلك أشعاراً في رثاء ذي القرنين للنعمان بن الأسود بن المعترف بن عمرو بن يعفر بن سكسك المقعقع الحميري، وأبياتاً أخرى لمحمود بن زيد بن غالب بن المنتاب بن زيد بن عملاق.. ثم يمضي وهب

فينقل الآراء في كونه من حمير، وذكر في ذلك أبياتاً لتبع أبي كرب ولامرىء القيس ثم كلمات وأشعاراً لقس بن ساعدة أحكم العرب في زمانه وأخطبهم، وذكر بيتاً لأعشى بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة، ثم ذكر أبياتاً متعددة لربيع بن ضبع بن وهب بن بغيض بن مالك بن سعد بن عدي بن فزارة بن ذبيان، وكان معمراً مائتي عام وكان أحكم العرب في زمانه وأشعرهم وأخطبهم، ثم ذكر أبياتاً لطرفة بن العبد بن سفيان وأيضاً لأوس بن حجر السعدي.

وذكر بعدها أن الذي تولى بعده الأمر ابنه أبرهة ذو المنار، سماه الصعب على اسم إبراهيم الخليل ﷺ، وإنما سمي أبرهة باللسان الحبشي وتفسيره وجه أبيض[1]..

أشعار نسبت إلى الصعب ذي القرنين:

وقد نسبت إلى هذا الملك الحميري أبيات وقصائد كثيرة. ففي (التيجان) أنه عندما وصل مأرب أوقف عساكره وعمل بطاعة الله ثم أمر بعمود من رخام فنقش فيه بالمسند الحميري:

يلوم اللائمون الجهل جهلاً	وداء الجهل ليس بذي دواء
وعلم العالم النحرير جهل	إذا ما خاض في بحر البلاد
إذا كان الإمام يحيف جوراً	وقاضي الأرض يدهن في القضاء
فويل ثم ويل ثم ويل	لقاضي الأرض من قاضي السماء![2]

ونقتطف من بعض القصائد أبياتاً تدل على مفهوم القصيدة، ولتكون دليلاً آخر لنا عند الدراسة والنقد: قال عند انتهائه إلى المغرب منتظراً السبب للعودة:

وتشتت الأسباب تخلجني	نحو العراق ومطلع الشمس
أزجي لهم حرباً تؤدبهم	يلقون ذاك بأوجه عبس

---

(١) انظر ترجمته ـ باختصار ـ في كتاب التيجان من ص ٨١ ـ ١٢٦، وانظر عن حياته ما رواه عبيد ابن شرية ص ٤٣٣ ـ ٤٣٨.

(٢) التيجان ص ٨٥.

في ألف ألـف كـالنجـوم لهـم زجـل كـأسـراب القـطا الهمس
والصعب ذو القـرنين قـاد بـهـا لصلاح أرض التـرك والفـرس[1]

وعندما حمل عساكره في المحيط يريد جزائر الأرض خلف جزيرة الأندلس عبره إلى الأرض وأنشأ يقول:

ألا أيهـا الـوراد قـد نلت خطة علوت بـعلميـهـا ملوك الأعـاجـم
سلكت غروب الأرض حزماً بجحفل لنأتي أرضاً غيـر أرض التشائم[2]

وهذه أبيات متفرقة من القصيدة نفسها:

فـأرجيت فـيـه أمـة بعـد أمـة وقـدمت فيه عـالمـاً بعـد عـالم
وأعطيت أسباباً أرى الرشد عندها تناهت بصدق العلم عن كل عالم
ومن قال في علم الغيوب يعلمه لـه نـومة تـربي على كـل نـائم
فـودعني عـمـر وعليـه تـحيتي وفـارقني من يعفـر حـزم حـازم
كـتبـت بخط الـحـمـيـريـة آيـة بـأن ليس بعدي من مسيـر لقادم
ألم تـر أن الدهـر يهـدم مـا بنى ومن يـك مهدومـاً فليس بهادم[3]

وعندما رأى قصر عابر بن شالخ أنشأ يقول:

أين رب الملك بـل أين الـذي شيـد القـصـر زمـانـاً ثم جـن
أين من ينجـو من المـوت ومن أخـذ العهـد على رب الـزمن[4]

وعندما دخل القصر ورأى فيه الأعاجيب قال:

فـمن يـسـأل عن الـقصـر فـمـبـنـيـاً وجـدنـاه
فـأين الـسـاجـد الـسـامي مـليـك الـقـصـر بـنـاه
وقـد كـان بـه حـيـنـاً ولـو كـان سـألـنـاه

---

(١) التيجان ص ٩٢ ـ ٩٣.
(٢) التيجان ص ٩٥.
(٣) التيجان ص ٩٥ ـ ٩٦.
(٤) التيجان ص ٩٨.

عـن الـقــوم ومــا قــالــوا ولــو قــال لــقــلنــاه[1]

وعندما غلب على أرمينية ثم عطف إلى فج نهاوند قيل هذا باب الأبواب فقال:

جـزعنا الغــرب والشــرق وجئــنــا بــاب أبــواب
وأعــلامــاً مــن الــدنــيــا بــآيــات وأســبــاب
بــعــلم صــادق الــحــزم وبــأس غــيــر هــيــاب
بــأمــر الــواحــد الــقهــار رب فــوق أربــاب
وفــي الأمــر تــصــاريــف وآيــات لألــبــاب
وعــلم فــوق ذي عــلم وغــلاب لــغــلاب[2]

وعندما اقترب أجله قال قصيدة تقع في (٥٣) بيتاً[3] اقتطعنا منها هذه الأبيات:

يـا صعب حقاً كـل شيء هالـك إلا الإلّــه الــواحــد الــمـعـبــودا
عمــرت ألفــاً بعــد ألف قبلهــا في العــالمين وقـد دعيت وحيــدا
وقصــدت آفـاق الغــروب بقـدرة فـوجـدت نحساً عنـدهـا وسعـودا
فهــديت منهــا مؤمنــاً ذا همــة وقســرت منهـا كــافـراً وجحــودا
ورأيت عين الشمس عند سقوطها ووردت أمــواج الـمحــيط ورودا
وبلغت أعــلام المشــارق كـلهــا أبـقى لـمن أبـقى بـهـن حــدودا
فـوطئت يأجـوجـاً ومـأجـوجـاً بها وبنيـت قــطراً دونهــا وحــديــدا
فجعلت عن سربيهمـا منـدوحـة والفــج عن صــدفيهمــا معقــودا
وولجت في الظلمات حتى جبتها خــوفـاً وكــان رتـاجهــا محـدودا
ولقيت تحت الشمس قوماً خلتهم تـحت الـظلام خنــازر وقــرودا
وعلى بني حـام غـدوت بســطوة بــالصين حتـى بـددوا تبـديــدا

---

(١) المصدر نفسه ص ٩٨.

(٢) التيجان ص ١٠٠.

(٣) نقل الهمداني في الإكليل هذه القصيدة مع اختلاف في بعض الكلمات ولكنه قال: إنها قصيدة طويلة تقع في أربعمائة بيت!. الإكليل تحقيق نبيه فارس ص ١٨٧ - ١٩٠.

فلقد كشفت الناس عن أسبابهم ... وبلوت منهم طارفاً وتليدا
ولقيت منهم أنوكاً ولبيباً ... ورأيت منهم عاجزاً وجليدا
يوماً يشب من الحرب خمودها ... يوماً وتطفي للحروب وقودا
حاولت أن أعطى الخلود وأرتقي ... في الخافقين إلى السماء صعودا
فأبى لي الله الذي أملته ... أمسى المنى دون الرضى مردودا
فالحنو للصعب المعبهل منهل ... يمسي به أمداً له ممدودا
سيموت من تنسى المنية يومه ... وتنال بنت الدهر منه بعيدا
حالان لا تلقى النفوس سواهما ... فيها شقياً خاسراً وسعيدا[1]

رثاء الشعراء له:

هذا وقد نقل عن بعض الشعراء رثاؤهم للصعب على أن منهم يعني به ذا القرنين، ونحن نورد لك بعضاً مما قالوه. قال امرؤ القيس في رثائه:

همام طحطح الآفاق وحيا ... وقاد إلى مشارقها الرعالا
وسد بحيث ترقى الشمس سداً ... ليأجوج ومأجوج الجبالا[2]

وقول الأعشى:

والصعب ذو القرنين أصبح ثاوياً ... بالحنو في جدث أشم مقيما

وقال ربيع بن ضبع، وكان معمراً، ومن أحكم العرب:

رأيت قروناً بعد قرن تقدمت ... فلم يبق إلا ذكرها حين ولت
ألا أين ذو القرنين أين جموعه ... لقد كثرت أسبابه ثم قلت

وقال أيضاً:

وألوي بذي القرنين بعد بلوغه ... مطالع قرن الشمس بالإنس والجان

وقال:

والصعب ذو القرنين عمر ملكه ... ألفين أمسى بعد ذاك رميما

(١) التيجان ص ١٠٦ ـ ١٠٨.
(٢) التيجان ص ١١٤.

وقال أيضاً:

فهل بعد ذي القرنين ملك مخلد وهل بعد ذي الملكين يوم فلاح؟

وفيه يقول طـرفة بن العبد:

إذا الصعب ذو القرنين أزجى لواءه إلى ملك ساسان فقامت نـوادبـه
يسير بحتف الوجه والعيش جمعه وتمضي على وجـه البلاد كتـائبـه

وقال أوس بن حجر السعدي:

وتجـري الليالي بـانتقاص ومـزقـة وإن سبيل الصعب لا شك يسلك[1]

وقال علقمة بن ذي جدن وقد رثاه في جملة من ذكر من ملوك قحطان:

أين الـذي بلغ المشـارق كلهـا ومغـارب الأرض التي لم تعمـر
وبنى على يـأجـوج ردمـاً رصّـه بـالقـطر يثبتـه ولـمـا يـظهـر
فـتنـاولـتـه منيـة قصـدت لـه فـأجابهـا ومضى كأن لم يـذكر[2]

وقال فيه القلمسّ أفعى نجران في أبيات يرثي فيها سليمان بن داود ﷺ:

ألم تسمـع بـذي القـرنين لمـا تـمكـن عنـده الـملك الـمكـين
وكـان الصعب في الـدنيـا يلهـو وجـد الـدهـر فيـه لـه قـرين[3]

كانت تلك بعض النقاط عن حياة الصعب ذي القرنين، نقلتها لك باختصار عمن اشتهر برواية أخبار ملوك اليمن - الروائي عبيد بن شرية -.

وبعد أن سرد الأستاذ الطباخ حياته بإسهاب، مع روايات أخرى، قال: يستفاد مما تقدم أن ذا القرنين بعد أن أتى بلاد باب الأبواب - وهي البلاد الواقعة عند بحر خزر - سار منها إلى تركستان الشمالية، ومنها إلى تركستان

---

(١) انظر هذه الأبيات في كتاب التيجان. الصفحات (١١٨، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٥، ١٢٦).

(٢) الإكليل تحقيق نبيه فارس جـ٨ ص ١٩٨.

(٣) الإكليل للهمداني - تحقيق نبيه فارس جـ٨ ص ٢٠٢.

الشرقية الواقعة شمالي جبال كوتن تن، وكانت جميع هذه البلاد إلى أن تصل إلى جبال كنج جان، بل وإلى ما وراء هذه الجبال تدعى بلاد يأجوج ومأجوج، ثم خصت البلاد الغربية من بلاد الصين من الشمال إلى الجنوب باسم الترك بناء على أن ذا القرنين تركهم غربي السد ـ وكونهم سموا تركاً لهذا السبب ليس مما يطمئن له القلب ويثلج به الصدر ـ.

قال: ويستفاد من كلام صاحب التيجان بعدما تقدم، أنه أوغل في شمالي البلاد الصينية، وبلغ جزائرها، ولعل المراد بها الجزائر التي في شمالي آسيا أو الجزر التي فيها الأمة المعروفة الآن باليابان. وقال بعد ذلك في ص (١٠٢): ثم إن ذا القرنين رجع حتى بلغ السد وهو بالصدفين ولا سد فيه، فشكى له أهل تلك الأماكن ما يلاقونه من يأجوج ومأجوج من الغارات عليهم والإفساد في زرعهم والتخريب في بلادهم وقطع السبل عليهم، وهم قوم أقوياء ولا يحصي عددهم إلا الله تعالى، وهؤلاء ضعاف قليلون بالنسبة إلى أولئك، وغشم قليلو الفطنة كما وصفهم الله بقوله تعالى: ﴿ لا يكادون يفقهون قولاً ﴾ ولما رأوا أن ذا القرنين قد أنكى فيهم ودوخ بلادهم وخضعوا لسلطانه وكانوا لا يؤمنون إذا ذهب ذو القرنين وكر راجعاً إلى بلاده أن يهاجموهم ويغيروا عليهم ويعيثوا في الأرض فساداً، فانتهزوا هذه الفرصة و ﴿ قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض، فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ﴾؟ يحجز دون خروجهم علينا[١]. .

وأورد الطباخ في كتابه مقالات تدل على أن العرب عرفوا أمريكا قبل أن يعرفها أبناء الغرب، ناقلاً ذلك عن مصادر أجنبية[٢]. وفي إحدى المقالات نقلت كاتبة قصة من كتاب (نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق) فيها ذكر بعض العرب الذين خرجوا من (لشبونة) وجروا في البحر (١٢) يوماً والتقوا بجماعة أخذوهم إلى الملك، فإذا برسوله يتحدث إليهم بالعربية! ورجحت الكاتبة أن يكون ذلك في القرن الثالث الهجري (التاسع

---

(١) انظر ذو القرنين وسد الصين ص ٤٨.

(٢) انظر ذو القرنين وسد الصين ص ٣٣ فما بعد.

المسيحي)[1]. . يقول الأستاذ الطباخ معلقاً: من أين أتى هذا الرجل العربي. وهل هو وحده في هذه الجزيرة يعرف اللسان العربي؟ هذا مما يستبعد. يمكننا أن نقول جازمين إنه لما وصل ذو القرنين إلى تلك البلاد وقتئذ وعاد إلى الشرق، فهؤلاء من بقايا من نزل تلك البلاد من العرب لما جاءها ذو القرنين[2].

دراسة ونقد:

أعود فأذكر أن هناك من يرى أن ذا القرنين هو ملك حميري آخر غير الصعب.. لكن ـ كما ذكرت سابقاً ـ الغالب على قول من يرى أنه حميري، يقصد من ورائه الصعب.. وهذا هو وحده ما كان على لسان الشعراء الذين قالوا بذلك، ولم ينوهوا إلى غيره قط.

وذكر الأستاذ الطباخ روايات كثيرة تدل على ذلك، ثم قال بعدها: فهذه روايات ونقول متعددة يؤيد بعضها بعضاً أن ذا القرنين هو الصعب بن ذي مراثد الحميري، فإذاً هو رجل عربي من صميم جزيرة العرب، وملك من أعظم ملوك حمير الأقدمين[3].

لكن مع هذا، أرى أن أوجه سهام النقد إلى آراء آخرين ممن يرون أنه غير الصعب باختصار، حتى لا يبقى هناك أي إشكال في الموضوع.. ثم أعود إلى الدراسة والنقد في شأن الصعب..

في كتاب (التيجان) أن تبع الأقرن هو المذكور في القرآن الكريم. ولا شك أن بين ذي القرنين (الصعب) وتبع الأقرن هذا زمن طويل. فتبع الأقرن هذا هو ابن شمر يرعش بن أفريقيس بن أبرهة بن الرائش[4]. وقيل ابن ياسر ينعم بن عمرو ذي الأذعار[5].

(١) ذو القرنين وسد الصين ص ٣٩.
(٢) ذو القرنين وسد الصين ص ٤٠ الهامش.
(٣) ذو القرنين وسد الصين ص ٨.
(٤) انظر التيجان ص ٤٢٨.
(٥) جمهرة أنساب العرب ص ٤٣٩.

وقد أورد الإمام الآلوسي هذا القول وآخر معه ثم نقدهما. قال:

وقد ذكر بعضهم فيه (شمر) أنه ذو القرنين، وقالوا: إنه يقال له (شمر يرعش) لارتعاش كان فيه، فلعل (سمي) محرف عن شمر، وابن عمير محرف من يرعش. وقد ذكروا في أبيه (أفريقيس) أنه غزا نحو المغرب في أرض البربر حتى أتى طنجة، ونقل البربر من أرض فلسطين ومصر والساحل إلى مساكنهم اليوم، وأنه هو الذي بنى أفريقية، وبه سميت، وكان ملكه مائة وأربعاً وستين سنة، وفيه أنه خرج نحو العراق وتوجه نحو الصين وأنه قلع المدينة التي تسمى اليوم (سمرقند) وقالوا إنها معرب (شمركند) وإلى ذلك يشير دعبل الخزاعي بقوله يفتخر بملوك اليمن:

همو كتبوا الكتاب بباب مرو   وباب الشاش كانوا الكاتبينا
وهم سموا بشمر سمرقندا   وهم غرسوا هناك النابتينا

وأنه إنما لقب بذي القرنين لذؤابتين كانتا له، وكان ملكه على ما قال (ابن قتيبة) مائة وسبعاً وثلاثين سنة، وعلى ما قال المسعودي: ثلاثاً وخمسين سنة، وعلى ما قال غيرهما: سبعاً وثمانين سنة، ثم إن هذا لم يكنَّ بأبي كرب، وإنما المكنى به على ما رأيناه في بعض التواريخ أسعد بن كليكرب ويقال له تبع الأوسط، ويذكر أنه آمن بنبينا ﷺ قبل مبعثه. وفي ذلك يقول:

شهدت على أحمد أنه   رسول من الله باري النسم
فلو مدّ عمري إلى عمره   لكنت وزيراً له وابن عم

وذكروا أنه كان شديد الوطأة كثير الغزو، فملَّه قومه فأغروا ابنه حسان على قتله فقتله.

قال الإمام الآلوسي: ولا يخفى أن كلا هذين الشخصين لا يصح أن يكون المراد بذي القرنين الذي ذكر أنه لقي إبراهيم عليه السلام. أما الأول: فلأنهم ذكروا أنه ملك بعد ياسر ينعم بن عمرو، وملك ياسر بعد بلقيس زوجة سليمان عليه السلام، وكان عمها، فكيف يتصور أن يكون هذا ذاك مع بعد زمان ما بين إبراهيم وسليمان عليهما السلام؟!

وأما الثاني فلأنه بعد هذا بكثير، مع أنه لم يطلق عليه أحد ذا القرنين ولا نسب إليه غزواً في مشارق الأرض ومغاربها[1]. .

وكان أن وجه أيضاً الدكتور عبد العليم خضر النقد العلمي لمن يرى أنه (شمر يرعش) أو (ياسر ينعم). فبعد أن أورد طرفاً من حياتهما، مبيناً ما قيل، أو ما كتب عن فتوحاتهما قال، أولاً عن شمر يرعش:

لم يرد في كتب التاريخ المحققة والمعتمدة ما يدل على أن شخصاً أو ملكاً بهذا الاسم قد غزا بابل وفارس. . كما أنه لم يبن «سمرقند». . وبالنظر في كتاب المسالك والممالك لم نعثر على شيء من هذا. . وفي الفترة التي كان شمر يرعش ملكاً على سبأ وريدان وحضرموت وغيرها ـ أي بين عامي **٢٧٥** م ـ **٣٠٠** م ـ كان يحكم فارس وبابل وسجستان وخراسان بهرام، والثاني (وره ران) خامس الملوك الساسانيين، وكان من أهم أعماله إخضاع قبائل السك الذين كانوا قد استقروا في سيستان وأفغانستان بما فيها من إمارات. . . بل لقد استمر الساسانيون يحكمون هذه البلاد حتى طرقت جيوش المسلمين الفاتحين أبواب المنطقة سنة **٦٣٩** ميلادية. . . ولم يذكر تاريخ المنطقة وصول العرب إلى هناك قبل الإسلام على الإطلاق في صورة فاتحين غزاة وخصوصاً من اليمن. .

لا شك أن الخيال قد بلغ أشده بالإخباريين الذين ذكروا عنه ذلك. . . وخصوصاً حين يزعمون أن شمر يرعش هذا قد وصل إلى الصين وترك بعضاً من جنده هناك. . . ثم ينتقلون به فجأة من الصين إلى مصر فالحبشة. . . ثم يعودون به مرة ثانية إلى المشرق، حيث يقيم فترة في مدينة. . «شداد بن عاد». . . التي ليس لها وجود على الخريطة. . .

وفي النهاية يعودون به إلى اليمن. . . فيقيم في قصر غمدان. . . وبعد ذلك كله لا يرضى له الإخباريون إلا بملك الأرض كلها. . وإلا بعمر لا يقل عن ألف وستين عاماً!!!.

---

(١) روح المعاني جـ١٦ ص ٢٨ .

ثم يـذكر أن ابن منبـه لـم يسلك المنهجية العلميـة الـدقيقـة في التاريخ. . . ومن سار على شاكلته من الإخباريين.

ويقول: إن الأخبار التي وردت عن شمر يرعش ليس لها أساس من الصحة على الإطلاق، والدليل العلمي على ذلك. . . كان شمر يرعش يحكم بين ٢٧٥ م ـ ٣٠٠ م. . . وفي نفس هذه الفترة بالضبط كان امرؤ القيس بن عمرو ملك الحيرة يقطع أي طريق لشمر يرعش إلى بابل وفارس وسجستان وخراسان. . . لماذا؟ لأنه كان عاملاً لملك الفرس الساساني بهرام الثالث (وره ران ـ أو كما يسمونه سكانشاه ـ) فقد كان امرؤ القيس بن عمرو يحكم فيما بين (٢٨٨ ـ ٣٢٨ م) باسم بهرام كل بقاع بادية الشام حتى الخليج وجنوب العراق والحجاز والجزيرة. . .

وبتحليل «نقش النمارة» الذي يحمل سيرة امرىء القيس بن عمرو اتضح أن النص المنقوش عليه يؤكد سيطرة هـذا الحاكم على معـظم جزيـرة العرب. . . ووقوع كل المسالك نحو فارس وخراسان والشام في يده[١]. . . ثم برهن الدكتور (خضر) أنه لم يذهب إطلاقاً إلى بلاد خراسان ولا الهند ولا الصين ولا الشام. وقال:

إن امـرأ القيس بن عمرو جاء بنجاح إلى نجران عاصمـة شمر يرعش وقسم أملاك هذا الإقليم على أبنائه. . . ومعنى ذلك أنه هاجم شمر يرعش في عقر داره، وبناء على ما ثبت من أبحاث «فوق فيسمان» من أن شمر يرعش كان يعاصر امرىء القيس بن عمرو ملك الحيرة. . فإن «شمر يرعش» كان الأجدى به أن يحمي بلاده هو من هجوم امرىء القيس على نجران ووصوله إلى حدود الجزيرة العربية. . . بدلاً من غزو الصين وخراسان، ويؤكد لنا كل ذلك. . أن الله تعالى لم يمكن شمر يرعش في الأرض بالصورة التي تنطبق على ما جاء في القرآن الكريم والمفاهيم القرآنية المفسَّرة[٢]. .

---

(١) انظر ما ذكرناه في كتاب مفاهيم جغرافية في القصص القرآني (قصة ذي القرنين) للدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر ص ١٤٦ ـ ١٤٧ باختصار.

(٢) مفاهيم جغرافية في القصص القرآني ص ١٦٨ باختصار. وانظر المصادر التي نقل منها هناك.

أما الشخصية الحميرية الأخرى فهي شخصية (ياسر يهنعم) أو (ناشر النعم) أو (ياسر ينعم) أو (ياشر ينعم) أو (ياسر أنعم) أو (بناشر النعم)، وهو عمرو زوج بلقيس (٣٢٠ ـ ٣٣٠ م)، وبعضهم يطلق عليه اسم تبع الأكبر، وقد نسب إليه وهب بن منبه امتداد ملكه إلى الحبشة وإلى بلاد الروم والترك فضلاً عن التبت والصين والهند..

وهي قصص وأخبار للسمر والتسلية.. لا للتاريخ والحقائق.. كما سترى!.

* * *

هذا عن الملكين الحميريين (شمر) و (ياسر).

أما عن الصعب، فقبل النقد والدراسة، نذكّر أن هناك من يسوق له قصة فريدة وغريبة، في أول حياته! فقد نقل القرماني عن (بلغة الخواص):

أن ذا القرنين نشأ يتيماً في بني حمير، اسمه صعب بن جبل، وأمه هيلانة، فحملته أمه إلى بيت الصنايع في القسطنطينية، فقالت: اختر يا بني ما تريد منها. فرأى صانعاً يصلح تاج الملك فوضع يده عليه فانتهرته مراراً فلم ينته. وكان يونان الحكيم يبصرهما فناداهما وقال لأمه هيلانة: أنت هيلانة، وهذا ابنك صعب بن جبل. قالت: نعم. فأخذ منه العهد له ولذريته بالأمان، وقال له: أنت الملك الذي يسحب ذيله في مشارق الأرض ومغاربها، وأمر أمه بكتم أمره فحملته إلى أرض بابل، فلما بلغ الحلم رأى ثلاث منامات في ثلاث ليالٍ. رأى ليلة كأن الأرض كلها خبز فأكله. ورأى ليلة أخرى أنه شرب البحار وأكل طينها. ورأى في الليلة الثالثة أنه قد رَقِيَ في السماء فقدَّ نجومها ورماها إلى الأرض وركب الشمس وسحب بناصيته القمر، فلما أصبح اجتمع بالخضر وقررها عليه فبشره بالملك الأعظم. فعلت همته واشتدت شوكته، وعظم في قومه، وألقى الله عليه الهيبة، واجتمع مع إبراهيم عليه السلام في سفر بقرب مكة، فأعطاه الراية وعانقه وصافحه، وقبّله بين عينيه، وهو أول من لبس العمامة وكانوا يلبسون التيجان قبله، وأول ما جمع عليه (راينرانر) أسلم وحسن إسلامه، واستولى الملك، فهدم بيوت

النيران ببلاد الفرس وبيوت الأوثان وأحرق كتبهم ودعا الناس إلى الإسلام، وبنى اثنتي عشرة مدينة، ثلاث مدائن بأعمال خراسان: هراة، ومرو، واسكندر. ومدينة بأرض بابل، ومدينة الاسكندرية بمصر، والباقي متفرقة[١].

وقد خلط بعضهم في نسبه كثيراً، فمنهم من جعله رومياً، ومنهم من جعل أمه رومية على اختلاف في الاسم أو القصة. فقد ذكر القرماني من أقيال اليمن (الحرث). قال: ويقال له الحارث الرايش، وهو تبّع الأول وكان ملكه مائة وخمساً وعشرين سنة، وكان يسمى الفيلسوف لعقله وأدبه، فتزوج بامرأة من غسان، وكانت على دين الروم، فولدت ذا القرنين، فسماه أبوه الاسكندر، فلما هلك الحرث تولى مكانه ابنه (الاسكندر)، فهو الاسكندر بن فيلسوف الحميري، وإنما نسبته الروم إلى أمه لأن أباه مات وهو صغير، وكان رجلاً طويل القامة، رحب الجبين[٢]..

وقال الإمام الآلوسي: ذكر أنه يمكن أن يكون الاسكندر مصعب بن عبد الله بن قينان بن منصور إلى آخر النسب السابق المنتهي إلى قحطان، عنى هذا الرجل الحميري لا الرومي ولا اليوناني، لكن وهم الناقل، لأنه لم يقل أحد بأن الروم من أبناء قحطان، وكذا اليونان! نعم ذكر يعقوب بن إسحاق الكندي أن يونان أخو قحطان، ورد عليه أبو العباس الناشي في قصيدته حيث قال:

أبا يوسف إني نظرت فلم أجد	على الفحص رأياً صحَّ منك ولا عقدا
وصرت حكيماً عند قوم إذا امرؤ	بلاهم جميعاً لم يجد عندهم عهدا
أتقرن إلحاداً بدين محمد	لقد جئت شيئاً يا أخا كندة إدّا
وتخلط يوناناً بقحطان ضلة	لعمري لقد باعدت بينهما جدا

والمذكور في كتب التواريخ أن ملوك اليمن إلى أن غلبت الحبشة

---

(١) أخبار الدول للقرماني ص ٢٣١. هذه وقصص أخرى مثلها أسوقها للتنبيه لا للاستدلال لأنها غير معتمدة.

(٢) انظر كتاب أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ تأليف العالم الفاضل أبي العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي الشهير بالقرماني ص ٢٣٠.

عليها، من أبناء قحطان. وأورد على هذا القول في ذي القرنين أنه لم يوجد في كتب التواريخ المعتبرة سمي بن عمير بن أفريقيس في عداد ملوك اليمن، والمذكور إنما هو (شمر) بصيغة فعل الماضي من التشمير، ابن أفريقيس، ولم يذكروا بينه وبين أفريقيس (عميراً)[1].

* * *

والآن ماذا عما قيل عن حياة صعب؟.

وما مدى صحة ما ذكر عن فتوحاته وسيرته العجيبة؟!.

أقول منذ البداية: إن الروايات سواء أكانت من وهب بن منبه أم من عبيد بن شرية أم غيرهما من الروائيين، فإنها لا تتصف بالمنهجية العلمية الدقيقة، ما دامت عن ملوك اليمن أو أقيالها.. بل يغلب عليها طابع القصص الشعبي وروايات ألف ليلة وليلة، ولا يمكن الاعتماد عليها إلا بعد موازنة وتصفية وتحقيق.

فهي أخبار غير متفق عليها، بل إنها متأرجحة بين التهويل والخرافة والأسطورة، أما الحقيقة فإنها بعيدة، إلا عن النادر النادر.

وبإمكانك أن تعرف الهوة الشاسعة بين هذه الروايات المختلفة، كيف أن ما سردناه من أخبار يتفق وأن الصعب كان في وقت موسى عليه السلام، مع أن الإخباريين متفقون ـ تقريباً ـ أن ملك الصعب هو بين ٣٠٠ ـ ٣٢٠ م!!.

وفي معرض رد الباحث الإسلامي (سيد قطب) على أبي الريحان البيروني الذي قال بأن ذا القرنين هو من حمير مستدلاً باسمه: وقد يكون هذا القول صحيحاً، ولكننا لا نملك وسائل تمحيصه، ذلك أنه لا يمكن البحث في التاريخ المدون عن ذي القرنين، الذي يقص القرآن طرفاً من سيرته، شأنه شأن كثير من القصص الوارد في القرآن، كقصص قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وغيرهم، فالتاريخ مولود حديث العهد جداً بالقياس إلى عمر البشرية. وقد جرت قبل هذا التاريخ المدوّن أحداث كثيرة لا يعرف عنها

---

(١) روح المعاني جـ ١٦ ص ٢٧ ـ ٢٨.

شيء فليس هو الذي يستفتى فيها[1].

إذاً فلا يمكن الاعتماد على أخبار اليمن في تحقيق علم قرآني بارز والجزم بأنه هو، إذ إن الحوادث والشخصيات التاريخية لا تقرر ولا تثبت بمثل هذه الأخبار الواهية سنداً ومتناً. إنما تثبت بشواهد واضحة وبراهين علمية وروايات صحيحة.

ويكفي هنا أن أنقل لك تحقيقاً علمياً رائعاً للعلامة المؤرخ ابن خلدون، حيث يقول: ومن الأخبار الواهية للمؤرخين ما ينقلونه كافة في أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب، أنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن إلى أفريقية والبربر من بلاد المغرب..

ثم أخذ يسرد ما نقل عن بعض التبابعة من أنهم غزوا أفريقية وأثخنوا في البربر إلى وادي الرمل من بلاد المغرب، وأنهم غزوا فارس والموصل وأذربيجان وبلاد الصفد من بلاد أمم الترك وراء النهر، وإلى بلاد الروم وسمرقند والصين.. ثم قال:

وهذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة، عريقة في الوهم والغلط، وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة. وذلك أن مُلك التبابعة إنما كان بجزيرة العرب، وقرارهم وكرسيهم بصنعاء اليمن. وجزيرة العرب يحيط بها البحر من ثلاث جهاتها. فبحر الهند من الجنوب، وبحر فارس الهابط منه إلى البصرة من المشرق، وبحر السويس الهابط منه إلى السويس من أعمال مصر من جهة المغرب، فلا يجد السالكون من اليمن إلى المغرب طريقاً من غير السويس، والمسلك هناك ما بين بحر السويس والبحر الشامي قدرُ مرحلتين فما دونهما، ويبعد أن يمر بهذا المسلك ملك عظيم في عساكر موفورة من غير أن يصير من أعماله هذه ممتنع في العادة. وقد كان بتلك الأعمال العمالقة وكنعان بالشام، والقبط بمصر. ثم ملك العمالقة مصر، وملك بنو إسرائيل الشام، ولم ينقل قط أن التبابعة حاربوا أحداً من هؤلاء الأمم، ولا

(١) في ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢٢٨٩ ـ ٢٢٩٠.

ملكوا شيئاً من تلك الأعمال. وأيضاً فالشقة من البحر إلى المغرب بعيدة، والأزودة والعلوفة للعساكر كثيرة، فإذا ساروا في غير أعمالهم احتاجوا إلى انتهاب الزرع والنعم، وانتهاب البلاد فيما يمرون عليه، ولا يكفي ذلك للأزودة وللعلوفة عادة وإن نقلوا كفايتهم من ذلك من أعمالهم فلا تفي لهم الرواحل بنقله. فلا بد وأن يمروا في طريقهم كلها بأعمال قد ملكوها ودوخوها لتكون الميرة منها. وإن قلنا إن تلك العساكر تمر بهؤلاء الأمم من غير أن تهيجهم فتحصل لهم الميرة بالمسالمة فذلك أبعد وأشد امتناعاً، فدلَّ على أن هذه الأخبار واهية أو موضوعة.. ثم قال:

ولم ينقل قط أن التبابعة ملكوا بلاد فارس ولا بلاد الروم، وإنما كانوا يحاربون أهل فارس على حدود بلاد العراق وما بين البحرين والحيرة والجزيرة بين دجلة والفرات وما بينهما في الأعمال.. فالأخبار بذلك واهية مدخولة، وهي لو كانت صحيحة النقل لكان ذلك قادحاً فيها، فكيف وهي لم تنقل من وجه صحيح؟.. وأما بلاد الترك والتبت فلا يصح غزوهم إليها بوجه لما تقرر. فلا تثقنَّ بما يلقى إليك من ذلك وتأمل الأخبار، واعرضها على القوانين الصحيحة يقع لك تمحيصها بأحسن وجه[1]..

ويقول الدكتور خضر: إن العرب لم يدوّخوا الروم ويدوسوا بلادهم إلا بالإسلام حين خرجوا يحملون راية لا إله إلا الله، محمد رسول الله.. حينئذ فقط.. وبعدها، لمسوا سور الصين العظيم، فوصلوا إلى أندونيسياوفتحوا السند والهند وطبرستان وأذربيجان وشمال أفريقيا، ووصل الإسلام بالعرب إلى الأندلس وفرنسا وصقلية وجنوب أوروبا وشرق أفريقيا..

أما قبل الإسلام وبعد زوال أمجاد سبأ، فقد كان بعض العرب وقوداً للحرب التي كانت مستقرة بين العملاقين الرهيبين: الفرس والروم.

بل لقد ورد في كتب اليونان والسريان وغيرهم أن الأحباش (ولا نقول الفرس والروم) أخذوا يستخفون بالحميريين ويتطلعون إلى بلادهم تطلع

(١) انظر باختصار مقدمة ابن خلدون ص ١٢ ـ ١٤، المكتبة التجارية الكبرى.
(٢) مفاهيم جغرافية ص ١٧٢ ـ ١٧٣.

الذئب للشاة منذ أوائل النصرانية على إثر تضعضع السبئيين وذهاب دولتهم وتفرق كلمتهم، والأحباش يومذاك في إبان سطوتهم..

ثم يعود فيذكر أنه لم يثبت أن أحداً من ملوك حمير قد قام برحلة أو حملة نحو مغرب الشمس.. كما لم يثبت أن أحداً منهم قد قام برحلة أو حملة نحو مشرقها[1]..

* * *

هذا وقد مرَّ بك القول أن الصعب ذا القرنين دفن بحنو قراقر[2].

لكن الهمداني نقل قولاً آخر في معرض ذكره لمنطقة عسير، إذ قال: فأوطان عسير إلى رأس تيّة، وهي عقبة من أشراف تهامة، وهي أبها، وبها قبر ذي القرنين فيما يقال، عثر عليه على رأس ثلاثمائة من تاريخ الهجرة[3].

وعلق الأستاذ عبد القدوس الأنصاري على هذا بقوله:

في عسير آثار مطمورة، وآثار ذكرها لنا المؤرخون، ومنها الكهف الذي يحوي جثث أربعة أموات قدامى، أحدهم رجل ضخم الجثة جداً. ويوجد هذا الكهف المجهول الأجداث في غار بالشرحة: جبل شامخ يفصل بين تمنية وتهامة، وفي قمته يقع الغار المسكون، وقبر ذي القرنين الذي ذكرنا أن الهمداني قد ذكره بأبها، ومع أن (فؤاد حمزة) عدّ هذا من باب التخريف إلا أن (عمر رفيع) ردّ عليه وأبدى أن ذا القرنين هذا الذي يقال إن قبره بأبها هو غير ذي القرنين الاسكندر المقدوني اليوناني.. إنه عربي صميم من أهل هذه الدارة[4]. قال الأنصاري:

ومن رأيي أن أنقاض البناء التي أخذ رسمها (عمر رفيع) في كتابه،

---

(١) مفاهيم جغرافية ص ١٩٥.

(٢) هو بالعراق كما ذكره الإمام السهيلي. الروض الأنف جـ٢ ص ٥٩.

(٣) انظر (صفة جزيرة العرب) للحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني ص ٢٥٦، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي ط ١٣٩٤ هـ.

(٤) بين التاريخ والآثار لعبد القدوس الأنصاري ص ١٨٧ الطبعة الثالثة ١٣٩٧ هـ. مطابع الروضة - جدة.

هي أنقاض لبناء مستجد في عهد الإسلام، ولا يرتقي إلى عصر ذي القرنين مطلقاً، وإنما بني في عهد انتشار الاعتقادات الخرافية في عصور التأخر والجمود، وقد أقامه بعضهم بعدما شاع أن قبر ذي القرنين كان هنالك بدليل وجود مسجد بجوار الأنقاض، وبدليل هدم الضريح من عهد ليس بالبعيد، وليس من المعقول أن يبقى بناء قبر ذي القرنين القديم على حاله إلى يومنا هذا حتى يهدم، فليس في جزيرة العرب بناء قائم على حالته ـ فيما أعلم ـ منذ ذلك العهد مطلقاً، سوى ما في مدائن صالح[1]. . .

كلمــة أخيــرة

قدمت لك فيما سبق دراسة تاريخية وعلمية كافية لإزالة الشك والغموض. . عن الموضوع. . لكني مع هذا أزيد البحث تحقيقاً وتمحيصاً في نقاط مهمة، فأقول:

● إن لقب ذي القرنين لقب قديم، وقد تناهت إلى أذهان كل الناس أخباره وفتوحاته، وأصبح هذا رغبة بعض الملوك ممن أحب التوسع في الملك والسلطان. . . فيدفع الجيوش في البلاد، ويحاول أن يسيطر على كل بقعة يستطيع الوصول إليها، ويشيع بين الناس أنه مثل ذي القرنين، أو أنه ذو القرنين الثاني في فتوحاته وقوته وعدله بين الناس. . وهذا ما دعا بعض ملوك اليمن ـ الذي بلغ شأواً عظيماً في القوة والتمكين في بلاده ـ أن يطلق على نفسه هذا اللقب، فأخذ يفتح البلاد وينشىء السدود، ويقوم بإصلاحات عظيمة، وتنطلق كلمات الشعراء رنانة لتطلي عليه صفة أكبر ملك استطاع أن يفتح العالم، وهو ذو القرنين. وتتابع شعراء ـ ومثلهم رواة القصص والأساطير ـ على فترات متتالية، وسمعوا قصصاً اعتراها الكثير من التغيير والتشويه والمبالغة. . فأخذوا يطلقون هذا الوصف على ملوكهم السابقين، وخاصة ممن اشتهروا بفتح مشارق الأرض ومغاربها، ويضيفون إليها ما عرف من سيرة ذي القرنين من أنه بنى السد ليمنع هجمات أمتي يأجوج ومأجوج. .

---

(١) بين التاريخ والآثار ص ١٩١ ـ ١٩٢.

والدليل على هذا أنهم لم يكتفوا بإطلاق هذا الوصف على ملك واحد، بل تعدى هذا إلى آخرين.. ولو لم يُقصد به ذو القرنين الحقيقي..

فقد نقل الإدريسي عن صاحب كتاب العجائب أن في وسط جزيرة مسفهان صنم أحمر بناه أسعد أبو كرب الحميري، وهو ذو القرنين الذي ذكره تبع في شعره. قال:

ويسمى بهذا الاسم كل من بلغ طرفي الأرض[1].. ويقول ابن حبيب في المحبر:

ويحتمل أن يكونوا ملوكاً في أوقات شتى يسمى كل واحد منهم ذا القرنين، والله أعلم[2].

● أما قول قس بن ساعدة:

والصعب ذو القرنين أصبح ثاوياً ... بالحنو بين ملاعب الأرواح

وهو ما أسمعه بعضهم رسول الله ﷺ.. فلا يدل هذا أن المقصود به ذو القرنين الوارد ذكره في القرآن.. وإنما عنى به ذلك الملك الحميري، والملقب بهذا اللقب.

● وقول امرىء القيس: أشذّ نشاصَ ذي القرنين حتى... الخ.

ذكر الزبيدي في تاج العروس أن المقصود به هو المنذر بن ماء السماء وهو الأكبر، جد النعمان بن المنذر، سمي به لضفيرتين كانتا في قرني رأسه كان يرسلهما[3].

وعلق صاحب اللسان أنه ليس هو الموصوف في التنزيل[4].

● ولا يستبعد أن يكون من بين ملوك حمير من لقب بذي القرنين. فإن

---

(١) انظر كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني ص ١٠٤.

(٢) الروض الأنف جـ ٢ ص ٦٠.

(٣) جـ ٩ ص ٣٠٧.

(٤) جـ ١٣ ص ٣٣٣.

كلمة (ذو) تستعمل في أسمائهم وألقابهم. ولربما نشأ الخلط والتشويه كله في هذه التسمية. فسمي أحدهم بهذا الاسم إما تيمناً أن يكون ملكه وفتوحاته مثل ملك وفتوحات ذي القرنين، أو لأن (ذو) تستعمل في أسماء ملوكهم ـ حقيقة ـ فأخذ القصاصون والشعراء جيلاً بعد جيل يطلقون العنان لأراجيفهم وخيالاتهم.. وما أكثرها في العصور القديمة!.

● ولكن ليس معنى هذا أن كلمة (ذو القرنين) تخص اللغة العربية وحدها. فقد ذكرنا أنها مستعملة عند الأوروبيين أيضاً، وقد ذكرت أيضاً عند اليهود. يقول العلامة القاسمي: هذا اللقب من الكناية عن كل ذي قوة وبأس وسلطان، لأن ذا القرنين من المواشي أقواها وأشدها. والكناية بالقرن عن القوة والسلطان معروفة عند اليهود، الذين هم السائلون. وقد وقع في توراتهم في نبوة دانيال عليه السلام قوله عن الملك: (فإذا أنا بكبش واقف عند النهر. وله قرنان)، ثم قوله: (وبينما كنت متأملاً إذا بتيس معز قد أقبل من المغرب على وجه الأرض كلها، وللتيس قرن عجيب المنظر بين عينيه)، قالوا: القرن هنا رمز إلى القوة والسلطان، والتيس رمز إلى مملكة اليونان، وقرنه رمز إلى أول ملك[1]..

وبهذا يسقط دليل آخر لهم! وما نقل (الطباخ) من أن لفظة (ذو) عربية محضة[2].

ثم إن هذا لقب، وليس اسماً حتى يقال بأن اللفظة عربية!.

وإنها ولو كانت اسماً، فلا يشترط أن تكون عربية..

ذلك أن هناك أسماء وألقاباً في القرآن الكريم كانت بلغات متعددة، لكنها صيغت بترجمة عربية صافية. فإذا كان ذلك كذلك، فمن الطبيعي جداً أن يقال إن ذا القرنين لم يكن عربياً.. لكن لقبه ترجم إلى العربية..

تماماً كما يقال عن يأجوج ومأجوج بأنهما لقبان لقبائل همجية.

---

(١) انظر بقية الكلام في تفسير القاسمي جـ ١١ ص ٤١٠٨ ـ ٤١٠٩.

(٢) ذو القرنين وسد الصين ص ٥.

وهاتان كلمتا (الخضر) و(لقمان) أليستا عربيتين؟ ولكن من قال بأنهما عربيان؟!.

والأقرب من هذا كله أن يقال عن لقب (ذي الكفل) عليه السلام أيضاً. فقد كان رجلاً من بني إسرائيل.. ويورد العلماء أنه لقب بهذا لأنه تكفل بعهد فيه تبليغ أو عمل صالح..

وقد سردت لك بعض ما نسب إلى الصعب ذي القرنين من شعر، والذي ذكرت عنه مئات الأبيات. وأنا أرى أن ذا القرنين لم يقل بيتاً واحداً من كل ما نسب إليه.. فألفاظ وتراكيب شعره سهلة وسلسة، وهي أبعد ما تكون عن اللغة الحميرية[1]، المعروفة في ذلك الوقت. وهناك كلمات ومصطلحات إسلامية موجودة في ذلك الشعر، لم تكن معروفة في ذلك الحين، وليس لها ذلك المدلول إلا بعد أن استعملها الإسلام..

إن كل ما نسب إلى ذي القرنين، بل إن بعض شعر الجاهليين أيضاً، نظمه رواة وشعراء في العصر الأموي وما بعده، إما لنزاع ومنافسة، أو إرضاء للعامة، أو لطلب عرض من أعراض الدنيا، ويتوضح لنا هذا أكثر إذا عرفنا أن تاريخ اليمن الموغل في القدم، لم يدون إلا بعد النصف الثاني من القرن الهجري الأول.

ومن النقيض العجيب في أقوال الرواة وبعض المؤرخين، أنهم عندما يذكرون تاريخ الصعب أو غيره ممن أطلق عليهم لقب ذي القرنين، فإنهم يرجعون هذه الأحداث، إلى زمن إبراهيم أو موسى عليهما الصلاة والسلام... فيسردون أقاصيصهم على أنهم قد أسلموا واتبعوا الدين الذي أمر الله به. حتى إن الهمداني ذكر أن الحارث الرائش أيضاً كان في أيام موسى بن عمران ﷺ[2]!! وذكر الإمام السهيلي من قصته أنه حكم

---

(١) لغة الحميريين لا تختلف في شيء عن السبئية، فهي تعتبر من لهجاتها. انظر تاريخ العرب قبل الإسلام لأحمد رحيم ص ١٢٦.

(٢) الإكليل جـ ٨ ص ٢١٩ تحقيق نبيه فارس.

لإبراهيم عليه السلام في بئر السبع حين حاكم إليه فيها على قول من قال إنه الصعب بن ذي مراثد[1].

فأين زمن موسى وإبراهيم - عليهما الصلاة والسلام - من تاريخ الصعب، بل من بدء تاريخ العصر الحميري كله؟ فعلى العموم (يميل كثير من المؤرخين إلى تحديد العصر الحميري ببداية سنة (١١٥) ق.م.. وواكب ذلك انتقال عاصمة السبأيين إلى ريدان (ظفار).. والحميريون فرع من السبئِّيين.. وحمير عند العرب ابن سبأ، ولعل ما يدعم ذلك الرأي أن اليونان لم يذكروا الحميريين في كتبهم إلى سنة ٢٠ ق.م..)[2].

فكيف تكون حياة الصعب ذي القرنين بعد الميلاد بثلاثمائة سنة. وأحداثه في وقت موسى وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام؟!.

لا شك أن هذا يزيد من شكنا، بل من نبذنا للكثير مما قيل عن تاريخ ملوك اليمن..

وأقول هنا كلمة فيها تذكرة وأمانة.. وهي أن إعادتي للقول بأن تاريخ ملوك اليمن قد شوه، لا يعني البتة النيل من مصادر التاريخ الإسلامي، أو التقليل من شأنها.. فالأخبار التي سبقت الإسلام شيء. والتاريخ الإسلامي شيء آخر.. وشتان بين قصص شعبية نقلت من مصادر غير موثوقة، وبين وقائع وأحداث يعايشها المؤرخ فيسجلها بصدق من دافع دينه، أو ينقل ممن شاهدها، فيحررها بأمانة من عقيدته..

كما أن علماءنا لم يتشددوا في نقل الأخبار التاريخية مثلما هو في أحاديث رسول الله ﷺ، ذلك أن الأحاديث تمس الدين الإسلامي وروحه، فلا بد من تمييز الصحيح من الضعيف أو الموضوع.. بخلاف التاريخ الذي لا يمس عقيدة المسلم، بل أكثره يبحث في جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعسكرية للإنسان.. ويبقى الإنسان حراً في أخذ

---

(١) الروض الأنف جـ٢ ص ٥٩.

(٢) مفاهيم جغرافية ص ١٣٤.

تلك الأخبار التي لم يتطرق إليها القرآن أو الحديث.. ما لم يشذ عن الأمة ويبث فيها روح التفكك والتنازع!.

وغني عن البيان أن نبين أن ما نقله وهب من أن عمر الصعب أو غيره من ملوك حمير قد تجاوز الألف أو الألفين، كما قال قائلهم:

والصعب ذو القرنين عمر ملكه ألفين أمسى بعد ذاك رميما[1]

بعيد كل البعد عن الأخبار الدقيقة والروايات الصحيحة..

هذا ويميل أكثر المؤرخين أن ملك الصعب ذي القرنين كان بين (٣٠٠ - ٣٢٠ م) وهي سنوات قليلة بالنسبة لعمر التاريخ، وفاصل قليل بينه وبين نبينا محمد ﷺ، وإن ملكاً يكون هذا شأنه، يستبعد جداً أن لا يسمع به الرسول الكريم ﷺ وبخاصة أن روابط قومية واقتصادية كانت تربط بين اليمن والحجاز، فكانت هناك رحلة الشتاء التجارية، التي يذهب فيها عرب الحجاز إلى اليمن، وكانت الأخبار والتواريخ تتداول بينهما، أي أن قريشاً كانت على علم بأخبار اليمن وملوكها. ولنا أن نستفسر هنا ونتساءل: إذا كانت أخبار عيسى وموسى عليهما الصلاة والسلام، متداولة ومعروفة في مكة والمدينة - لأنه كان هناك طائفة من اليهود والنصارى - فكيف إذاً لا تعرف أخبار الصعب وهو أقرب إليهم من هذين النبيين؟ وكيف يمتحن اليهود نبي الله بسؤال معجز، ويكون سؤالهم عن رجل ولد قريباً في جزيرته من أبناء قحطان؟!

أظن أن هذا يكفي للرد على من ذهب إلى كون الصعب هو ذا القرنين المذكور في القرآن!.

وأخيراً: فأنا لا أشك أن هناك ملكاً حميرياً اسمه الصعب، عاش بعد الثلاثمائة الميلادية، ولا أستبعد أن يكون قد لقب بذي القرنين، هو أو غيره، فإن كل إنسان حر في لقبه، ولا مانع. لكنه ليس بذي القرنين القرآني بأي شكل من الأشكال.. والله أعلم.

---

(١) ذو القرنين وسد الصين ص ١٤.

الفَصْلُ الرَّابِعْ

كورَشُ الأخمِيمِيّ



تمهيد:

عزيزي القارىء:

أنت الآن بين يدي بحث جديد..

وهو ما لم يتناوله أحد من مؤرخينا أو باحثينا القدماء.. فهو رأي معاصر، قاد لواء الدفاع عنه أحد الأعلام في هذا العصر. إنه المرحوم أبو الكلام آزاد.. وزير المعارف بالهند سابقاً، الذي اطلع على التاريخ الفارسي القديم، فرأى فيه أبرز شخصية إيرانية.. (كورش الأخميني) والذي يسميه اليونان سائرس (Syrus)، وتسميه اليهود خورس، ويذكره المؤرخون المسلمون (كيخسرو).

رأى أن صفاته تنطبق على «ذي القرنين» مما عرف به من العدل والإصلاح بين الرعية، والخصال الإنسانية الحميدة في حروبه وفتوحاته..

ثم إنه أيد هذا الرأي بقوة، وجمع له أكبر قدر ممكن من الدلائل والبراهين، وسانده بدراسات جغرافية وبحوث أثرية.. فكان بذلك بحثاً علمياً متكاملاً.. وقد جمع هذه الآراء في كتابه «ويسألونك عن ذي القرنين» الذي اطلعت عليه بعد دفع هذا الكتاب إلى المطبعة!.

لكن الكتّاب الذين أيدوا فكرته، وضموا إليه أصواتهم، أوردوا رأيه، ودلائله، وأضافوا إليه دراسات ومناقشات أخرى، فكانوا بهذا يمثلون اتجاهاً جديداً له قيمته...

وبما أن هذا البحث جديد . . ولم يكتب فيه إلا قلة . . فإن مراجعه لا تتعدى القليل، حيث إن جلها ـ إن لم يكن كلها ـ مأخوذة من كلام أبي الكلام . . وقد أوسع هذا البحث دراسة وشرحاً الدكتور عبد العليم خضر في كتابه (مفاهيم جغرافية في القصص القرآني) . . وكان اعتماده الكثير على أبي الكلام أيضاً.

فكان أكثر اعتمادي عليه . . حيث لم أر مرجعاً لهذا الموضوع سواه! .

وكان لا بد أولاً أن أتحدث عن شخصية (كورش) التاريخية ثم أناقش البحث بهدوء وتأن . .

ولن يكون هذا الفصل طويلاً كسوابقه . . لأن أقساماً عديدة منه سوف تذكر في فصل (يأجوج ومأجوج وسد ذي القرنين) . . الذي لا يكتمل هذا الفصل إلا به . .

فمن رأى نقصاً أو فجوة في هذا الفصل، فإن عليه أن يكمله من الفصل الآخر . . وقد آثرت هذا التبويب حتى لا يكون هناك تكرار للموضوعات.

فهل يكون كورش هو ذا القرنين؟ .
وهل يقتنع القارىء بالأدلة؟ .
سنرى ذلك.

* * *

حياة كورش:

مدة حكمه (٥٥٩ ـ ٥٢٩ ق. م).

مات «كيا كسارس» سنة ٥٣٤ ق.م، فخلفه في الملك كورش الفارسي الشهير[١] . . روى المؤرخون من اليونان عن كيفية ولادته ونشأته ما يقرب من

(١) أما كورش الصغير، فقد توفي سنة ٤٠١ ق.م. وهو من الأسرة الأخمينية بفارس القديمة. كان أثيراً لدى أبيه دارا الثاني، منحه في حياته كثيراً من السلطان. اتهم بعد موت دارا بالتآمر ضد أخيه (ارتا جزركسيس) الثاني. وما إن نال العفو حتى ادعى العرش، وتزعم عصياناً ضد أخيه، واستعان بقوة من مرتزقة الإغريق (عشرة آلاف) لمساعدته. ولقي معونة من كثير من الحكام المحليين. لكنه هزم في كوناكسا ٤٠١ ق.م وقتل في المعركة، وتشتت جيشه. انظر الموسوعة العربية الميسرة مادة (قورش).

رواية الفردوسي وزملائه، إذ زعموا أن «استياجس»[١] ـ الملك الميدي ـ كان له ابنة اسمها «مندان» زوّجها من الأمير كمبيس (قمبيز) من أمراء فارس، وهي الولايات الشرقية من إيران، وتعرف اليوم باسم بلخ، وحدث أنه رأى في منامه يوماً ما أزعجه وأقلقه، فأرسل في الحال وراء السحرة والمنجمين، وقص عليهم حلمه قائلاً إنه رأى في حديقته شجرة[٢] زرعها بيده، تمتد وتنمو حتى ظللت أغصانها أكثر أنحاء مملكته[٣]، وما يجاورها، فعبر السحراء الحلم بأنه سوف يولد من ابنة الملك[٤] غلام ينمو ويعظم نفوذه حتى يغتصب الملك من جده. فلما سمع الملك استياجس هذا التأويل، بعث وراء ابنته، وكانت حاملاً[٥]، فلما وضعت الغلام سلمه إلى وزيره «هار باغوس»[٦] وأوصاه بقتله، فأخذه الوزير، وما طاوعه القلب على اقتراف هذا الإثم الفظيع، وأعطاه إلى أحد الرعاة[٧]، وأوصاه أن يرمي به في الصحراء ويأتيه بالأدلة على موته. فأخذه الراعي وكان له امرأة شديدة الحنو، لم توافقه على قتل الطفل. واتفق أنها ولدت في تلك الليلة طفلاً ميتاً، ففرحت بخلاص كورش وأعطت زوجها الطفل الميت ليلقيه في الصحراء بدلاً من الأمير الصغير، واعتنت هي بتربيته حتى شبَّ وظهرت عليه لوائح النجابة ودلائل الإمارة. وانتخبه أولاد قريته رئيساً عليهم، يدير حركة الألعاب بينهم، ويقاصّ الذي يخالف أوامره، وكانوا يطيعونه راغبين. وخالفه في أحد الأيام ابن أمير

---

(١) في تاريخ إيران القديم (ايخ تورويكو). انظر الكتاب لحسن بيرينا مشير الدولة ص ٧٦. ترجمة د. محمد نور الدين عبد المنعم ود. السباعي محمد السباعي، مراجعة وتقديم د. يحيى الخشاب، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٩. وما أقارنه في الهوامش التالية من حياة كورش يكون من هذا المرجع.

(٢) يذكر هيرودوت أن الشجرة التي رآها في المنام هي شجرة العنب.

(٣) في تاريخ إيران القديم أنها آسيا كلها.

(٤) ذكر في المرجع السابق أن أخت الملك ستلد ابناً. ولا أراه إلا زلة قلم من حسن بيرينا، بدليل ما بعده (. . رأى أفضل شيء أن يزوج ابنته).

(٥) يذكر هيرودوت أن الملك رأى ـ بعد الحلم ـ أن يزوج ابنته لشخص لا تتحكم في رأسه شهوة الحكم ولذا اختار (كمبوجيه) ملك فارس.

(٦) في المرجع السابق (هارباك).

(٧) في المرجع السابق أنه سلمه إلى حارسه.

من أمراء إيران، فأصرّ كورش على جلد الصبي وشدد عقابه، فانسلَّ الصبي بعد هذا، وقد كثرت أوجاعه وشكا الأمر إلى أبيه، فقام الأمير بابنه إلى عاصمة الملك، وعرض الأمر على الملك استياجس فأمر بإحضار الجاني في الحال، فحضر إليه، ولما سئل عن سبب فعله أقرَّ بالحكاية وبين الأسباب بلهجة دلت على علو نفسه وشرف أصله. وبهت استياجس من فصاحته وجمال منظره ومن مشابهته الغريبة في الملامح لابنته (مندان) وحدثه قلبه أن الفتى حفيده، فأرسل وراء وزيره هار باغوس ودقق في البحث منه فأقرَّ الوزير بالحكاية وطلب الصفح. ولم يشأ استياجس أن يقتل حفيده، ولكنه عاقب الوزير على مخالفته الأمر بقتل ابنه[1] وردَّ كورش إلى أمه، فما عتم كورش أن وصل إلى بلاد أبيه حتى طفق يعبىء العساكر ويكثر من الاستعداد لمحاربة جده الظالم، وكان أهل فارس كلهم أعوانه في الأمر. ولما أحس استياجس بالخطر جمع جيشه وأرسله لمحاربة كورش تحت قيادة وزيره هار باغوس الذي كان يريد الانتقام من ملكه العاتي، ويراسل كورش سراً ويدله إلى ما يؤكد له النصر فلما التقى الجيشان سلم القائد الإيراني لكورش ودخل الشاب عاصمة جده منصوراً. فأسره وأبقاه في بلاطه أسيراً إلى آخر أيامه، ولم يشأ أن يحكم البلاد في أيامه، فأقام مكانه خاله كيا كسارس الثاني أو داريوس[2].

يقول حسن بيرينا: وعلى الرغم من امتزاج تلك الحكاية بالطابع الأسطوري إلا أنها توضح بجلاء استياء الفرس بل والميديين من حكم الملك الميدي[3].

وفاته:

هناك روايات مختلفة عن وفاته. يقول هيرودوت: إنه قتل أثناء حربه مع

---

(١) في المرجع السابق: وتم ذلك (أي قتل ابن الوزير)، وأطعموا أباه من لحم ابنه في إحدى الولائم وقدموا إليه يد ابنه وإحدى رجليه في طبق!!.

(٢) تاريخ إيران، شاهين مكاريوس ص ٢٣ ـ ٢٤ بتصرف قليل، مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٨٩٨ م.

(٣) تاريخ إيران القديم من البداية حتى العهد الساساني، حسن بيرينا ص ٧٦.

الماساجت (قوم من السكا) الذين كانوا يقطنون بين بحر الخزر وبحيرة آرال. وتوضيح ذلك أن كورش طلب الزواج من ملكته الماساجت فأجابته رافضة ساخرة، ووقعت الحرب بينهما وأسر ابن الملكة في تلك الحرب. وقتله كورش ثم جرح كورش في الحرب التي نشبت بعد ذلك ومات، فأمرت الملكة بقطع رأس كورش وإلقائه في طست من الدماء، ووجهت إلى تلك الرأس خطاباً قالت فيه: إنك لم ترتو من الدماء فلتمتص الدماء الآن علك ترتوي. ويذكر (برس) أن كورش قتل أثناء حربه مع عشيرة الدها (إحدى عشائر السكا) على مقربة من جرجان. ويذكر (كتزياس) أنه قتل بعد أن جرح أثناء حربه مع السكا ودفن في ياساركاد (مشهد مرغاب الحالية)[١].

حروبه وفتوحاته[٢]:

- الاستيلاء على ليديا:

بعد أن دخل كورش عاصمة جده منتصراً وأسره، سيطر على همدان. وعندها فوجئت مملكة الليديين بخبر سقوط الميديين الكبرى، ونمو قوة فارس وانتشارها في آسيا الغربية الذي أزعج دول ذلك العصر. فأمعن الملك الليدي (كزروس) في هذا الحدث وأخذ يفكر.. وانتهى إلى أن دخل في محادثات مع الإسبارتيين (إحدى الدول اليونانية) وضمها إلى جانبه، واتحدت بابل ومصر كذلك مع الدولة الليدية، وأخذ يعد العدة ليتوجه من ثم قاصداً إيران.. واحتل مكاناً مرتفعاً يعرف باسم: ب ت ريوم. العاصمة القديمة للحيثيين. وجرت حرب ضروس بين الجيشين الليدي والفارسي في خريف هذا العام، انتهت دون نتيجة لصلابة مقاومة الليديين. وحين أقبل الشتاء ظن الملك الليدي أن الفرس لن يجرؤوا - لما رأوا من مقاومة شديدة من جانب الجيش الليدي - على مهاجمة أرض ليديا أثناء الشتاء، وبخاصة أنه يلقى تأييداً من بابل، فسرح جيشه عاقداً العزم على وضع نهاية لأمر فارس في السنة التالية حين يصل الجيش الموحد لبابل ومصر.

---

(١) تاريخ إيران القديم حسن بيرينا ص ٨٥.

(٢) هذه الفقرات التاريخية نقلناها باختصار من تاريخ إيران القديم لحسن بيرينا من ص ٧٧ - ٨٥

ولكن كورش بادر على الفور لإجراء محادثات مع الدولة البابلية وعقد معاهدة صلح (نبونيد)، ثم توجه قاصداً سارد. اضطر كرزوس في تلك الأثناء إلى جمع جيش على وجه السرعة وتحارب مع جيش كورش على مقربة من العاصمة، وأرسل بداية الأمر خيالته النظامية ذات الكفاءة القتالية العالية لحرب كورش. ولكن الجمال التي دفع بها كورش أمام صفوفه سببت ذعراً للخيول، لتنتهي الحرب بانتصار الفرس والاستيلاء على سارد ووضع نهاية للدولة الليدية (٥٤٩ ق.م).

الاستيلاء على المستعمرات اليونانية في آسيا الصغرى:

حين استولى الفرس على ليديا، أصاب اليونانيين الفزع الشديد لأنه قد أصبح لزاماً عليهم أن يتعاونوا مع دولة أقوى من الدولة الليدية، وتتفوق على الدول اليونانية في النظم والحضارة تفوقاً تاماً. وكان كورش قبل الاستيلاء على سارد، قد كاتب اليونانيين بالاتحاد معه ولكنهم أبوا، وعادوا فأرسلوا رسلاً إلى كورش طالبين منه أن يجدد الاتفاقية التي قدمها، فلم يرد كورش عليهم. وذكر هذا المثل: اقترب عازف ناي من شاطىء البحر، وقال في نفسه، لو عزفت على الناي لا شك أن الأسماك سترقص طرباً، وجلس يعزف بغير جدوى فلم ير السمك يرقص. عندئذٍ حمل شبكته وألقى بها في الماء. فكانت الأسماك تقفز إلى الشبكة ثم تقع. قال: (ترقص الأسماك الآن فاقدة وعيها، وكان عليها أن ترقص حين كنت أعزف). أراد كورش من ذكر هذا المثل أن يوضح أن الوقت قد فات. أما فيما يتعلق بالمستعمرات فقد فعل الآتي: وافق على عزل مدينة (ملاطية) الكبرى. وكانت قد أعطيت للملك الليدي، وبعد انتزاع تلك المدينة تمّت سيطرته على جميع المدن اليونانية بآسيا الصغرى والجزر اليونانية مثل لسبوس وخيوس وبعض الجزر الأخرى. لجأ بعض سكان المستعمرات اليونانية إلى دولة أسبرطة متوسلين، فأرسلت تلك الدولة بدورها سفيراً إلى كورش مهدداً بأنه لن يتحمل سوء معاملة اليونانيين. فقال كورش: إنني لا أخشى مطلقاً من أناس يتجمعون في ميدان ويقسمون ويكذب كل منهم على الآخر. وسأظل ما بقيت حياً، أعمل على أن أجعلكم تئنون من ذلكم بدلاً من التحدث عن اليونانيين.

ويجب أن يكون معلوماً أن كورش بعد الاستيلاء على سارد قد عاد بعد وقت قصير إلى إيران، وترك أمر الاستيلاء على أجزاء آسيا الصغرى الأخرى. مثل: فريجية، وتليقية، وليقية والمستعمرات اليونانية إلى قواده. وهكذا تمّت سيطرته على آسيا الصغرى كلها عام ٥٤٥ ق.م.

الاستيلاء على الممالك الشرقية:

كل ما هو معروف عن كيفية هذه الحروب أن كورش استمر في عملياته الحربية وغزواته في شمال إيران وشرقها طوال ثماني سنوات، وتقدم من الناحية الشمالية حتى وصل إلى حدود نهر سيحون حيث بنى مدينة باسمه على شاطىء هذا النهر. ويعتقد أنها مكان مدينة أوراتبه الحالية. ثم تقدم بعد ذلك في الناحية الشرقية حتى وصل إلى نهر السند وبعد أن ثبت دعائم حكمه في الشرق والغرب، توجه إلى بابل. ويعتقد بعض الباحثين أن غزوات كورش إلى الشرق والشمال الشرقي قد تمت بعد الاستيلاء على بابل.

الاستيلاء على بابل:

توجه كورش للاستيلاء عليها ، وعبر الجيش الإيراني نهر دجلة في ربيع عام ٥٣٩ ق.م وكانت بابل آنذاك قد تعاقب على حكمها بعد وفاة بختنصّر (٥٦١ ق.م) ثلاثة ملوك خلال ستة أعوام. وفي عام (٥٥٥ ق.م) تمكن رجال الدين فيها من تولية عرشها لأحد التجار وكان يسمى (نبونيد).

هزم الملك البابلي في حرب جرت بينه وبين الفرس على مقربة من مدينة بابل، فلجأ مع عدد كبير من جنوده إلى تلك المدينة، وعندئذ ترك قيادة جيشه لابنه المسمى (بلتشر). وكان الاستيلاء على المدينة بشن حملة عليها أمراً مستميتاً. كما كان محاصرتها للاستيلاء عليها يستغرق وقتاً طويلاً، لأن البابليين كانوا يزرعون المناطق الشاسعة المحيطة بالمدينة وبداخلها، ولذا أمر كورش بتحويل مجرى نهر الفرات، وبعد أن قلَّ الماء في المجرى القديم عبره الجيش الإيراني حتى بلغ مدينة بابل (٥٣٨ ق. م). ولكنه لم يعمل السلب والقتل بالمدينة، وعامل كورش الأهالي بغاية الرحمة، وحين نقصت المياه في نهر ديالة والفرات، غير كورش مجريهما ودخل إلى المنطقة الواقعة

بين بابل وسد بختنصّر، ثم تقدم بعد ذلك إلى الناحية الشمالية، حيث فصل بين الجيش البابلي وبين المدينة ثم أوقع الهزيمة به، وبعد ذلك تقدم (كتوبرود) قائد الجيش الفارسي ودخل المدينة من الناحية الجنوبية فاستسلم الملك البابلي وتُـوِّج الملك كورش في معبد بابل الكبير طبقاً للمراسم الدينية البابلية . .

وبعد الاستيلاء على بابل خضعت كل الممالك التابعة لها لكورش. ويجب أن نذكر من بينها فلسطين وفينيقية. وكانت المدينتان الفينيقيتـان المعروفتان بصور وصيدا من أشهر مدن العالم آنذاك . . ا هـ.

كورش في مغرب الشمس:

ولنربط هذه الحوادث بموضوعنا الأساسي . .

فماذا نفهم من هذا السرد التاريخي لحروب كورش؟! .

هل يعني هذا أنه وصل إلى (مغرب) الشمس و (مطلعها)؟! .

وما موقع هذين المكانين في الدراسة على الطبيعة؟! .

لندع ـ إذن ـ الدكتور خضر يحدثنا عن ذلك[1] . .

حين توقف كورش عند شواطىء بحر إيجة ـ وهي جزء من سواحل تركية على البحر المتوسط ـ وجد الشاطىء كثير التعاريج، حيث تتداخل ألسنة البحر داخل اليابس. ومن أمثلة هذه الألسنة البحرية خليج هرمس ومندريس الأكبر ومندريس الأصغر. . ويتعمق خليج «أزمير» إلى الداخل بمقدار (١٢٠) كم تحيط به هذه الجبال من الغرب إلى الشرق حافتي هذا اللسان البحري الذي يتخذ شكل العين. . ويصب فيه نهر «غديس» المياه العكرة المحملة بالطين البركاني والتراب الأحمر من فوق هضبة الأناضول التي تنحدر ببطء نحو الغرب قبل أن تصل إلى الحافة الغربية. . ولذلك تزيد سرعة جـريان نهر «غديس» في اتجاه السهل الساحلي المتقطع في شكل

---

(١) انظر كتابه مفاهيم جغرافية الصفحات ٢٤٣ ـ ٢٤٤ ـ ٢٤٥ ـ ٢٤٦ ـ ٢٤٩ باختصار وتصرف قليل وانـظر المصادر التي نقل منها هناك. كما أنني أسندت الآراء لـكتابه فيما ذكرت ـ لعدم تبيين ما يذكر أحياناً من المراجع.

خلجان وأخوار وأجوان لا حصر لها.. حتى يصل مستوى قاعدة بحر إيجه حيث يصب في خليج «أزمير» الغارق بين قمم الجبال المحيطة به بارتفاع يتراوح بين (١٠٠٠) متر و (٢٠٠٠) متر.

وحين توقف كورش (ذو القرنين) عند سارد قرب أزمير، تأمل قرص الشمس وهو يسقط عند الغروب في هذا الخليج الذي يشبه العين تماماً.. واختلطت حمرة الغسق الأحمر والأسود الذي يلفظه نهر «غديس» في عين خليج أزمير..

قال: ويرجح أن تكون تلك هي العين الحمئة التي ذكرها القرآن.. والبحث العلمي الجغرافي تتبع نشأة المدن القديمة على خليج أزمير مثل «أفسوس» و «مليطة» فوجد أن هذه الطين السوداء التي كانت تعكر خليج «أزمير» حين نظر كورش وهي تغرب في هذا الخليج.. هي الطين التي سدت جانباً كبيراً من هذا الخليج.. وبعد أن كانت «أفسوس» و «ملاطية» ـ وكانتا مينائين في الزمن القديم ـ صارتا تقعان اليوم على بعد بضعة كيلو مترات من البحر.

كما أن ميناء أزمير نفسه لم ينجُ من الامتلاء برواسب الطين التي يجلبها نهر «غديس» إلى الشمال منه بقليل.. وأخيراً اضطرت الحكومة التركية إلى تحويل مياه النهر بعيداً عن هذا الخليج..

إذاً فقد وصل كورش إلى مغرب الشمس، وهي بالنسبة له ميديا (تركيا حالياً).

وقد واصل زحفه إلى آسيا الصغرى لإخضاع اليونانيين.. ثم إلى سواحل البحر المتوسط..

ويطلق المؤرخون على المنطقة التي توقف عندها كورش في فتوحاته غرباً في آسيا الصغرى اسم إقليم إيونيه.. وهو الإقليم الغربي من قارة آسيا الصغرى المطل على مضيق الدردنيل وبحر إيجه وما يلاصق الساحل من جزر وأشباه جزر.. وكانت هذه الجزر هي المعبر الطبيعي دوماً للقبائل اليونانية القديمة إلى أشباه الجزر، ثم إلى الساحل المتعرج لغرب آسيا الصغرى..

.. ومجمل القول إذن.. أن الإقليم سكنه شعب هندوروبي، كان قد نزح من حوض الدانوب وتسربوا عن طريق البلقان إلى شبه جزيرة اليونان.. ثم إلى شواطىء آسيا الصغرى، وأن هذه الهجرات قد تمت على موجات متعددة وتعاقبت خلال عصور طويلة منذ سنة (٢٠٠٠ ـ ١١٠٠ ق.م).

نحو مطلع الشمس[١]:

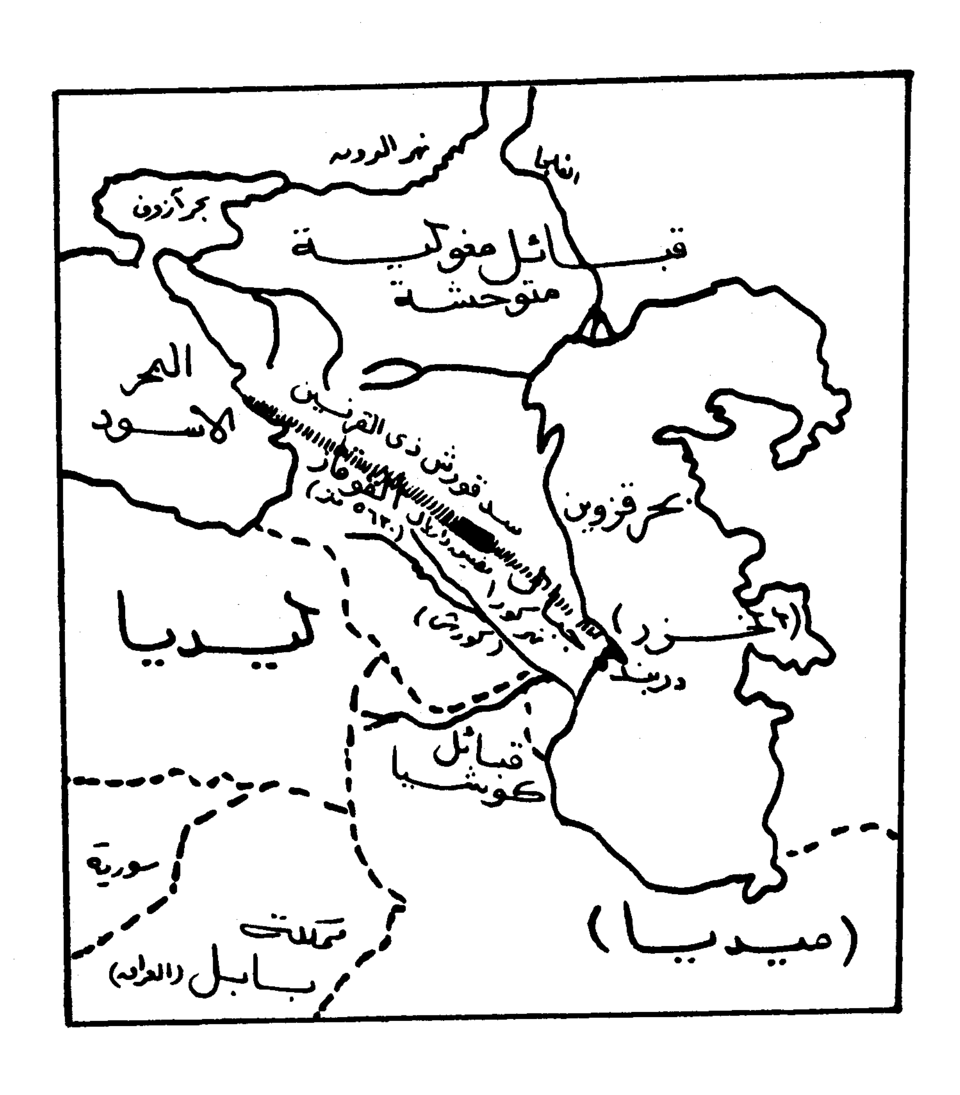
بعد أن فتح كورش «سارد» عاصمة ليديا في الأناضول (آسيا الصغرى)، وأدَّب «الأيونيين» في غرب آسيا الصغرى، وتمت له السيطرة على جميع بقاع آسيا الصغرى سنة ٥٤٥ ق.م، وصار أمام بحر إيجة مباشرة، لم يواصل زحفه عبر البحر إلى البلقان.. وإنما كرَّ راجعاً مولياً وجهه شطر الشرق، وظل يفتح البلاد الشرقية حتى وصلت فتوحاته نهر السند.. ولا بد لكورش على الأرجح حين بدأ حملته نحو الشرق أن يكون قد مر بإقليم أصفهان، حيث يجري فيه نهر زندة، وهو أطول الأنهار الداخلية وأكثرها فائدة.. كما أنه لا بد أن يكون قد مر بنهر «جرجان» الذي ينحدر من جبال «كوبيت» ويجري شمالي «البورز» ويصب شرقي مدينة «رشت»، وأيضاً يكون قد مر بنهر قارون الذي يبلغ في الطول ٨٥٠ كم، ونهر الكوخة الذي يمد رأسه حتى قرب مدينة همدان، وتقع مدينة كرمنشاه على أحد روافده. ومن المحتمل أن يكون قد عبر نهر «قم» الذي تقع عليه مدينة «قم» جنوبي طهران.

وقد فتح كورش بعد ذلك إقليم «جوزجان».. وهو ما يسمى التركستان الأفغانية.

وقد وصل خراسان، وهي اليوم ضمن ثلاث دول: أفغانستان، وإيران، وتركمانستان الخاضعة للسيطرة الروسية.. ووصل طخارستان، شرقي مدينة بلخ.

---

(١) انظر بالتفصيل مفاهيم جغرافية من ص ٢٥٧ ـ ٢٦٥.


نهر الدونه
الفلجا
بحر آزوف
قبائل مغولية
متوحشة
البحر
الاسود
سد قورش ذى القرنين
جبال القوقاز
(٥٦٢٠ متر)
بحر قزوين
(الخزر)
جبال كورا
نهر (كورش)
دربند
ليديا
قبائل
كوشيا
سورية
مملكة
بابل (العراق)
(ميديا)

إلى السد :

وجد كورش أنه آن الأوان لتأديب الشعوب المتوحشة التي كانت تغير عبر (مضيق داريال) في جبال القوقاز على شعوب إمارته الطيبة في أذربيجان وجورجيا وأرمينيا جنوب الحائط الجبلي الرهيب الذي يسمى جبال القوقاز التي تمتد من بحر قزوين في الشرق عند مدينة (دربند) حتى (سوخوم) على البحر الأسود. فتوجه إليها سنة ٥٣٧ ق.م. وقضى بالإقليم حوالي تسع سنوات متوالية ما بين بناء للسد الحديدي في مضيق (داريال) وتأديب قبائل الأسكوذيين أو (الماساجيت) أو يأجوج ومأجوج كما جاء في القرآن الكريم..

وقد انحسر بحر قزوين المغلق بعد أن نقصت بعض مياهه بالبحر عن ساحل ضيق يمكن عبوره الآن، ولذلك بنى (أنو شروان) سداً من الحجارة يسد السهل الساحلي الضيق الذي ظهر بانحسار مياه بحر قزوين عنه وصار خطراً جديداً بعد أن كان الخطر قد زال عن جميع بلدان غرب آسيا بتشييد كورش للسد الحديدي في الثغرة الوحيدة الموجودة في جبال القوقاز وهي مضيق (داريال)، وذلك قبل بناء أنو شروان للسد الحجري عند دربند على سهول داغستان الساحلية الضيقة بألف عام..

هذه هي الأقاليم التي تقع جنوب جبال القوقاز التي شيد فيها كورش السد الحديدي المخلوط بالنحاس في الثغرة التي كانت يأجوج ومأجوج تغير منها على سكان أذربيجان وأرمينية وجورجيا وداغستان[1]..

.. من المعطيات السابقة تتبلور ملامح سد كورش التاريخي في أن السد بني في مكان جبلي شاهق الارتفاع شديد التضرس قائم كجدارين شامخين على جانبيه، وبذلك يكون السد جسماً مضافاً على الجدارين في مكان المضيق الجبلي الذي كان موجوداً بينهما، ويعرف هذا المضيق بمضيق (داريال) وهو مرسوم في جميع الخرائط الإسلامية والروسية في جمهورية جورجيا.. وقد استخدمت في تشييد السد زبر الحديد، أي قطع الحديد الكبيرة، وأفرغ عليه النحاس المنصهر، وهذا هو وصف القرآن. ولا نقبل عنه

---

(١) انظر للتوسع مفاهيم جغرافية من ص ٢٧٣ فما بعد.

بديلاً مهما كانت درجة التقارب أو التشابه، ونرفض أي سد آخر يكون قد شيد من الحجارة، حتى ولو كانت عناصر ومقومات وظروف إنشائه مشابهة لما جاء عن سد ذي القرنين[1].

خصال كورش:

يعتقد المؤرخون أن كورش كان ملكاً يتصف بالعقل والحزم والرأفة. وأنه كان يمضي إلى آخر المطاف في أي عمل يبدؤه، ولا يترك أي عمل دون إتمام، وكان يلجأ إلى العقل أكثر من لجوئه إلى القوة، وكان يعامل الشعوب المغلوبة معاملة حسنة، تتصف بالرأفة والشفقة، بخلاف ما كان عليه الحال عند الملوك الآشوريين والبابليين، وكان يعامل الملوك المهزومين معاملة طيبة جداً لدرجة أنهم كانوا يصبحون أصدقاء حميمين له، وكانوا يقدمون له العون إذا حزبه أمر، ولم يكن يتدخل في ديانات الشعوب ومعتقداتها، بل كان يظهر احتراماً كبيراً لمراسمهم الدينية..

ولم يعمل السلب والنهب والقتل فيما خضع لحكمه من مدن وممالك. على العكس من الملوك الآشوريين الذين كانوا يملؤون نقوشهم وكتاباتهم بأن فلاناً قد سوّى تلك المملكة بالأرض وأنه تركها خراباً يباباً فلم يعد يسمع فيها نباح كلب أو صياح ديك.. وحين رأى الناس سلوك كورش وقارنوا ذلك بما كان سائداً ومتبعاً آنذاك كانوا يعتبرونه مخلوقاً فوق العادة، وأنه مبعوث من قبل الله.

وقد أرسى هذا الملك الأسس الأخلاقية في العالم القديم، وأدخل أسلوباً جديداً مع معاملة الممالك التابعة، والشعوب المغلوبة، وربما يكون هذا هو السبب في اعتبار عهده حداً فاصلاً لقسمين من أقسام التاريخ القديم الأربعة[2]. ويجب أن نقول كذلك إن كورش واحد من بين شخصين أو ثلاثة

---

(١) مفاهيم جغرافية ص ٣١٢.

(٢) يقسم بعض الباحثين التاريخ القديم أربعة أقسام: أ ـ منذ الأزمنة القديمة حتى تأسيس الدولة الهخمانشية أي حتى كورش. ب ـ من كورش حتى الإسكندر. جـ ـ من الإسكندر حتى ميلاد المسيح عليه السلام. د ـ منذ هذا التاريخ حتى سقوط الدولة الرومانية الغربية.

ظلت أسماؤهم حية نابضة في أذهان شعوب عصرنا. ولعل سبب ذلك أن أنبياء بني إسرائيل قد أثنوا عليه كثيراً. وأن أتباع المذاهب الذين يعتبرون التوراة كتاباً مقدساً يستمعون إلى اسم هذا الملك منذ طفولتهم، ويألفونه[1].

دلائل من قال إن كورش هو ذو القرنين:

لعل الأمر لم يتوضح أمامك بعد..

إذ ما هي أوجه الصلة القوية التي تربط بين كورش.. وذي القرنين؟ وما دليل من قال إنه هو؟.

إن هناك عدة دلائل. نستطيع أن نقسمها ونوردها بتلخيص، حتى لا يتشتت فكر المتابع، ويمكنه من خلالها الجمع والتركيز في نطاق محدد.

وهذه هي دلائل هذا الفريق:

١ ـ من أسلوب القرآن الكريم أنه كلما ينسب نجاح شخص وسلطانه إلى الله مباشرة، كما في آية: ﴿ إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً ﴾[2] يريد بذلك أمراً عظيماً قد وقع على خلاف المعهود؛ ولذلك صار هبة من الله ورحمة خاصة من لدنه. فمثلاً نرى في سورة يوسف أنه يقول: ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴾[3]. أي جعلنا يوسف متمكناً في أرض مصر، وذلك لأن يوسف عليه السلام وصل إلى حكم مصر بطريقة عجيبة غير معهودة، ولذلك نسب إلى الله ليبين أنه كان من نعم الله الخصوصية عليه أن أخرجه من السجن، وأجلسه على عرش البلاد..

ولما كان أسلوب القرآن في الكلام عن ذي االقرنين نفس هذا الأسلوب، كان لزاماً أن يكون وصول ذي القرنين كذلك إلى مقام الملك والسلطان في ظروف غير عادية، فيكون بذلك مجد ذي القرنين وشهرته وتمكنه في الأرض منحة خصوصية من عند الله.. وكذلك هو أمر كورش..

وإننا نرى حوادث في حياته تدل على قوة هذا الرأي..

---

(١) انظر ـ مع بعض الحذف ـ تاريخ إيران القديم، حسن بيرينا ص ٨٥ ـ ٨٧.

(٢) سورة الكهف، الآية ٨٤.

(٣) سورة يوسف، الآية ٥٦.

أ ـ فقد كان من المقرر أن يذبح هذا الطفل «كورش» حتى لا يزاحم ملك الميديين، على أن الظروف المدهشة وغير العادية قلبت الموازين بأمر الخالق العظيم؛ ونجى الله الطفل.. وعلى ذلك فاستمرار حياته في كنف الحارس أو الراعي لم يكن أمراً ذا ظروف عادية.

ب ـ اجتماع شمل القبائل الفارسية حول «إنسان» في أمر واحد هو تسليم القيادة لهذا الشاب كورش، لم يكن في ظروف عادية.. فقد تجمع الفلاحون حوله دون دعوة منه واستطاع خلال سنوات أن يهزم الملك الميدي، وأن يجعل من نفسه سيداً للمناطق الميدية بأسرها[1].

جـ ـ لم تكن أعماله وفتوحاته شيئاً عادياً، دليل ذلك ذهول دول الغرب من قوته الخارقة ومراقبتهم إياه وقلوبهم ممتلئة بالإعجاب والخوف.. وقد تحول هو وجنوده وفلاحوه ورعاته ـ في غمضة عين وبقدرة قادر ـ إلى رماة وفرسان مهرة..

د ـ ومن المدهش حقاً أن تعقد الدول العظمى في ذلك الحين ـ بابل (كالديا) ومصر وليديا في غرب آسيا الصغرى وحتى أسبرطة في بلاد الإغريق ـ فيما بينها تحالفاً ضد الأمير الشاب كورش.

٢ ـ مكن الله له في الأرض. ومن مظاهر هذا التمكين:

أ ـ الثورة الناجحة سنة ٥٥٠ ق.م على الميديين وملكهم.

ب ـ القضاء على الدولة الليدية وفتح عاصمتها (سارد).

جـ ـ الانتصار على الجيش الكلداني.

د ـ الاستيلاء على كل آسيا بممالكها المعروفة آنذاك حتى نهر السند وسيمون.. ولم يستغرق هذا العمل الضخم سوى خمس وعشرين سنة.

هـ ـ وبهذا يقال إن كورش:

* قام بحملة نحو مغرب الشمس (الغرب) وأخضع مملكة ليديا.

---

(١) انظر مفاهيم جغرافية ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ نقلاً عن أبي الكلام آزاد «يسألونك من ذي القرنين» ص ١٢٧ و١٢٩ دار الشعب باختصار.

* قام بحملة نحو مشرق الشمس حتى وصل إلى السند.

٣ ـ يضاف أن الوثائق ترجح أنه بنى السد حسب مواصفات القرآن الكريم[1].

٤ ـ القول إن العين الحمئة ـ المذكورة في القرآن ـ تنطبق صورتها على خليج أزمير حين تختلط حمرة الغسق بالطين الأحمر والأسود الذي يلفظه نهر «غديس» في عين خليج أزمير. وهو مغرب الشمس الذي وصل إليه كورش.

٥ ـ وجود قبائل همجية حاربها كورش، تشابه ما ذكره القرآن الكريم من فساد يأجوج ومأجوج في الأرض.

٦ ـ بناء السد كان يتطلب قوة مادية وبشرية ضخمة. وقد توفرت الإمكانيات البشرية لدى كورش من عمالة ومهندسين. وكذلك المادية من خامات الحديد والنحاس والفحم والخشب. وكذلك حيوانات العمل في تلك المنطقة أكثر من كل ما في العالم آنذاك.. وما زالت مشهورة بهذا.

٧ ـ قول أبي الكلام آزاد إن كتلاً هائلة من الحديد المخلوط بالنحاس موجودة في جبال القوقاز، منطقة مضيق داريال الجبلي، بجمهورية جورجيا السوفيتية.

٨ ـ أخلاق كورش العالية وصفاته الحميدة في حياته السلمية والحربية.

٩ ـ عثر على تمثال كورش في حفريات (اصطخر) بإيران. وقد اتخذ أبو الكلام آزاد دليلاً على أنه ذو القرنين. لأنه كان لابساً التاج الشهير بالقرنين!!.

ردود.. وتعقيبات

من الأخبار التاريخية، والدراسات الجغرافية، لا يستبعد أن يكون كورش قد وصل إلى تلك البلاد التي ذكرناها..

(١) انظر هذا في مفاهيم جغرافية ٢٣٥ ـ ٢٣٦ وقد ذكرت منها رؤوس الأقلام.

كما أنه لا يستغرب محاربته لقبائل همجية.. ولا تنكر خصاله الحميدة..

إلا أن السؤال الأساسي والذي يهمنا هو:

هل حقاً إن كورش هو ذو القرنين المذكور في القرآن الكريم؟.

وهل يعني تطابق بعض الصفات وتشابهها بين كورش وذي القرنين أنه هو؟.

إن الدلائل المذكورة تقنع القارىء نوعاً ما. وبخاصة إذا اطلع على كيفية بناء السد والحكمة من ذلك..

.. ولكن، ليس كل ما قيل عنه إنه دليل، يكون دليلاً حقاً!.

* * *

ليعلم القارىء منذ البداية، أن كل ما قاله أصحاب هذا الرأي إنما هو ظن واجتهاد. وليس بحقيقة قاطعة لا تقبل الشك والنقاش..

وإن الرأي إذا كان في بدايته، فلا بد أن يتعرض لهزات كثيرة، من نقد ومدارسة وبحث وتمحيص. فإن كان صائباً أخذ جذوره العميقة في الأرض. وإن كان ضعيفاً تآكلت جذوره وسقط على الأرض صريعاً قد طرحته أيدي التحقيق، ونبذته معاول النقد..

وأنا أقدر كل جهد بذله علماؤنا وباحثونا في هذا المجال، وأتمنى من الله تعالى أن يزيد من التوفيق والحكمة في أعمالهم، حتى يجلوا لنا ما غمض في تاريخنا، ويبينوا ما أشكل وتشابه علينا..

وأنا لست عالماً ولا بحاثة حتى أطاول يدي إلى أمثال هذه البحوث العلمية الشائكة.. ولا أن أنقد ما لست عالماً به.. فإن الناقد عليه أن يكون ملماً وعارفاً وباحثاً ومتخصصاً فيما ينقده.. لكنني سأبحث هنا بعض النقاط الواضحة، والتي لا بد منها، وسأضع خطوطاً عريضة في طريق النقد والدراسة. ثم إن لغيري من المتخصصين أن يزيدوه توسعاً وعمقاً. فقد

لاحظت ـ أثناء مطالعاتي وتتبعي لما قرأت في هذا الموضوع ـ أن هناك أساسيات في البحث الذي نحن بصدده ـ قصة ذي القرنين ـ علينا ألاّ نغفل عنها ونجعلها أموراً ثانوية. . وأقصد من هذا أن الأصل هو الأساس. فإذا اتفقنا عليها، فإن الفروع لا تهم. . بل لتكن غامضة، أو حتى مختلفة. أما إذا تشابهت الفروع، وتطابقت الأمور الثانوية ـ دون الأصول ـ ففي اعتقادي أنها تبقى أموراً ظنية لا تغني من الحق شيئاً، ولا ترتقي إلى مجال العلمية والموضوعية.

يبقى هناك أمران لا بدّ من ذكرهما، وهما:

١ ـ إذا كانت هناك عدة أصول للقصة ـ أو البحث إن شئت ـ اكتشف بعضها صواباً، وبقيت بعضها مطموسة، فإن البحث لا يكون علمياً حتى يتم كشف الحقائق كلية. أي أن البحث يبقى في طور الدراسة والبحث. أما إذا اكتشف بعضها، أو رجحت، ثم كشفت أصول أخرى للبحث مناقضة للمقارنة بالأصول الصحيحة، فإنه ـ أي البحث ـ والأمور التي توصل إليها الباحث لا تبقى حية قائمة في عداد البحوث العلمية. أقول: وبخاصة إذا كانت أهم الأصول هي التي تتناقض مع بحث الباحث.

٢ ـ إذا تحققت أو ترجحت بعض الأمور الثانوية، مشابهة لما ذكر في التاريخ، فإن هذا يعد في بداية البحث، ولا يسمى علمياً، إلا إذا تطورت هذه الأبحاث، لتطل على الأصول. . وتتصافح هذه الأصول مع الفروع. . لتشكل البحث العلمي المتكامل.

وأظن أننا إذا طبقنا ما قلنا على موضوعنا فإنه يتوضح أكثر. .

فما هي أركان البحث في أمر ذي القرنين. أو قل ما هي أصوله، أو أساسياته، أو قل أي شيء لا يكمل البحث إلا به؟.

إذا تصفحنا قصة ذي القرنين كما وردت في الآيات الكريمة في سورة الكهف، فإننا نرى لها الأساسيات التالية:

١ ـ إيمان ذي القرنين بالله وبالأنبياء وباليوم الآخر. فالإيمان حلقة

كاملة. ويبدو ذلك واضحاً من الآيات الكريمة الواردة بهذا الشأن. وقد بينا ذلك عند ردنا على المرحوم محمد فريد وجدي، وسيمر بك تفسيرها في الفصل الآتي إن شاء الله، وهذا الأصل هو أهم شيء في البحث، لأن الله تعالى ما ذكر أمره إلا ليبين إيمانه وصلاحه وعدله في جانب ما مكن له في الأرض وأعطاه القوة وسخر له الأسباب.

٢ ـ تمكين الله له في الأرض، بأن بلغ شأواً عظيماً وغريباً في الملك والقوة والسلطان. فقد سخر الله تعالى له الأسباب في ذلك، ولم يتكبر أو يغتر، بل كان يرد كل ما أوتيه إلى فضل الله ورحمته.

٣ ـ بلوغه مغرب الشمس، ولقياه لقوم كفار على رأي جمهور علمائنا، عند العين الحمئة.

٤ ـ بلوغه مطلع الشمس، ووجدانه لقوم لم يجعل لهم من دون الشمس ستراً.

٥ ـ بلوغه السدين ورؤيته قوماً لا يفقهون قولاً، وشكواهم من فساد يأجوج ومأجوج، وطرحهم فكرة بناء سد، يحيل بينهم وبين غارات هذه الأقوام المتوحشة، على أن يدفعوا له أجر ذلك.

٦ ـ بناؤه للردم بمساعدة الجميع ودون مقابل ـ من زبر الحديد، والنحاس ـ ومساواته بالجبلين.

٧ ـ عدم قدرة تلك الأقوام الهمجية من خرق السد أو الصعود عليه.

هذه هي أركان القصة، كما استقيتها من الآيات القرآنية الكريمة من سورة الكهف: الآيات (٨٣ ـ ٩٨).

فهل توفرت هذه الأركان في قصة حياة كورش، الملك الفارسي الأخميني الذي قرأنا عن حياته وحروبه؟.

لنتفق من البداية أن أي ركن من هذه الأركان إذا سقط من قصة كورش

فإن البحث لا يعد مكتملاً. . وأقصد من هذا الكلام أنه إذا تبين من حياة كورش أنه لم يفعل بعض ما ذكرنا ـ لا أنه خفي علينا، فإننا لا ننكر شيئاً لم نتحقق منه ـ أو تبين أنه فعل نقيضه، فلا يقال إنه ذو القرنين!! ومن ثم إذا لم تتبين هذه الأصول ولم تتوضح، أو لم تكتشف، فلا ننكر أنه هو أو ليس هو. ولكن يبقى البحث في طور النمو والتحقيق. . حتى تنجلي الأمور كلها وتتوضح. فإذا بقيت خافية، بقي البحث ظنياً. .

وسيان عندي أن أبدأ بنقد الدلائل التي ذكرها أنصار الرأي المذكور، أو أن أقارن أركان قصة ذي القرنين ـ كما ذكرتها قبل قليل ـ بما روي من قصة كورش، أو أن أدمج هذا وذاك وأدرسهما جميعاً. . فإن النتيجة واحدة. . وأرجو من الله تعالى التوفيق والسداد. .

عقيدة كورش:

وأبدأ الآن بقاصمة الظهر. . والتي هي دليلي القوي والكافي لنقض ما ذهبوا إليه، ولا تهمني بعد ذلك الدلائل الأخرى التي ربما تشابهت فيها الأمور. . لأنني كما ذكرت، أن ركناً واحداً إذا انهار من القصة، فإن المقارنة كلها تهوي وتسقط على عروشها خاوية! وربما تذكر القارىء أنني جعلت الركن الأول من قصة ذي القرنين ـ بل هو مقصود الآيات كلها كما ذكرها الله تعالى ـ هو إيمان ذي القرنين بالله، الذي أعطاه هذه القوة ومنحه هـذا السلطان، ومكن له في الأرض، وسخر له الأسباب حتى كان كل شيء له مطواعاً. . كما أنه كان مؤمناً باليوم الآخر الذي كان مدار عدله وصلاحه، لأنه يعلم أن كـل ما يفعله سيسأل عنه ويحاسب عليه. .

﴿قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً﴾.

﴿فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء، وكان وعد ربي حقاً﴾.

وإن الخوف من اليوم الآخر، وخشية الحساب وهول الموقف، كان سرَّ عدالته وصلاحه وعدم غروره. . رغم ما أوتي من كل هذا السلطان. .

والآن. . هل نجد هذا الإيمان، وهذه العقيدة عند الملك الفارسي

كورش؟ هل كان كورش الأخميني مؤمناً، صالحاً، تقياً، عادلاً، نابذاً للشرك وأهله، محطماً للأصنام والآلهة المزعومة التي كان يعبدها الناس في ذلك الحين؟ وبخاصة أنه فتح بلاداً كثيرة، ورأى أقواماً عديدين يعبدون صنوفاً شتى من الأشياء الطبيعية؟ بل هل وقف حازماً يحارب بعقيدة الإسلام ـ التي هي عقيدة كل ذي دين صحيح ـ عقائد الكفر والشرك وعبادة النار في بلاد فارس.. وخاصة أنه كان في أيام زارادشت؟

أنت تعلم ـ عزيزي القارىء ـ أن الله تعالى خيّر ذا القرنين بين أن يعذب الكفار أو يتخذ فيهم حسناً.. فماذا كان جواب ذي القرنين؟ لقد قال بعين الحكمة:

﴿ أما من ظلم فسوف نعذبه ﴾.. ﴿ وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً﴾. إذاً فقد خيَّر ذو القرنين تلك الأقوام الظالمة بين أن تترك الظلم وتتبع الحق أو تعذب ـ أي تقتل[1] ـ!

فهل نجد هذا العزم القوي لدى كورش، وهذه الإرادة التي لا تلين لعقيدته الصحيحة، وإزالة ظلم الكفر والشرك من بين أعين الناس، وتخليصهم من عبودية النيران والأحجار والنباتات، إلى عبودية الله الواحد القهار؟!.

هل ثبت أن كورش كان يحارب من أجل الدين والعقيدة، وأنه جاهد لإزالة الظلم، وبث نور الإيمان في جميع البلدان؟!.

الحقيقة أنني لم أقرأ شيئاً من هذا في حياته.. بل إن الدلائل التاريخية تدل على عكس ذلك. وهناك دلائل قوية جداً تبين هذا الأمر.. ولنمش في البحث خطوة خطوة.. وبهدوء.. في سبيل تبيين هذا الخبر التاريخي الغامض.

---

(١) ودائماً يكون الكفر والإلحاد ـ أي البعد عن منهج الإسلام كنظام شامل للحياة ـ سبب الظلم والفساد في الأرض.

نحن نلمس أن الدكتور (خضر) لم يورد إلا ما ذكر عن كورش من عقائد سليمة! بينما أغفل ما ذكره المؤرخون عنه من عقائد أخرى.. كما أنه فسَّر الآيات وطبقها على كورش دون أن ترد أمثال هذه الأخبار في كتب التاريخ.. وهذا تجاوز خطير من الدكتور..

وكنت أود أن يكون الدكتور حريصاً على ناحية العقيدة في حياة كورش أكثر من حرصه واهتمامه بالسد، الذي قال فيه بأبلغ عبارة بعدما أورد وصفه من القرآن: (.. وهذا هو وصف القرآن، ولا نقبل عنه بديلاً مهما كانت درجة التقارب أو التشابه، ونرفض أي سد آخر يكون قد شيد من الحجارة حتى ولو كانت عناصر ومقومات وظروف إنشائه مشابهة لما جاء عن سد ذي القرنين)[1].

فليته قال: إن ذا القرنين عبد مؤمن صالح، وهذا هو وصف القرآن، ولا نقبل عنه بديلاً مهما كانت درجة التقارب أو التشابه، ونرفض أي شخص آخر في التاريخ غير مؤمن، حتى ولو كانت عناصر ومقومات وظروف حياته مشابهة لما جاء عن شخص ذي القرنين!!.

ولذلك فإنه ساق البحث كله (١٠٠ صفحة تقريباً) ولم يكتب عن مذهبه الديني سوى صفحة واحدة. أي أنه مرّ على عقيدته مرور الكرام.. ثم أكمل بحثه وكأنه واثق من إيمانه وصفاء دينه..

وما أراه إلا وقد كان واثقاً من كل ما يقوله أبو الكلام آ زاد.. فنراه يقول في ذلك: (حقاً.. لقد كان حاكماً رحيماً مستنيراً يدعو إلى الخير.. وكان يلقب بالملك الأكبر، وظل هذا تقليداً عاماً لكل عاهل فارسي، ويرى العلامة أبو الكلام آزاد أن كورش كان يطبق تعاليم الفيلسوف والحكيم المشهور «زرادشت» التي يرى أنها تدعو إلى الخير وتعتقد بالحياة الأخروية وبقاء الروح، كما يرى أبو الكلام آزاد في تعاليم زرادشت أنها محور دارت عليه الدعوة إلى طهارة النفس وحسن العمل، ويرى فيها أيضاً تحريماً لعبادة

---

(١) مفاهيم جغرافية ص ٣١٢.

الأصنام في أي شكل من الأشكال)[1].

---

(١) مفاهيم جغرافية ص ٢٥٤.
كما أنني لا أؤيد ما ذكره الأستاذ أحمد موسى سالم من تهجمه العنيف على من ذهب إلى هذا الرأي، وتحليله له بنعرة طائفية أو قومية. فهو يقول بعد أن ذهب إلى رأي من يقول إنه (شمريرعش): . . . وإذا كان بعض أصحاب الأهواء قد تباروا لينسبوا هذا الملك (يقصد ذا القرنين) إلى أمة غير العرب، فقالوا هو الإسكندر، وقال آخرون بل هو إفريقس فاتح المغرب بإفريقية، وقالوا في عودة إلى اليمن وحمير بل هو أسعد أبو كرب. فإن أعجب ما نشط الإيرانيون إلى ترويجه في العصر الحديث هو الزعم بأن هذا الملك هو كورش الفارسي.. المؤمن بالله وليس بالنار وزرادشت، ثم تضخم هذا الزعم وقال صنائعهم بل هو نبي!.
وهكذا لم يلبث شيعة الهند أن رددوا هذا الزعم على لسان أحد متكلميهم وهو أبو الكلام آزاد الذي نفى بشدة أن يكون ذو القرنين هو ملكاً آخر غير الملك الصالح كورش الفارسي!.
ولكن الحقيقة التي لا يمكن طمسها وراء هذه الخرافة العصرية أن الملك كورش الفارسي الذي يراد رغم أنفه تغيير هويته التاريخية في نفس العصر الذي يراد فيه زرع إسرائيل في أرض العرب، إنما هو الملك المتجبر الذي خرب بابل العراقية العربية، وأهم من ذ لك في لغة الأحداث المعاصرة أنه هو الذي أعاد اليهود الذين كان الملك العربي نابوخد ناصر قد أسرهم ونفاهم إلى بابل سنة ٥٨٦ ق.م، والذي استقبله اليهود عندما نجحت المفاوضة معهم لإعادتهم إلى فلسطين.. معظمين له كمنقذ لهم تحت سلطان الفرس.. كما يقول المؤرخ الأمريكي جيمس بريستد. الملك الفارسي كورش ليس إذن هو ذا القرنين، وإنما هو المخلص الذي ظهر لليهود في ضائقة المنفى، والذي يتحدثون عنه اليوم وهم يزيفون التاريخ في إطار العلاقات الودية بين إيران وإسرائيل على أنه أحد الأنبياء الأبرار.. ولكن من أرسله إلى من؟ لمن جاء؟.. ومن دعا.. وماذا قال.. وبأي لسان تكلم.. ولأي نار سجد!؟ فهذا ما لا يتحدثون عنه.. ويكفي أن اليهود الذين أنكروا المسيح وتمردوا على موسى، وخانوا الله وعبدوا العجل، قد منحوا الملك الفارسي كورش في ظل حلف الأطلسي وأهدافه.. رتبة نبي!!.
انظر قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح لأحمد موسى سالم ص ٢٢٠ - ٢٢١ طبعة ١٩٧٨ م.
إننا نلمس مما ذكره الأستاذ (سالم) أن نقده غير موضوعي. فلا يكفي أن نتهجم على الآخرين ونتهمهم دون دليل ودراسة علمية، ونقع في الخطأ نفسه!! إذ ليس الموضوع موضوع قوم أو طائفة معينة من الناس. فقد غضب الأستاذ لأنهم قالوا بأنه فارسي، وليس عربياً! فهل يريد الأستاذ أن يحتكر كل شخصية عظيمة لقوميته، ويغضب عندما يفعل ناس من غير قومه هذا الشيء؟ أليس هذا إجحافاً إذا قسنا الموضوع بهذا الميزان؟. إذاً فلندع هذه النعرات النتنة. ولنقبل على الأبحاث بعين العلم والنقد المركز، والقويم.. ولن يتر الله أعمالنا: ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾ (سورة الرعد، آية: ١٧).

ونحن نقول الآن إن عقيدة زرادشت، وما ورد عنها في كتب التاريخ معروفة.. ولسنا هنا بصدد شرحها.. كما أنها لا تقبل عقيدة سليمة على أية حال.

والقول بأن عقيدته محور دارت عليه الدعوة إلى طهارة النفس وحسن العمل ليس بكاف! إذ إن كل من يخرج ويدعو إلى الإصلاح في المجتمع يفعل ذلك.. ولا ننفي ذلك عن كورش.. لأن إصلاحاً ما.. لا يقال عنه بأنه ناتج عن عقيدة سليمة.

أمـا أن يقال بأن عقيدته كانت تحرم عبادة الأصنام في أي شكل من الأشكال، ـ وفهمت من هذا أنه يقصد عبادة أي شيء في الطبيعة ـ فإنه كلام جديد، وبحاجة إلى دليل، كما أن ما أورده الآن من وثائق تاريخية وأثرية تدل على نقيض ذلك..

وأما اكتشاف (هرتزفلد) وما قاله عن معبد كورش وتدينه.. فلا أنكر أنه كان متديناً! ولكن أي تدين هو؟ وحتى لو أخذنا بصدق اكتشافه فإن فيه أنه كان يؤمن بالنور والظلمة.. وهذا ما يهز هذا الرأي ولا يقويه..

والآن لنبحث عن عقيدة كورش كما نقل عنه.. وكما وردت في الكتب التاريخية، ونبدأ بالمهم.. ثم الأهم.

يقول صاحب كتاب (إيران في الحضارة): وكانت أول هدية تزفها إيران الأخمينية إلى العالم هي الحرية الدينية التي طالما تاق الشرق إليها، تلك التي كانت ضالة الإنسان منذ البدء.

لم يحدثنا (هيرودوتس) عنها ولا (كسنوفون) ولا (سترابون)، ولا سائر المؤرخين القدامى والمحدثين. فقط حدثنا عن هذه المشاركة كتاب «التوراة». ولولا هذا الكتاب، لبقي الناس يجهلون ما أسدته إيران الأخمينية إلى الإنسان والشعوب. وأكثر، لولا اكتشاف أسطوانة من الطين المطبوخ، قبل أربعين عاماً، في منطقة (أور) في بلاد ما بين النهرين تحمل كتابات باللغة البابلية، وقد تبين بعد ترجمتها أنها عبارة عن إعلان لحرية الشعوب

أصدره كورش أول ملوك الأخمينيين، بعد الانتصار في بـابل عـام ٥٥٠ ق.م[١]..

وبعد غزو بابل، قلب كورش رأساً على عقب سياسة (نابونيدس) الدينية التي حملته على جمع كل تماثيل الآلهة في بابل؛ فأثار سخط الكهنة والناس، وجاء كورش واتبع سياسة اللامركزية، فوزع الآثار المقدسة وأعادها إلى أماكنها الأصلية في أنحاء الإمبراطورية كلها. فلما قام بتنفيذ هذه السياسة سمح لليهود المنفيين من بابل بالعودة إلى بيت المقدس والاستقرار هناك، تحت إشراف زر وبابل سنة ٥٣٧ ق.م وبإنشاء مركز ديني ومعبد زاهر لهم، وهذه السياسة مع قصة دانيل وقصة استرا المذكورتين في التوراة قد أدت إلى تعريف العالم الغـربي بقوانين الميـديين والفرس وأدخلت الإمبـراطوريـة الفارسية في نطاق معارفنا الحديثة[٢].

ويقول حسن بيرينا: ولم يكن يتدخل في ديانات الشعوب ومعتقداتها، بل كان يظهر احتراماً كبيراً لمراسمهم الدينية. ويتضح ذلك من إعادته لجميع الآلهة إلى أتباعها بعد فتح بابل، وكانت قد تعرضت للغارات[٣].

وقد قدم كورش نفسه للبابليين على أنه محرر لا فاتح، وأنه الوارث الشرعي لعرش بابل، ولتأكيد هذا الأمر سمى نفسه ملك بابل، وعظم إله البابليين[٤].

ويقول الأستاذ محمود شاكر: أسس كورش الدولة الأخمينية في فارس

---

(١) إيران في الحضارة، سليم واكيم ص ٢٩ طبعة ١٩٧١ م.

(٢) انظر ص (٣٠) من (تراث فارس)، دار إحياء الكتب العربية عام ١٩٥٩ م. والكتاب من تأليف أساتذة من المستشرقين اشترك في كتابته وأشرف على نشره أ.ج. أربري. والموضوع الذي نقلنا منه بعنوان (فارس والعالم القديم) كتبه ج ـ هـ ـ إيليف، مدير متاحف ليفربول وترجمة محمد صقر خفاجة رئيس قسم الدراسات القديمة، كلية الآداب، جامعة القاهرة.

(٣) تاريخ إيران القديم ص ٨٦.

(٤) (في أدب الفرس وحضارتهم) ص ١٣٢ للدكتور محمد عبد السلام كفافي أستاذ آداب الأمم الإسلامية بجامعة القاهرة وجامعة بيروت العربية. طبعة ١٩٧٠ م.

عام ٥٥٩ ق.م واعتنق الديانة الزردشتية وفرضها[١]..

* * *

كانت تلك بعض المقاطع التاريخية، التي إن دلت على شيء فإنما تدل على وثنية كورش وتعظيمه للآلهة، وإفساح المجال لعبادتها لكل الشعوب المقدسة لها..

ولعل هذه الأقوال تعضد أكثر، بتلك الوثيقة التي سميت (وثيقة إعلان حقوق الإنسان) التي أصدرها كورش الأكبر مؤسس الإمبراطورية الفارسية منذ ٢٥٠٠ سنة.. وإليك نص المنشو الذي أصدره كورش إثر فتحه لبابل سنة ٥٣٩ ق.م، وقد نقش على أسطوانة من الطين المطبوخ وجدت سنة ١٦٧٩ م في منطقة (أور) في (ما بين النهرين) وقد كتبت باللغة البابلية. والأسطوانة محفوظة في المتحف البريطاني بلندن:

أنا كورش

أنا كورش ملك العالم، الملك الكبير، الملك القوي، ملك بابل، ملك سومر وأكد، ملك الأطراف الأربعة للعالم ابن قمبيز الملك الكبير، ملك أنشان، حفيد كورش ملك أنشان الكبير، من أعقاب جيش بش، الملك الكبير، ملك أنشان، دوحة السلطنة الأبدية، موئل عناية «بعل ونبو» ومحل رعايتهما، دخلت «تين تير - بابل» بلا حرب ولا مقاومة فاستبشر الناس بي. وجلست في قصور السلاطين، فـ«مردوك» الإلّه الكبير، ربط قلوب الناس بي لأني كنت منشغلاً دائماً بالثناء عليه، دخل جيشي العظيم «بابل» بكل سهولة، ولم أسمح لأي شخص أن ينشر الخوف والرعب في أرض «سومر» و«أكد» تألمت للأوضاع الداخلية ببابل وأمكنتها المقدسة فعمدت إلى إصلاح الأوضاع، وقد لقي أهلها في ظلي ما أملوا، وتخلصوا من رق الملحدين، كما وضعت حداً لتخريب بيوتهم، كذلك لم أترك مواردهم المادية تذهب هباء.

(١) (إيران) لمحمود شاكر ص ١٤ طبعة ١٣٩٥ هـ.

فرح «مردوك» الإله الكبير بأعمالي، وحيث إنني أثنيت عليه بسرور بالغ، غمرني عن طريق العناية الإلهية. أنا كورش الذي أعبده، وابني قمبير وجميع جيشي ببركاته، فملوك العالم الجالسون في قصورهم من البحر الأعلى حتى البحر الأسفل، وملوك المغرب الذين يعيشون في خيامهم قدموا لي الخراج والهدايا الكثيرة، وقبلوا قدمي في بابل... من «أتور» و«السوس» و«أكادة» و«أشنوناك» و«زامبان» و«متورنو» حتى نواحي أرض كيسوتيوم ومدن ما وراء «دجلة المقدسة» أرجعتُ الآلهة التي نقلت إليها إلى مواطنها، جمعت الناس وبنيت مساكنهم من جديد، وأعدت إلى «سومر» و«أكد» آلهتها التي حُملتْ إلى بابل، ووضعتها في قصورها التي تسمى «شادي دل» وبذلك أنهيت غضب إله الآلهة بأمر من «مردوك» الإله الكبير[1].

* * *

وإننا بعد هذا نتساءل: أليست هذه وثيقة تاريخية أثرية؟!.

أليس هذا اكتشافاً عظيماً يبين المشكل ويحل العقد ويجلي الشبهات؟.

فما الذي يستنتج من هذا المنشور المحفوظ في متحف لندن من الناحية العقيدية؟.

١ ـ إننا نلمس من بين ثنايا تلك السطور صلف كورش وكبرياءه وغروره.

٢ ـ تمجيده وافتخاره بآبائه الذين لم تثبت عدالتهم وصلاحهم وديانتهم الصحيحة..

٣ ـ إيمانه وتمجيده للآلهة وعنايته بها. وقد ظهر هذا في عدة أمكنة من النص، ويكفيك ما قاله في الأخير: (أرجعت الآلهة التي نقلت إليها إلى مواطنها... وأعدت إلى سومر وأكد آلهتها التي حملت إلى بابل، ووضعتها

(١) الصفحة الأولى من كتاب (تونس وإيران، قرون من التلاقح الحضاري)، تأليف عدة أساتذة تونسيين ـ الدار التونسية للنشر عام ١٩٧١ م.

في قصورها التي تسمى «شادي دل» وبذلك أنهيت غضب الآلهة بأمر من «مردوك» الإلّه الكبير) ومردوك هو صنم بابلي!!.

وهذا يقوي ما ذهب إليه المؤرخون مما قيل عن عقيدته وإعطائه الحرية الدينية كيفما كانت.. وبخاصة «عبادة الأصنام».. لا كما هي صفات ذي القرنين، من أنه كان يحارب هذا الشرك، ولا يتعامل معهم، ولا يقبل منهم إلا: الإيمان.. أو الحرب!!.

فهل يبقى هناك شيء في هذا الأمر؟!.

أقول: ولو أن أبا الكلام آزاد اطلع على هذا المنشور، فلربما كان غيّر رأيه..

ولكنني لا أعفي الدكتور (خضر) من هذا التقصير، أو التناسي.. فإن هذا النص موجود في بعض الكتب التي اعتمد عليها في كتابه[١]..

وعندما أكتب هذه الكلمات، فإنما أعتمد على مواد علمية، وأناقش أصحاب الرأي بالأدلة والحجج نفسها، وهي: التاريخ والآثار[٢].

---

(١) انظر مثلاً كتاب إيران في الحضارة لسليم واكيم ص ٣٠ فقد ورد قسم من هذا المنشور فيه.

(٢) وأتبرأ إلى الله تعالى من أن أكفر إنساناً ـ حياً أو ميتاً ـ لا علم يقينياً عندي بعقيدته.. ولكنني أنقل ما قيل عن الرجل، وما أثر عنه في الكتب والآثار.. وناقل الكفر ليس بكافر..
والآثار عندي لا تدل على خبر يقيني، ولو كانت نسبتها مؤكدة إلى كاتبها أو ممليها.. إلا إذا عرف صاحبها بالتقوى والإيمان.. كما هو معروف في نقل الأخبار..
إن الأثر مثل القول الذي ينقل في هذا المجال..
ثم إن الملوك والولاة الظلمة الجبارين يأمرون بكتابة آثار حتى يخلدوا اسمهم ويشتهروا بين الأقوام، وبذلك فهم يملون على الكتاب بأن ينسبوا إلى أنفسهم ما لم يفعلوه. أو أن يهولوا ويعظموا ما قاموا به، وينقصوا ويصغروا من شأن أعدائهم. ولنا في التاريخ شواهد، وفي الحاضر ألف شاهد وشاهد.. حيث نرى الصحف والمجلات والكتب مملوءة بتمجيد الحكام ونسبتها البطولات إليهم وهم أقل من أن ينسب إليهم ذلك..
بل إننا لم نعد نستغرب الآن عندما نسمع، عن الهزيمة والخسارة.. بأنها نصر وبطولة.. لكننا ننظر إلى كل شيء بميزان العقل والحقيقة، وننظر إلى الموضوع من جميع جوانبه.. حتى لا نقع في المتناقضات، ونكون صرعى الآثار وضحايا الخلافات..
إن علينا أن نعطي كل شيء حقه.. وباختصار أقول: إن الآثار لا تعني (الحقيقة) كاملة. ولا =

تعقيبات على الدلائل الباقية:

أما بقية الدلائل، فسأعقب عليها في حدود ما أستطيع، وحق لغيري أن ينقد فيما أكتب، وينبهني إلى خطأ ما ارتأيت إليه.

فبالنسبة لما قاله أبو الكلام آزاد من أن آية ﴿ إنا مكنا له.. ﴾ تدل على أمر عظيم، وأمر عجيب غير معهود، لأن فيها إضافة نجاح هذا الشخص إلى الله مباشرة.. لا أظن أن هذا يسلم دليلاً له. فهو يقصد أن أمر كورش أيضاً غريب وعجيب، لأنه نجا من الذبح وهو طفل، واستلم القيادة وهو شاب، وتجمع حوله الناس، وكانت فتوحاته كبيرة حيث إنه وصل إلى آسيا الصغرى، وإلى نهر السند، وحارب قبائل كبيرة وقوية، وانتصر عليها، وخافت منه الأمم.. إن هذا كله لا ينكر، ولا يجحد أحد قوة هذا الملك وشدة سطوته وبأسه، لكن هذا ليس شيئاً مستحيلاً في التاريخ، ولا أمراً معجزاً؛ فقد صنع مثله، وقريباً منه ملوك وسلاطين آخرون. وقد مرَّ بالقارىء ما قام به الإسكندر المقدوني وبعض ملوك اليمن.. وكون هذا الأمر غريباً لا يعني أنه ذو القرنين. فإذا كان هذا الأمر غريباً فإن غيره قد شارك فيه. ويذكر علماؤنا أن هناك أربعة ملكوا العالم: مؤمنان وكافران. إذاً فلم يستغرب العلماء والمؤرخون أن يملك الكافر أيضاً العالم! وهذا ابتلاء من الله تعالى، إذ ليس المهم أن يكون هناك مثل هذا الملك، لكن أن يقترن به الإصلاح والعدل وعدم الغرور والفساد..

أما القول بأنه نجا من الذبح وهو طفل، ووصل إلى الحكم بطريقة عجيبة.. فما أكثر هذه الحوادث والعبر في التاريخ.. ولنا في العبيد وكيفية وصولهم إلى الحكم خير دليل.. مثل كافور والظاهر بيبرس وقطز وغيرهم كثير في التاريخ.. إضافة إلى أن ما ذكر من بداية حياة كورش لا تخلو من الأسطورة كما علق على ذلك حسن بيرينا، وكما مر بنا سابقاً..

= يعني هذا الحط من قيمة الآثار من الناحية الحضارية أو التاريخية.. وجوانبها الإيجابية..
وأنا إذ أرد على ذلك الرأي، إنما أستعمل نفس السلاح.. وقد اتفق التاريخ مع ذلك الأثر.. وليس هناك من دليل واحد وصل إلينا يدل على إيمان كورش بالدين الحق.. ودون شوائب.. ولا يعدل عن هذا إلا بدليل نقلي.. أو عقلي..

أما العين الحمئة، فلا يستغرب أن تكون بحر إيجة، بل لتكن هي، فإن هذا لا يقدم شيئاً ولا يؤخره، إذ إن غيره قد وصل إليه.. ولا يعني وصول شخص هناك أنه ذو القرنين!.

وما استدل به أبو الكلام آزاد من أن اكتشاف تمثال كورش لابساً تاجه ذي القرنين لا يعد حجة.. لأن التيجان تختلف من عصر إلى عصر.. بل من ملك إلى ملك أحياناً.. ثم إن الملك له أن يلبس من التيجان ما يبدو فيه ذا بأس وهيبة.. سواء أكان بقرن أم بقرنين أم بثلاثة.. أو حتى بدون قرون. كما يلاحظ في تاج كورش أنه ليس على شكل قرنين بارزين فقط.. ولا أدري ما هذه الأجنحة التي تحيط به من فوق ومن تحت! كما أنه لم يثبت أن ذا القرنين سمي بهذا الاسم لأنه كان لابساً ذلك التاج بتلك الصفة. وأخيراً فإن هذا أمر ثانوي في الموضوع.

ونصل هنا إلى نقطة حساسة، وهي السد!

وقد مر بالقارىء ما ذكره أصحاب هذا الرأي، كما أنه سيمر به بتفصيل أكثر في الفصل الأخير من هذا الكتاب.. فهل حقاً أن كورش بنى ذلك السد العظيم؟!.

لقد أسهب الأستاذ (خضر) في الإجابة على هذا السؤال.. وانتهى إلى نتيجة اقتنع بها شخصياً.. كما أنه حاول أن يقنع غيره..

وقد جبت كل ما قال.. لكنني لم أقف له على دليل، أو دلائل مقنعة وكافية.. فقد ذكر[(١)] أن كورش عندما وصل إلى إقليم أذربيجان ـ في القرن السادس قبل الميلاد ـ كانت قبائل (الماساجيت) تقطن شمال وشرق هذه المناطق، وحين اشتدت شراستهم، عرضت القبائل المسالمة جنوب القوقاز على كورش بناء سد يوقف تسربهم من فتحة داريال في جبال القوقاز..

---

(١) مفاهيم جغرافية ص ٢٩٨.


ذو القرنين
تمثال غورس الذى عثر عليه فى حفريات استخر ايران

وهذا أحد الفروض التي طالما طرح المؤلف فروضاً في هذا الموضوع وبنى عليها بحثه[1]. . فإنه لا استناد له في هذا القول. وبعد بحث دقيق، رأيت أن دليله الوحيد ـ وأظن أنه دليل أبي الكلام آزاد أيضاً ـ قوله[2]:

(وقد رأينا خلال السرد التاريخي أن القبائل المغولية كانت لا تتكاسل عن الانقضاض على مناطق آسيا الغربية خلال القرن السادس قبل الميلاد. وكل صفحات التاريخ تذكر لنا أن ثمة توقفاً مفاجئاً حدث في عملية تدفق هذه القبائل البدائية المتوحشة. وتشير أصابع الدقة التاريخية نحو الحقبة التي ظهر فيها كورش الأخميني).

إذاً فهذا هو الدليل. . ولكن:

هل يعني توقف هذه القبائل أن كورش بنى السد؟!.

لماذا لا نقول إن السد كان مبنياً من قبل، ولكن الحوادث الطبيعية أثرت في جوانب السد، كأن تكون مياه بحر قزوين قد انحسرت عن شواطئه فكانت القبائل تغزو من الساحل الذي كان مكانه ماء، ثم أعيد ترميم السد في عهد ذلك الملك، ووقفت هجمات القبائل المتوحشة على تلك المنطقة بعد هذا؟!.

أفترض هذا لأنه حدث مثلما قلت. . فيذكر الدكتور خضر في نفس كتابه أن (أنو شروان) وجد أن السد[3] لم يعد يمنع المغيرين على فارس. إذ إنه بعد (١٠٠٠) عام من بناء السد كان البحر قد فعل مفعوله في مياه بحر قزوين. . فتناقصت مياهه وانحسرت عن شواطئه متراجعة نحو القاع، فانكشف جزء مدرج على طول امتداد تعاريج الساحل، وظهر بذلك شريط

---

(١) انظر ما ذكره عن السد والقبائل الهمجية في كتابه المذكور وبخاصة الصفحات ٢٨٥ ـ ٢٥٩ ـ ٢٦٦ ـ ٢٧٥..

(٢) مفاهيم جغرافية ص ٣١٢.

(٣) حكم الفرس تلك المنطقة بين عامي ٥٣١ ـ ٥٧٩ م.

ساحلي ضيق بين خط ماء البحر الجديد وأقدام القوقاز عند «دربند»، فصار الغزاة يتدفقون عبر هذا الشريط الساحلي.. لذلك أمر أنو شروان ببناء جدار من الحجر بين مياه بحر قزوين بعرض هذا الشريط الساحلي حتى التحم الجدار تماماً بجبال القوقاز. وبذلك عاد للسد مفعوله[1].

إذاً: أفليس من المعقول أن يكون كورش قد فعل صنيع أنو شروان في ذلك، ويكون السد ـ بطبيعة الحال ـ قد بني قبله بزمن طويل؟!.

إنني أرى ما ذكرته أسلم، لأسباب:

١ ـ لم يثبت تاريخياً قط أن كورش قد بنى سداً هناك، ولم يذكر هذا من المؤرخين القدماء أحد ـ في حدود علمي ـ.. وإن الذي ذكره أصحاب هذا الرأي ـ حديثاً ـ إنما هو تفسير لآيات القرآن الكريم، عن قصة ذي القرنين، ثم تطبيقها على كورش، ليس إلّا..!!

٢ ـ لم يذكر كورش في الوثيقة السابقة التي كتبها، أنه بنى السد.. رغم أن هذا يعد عملاً عظيماً جداً لا يرتقي إليه أي عمل من أعمال كورش السابقة..

فكيف يهمل كورش ذكر هذا السد ـ والذي استغرق بناؤه عشر سنوات، كما يقول الأستاذ خضر ـ والذي هو أبلغ آثاره على مر السنين، ثم يذكر أشياء أخر أبسط منها بكثير، والتي يشارك فيها ملوك غيره؟!!.

٣ ـ ذكر الأستاذ (خضر)[2] أن الحيثيين استخرجوا كميات هائلة من الحديد من ذلك الإقليم منذ آلاف السنين، فلماذا لا يقال إن السد بني منذ تلك الأزمان القديمة جداً؟.

٤ ـ لم يورد أصحاب هذا الرأي أي دليل من الجيولوجيين أن تاريخ صنع السد يعود إلى وقت كورش!.

* * *

---

(١) انظر مفاهيم جغرافية ص ٢٨٠ و ٣١٤ ـ ٣١٥.

(٢) مفاهيم جغرافية ص ٣٠٨.

هذا ما بدا لي خلال هذا البحث، والقارىء حر فيما يرتئيه، وبخاصة بعد أن بيَّنت له كل الأوجه بدقة وإنصاف..

ثم إن لي رأياً آخر مخالفاً منذ كتابة هذا الفصل..

وهو أن كورش ليس بذلك الملك القديم جداً حتى تخفى أخباره على جزيرة العرب.. وقد ذكرت هذا أيضاً عندما أعطيت رأيي بما ذهب إليه بعضهم من أنه الإسكندر المقدوني.. وقد كان كورش قبله بقرنين فقط!.

ولا ننسى أن قصص الفرس كانت منتشرة بين العرب.. وكان لهم أنصار بينهم، وقد تأثروا بأدبهم ورواياتهم وقصصهم الشعبية..

وتحدثنا السيرة النبوية الشريفة عن النضر بن الحارث، الذي قدم من الحيرة، وكان قد تعلم بها أحاديث ملوك فارس وأحاديث رستم وأسفنديار، فكان إذا جلس الرسول ﷺ مجلساً يذكّر فيه بالله، ويحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم، خلفه في مجلسه إذا قام، وحدثهم عن ملوك فارس..

وإذا كان كورش من أعظم ملوك فارس، فلا بدّ أنه كان له نصيب من بين تلك الأحاديث.. والله أعلم.

إذاً فمن هو ذو القرنين الحقيقي؟.
هذا ما ستراه في الفصل التالي إن شاء الله..
ولن يكون رأياً غريباً عليك!.

الفصل الخامس

ذو القرنين القرآني وكلمة في الحضارة



المبحث الأول
ذو القرنين القرآني

مقدمة:

عزيزي القارىء:

لعـلـك لم تفاجأ عندما سميت هذا الفصل: (ذو القرنين القرآني)!

ولا شك أن أول ما يتبادر إلى ذهنك من هذه التسمية، أن المقصود بها شخصية ذي القرنين الواردة في القرآن الكريم؛ وهذا ما أردت أنا أيضاً!.

فقد مرت بك الفصول السابقة، بآرائها المتنوعة، ودلائلها المتعددة، ومناقشاتها الكثيرة.. وتذكر أنـني خرجت منها بمفهوم عام بعد الدراسة والتحقيق.. هو أن ذا القرنين، لم يكن واحداً من هؤلاء الثلاثة الذين أيدت لهم بعض الآراء.. وقد ناقشت ذلك كله في مكانه..

من هو ذو القرنين؟.

إذاً فمن يكون ذو القرنين؟!.

إن جوابي لن يكون طويلاً في هذا، بل سيكون قصيراً جداً!! ولا أحتاج إلى دلائل كثيرة، بعد أن قوضت دعائم آراء كل من ذهب إلى أنه الصعب، أو الإسكندر، أو كورش..

بل سأقول لك بطمأنينة وهدوء: إذا أردت الجواب الشافي، فأقول: إنه ذو القرنين (القرآني)!!

نعم. . إنه (القرآني) الذي لم يعرف أحد من المؤرخين حقيقته بعد. . ولم يعرفوا تاريخه الصحيح. .

إنه (القرآني) الذي ذكره الله عزّ وجلّ في كتابه العزيز، وأثنى عليه بالإيمان والإصلاح والعدل، في سورة قرآنية عظيمة، وآيات إعجازية جليلة، وقصة تاريخية نادرة، مليئة بالدروس والعبر، طافحة بالعظات والمبادىء والحكم. .

إنه علم قرآني بارز. . خلّد الله تعالى ذكره في كتابه الخالد، فاستحق أن ينال لقب (القرآني). . وكفى.

وقد استعملت له هذه الإضافة ليتميز بها عن غيره ممن لقب بـ (ذي القرنين). وأكرم بها من إضافة!.

* * *

ولم أشأ أن أقول غير هذا. . لأنني لم أر من أعطى شخصية ذي القرنين حقها في التاريخ مثلما أعطى لها الله عزّ وجلّ، في كتابه العظيم. .

كما أنني لم أر في الشخصيات التي ذكرت، وأيّدتها بعض الآراء، الجوانب العظيمة والأساسية، كما هي في حياة ذي القرنين، وأمره العجيب!.

إنه رجل آخر. . عاش في عصور غابرة. . قبل تبّع. . وقبل الإسكندر. . وقبل كورش. فقد كان في زمن نبي الله وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام كما ذكره وصححه ثقات المؤرخين. .

إذاً فذو القرنين رجل آخر. ضاعت أخباره على مرِّ التاريخ، ولم يسلم منها إلا ما ذكره الله عزّ وجلّ. . وما ثبت عن الرسول ﷺ. . ونتف أخرى قليلة من التاريخ. . اعتمدها بعض الثقات من المؤرخين. .

إنه الرجل الطواف في الأرض، الصالح العادل، الخاشع لربه، والمنفِّذ لأمره، والقائم بين الناس بالإصلاح. والذي ملك أقاصي الدنيا

وأطرافها، فلم يغرّه مال ولا منصب ولا جاه ولا قوة ولا سلطان؛ بل إنه بقي ذاكراً لفضل ربه ورحمته، متأهباً لليوم الآخر، ليلقى جزاءه العادل عند ربه.

وسيمر بك تفسير الآيات الواردة بشأنه، وما تحمله من إعجاز وبلاغة.. إنه ذو القرنين (القرآني) وحسب..

وإذا ما انطبقت شخصية تاريخية عليه، توفرت شروطها فلا مانع أن يكون هو.. وحتى الآن لم يتفتق مثل هذه الشخصية عن أقلام الباحثين في التاريخ، بتلك الشروط.

ويكفي أن يبقى ذو القرنين ذلك الشخصية العظيمة في التاريخ..

وذلك العلم البارز في العدل والإصلاح.. والقيادة.

و.. مثال الحاكم الصالح، على مر التاريخ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. بشهادة الكتاب الخالد..

* * *

عزيزي القارىء:

لعل غريزتك الاستطلاعية لم تشبع من هذه النتيجة! وتريد أن تبدي بعض ملاحظاتك، وتود لو أن بعض جوانب حياة ذي القرنين توضحت أكثر، ولا شك أن التاريخ ـ مهما يكن ـ لم يهمل مثل هذا العلم العظيم.

وتفصح أكثر عندما تقرأ أن اليهود كانوا على علم به. ولا نذهب بعيداً إذا قلنا بأن كتب اليهود قد ذكرت من أمره شيئاً!.

وعندما تريد أن تحدد وتعين، ستشير إلى التوراة.. هذا الكتاب التاريخي الضارب في أعماق القدم، والذي يتحدث عن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وغيرهم من الأقوام.. وبخاصة تاريخ بني إسرائيل.. إلا أن هذه الملاحظة ليست جديدة.. فما كانت بداية رأي من ذهب إلى أنه كورش الأخميني سوى استناده إلى التوراة..

ولكن، عزيزي القارىء، إن كثيراً منها محرف ومبدل، فقد لعب

بها اليهود وغيروها كما يريدون.. وكتبوا تاريخها وكلماتها كما تهوى أنفسهم.. فهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ويشترون به ثمناً قليلاً[1]..

ولو أنك قرأت التوراة لرأيت فيها مواضيع عجيبة وغريبة، لا يصدقها إنسان عادي أوتي من العقل قليلاً..

كصراع الأنبياء مع الله - جلَّ في علاه.

ولا تستغرب إذا قلت لك بأنك سترى فيها قصة نبي يصارع ربه ويغلبه!!.

وأحيلك في هذا - لدراسة مثل هذه الجوانب - وباختصار إلى كتاب: (قذائف الحق) للشيخ محمد الغزالي. إذ ليس هنا مجال دراستها من ناحية العقيدة.. بل نذكر لك قول الإمام الشهيد سيد قطب، في هذا المجال، وهو يناقش القضية بحكمة وموضوعية. يقول رحمه الله:

.. ولو قد سلمت التوراة من التحريف والزيادات، لكانت مرجعاً يعتمد عليه في شيء من تلك الأحداث. ولكن التوراة أحيطت بالأساطير التي لا شك في كونها أساطير، وشحنت كذلك بالروايات التي لا شك أنها مزيدة على الأصل الموحى به من الله. فلم تعد التوراة مصدراً مستيقناً لما ورد فيها من القصص التاريخي[2].

---

(١) كما لا يستبعد أن يكون اليهود قد حذفوا من التوراة ذكر ذي القرنين بعد أن نزل القرآن يبين أمره، وفي حديث - لا أدري مدى صحته - ينبيء عن مثل هذا، ويشير إليه بوضوح، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: قالت اليهود للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يا محمد إنما تذكر إبراهيم وعيسى والنبيين، إنك سمعت ذكرهم منا، فأخبرنا عن نبي لم يذكره الله في التوراة إلا في مكان واحد. قال: ومن هو؟ قالوا: ذو القرنين. قال: ما بلغني عنه شيء. فخرجوا فرحين قد غلبوا في أنفسهم، فلم يبلغوا باب البيت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات: ﴿ ويسألونك عن ذي القرنين ﴾ فتح القدير جـ ٣ ص ٣٠٩. فقد علق الإمام الآلوسي على ذلك بقوله: إنا لا نسلم عدم ذكره.. أي في التوراة.. بل الظاهر من سؤالهم أن له ذكراً في كتابهم، وإنكارهم اليوم لا يلتفت إليه. روح المعاني جـ ١٦ ص ٢٩.

(٢) في ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢٢٨٩ - ٢٢٩٠.

ثم يقول رحمه الله:

وإذن فلم يبق إلا القرآن، الذي حفظ من التحريف والتبديل، هو المصدر الوحيد لما ورد فيه من القصص التاريخي. ومن البديهي أنه لا تجوز محاكمة القرآن الكريم إلى التاريخ لسببين واضحين: أولهما: إن التاريخ مولود حديث العهد، فاتته أحداث لا تحصى في تاريخ البشرية لم يعلم عنها شيئاً. والقرآن يروي هذه الأحداث التي ليس لدى التاريخ علم عنها!

وثانيهما: أن التاريخ ـ وإن وعى بعض هذه الأحداث ـ هو عمل من أعمال البشر القاصرة، يصيبه ما يصيب جميع أعمال البشر من القصور والخطأ والتحريف. ونحن نشهد في زماننا هذا، أن الخبر الواحد، أو الحادث الواحد يروى على أوجه شتى، وينظر إليه من زوايا مختلفة، ويفسر تفسيرات متناقضة، ومن مثل هذا الركام يصنع التاريخ، مهما قيل بعد ذلك في التمحيص والتدقيق!.

فمجرد الكلام عن استفتاء التاريخ بما جاء به القرآن الكريم من القصص كلام تنكره القواعد العلمية المقررة التي ارتضاها البشر، قبل أن تنكره العقيدة التي تقرر أن القرآن هو القول الفصل، وهو كلام لا يقول به مؤمن بالقرآن، ولا مؤمن بوسائل البحث العلمي على السواء إنما هو مراء!!.

لقد سأل سائلون عن ذي القرنين، سألوا الرسول ـ ﷺ ـ فأوحى إليه الله بما هو وارد هنا من سيرته، وليس أمامنا مصدر آخر غير القرآن في هذه السيرة. فنحن لا نملك التوسع فيها بغير علم، وقد وردت في التفاسير أقوال كثيرة، ولكنها لا تعتمد على يقين. وينبغي أن تؤخذ بحذر لما فيها من إسرائيليات وأساطير[1]..

* * *

إذاً فليس لنا الخيار في هذا الموضوع..

فإما أن نعرف أن الخبر صحيح لنورده كما هو، وإما أن ندعه حتى لا

(١) في ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢٢٩٠.

نقع في الأخطاء والأغاليط. وذلك لأن الأمر يتعلق بشخصية قرآنية.. ويجب أن نحرص دائماً على حسن سمعة هذه الأعلام التي أثنى عليها رب العزة، ولا ندخل أنفسنا متاهات لا نعرف ماذا وراءها.. ولا نلصق كل شخصية عظيمة بذي القرنين، بمجرد أنها عظيمة، وذات وزن في التاريخ.. وهذا ما فعله كثير من المسلمين، عن حسن نية. فقد بهر البعض فتوحات الإسكندر وعبقريته وقدرته وأخلاقه.. ولذلك لم يستبعدوا أن يكون هو.. وكذلك عن الصعب الحميري وكورش الأخميني.. وقد أخطأ الجميع. لأن مجرد العظمة، وظاهر السيرة الحسنة.. لا تكفي!!.

* * *

أما عن أخبار ذي القرنين (القرآني)، فقد أوردت ما استطعت جمعه في المبحث الثاني من الفصل الأول من هذا الكتاب.. وكذلك بعض مواقفه وحكمه.. كل ذلك تحت عنوان (تاريخ ذي القرنين). فليعد إلى ذلك من أراد وليراجعه.

ولكني لا أدعي صحة ما ورد في ذلك.. فهي أخبار تحتمل الصدق وتحتمل الكذب.. وليس هناك ما يثبت خطأ بعضها، ما دامت ليست معارضة للعقيدة الصحيحة. وقد أوردها بعض علمائنا ومؤرخينا، ولم ينفوا صحتها.

أما ما ذكرت من أنه كان في عصر إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فسأورد الدلائل على ذلك من التاريخ، ويكون هذا طعنة نجلاء في آراء من ذهب إلى كونه في غير فترته.

لا شك أن القارىء يتذكر أنني عالجت هذا الموضوع في حينه.. وفي الفصل الأول تحت عنوان: (النبي الذي عاصر). وذلك حتى يكون القارىء مطلعاً على الروايات التاريخية من البداية. ثم يوازن ذلك بما ذهب إليه أصحاب الآراء التالية. وأنا هنا سأصل بالقارىء إلى النتيجة، من تلك الروايات إلى ما سنستقر عليه بعونه تعالى..

فقد ذكر الأزرقي وغيره أن ذا القرنين أسلم على يدي إبراهيم الخليل،

وطاف معه بالكعبة المكرمة هو وإسماعيل عليه السلام[1].. وكذا قال الشيخ الأيجي في تفسيره أنه كان في زمن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وطاف بالبيت[2]. وروي عن عبيد بن عمير وابنه عبدالله وغيرهما أن ذا القرنين حج ماشياً، وأن إبراهيم لما سمع بقدومه تلقاه، فلما اجتمعا دعا له الخليل ووصاه بوصايا[3].. وفي محاضرة الأوائل أنه ـ إبراهيم عليه السلام ـ اجتمع في الحرم المكي معه وعانقه وصافحه وأعطاه الراية[4]..

وذكر من قصته معه أنه حكم لإبراهيم عليه السلام في بئر السبع حين حاكم إليه فيها[5]. قال الحسن البصري: قضى لإبراهيم في وادي السبع لما رحل عن قومه.. وكان إسكندر ـ يقصد ذا القرنين ـ إذا مرَّ بمكان إبراهيم نزل عن فرسه حتى يفوت ويركب[6]. وردَّ الإمام ابن الجوزي على بعض الأقوال في هذا الموضوع ثم قال: والصواب أن ذا القرنين كان في زمن الخليل عليه السلام[7]. ويقول الإمام ابن حجر:

والذي يدل على تقدم ذي القرنين، ما روى الفاكهي من طريق عبيد بن عمير ـ أحد كبار التابعين ـ أن ذا القرنين حج ماشياً فسمع به إبراهيم فتلقاه. ومن طريق عطاء عن ابن عباس أن ذا القرنين دخل المسجد الحرام فسلم على إبراهيم وصافحه..

ومن طريق عثمان بن ساج أن ذا القرنين سأل إبراهيم أن يدعو له

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ٢ ص ١٠٣. وانظر شبيهاً بهذا: الفتوحات الإلٓهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية جـ٣ ص ٤٤ للعلامة سليمان الجمل. وحاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين جـ٣ ص ٢٤.

(٢) تفسير (جامع البيان) للشيخ الأيجي جـ١ ص ٤٢٥.

(٣) البداية والنهاية جـ٢ ص ١٠٨.

(٤) انظر باختصار (ذو القرنين وسد الصين) ص ٤٤ نقلاً عن محاضرة الأوائل لعلي دده ص ٢٩.

(٥) وهو على قول من قال إنه الصعب بن ذي مراثد. الروض الأنف جـ٢ ص ٥٩.

(٦) بدائع الزهور ص ١٣٧.

(٧) انظر تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير للإمام عبد الرحمن بن الجوزي ص ٥ مكتبة الآداب ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ـ المطبعة النموذجية.

فقال: وكيف وقد أفسدتم بئري؟ فقال: لم يكن ذلك عن أمري. يعني أن بعض الجند فعل ذلك بغير علمه[1]. وذكر ابن هشام في (التيجان) أن إبراهيم تحاكم إلى ذي القرنين في شيء فحكم له. وروى ابن أبي حاتم من طريق علي بن أحمد أن ذا القرنين قدم مكة، فوجد إبراهيم وإسماعيل يبنيان الكعبة فاستفهمهما عن ذلك فقالا: نحن مأموران... قال ابن حجر: فهذه الآثار يشد بعضها بعضاً، ويدل على قدم عهد ذي القرنين[2].

وقال في شرح العيني، بعد تعدد الأقوال: الأصح أنه كان في أيام إبراهيم الخليل عليه السلام، واجتمع به في الشام، وقيل بمكة[3].

فهـذه أقوال وشهادات كثيرة ـ وهناك غيرها ـ تفيد وتؤيد أن ذا القرنين كان في عهد إبـراهيم ـ عليه الصـلاة والسلام.. وبين إبـراهيم ومحمد ـ صلوات الله وسلامه عليهما ـ ألفا سنة[4]!! فأين هذه الفترة الطويلة من فترة الإسكندر وكورش والصعب؟.. الذين كانوا بعد إبراهيم عليه السلام بأكثر من أربعة عشر قرناً؟!.

ذو القرنين في حديث الرسول ﷺ:

إننا لا نستغرب عندما لا نجد إلا أحاديث قليلة تتعلق بذي القرنين.. ذلك أن القصة القرآنية عنه قد حققت هدفها، وأعطت مغزى كاملاً للصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ.. فلم يكن بعد ذلك يهمهم من يكون؟ ومتى وأين كان؟ إلى آخر هذه الأسئلة التي تعتلج في النفس عند الفراغ.. كما أن اليهود والكفار ـ الذين امتحنوا الرسـول ﷺ، بهـذا السؤال ـ لم يعودوا بأي استفسار آخر عنه.. بعد أن تجلت لهم الحقيقة كاملة..

(١) فتح الباري جـ ٦ ص ٢٧١.
(٢) فتح الباري جـ ٦ ص ٢٧١.
(٣) انظر (ذو القرنين وسد الصين) ص ١١.
(٤) روى أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال... ومن إبراهيم إلى موسى خمسمائة وخمس وسبعون، ومن موسى إلى داود خمسمائة وتسع وسبعون، ومن داود إلى عيسى ألف وثلاث وخمسون، ومن عيسى إلى محمد ستمائة سنة. وقال محمد بن إسحق: ... ومن إبراهيم إلى موسى خمسمائة وخمس وستون سنة، ومن موسى إلى داود خمسمائة وتسع وستون سنة، ومن داود إلى عيسى ألف وثلاثمائة وست وخمسون سنة. انظر تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٥.

روى ابن أبي حاتم من حديث عقبة بن عامر مرفوعاً في قصة ذي القرنين وأنه سار حتى بلغ مطلع الشمس ثم أتى السدين وهما جبلان لينان، يزلق عنهما كل شيء، فبنى السدين. قال ابن حجر: في إسناده ضعف[1].

وقد أورد الإمام الشوكاني الروايات بشكل أوضح فقال:

أخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر، وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الدلائل عن عقبة بن عامر الجهني حديثاً يتضمن أن نفراً من اليهود سألوا النبي ﷺ، عن ذي القرنين، فأخبرهم بما جاؤوا له ابتداء، وكان فيما أخبرهم أنه كان شاباً من الروم، وأنه بنى الإسكندرية، وأنه علا به ملك في السماء، وذهب به إلى السد. وإسناده ضعيف، وفي متنه نكارة، وأكثر ما فيه أنه من أخبار بني إسرائيل، ذكر معنى هذا ابن كثير في تفسيره وعزاه إلى ابن جرير والأموي في مغازيه، ثم قال بعد ذلك: والعجب أن أبا زرعة الداري مع جلالة قدره ساقه بتمامه في كتابه دلائل النبوة. انتهى. وقد ساقه بتمامه السيوطي في الدر المنثور، وساق أيضاً خبراً طويلاً عن وهب بن منبه وعزاه إلى ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم والشيرازي في الألقاب وأبي الشيخ، ولعل هذه الأخبار ونحوها منقولة عن أهل الكتاب، وقد أمرنا بأن لا نصدقهم ولا نكذبهم فيما ينقلونه إلينا[2].

وقد ذكرت لك أحاديث قليلة مرت في مناسباتها..

وهذه أحاديث أخرى ـ قليلة أيضاً ـ وجدتها منثورة في بعض الكتب، وستمر بك أخرى عند تفسير الآيات إن شاء الله.

فقد ورد أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن ذي القرنين، فقال: كان من الروم فأعطي ملكاً فصار إلى مصر وبنى الإسكندرية، فلما فرغ أتاه ملك فعرج به فقال: انظر ما تحتك؟ قال: أرى مدينة واحدة. قال: تلك الأرض وإنما أراد الله أن يريك وقد جعل لك في الأرض سلطاناً فسر فيها وعلم الجاهل وثبت العالم.

(١) فتح الباري جـ ٦ ص ٢٧٣.

(٢) فتح القدير جـ ٣ ص ٣١٠.

لكن هذا الحديث غير صحيح ففيه ابن لهيعة، وقد قال الإمام ابن حجر عن الحديث إنه ضعيف[1]، قال ابن كثير: وفيه من النكارة أنه من الروم، وإنما الذي كان من الروم الإسكندر الثاني ابن فيلبس المقدوني الذي تؤرخ به الروم[2].

وفي تفسير النسفي أنه ﷺ قال: بدء أمره أنه وجد في الكتب أن أحد أولاد سام يشرب من عين الحياة فيخلَّد، فجعل يسير في طلبها، والخضر وزيره وابن خالته، فظفر فشرب ولم يظفر ذو القرنين[3].

لكننا حققنا في كتابنا (الخضر عليه السلام) أنه لم يثبت في حديث قط أن الخضر شرب من تلك العين.. فليراجع التحقيق هناك من أراد.. وقد مر ما أخرجه ابن مردويه عن سالم بن أبي الجعد قال: سئل علي ـ كرم الله وجهه ـ عن ذي القرنين أنبي هو؟ فقال: سمعت نبيكم ﷺ يقول: هو عبد ناصح الله تعالى فنصحه[4].

وفي حديث آخر يتعلق بذي القرنين، قال محمد بن إسحاق: وقد حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان الكلاعي ـ وكان رجلاً قد أدرك ـ أن رسول الله ﷺ سئل عن ذي القرنين فقال: مَلِك مسح الأرض من تحتها بالأسباب[5].

---

(١) انظر فتح الباري جـ ٦ ص ٢٧١. وقد مر أن الحديث كان شبهة من يرى أنه الإسكندر.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٨٥.

(٣) تفسير النسفي جـ ٣ ص ١٤٤ ويذكر نعمة الله الجزائري (الشيعي) في كتابه: النور المبين في قصص الأنبياء المرسلين، أنه ﷺ قال: رحم الله أخي ذا القرنين، ما كان مخطئاً إذ سلك وطلب ما طلب، ولو ظفر بوادي الزبرجد في ذهابه لما ترك فيه شيئاً إلا أخرجه للناس لأنه كان راغباً، ولكنه ظفر به بعدما رجع فقد زهد!! انظر ص ١٥٢ وقد ذكرت من قبل ما قيل عن طلب ذي القرنين لعين الحياة، كما أنني نوهت إلى كتاب المؤلف المذكور، وأن ما أورده هنا محشو بالخرافات.. أما الحديث الذي أورده النسفي فذكرت أيضاً أنني لم أقف له على تخريج.

(٤) فتح القدير جـ ٣ ص ٣٠٩ وروح المعاني جـ ١٦ ص ٣١.

(٥) السيرة النبوية القسم الأول جـ ١ ص ٣٠٧.

وساق الخبر عنه الإمام الطبري أيضاً[1]..

وروى ابن أبي شيبة من حديث علي مرفوعاً أنه قيل له: كيف بلغ ذو القرنين المشرق والمغرب؟ قال: سخر له السحاب وبسط له النور وبدت له الأسباب[2]. وقد مر الحديث عن هذا الأثر الأخير[3].

---

(١) تفسير الطبري جـ ١٦ ص ١٧.

(٢) فتح الباري جـ ٦ ص ٢٧٤.

(٣) انظر الفصل الأول (كيف ملك الدنيا).

تفسير الآيات القرآنية من سورة الكهف
(الآيات ٨٣-٩٨)

﴿ ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً (٨٣) إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً (٨٤) فأتبع سبباً (٨٥) حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوماً، قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً (٨٦) قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً (٨٧) وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً (٨٨) ثم أتبع سبباً (٨٩) حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً (٩٠) كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً (٩١) ﴾.

أسباب النزول:

كان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وكان يؤذي رسول الله ﷺ وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث رستم وأسفنديار، وكان رسول الله ﷺ إذا جلس مجلساً ذكر فيه الله وحدث قومه ما أصاب من كان قبلهم من الأمم، وكان النضر يخلفه في مجلسه إذا قام، فقال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلموا فأنا أحدثكم بأحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس. ثم إن قريشاً بعثوه وبعثوا معه عقبة ابن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما: سلوهم عن محمد وصفته

وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم من العلم ما ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجا حتى قدما إلى المدينة، فسألوا أحبار اليهود عن أحوال محمد، فقال أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث: عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم، فإن حديثهم عجب، وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم فهو نبي، وإلا فهو متقول. فلما قدم النضر وصاحبه مكة قالا: قد جئناكم بفصل ما بيننا وبين محمد، وأخبروا بما قاله اليهود. فجاؤوا رسول الله ﷺ وسألوه. فقال رسول الله ﷺ: أخبركم بما سألتم عنه غداً ولم يستثن، فانصرفوا عنه ومكث رسول الله ﷺ فيما يذكرون خمس عشرة ليلة حتى أرجف أهل مكة به، وقالوا: وعدنا محمد غداً، واليوم خمس عشرة ليلة، فشق عليه ذلك، ثم جاءه جبريل من عند الله بسورة أصحاب الكهف وفيها معاتبة الله إياه على حزنه عليهم، وفيها خبر أولئك الفتية، وخبر الرجل الطواف[1].

وقد مر بك حديث آخر عن سبب نزول الآية.. وقلنا إنه غير صحيح.. وفيه نكارة.. وهو أن نفراً من اليهود جاؤوا يسألون النبي ﷺ عن ذي القرنين فأخبرهم بما جاؤوا له ابتداءً فكان فيما أخبرهم أنه كان شاباً من الروم[2].. إلخ.

﴿ ويسألونك عن ذي القرنين ﴾.

وأكثر الآثار تدل على أن الآية نزلت بعد سؤالهم (أي اليهود). فالتعبير بصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة الماضية لما أن في سؤالهم على ذلك الوجه مع مشاهدتهم من أمره ﷺ ما شاهدوا نوع غرابة. وقيل للدلالة على استمرارهم على السؤال إلى ورود الجواب[3]. وبعض الآثار تدل على أن الآية نزلت قبل. فعن عقبة بن عامر قال: إن نفراً من أهل الكتاب جاؤوا

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي جـ ٢١ ص ٨٢.

(٢) انظر تتمة الخبر ودرجته تحت عنوان «ذو القرنين في حديث الرسول ﷺ» من هذا الكتاب.

(٣) روح المعاني للآلوسي جـ ١٦ ص ٢٤.

بالصحف أو الكتب فقالوا لي: استأذن لنا على رسول الله ﷺ لندخل عليه، فانصرفت إليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأخبرته بمكانهم فقال ﷺ: ما لي ولهم، يسألونني عما لا أعلم إنما أنا عبد لا علم لي إلا ما علمني ربي. ثم قال: ائتني بوضوء أتوضأ به. فأتيته فتوضأ، ثم قام إلى مسجد في بيته، فركع ركعتين، فانصرف حتى بدا السرور في وجهه ثم قال: اذهب فأدخلهم ومن وجدت بالباب من أصحابي. فأدخلتهم فلما رآهم النبي ﷺ قال: إن شئتم أخبرتكم بما سألتموني عنه وإن شئتم غير ذلك فافعلوا.

والجمهور على الأول. ولم تثبت صحة هذا الخبر(١).

ثم إن السؤال ليس عن ذات ذي القرنين، بل عن شأنه، فكأنه قيل: ويسألونك عن شأن ذي القرنين(٢).

﴿ قل ﴾: لهم في الجواب.

﴿ سأتلو عليكم منه ذكراً ﴾: الخطاب للسائلين، والهاء لذي القرنين، ومن تبعيضية، والمراد: من أنبائه وقصصه.. والمراد بالتلاوة الذكر، وعبر عنه بذلك لكونه حكاية عن جهة الله عزّ وجلّ. أي: سأذكر لكم نبأ مذكوراً من أنبائه(٣).

ذكراً: قرآناً. والسين للتأكيد والدلالة على التحقق المناسب لتقدم تأييده ﷺ وتصديقه بإنجاز وعده. أي: لا أترك التلاوة البتة.. لا للدلالة على أن التلاوة ستقع فيما يستقبل كما قيل، لأن هذه الآية ما نزلت بانفرادها قبل الوحي بتمام القصة، بل موصولة بما بعدها ريثما سألوه عليه الصلاة والسلام(٤).

﴿ إنا مكنا له في الأرض ﴾: أي جعلنا له مكنة وقدرة على التصرف

---

(١) روح المعاني جـ ١٦ ص ٢٤.
(٢) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٠.
(٣) ويجوز أن يكون الضمير له تعالى، ومن ابتدائية ولا حذف. والتلاوة على ظاهرها. أي سأتلو عليكم من جهته سبحانه وتعالى شأنه. روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٠.
(٤) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٠ مع بعض الحذف.

في الأرض من حيث التدبير والرأي وكثرة الجنود والهيبة والوقار[1]. وقيل تمكينه بكثرة أعوانه وجنوده.. وقذف الرعب في أعدائه، وتسهيل السير عليه وتعريفه فجاج الأرض واستيلائه على برها وبحرها[2]. ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم، من العرب والعجم، ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس، مشرقها ومغربها[3].

﴿ وآتيناه من كل شيء ﴾: أراده من مهمات ملكه ومقاصده المعلقة بسلطانه[4].

﴿ سبباً ﴾: أي علماً: قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي وقتادة والضحاك وغيرهم. وعن قتادة أيضاً: منازل الأرض وأعلامها. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: تعليم الألسنة. فكان لا يغزو قوماً إلا كلمهم بلسانهم[5].

وقال العلامة الألوسي: هو كل ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة لا العلم فقط، وإن وقع الاقتصار عليه في بعض الآثار.. وفي الكلام مضاف مقدر، أي من أسباب كل شيء، والمراد بذلك الأسباب العادية.. واستدل بعض من قال بنبوته بالآية على ذلك وليس بشيء كما لا يخفى[6].

وليس المراد بقوله تعالى: ﴿ من كل شيء ﴾ العموم والشمول لجميع الأشياء.. وإنما المراد به كل شيء يصلح به أمره ويقوم به أمره، ويقوم عليه سلطانه. ومثل هذا قوله تعالى، على لسان الهدهد عن ملكة سبأ ﴿ وأوتيت

(١) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٠.
(٢) البحر المحيط جـ ٦ ص ١٥٩ باختصار.
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٨٦.
(٤) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣١.
(٥) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٨٦.
(٦) روح المعاني للألوسي جـ ١٦ ص ٣١.

من كل شيء ولها عرش عظيم ﴾[1]. ومثله قوله تعالى على لسان سليمان: ﴿ يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ﴾[2] فالمراد بكل شيء في الموضعين: ما يصلح عليه الأمر، ويتم به نظام الحياة في المستوى الطيب الكريم[3].

﴿ فأتبع ﴾: التقدير: فأراد بلوغ المغرب فأتبع[4].

ومنهم من قرأها بالقطع، ومنهم بالوصل. قال أبو عبيد (اتبع) بالوصل في السير، و(أتبع) بالقطع معناه اللحاق. كقوله تعالى: ﴿فأتبعه شهاب ثاقب﴾[5] وقال يونس: (أتبع) بالقطع للمجد المسرع الحثيث الطلب. و (اتبع) بالوصل إنما يتضمن مجرد الانتقال والاقتفاء[6]. والحق في هذا أن تبع واتبع وأتبع لغات بمعنى واحد، وهو بمعنى السير[7].

﴿ سبباً ﴾: أي منزلاً وطريقاً[8] يوصله إليه[9]. وأصل السبب الحبل، فاستعين لكل ما يتوصل به إلى شيء[10].

﴿ حتى إذا بلغ مغرب الشمس ﴾: يقول الأستاذ سيد قطب: ومغرب الشمس هو المكان الذي يرى الرائي أن الشمس تغرب عنده وراء الأفق. وهو يختلف بالنسبة للمواضع. فبعض المواضع يرى الرائي فيها أن الشمس تغرب خلف جبل. وفي بعض المواضع يرى أنها تغرب في الماء كما في المحيطات الواسعة والبحار. وفي بعض المواضع يرى أنها تغرب في الرمال

---

(١) سورة النمل، آية: ٢٣.
(٢) سورة النمل، آية: ١٦.
(٣) انظر التفسير القرآني للقرآن جـ٨ ص ٧٠٢ للشيخ عبد الكريم الخطيب.
(٤) روح المعاني جـ١٦ ص ٣١.
(٥) سورة الصافات، آية: ١٠.
(٦) روح المعاني جـ١٦ ص ٣١.
(٧) فتح القدير جـ٣ ص ٣٠٨.
(٨) تفسير ابن كثير جـ٥ ص ١٨٧.
(٩) روح المعاني جـ١٦ ص ٣١.
(١٠) فتح القدير جـ٣ ص ٣٠٨.

إذا كان في صحراء مكشوفة على مد البصر[1]. . . :

وقد كتبنا عن هذا الموضع بإسهاب في بحث «كورش الأخميني»، فليراجع هناك.

﴿ وجدها ﴾: أي الشمس.

﴿ تغرب في عين حمئة ﴾: أي ذات حمأة. وهي الطين الأسود من حمئت البئر تحمأ حمأ إذا كثرت حمأتها[2]. أي رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه[3].

والمراد وجدها في نظر العين كذلك. إذ لم ير هناك إلا الماء لأنها كذلك حقيقة. وهذا كما أن راكب البحر يراها كأنها تطلع من البحر وتغيب فيه إذا لم يـر الشـط. والذي في أرض ملساء واسعة يراها أيضاً كأنها تطلع من الأرض وتغيب فيها، ولا يرد على هذا أنه عبّر بـ (وجد)، والوجدان يدل على الوجود، لما أن وجد بمعنى رأى[4].

ثم المراد بالعين الحمئة إما عين في البحر أو البحر نفسه. وتسميته عيناً مما لا بأس به، خصوصاً وهو بالنسبة لعظمة الله تعالى كقطرة وإن عظم عندنا[5].

---

(١) في ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢٢٩١.

(٢) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣١.

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٨٧.

(٤) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٢. ولم يقل أحد بأن الشمس تغيب في مكان معين من الأرض. وإلا فقد علم أن الأرض كرة والسماء محيط بها والشمس بها في الفلك، وجلوس قوم في قرب الشمس غير موجود، والشمس أكثر من الأرض بمرات كثيرة فكيف يعقل دخولها في عين من عيون الأرض/ روح البيان جـ ٢ ص ٥١٤.

(٥) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٢. إلا أن الإمام ابن حزم الظاهري يخالف هذا الرأي. انظر قوله ورأيه هذا في (الفصل في الملل والأهواء والنحل) جـ ٢ ص ١٠١ - ١٠٢ دار المعرفة بيروت.

وقرأها بعضهم (حامية)[1]. إلا أن الأولى - التي هي قراءة ابن عباس - هي الراجحة[2]. ويؤيدها ما دار من نقاش بين كعب وابن عباس رضي الله عنهما، حيث قال عثمان بن حاضر لابن عباس: لو أني عندكما أفدتك بكلام تزاد فيه بصيرة في (حمئة). قال ابن عباس: وإذاً ما هو؟ قلت: فيما يؤثر من قول تبع، فيما ذكر به ذا القرنين، في تخلقه بالعلم واتباعه إياه:

بلغ المشارق والمغارب يبتغي   أسباب أمر من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند غروبها   في عين ذي خُلُب وثأط حرمد

قال ابن عباس: ما الخلُب؟ قلت: الطين بكلامهم. قال: والثأط؟ قلت: الحمأة.

قال: فما الحرمد؟ قلت: الأسود. قال فدعا ابن عباس رجلاً أو غلاماً فقال: اكتب ما يقول هذا الرجل[3].

يقول المرحوم سيد قطب: والظاهر من النص أن ذا القرنين غرب حتى وصل إلى نقطة على شاطىء المحيط الأطلسي - وقد كان يسمى بحر الظلمات ويظن أن اليابسة تنتهي عنده - فرأى الشمس تغرب فيه. والأرجح أنه كان عند مصب أحد الأنهار، حيث تكثر الأعشاب ويتجمع حولها طين لزج هو الحمأ. وتوجد البرك وكأنها عيون الماء.. فرأى الشمس تغرب هناك و ﴿ وجدها تغرب في عين حمئة ﴾. ولكن تعذر علينا تحديد المكان، لأن النص لا يحدده، وليس لنا مصدر آخر موثوق به نعتمد عليه في تحديده.

---

(١) روى ابن جرير عن عبد الله بن عمرو قال: نظر رسول الله ﷺ إلى الشمس حين غابت فقال: «في نار الله الحامية، في نار الله الحامية، لولا ما يزعها (يمنعها) من أمر الله لأحرقت ما على الأرض» قال ابن كثير: ورواه الإمام أحمد عن يزيد بن هارون البداية والنهاية جـ ٢ ص ٢٠٧. وفي صحة رفع هذا الحديث نظر، ولعله من كلام عبدالله بن عمرو من زاملتيه اللتين وجدهما يوم اليرموك، والله أعلم/ تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٨٨ وعن أبي ذر: كنت رديف رسول الله ﷺ على جمل فرأى الشمس حين غابت فقال: أتدري يا أبا ذر أين تغرب هذه؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنها تغرب في عين حامية / تفسير النسفي جـ ٣ ص ١٤٤.

(٢) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٢.

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٨٩.

وكل قول غير هذا ليس مأموناً لأنه لا يستند إلى مصدر صحيح[1].

أقول: وقد مرت بك الآراء سابقاً في ذلك، وحدد المكان بعض الجغرافيين والمؤرخين[2].

﴿ وجـد عندهـا ﴾: أي عند تلك العين على الساحل المتصل بها[3].

﴿ قوماً ﴾: أي أمة من الأمم، ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم[4]. لباسهم على ما قيل جلود السباع. وطعامهم ما لفظه البحر[5].

وزعم ابن السائب أنه كان فيهم مؤمنون وكـافرون، والـذي عليه الجمهور أنهم كانوا كفاراً[6]. ويقول صاحب الفتوحات الإلّهيـة فـي رأي آخر:

من المعلوم أن الكفر إنما يتحقق بعد بعثة رسـول وعدم إيمانهم به، ولينظر أي رسول أرسل إلى هؤلاء حتى كفروا به؟ هذا والأظهر أنهم كانوا أهل فترة لم يرسل إليهم أحد، ولما جاءهم ذو القرنين دعاهم إلى ملة إبراهيم فمنهم من آمن ومنهم من كفر[7].

﴿ قلنا ﴾: اختلف العلماء هنا. فهل يعني هذا «القول» أنه كان وحياً أم إلهاماً أم عن طريق نبي؟ وقد حققنا هذا بالتفصيل في الفصل الأول تحت

---

(١) في ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢٢٩١.

(٢) ينظر إلى فصل (كورش الأخميني).

(٣) السراج المنير جـ ٢ ص ٣٢٩.

(٤) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٨٩.

(٥) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٣. وقد ورد قول أبي زيد السهيلي وابن جريج أنهم قوم من نسل ثمود كانوا يسكنون (جابرسا) انظر روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٣ ـ ٣٤. وهذا خطأ. فإن (جابرس) مدينة بأقصى الشرق والتي في أقصى المغرب هي (جابلق) أو (جابرص). ولما بايع الحسن معاوية ـ رضي الله عنهما ـ صلحاً بين المسلمين خطب (.. أيها الناس إنكم لو نظرتم ما بين جابرس وجابلق) معجم البلدان جـ ٢ ص ٩٠ ـ ٩١.

(٦) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٤.

(٧) الفتوحات الإلّهية جـ ٣ ص ٤٧.

عنوان (نبي أم ملك) وقد وصلنا إلى أنه ملك صالح بدلائل قوية وحجج ناصعة.

﴿ يا ذا القرنين إما أن تعذب ﴾: بالقتل من أول الأمر[1].

﴿ وإما أن تتخذ فيهم حسناً ﴾: أي أمراً ذا حسن على حذف المضاف.. وذلك بالدعوة إلى الحق والإرشاد إلى ما فيه الفوز بالدرجات.. وقدم التعذيب لأنه الذي يستحقونه في الحال لكفرهم، وفي التعبير بـ ﴿ إما أن تتخذ فيهم حسناً ﴾ دون إما أن تدعوهم مثلاً، إيماء إلى ترجيح الشق الثاني[2].

وقال الإمام الطبري:

المراد في اتخاذ الحسن: الأسر. فيكون قد خيّر بين القتل والأسر. والمعنى: إما أن تعذب بالقتل، وإما أن تحسن إليهم بإبقاء الروح والأسر[3]. واتخاذ الحسن الأسر، لأنه بالنظر إلى القتل إحسان[4].

وجوز حمل: ﴿ إما أن تعذب وإما أن تتخذ ﴾ على التوزيع دون التخيير، والمعنى على ما قيل: ليكن شأنك معهم إما التعذيب وإما الإحسان. فالأول لمن بقي على حاله، والثاني لمن تاب. فتأمل[5].

وقال إبراهيم بن السري: خيره بين هذين كما خير محمداً ﷺ فقال: ﴿ فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ﴾[6]. أو نحوه[7].

﴿ قال ﴾: ذو القرنين لذلك النبي أو لمن عنده من خواصه بعد أن

---

(١) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٤.
(٢) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٤.
(٣) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٥.
(٤) تفسير النسفي جـ ٣ ص١٤٥.
(٥) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٥.
(٦) سورة المائدة، آية: ٤٢.
(٧) تفسير القرطبي جـ ١١ ص ٥٢.

تلقى أمره تعالى مختاراً للشق الأخير من شقي التخيير حسبما أرشد إليه[1].

﴿ أما من ظلم ﴾: نفسه ولم يقبل دعوتي وأصرَّ على ما كان عليه من الظلم العظيم[2]، واستمر على كفره وشركه بربه[3]. وذكر الإمام الرازي أن المراد بالظلم هو الإقامة على الكفر، لأنه ذكر في مقابلته ﴿ وأما من آمن وعمل صالحاً ﴾[4].

﴿ فسوف نعذبه ﴾: قال قتادة: بالقتل[5]. وأتى بنون العظمة على عادة الملوك، وإسناد التعذيب إليه لأنه السبب الآمر ودعوى صدور ذلك منه بالذات في غاية البعد[6].

﴿ ثم يرد إلى ربه ﴾: في الآخرة. وفي قوله: ﴿ إلى ربه ﴾ دون إليك دلالة على أن الخطاب السابق لم يكن بطريق الوحي إليه، وإن مقاولته كانت مع النبي أو مع خواصه[7].

﴿ فيعذبه ﴾: فيها.

﴿ عذاباً نكراً ﴾: أي منكراً فظيعاً، وهو العذاب في نار جهنم[8]. وفيه إثبات المعاد والجزاء[9].

﴿ وأما من آمن ﴾: أي تابعنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له[10].

---

(١) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٤.
(٢) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٤.
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٨٩.
(٤) التفسير الكبير جـ ٢١ ص ١٦٥.
(٥) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٨٩.
(٦) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٤.
(٧) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٤.
(٨) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٤.
(٩) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٩٠.
(١٠) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٩٠.

﴿ وعمل ﴾: عملاً.

﴿ صالحاً ﴾: حسبما يقتضيه الإيمان.

﴿ فله ﴾: في الدارين.

﴿ جزاء الحسنى ﴾: أي فله المثوبة الحسنى أو الفعلة الحسنى أو الجنة جزاء(1).

﴿ وسنقول له من أمرنا يسراً ﴾: قال الإمام النسفي: بالسهل المتيسر من الزكاة والخراج وغير ذلك(2). قال أبو حيان في تفسيره الكبير:

وما أحسن مجيء هذه الجمل لما ذكر ما يستحقه من ظلم بما يلحقه آخراً يوم القيامة، وهو تعذيب الله إياه العذاب النكر، ولأن الترتيب الواقع هو كذا.

ولما ذكر ما يستحقه من آمن وعمل صالحاً، ذكر جزاء الله له في الآخرة وهو الحسنى أي الجنة، لأن طمع المؤمن في الآخرة ورجاءه هو الذي حمله على أن آمن لأجل جزائه في الآخرة، وهو عظيم بالنسبة للإحسان في الدنيا.

ثم أتبع ذلك بإحسانه له في الدنيا بقوله: ﴿ وسنقول له من أمرنا يسراً ﴾، أي لا نقول له ما يتكلفه مما هو شاق عليه، أي قولاً ذا يسر وسهولة، كما قال قولاً ميسوراً. ولما ذكر ما أعد الله له من الحسنى جزاء، لم يناسب أن يذكر جزاءه بالفعل، بل اقتصر على القول أدباً مع الله تعالى، وإن كان يعلم أنه يحسن إليه فعلاً وقولاً(3).

يقول الأستاذ سيد قطب ـ عليه رحمة الله ـ في حكم هذه الآية:

وهذا هو دستور الحكم الصالح.. فالمؤمن الصالح ينبغي أن يجد

(1) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٤ ـ ٣٥.
(2) تفسير النسفي جـ ٣ ص ١٤٥.
(3) البحر المحيط جـ ٦ ص ١٦٠.

الكرامة والتيسير والجزاء الحسن عند الحاكم. والمعتدي الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء.. وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاء حسناً أو مكاناً كريماً وعوناً وتيسيراً، ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة.. عندئذ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج. أما حين يضطرب ميزان الحكم، فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم، مقدمون في الدولة، وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون، فعندئذ تتحول السلطة في يد الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد. ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد[1].

﴿ ثم أتبع سبباً ﴾: أي طريقاً راجعاً من مغرب الشمس موصلاً إلى مشرقها[2]. وكان كلما مرَّ بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله عزّ وجلّ، فإن أطاعوه، وإلا أذلهم وأرغم آنافهم، واستباح أموالهم وأمتعتهم واستخدم من كل أمة ما يستعين به مع جيوشه على أهل الإقليم المتاخم لهم[3].

﴿ حتى إذا بلغ مطلع الشمس ﴾: يقول الأستاذ سيد قطب: وما قيل عن مغرب الشمس يقال عن مطلعها. فالمقصود هو مطلعها من الأفق الشرقي في عين الرائي.

والقرآن لم يحدد المكان ولكنه وصف طبيعته وحال القوم الذي وجدهم ذو القرنين هناك[4]. وراجع إن أردت رأي المؤرخين والجغرافيين ما سجلناه في بحث كورش الأخميني.

﴿ وجدها ﴾: أي الشمس.

﴿ تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً ﴾: من اللباس والبناء، يعني ليس لهم لباس يتسترون به من حر الشمس، ولا بناء يستظلون فيه[5].

---

(١) في ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢٢٩١.
(٢) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٥.
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٩٠.
(٤) في ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢٢٩٢.
(٥) روح البيان جـ ٢ ص ٥١٥.

قال ابن عطية: والظاهر من اللفظ أنها عبارة بليغة عن قرب الشمس منهم، وفعلها بقدرة الله فيهم ونيلها منهم، ولو كانت لهم أسراب لكان ستراً كثيفاً(١).
وقال الإمام الآلوسي: ظاهر الآية ـ لوقوع النكرة فيها في سياق النفي ـ يقتضي أنهم ليس لهم ما يسترهم أصلاً، وذلك ينافي أن يكون لهم سرب ونحوه. وأجيب بأن ألفاظ العموم لا تتناول الصورة النادرة. فالمراد نفي الساتر المتعارف. والسرب ونحوه ليس منه(٢).

ويقول الإمام القرطبي: لم يرد أنها تطلع عليهم بأن تماسهم وتلاصقهم، بل أراد أنهم أول من تطلع عليهم(٣). وأكد ذلك مرة أخرى بقوله: والمعنى أنه انتهى إلى موضع قوم لم يكن بينهم وبين مطلع الشمس أحد من الناس. والشمس تطلع وراء ذلك بمسافة بعيدة(٤).

﴿ كذلك ﴾: خبر مبتدأ محذوف، أي أمر ذي القرنين ذلك، والمشار إليه ما وصف به قبل، من بلوغ المغرب والمشرق وما فعله. وفائدة ذلك تعظيمه وتعظيم أمره، أو أمره فيهم كأمره في أهل المغرب من التخيير والاختيار(٥)..

﴿ وقد أحطنا بما لديه ﴾: من الجنود والآلات وأسباب الملك(٦).

---

(١) البحر المحيط جـ ٦ ص ١٦١. وفي حديث ـ لا أدري مدى صحته ـ أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن جريج قال: حدثت عن الحسن عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ في الآية: ﴿ لم نجعل لهم من دونها ستراً ﴾ بناء. لم يبن فيها بناء قط. كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسراباً لهم حتى تزول الشمس. وأخرج جماعة عن الحسن وذكر أنه حديث سمرة أن أرضهم لا تحمل البناء فإذا طلعت الشمس تغوروا في المياه، فإذا غابت خرجوا يتراعون كما البهائم، وقيل لا شيء لهم يسترهم من اللباس والبناء. روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٦. وعلل العلامة الصاوي السبب في عدم تحمل أرضهم الأبنية بقوله: لأن أرضهم رخوة لا تحمل بناء لعدم الجبال فيها فتميدُ بأهلها ولا تستقر. الصاوي على الجلالين جـ ٣ ص ٢٦.
(٢) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٦.
(٣) تفسير القرطبي جـ ١١ ص ٥٠.
(٤) تفسير القرطبي جـ ١١ ص ٥٣.
(٥) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٦.
(٦) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٦.

﴿ خبراً ﴾: علماً تعلق بظواهره وخفاياه، ويفيد هذا على الأول زيادة تعظيم الأمر وأنه وراء ما وصف بكثير، مما لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير. وهو على الأخير تأويل لما قاسى في السير إلى أن بلغ، فيكون المعنى: وقد أحطنا بما لاقاه وحصل له في أثناء سيره خبراً. أو تعظيم للسبب الموصل إليه في قوله تعالى: ﴿ فأتبع سبباً حتى إذا بلغ ﴾ أي أحطنا بما لديه من الأسباب الموصلة إلى هذا الموضع الشاسع مما لم نؤت غيره[1]..

﴿ ثم أتبع سبباً (٩٢) حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً (٩٣) قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً (٩٤) قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً (٩٥) آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه قطراً (٩٦) فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً (٩٧) قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً (٩٨) ﴾.

﴿ ثم أتبع سبباً ﴾: طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب، آخذاً من مطلع الشمس إلى الشمال[2].

﴿ حتى إذا بلغ بين السدين ﴾: أي الجبلين. قال في القاموس: السد: الجبل والحاجز، وإطلاق السد عليه لأنه سدَّ فجاً من الأرض[3]. والسَّد بالفتح ما كان من عمل الخلق، وبالضم ما كان من خلق الله، لأن فُعَّل بمعنى مفعول، أي هو مما فعله الله وخلقه[4]. وانظر موقعهما في القسم الثاني من الفصل التالي.

---

(١) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٦.

(٢) انظر التفسير الفريد للقرآن المجيد لمحمد عبد المنعم الجمال جـ ٣ ص ١٨١٦ وروح المعاني جـ ١٦ ص ٣٧.

(٣) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٧.

(٤) الكشاف للزمخشري جـ ١ ص ٥٧٩ وروح البيان جـ ٢ ص ٥١٧.

﴿وجد من دونهما﴾: أي السدين. قال ابن كثير: هما جبلان متناوحان (متقابلان) بينهما ثُغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيهم فساداً ويهلكون الحرث والنسل[1].

﴿ قوماً ﴾ أمة من الناس[2].

﴿ لا يكادون يفقهون قولاً ﴾: من أقوال أتباع ذي القرنين، أو من أقوال من عداهم لغرابة لغتهم وبعدها عن لغات غيرهم وعدم مناسبتها لها، مع قلة فطنتهم، إذ لو تقاربت فهموها، ولو كثرت فطنتهم فهموا ما يراد من القول بالقرائن فتعلموه[3].

﴿ قالوا ﴾: أي بواسطة مترجمهم. فإسناد القول إليهم مجاز. ولعل هذا المترجم كان من قوم بقرب بلادهم.. أو (يكون منهم) بالذات على أن يكون فهم ذي القرنين كلامهم وإفهامه إياهم من جملة ما آتاه الله تعالى من الأسباب[4]. والذين قالوا له أمة من الإنس صالحة[5].

﴿ يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج ﴾: اسمان أعجميان، منع صرفهما العلمية والعجمة[6]. وقرأهما الجمهور بغير همز، وهما قبيلتان من ولد يافث ابن نوح عليه السلام. وبه جزم وهب بن منبه وغيره، واعتمده كثير من المتأخرين[7].

﴿ مفسدون في الأرض ﴾: أي في أرضنا بالقتل والتخريب وسائر وجوه الإفساد المعلوم من البشر، وقيل بأخذ الأقوات وأكلها. روي أنهم كانوا

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٩١.

(٢) زعم بعضهم أن القوم كانوا من الجان، وهو زعم باطل لا بعيد كما قال أبو حيان/ روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٨.

(٣) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٨.

(٤) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٨.

(٥) تفسير القرطبي جـ ١١ ص ٥٥.

(٦) انظر بالتفصيل «يأجوج ومأجوج في اللغة» في الفصل التالي.

(٧) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٨.

يخرجون أيام الربيع فلا يتركون شيئاً أخضر إلا أكلوه ولا يابساً إلا احتملوه[1].

﴿ فهل نجعل لك خرجاً ﴾: هذا الاستفهام من باب حسن الأدب مع ذي القرنين[2].

وقال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس (في معنى خرجاً): أجراً عظيماً. يعني أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالاً يعطونه إياه حتى يجعل بينهم وبينهم سداً[3].

قال الإمام القرطبي: والخرج أخص من الخراج. يقال: أدِّ خرج رأسك، وخراج مدينتك[4].

﴿ على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ﴾: حاجزاً يمنعهم من الوصول إلينا[5].

قال الإمام القرطبي:

في هذه الآية دليل على اتخاذ السجون، وحبس أهل الفساد فيها، ومنعهم من التصرف لما يريدونه، ولا يتركون وما هم عليه، بل يوجعون ضرباً، ويحبسون أو يكفلون ويطلقون كما فعل عمر ـ رضي الله عنه[6] ـ.

ولم يكن ليأجوج ومأجوج طريق يخرجون منها إلى أرض العمارة إلا هذه الفتحة ومسكنهم وراء هذين الجبلين. وأرضهم متسعة جداً[7].. فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير:

﴿ قال ما مكني فيه ربي خير ﴾: أي: إن الذي أعطاني الله من الملك

(١) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٩.
(٢) فتح القدير جـ ٣ ص ٣١٢.
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٩٢.
(٤) تفسير القرطبي جـ ١١ ص ٥٩.
(٥) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٩.
(٦) تفسير القرطبي جـ ١١ ص ٥٩.
(٧) الفتوحات الإلٓهية جـ ٣ ص ٤٩.

والتمكين خير لي من الذي تجمعونه. كما قال سليمان عليه السلام: ﴿ أتمدونني بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم. بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴾[1]. وهكذا قال ذو القرنين: الذي أنا فيه خير من الذي تبذلونه[2].

﴿ فأعينوني بقوة ﴾: أي بما يتقوى به على المقصود من الآلات كزبر الحديد، أو من الناس، أو الأعم منهما. والفاء لتفريع الأمر بالإعانة على خيرية ما مكنه الله تعالى فيه من مالهم أو على عدم قبول خرجهم[3].

﴿ أجعل ﴾: جواب الأمر.

﴿ بينكم وبينهم ردماً ﴾: أي حاجزاً حصيناً وحجاباً متيناً، وهو أكبر من السد وأوثق.. وعليه يكون قد وعدهم بالإسعاف بمرامهم فوق ما يرجونه، وهو اللائق بشأن الملوك[4].

يقول أبو بكر بن العربي في هذا الصدد:

وعلى الملك فرض أن يقوم بحماية الخلق في حفظ بيضتهم، وسدِّ فرجتهم، وإصلاح ثغرهم من أموالهم التي تفيء عليهم، وحقوقهم التي يجمعها خزنتهم تحت يده ونظره. حتى لو أكلتها الحقوق، وأنفدتها المؤن، واستوفتها العوارض، لكان عليهم جبر ذلك من أموالهم، وعليه حسن النظر لهم، وذلك بثلاثة شروط:

الأول: ألا يستأثر بشيء عليهم.

الثاني: أن يبدأ بأهل الحاجة منهم فيعينهم.

الثالث: أن يسوِّي في العطاء بينهم على مقدار منازلهم.

فإذا فنيت بعد هذا ذخائر الخزانة، وبقيت صفراً، فأطْلعت الحوادثُ أمراً، بذلوا أنفسهم قبل أموالهم، فإذا لم يُغنِ ذلك، فأموالهم تؤخذ منهم على تقدير وتصرف بأحسن تدبير.

---

(1) سورة النمل، آية: ٣٦.

(2) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٩٢.

(3) روح المعاني جـ١٦ ص ٤٠.

(4) روح المعاني جـ١٦ ص ٤٠.

فهذا ذو القرنين، لما عرضوا عليه المال قال: لست أحتاج إليه، وإنما أحتاج إليكم فأعينوني بقوة، أي اخدموا بأنفسكم معي، فإن الأموال عندي والرجال عندكم، ورأى أن الأموال لا تُغني دونهم، وأنهم آخذوها أجرةً نقص ذلك مما يحتاج إليه، فعاد عليهم بالأخذ، فكان التطوع بخدمة الأبدان أولى. وقد بينا ذلك في كتاب (الفيء والخراج والأموال). . وضبط الأمر فيه أنه لا يحلُّ أخذ مالِ أحدٍ إلا لضرورة تعرض، فيؤخذ ذلك المال جهراً لا سراً. وينفق بالعدل لا بالاستئثار، وبرأي الجماعة لا بالاستبداد بالرأي[1].

﴿ آتوني ﴾: أي أعطوني وناولوني. . قال الفراء: معنى ﴿ آتوني زبر الحديد ﴾ ائتوني بها. فلما ألقيت الياء زيدت ألفاً، وعلى هذا فانتصاب (زبر) بنزع الخافض[2].

﴿ زبر الحديد ﴾: زبر الحديد جمع زبرة، وهي القطعة. قال الخليل: الزبرة من الحديد القطعة الضخمة[3]. وأصل الزبر الاجتماع، ومنه زبرت الكتاب: جمعت حروفه. وزبرة الأسد لما اجتمع على كاهله من الشعر. وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن (زبر الحديد) فقال: قطعه. وأنشد قول كعب بن مالك:

تلظى عليهم حين شد حميها بزبر الحديد والحجارة شاجر

وطلب إيتاء الزبر لا ينافي أنه لم يقبل منهم شيئاً لأن المراد من الإيتاء المأمور به الإيتاء بالثمن أو مجرد المناولة والإيصال وإن كان ما آتوه له لا إعطاء ما هو لهم. فهو معونة مطلوبة، وعلى تسليم كون الإيتاء بمعنى الإعطاء لا المناولة. يقال: إن إعطاء الآلة للعمل لا يلزمه تملكها، ولو تملكها لا يعد ذلك جعلاً، فإنه إعطاء المال لا إعطاء مثل هذا[4].

---

(١) انظر ص ١٢٣٦ الجزء الثالث من كتاب أحكام القرآن لأبي بكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي (٤٦٨ هـ - ٥٤٣ هـ) تحقيق علي محمد البجاوي الطبعة الثانية (١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م).

(٢) فتح القدير جـ٣ ص ٣١٢ باختصار.

(٣) فتح القدير جـ٣ ص ٣١٢.

(٤) روح المعاني جـ١٦ ص ٤٠.

﴿ حتى إذا ساوى بين الصدفين ﴾: في الكلام حذف. أي فآتوه إياها فأخذ يبني شيئاً فشيئاً، حتى إذا جعل ما بين جانبي الجبلين من البنيان مساوياً لهما في العلو[1]. والصدفان: جانبا الجبل. قال الأزهري: يقال لجانبي الجبل صدفان إذا تحاذيا لتصادفهما أي: تلاقيهما. وكذا قال أبو عبيدة والهروي قال الشاعر:

كلا الصدفين ينفده سناها ... توقد مثل مصباح الظلام

وقد يقال لكل بناء عظيم مرتفع صدف[2].

﴿ قال ﴾: للعَمَلَة.

﴿ انفخوا ﴾: أي انفخوا بالكيران في زبر الحديد الموضوعة بين الصدفين. ففعلوا[3].

﴿ حتى إذا جعله ﴾: أي جعل المنفوخ فيه.

﴿ ناراً ﴾: أي كالنار في حرها. وإسناد الجعل إلى ذي القرنين مجاز لكونه الآمر بالنفخ. قيل: كان يأمر بوضع طاقة من الزبر والحجارة ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى تحمى. والحديد إذا أوقد عليه صار كالنار[4].

﴿ قال ﴾: للذين يتولون أمر النحاس من الإذابة وغيرها، وقيل: لأولئك النافخين. قال لهم بعد أن نفخوا في ذلك حتى صار كالنار وتمَّ ما أراده منهم أولاً[5].

﴿ آتوني ﴾: من الذين يتولون أمر النحاس[6].

---

(١) روح المعاني جـ ١٦ ص ٤٠.
(٢) فتح القدير جـ ٣ ص ٣١٢ - ٣١٣.
(٣) روح المعاني جـ ١٦ ص ٤١.
(٤) فتح القدير جـ ٣ ص ٣١٣.
(٥) روح المعاني جـ ١٦ ص ٤١.
(٦) روح المعاني جـ ١٦ ص ٤١.

﴿ أفرغ عليه قطراً ﴾: أي آتوني قطراً أفرغ عليه قطراً. فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه[1]. والقطر: النحاس المذاب. وهو قول الأكثرين. وقيل: الرصاص المذاب. وقيل: الحديد المذاب وليس بذاك[2]. وقد نقل ابن أبي حاتم بإسناد صحيح إلى عكرمة عن ابن عباس أنه النحاس[3]. وقد استخدمت هذه الطريقة حديثاً في تقوية الحديد؛ فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته. وكان هذا الذي هدى الله إليه ذا القرنين، وسجله في كتابه الخالد سبقاً للعلم البشري الحديث بقرون لا يعلم عددها إلا الله[4].

﴿ فما اسطاعوا ﴾: بحذف تاء الافتعال تخفيفاً وحذراً عن تلاقي المتقاربين في المخرج وهما الطاء والتاء[5]. والفاء فصيحة، أي: ففعلوا ما أمروا به من إيتاء القطر أو الإتيان، فأفرغ عليه فاختلط والتصق بعضه ببعض فصار جبلاً صلداً، فجاء يأجوج ومأجوج وقصدوا أن يعلوه وينقبوه فما اسطاعوا[6].

﴿ أن يظهروه ﴾: أن يعلوه. أي: فما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوا على ذلك الردم لارتفاعه وملاسته[7].

﴿ وما استطاعوا له نقباً ﴾: لصلابته وثخانته. قيل: وكان عرضه خمسين ذراعاً. وكان أساسه قد بلغ الماء، وقد جعل فيه الصخر والنحاس المذاب. وكانت زبر الحديد للبناء فوق الأرض. ولا يخفى أن إفراغ القطر عليها بعد أن أثرت فيها حرارة النار حتى صارت كالنار مع ما ذكروا من أن امتداد السد في الأرض مائة فرسخ، لا يتم إلا بأمر إلٓهي خارج عن العادة،

---

(١) روح المعاني جـ ١٦ ص ٤١.
(٢) روح المعاني جـ ١٦ ص ٤١.
(٣) فتح الباري جـ ٦ ص ٢٧٤.
(٤) في ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢٢٩٣.
(٥) روح المعاني جـ ١٦ ص ٤١.
(٦) روح المعاني جـ ١٦ ص ٤١.
(٧) فتح القدير للإمام الشوكاني جـ ٣ ص ٣١٣.

كصرف تأثير حرارة النار العظيمة عن أبدان المباشرين للأعمال. وإلا فمثل تلك الحرارة عادة مما لا يقدر حيوان على أن يحوم حولها. ومثل ذلك النفخ في هاتيك الزبر العظيمة الكثيرة حتى تكون ناراً. ويجوز أن يكون كل من الأمرين بواسطة آلات غريبة، أو أعمال أوتيها هو أو أحد ممن معه لا يكاد أحد يعرفها اليوم. وللحكماء المتقدمين، بل والمتأخرين، أعمال عجيبة يتوصلون إليها بآلات غريبة تكاد تخرج عن طور العقل، وهذا مما لا شبهة فيه. فليكن ما وقع لذي القرنين من ذلك القبيل. وقيل: كان بناؤه من الصخور مرتبطاً بعضها ببعض بكلاليب من حديد ونحاس مذاب في تجاويفها بحيث لم يبق هناك فجوة أصلاً[١].

﴿ قال ﴾: أي ذو القرنين لمن عنده من أهل تلك الديار وغيرهم[٢].

---

(١) روح المعاني جـ ١٦ ص ٤١ ـ ٤٢.

ويجدر بنا هنا أن ننبه إلى صنيع الدكتور هاشم أمير علي لترجمة القرآن الكريم.. بل قل تحريفه وتبديله لمعانيه.. ذلك الرجل الذي عاد من الولايات المتحدة الأمريكية بدرجة الدكتوراه في الإسلاميات، فشغل منصب عميد كلية الدراسات العليا في جامعة الملة الإسلامية بنيو دلهي. وظهرت ترجمته في سنة ١٩٦١، مطبوعة في وقت واحد في فروع دور النشر الأسيوية بالعواصم الكبرى لأمريكا وأوروبا وآسيا بنيويورك ولندن ونيو دلهي وكلكتا.. ووزعت على أوسع نطاق، وقدمت نسخ منها هدايا إلى أعضاء مؤتمر المستشرقين الدولي الذي انعقد في نيو دلهي يناير ١٩٦٥.. مع العلم أن الدكتور لا يعلم من العربية كلمة!! بل كان يضع بين يديه التراجم الإنجليزية للقرآن، ووضع معها أسفار العهد القديم والجديد مرجعاً ومصدراً..

وهو في هذه السورة يذكر أن قصة ذي القرنين.. ويأجوج ومأجوج.. رمزية محضة.. وكذلك السد والحديد.. إلخ. وليس هنا من تعليق.. فما أكثر أعداء الإسلام، وما أكثر ما يتربصون به، ولكن الله لهم بالمرصاد.. وهو الذي يحفظ كتابه.. وسيبلغ الإسلام ما بلغ الليل والنهار..

إن صنيعه هذا لم يكن إلا إشارة من أساتذته المستشرقين، من صليبيين ويهود.. فلا غرو أن يقلدوه وساماً من أوسمتهم الكبيرة، وأن يحتفظوا به تلميذاً مخلصاً للتشوية والكذب والتدجيل على الدين.. والتاريخ.. والحقيقة.

وللتوسع في أكاذيبه وأحابيله في هذا الموضوع وغيره، يراجع كتاب الإسرائيليات في الغزو الفكري للدكتورة عائشة عبد الرحمن من ص ١٥٦ طبعة عام ١٩٧٥ م.

(٢) روح المعاني جـ ١٦ ص ٤٢.

﴿ هذا ﴾: إشارة إلى السد، وقيل إلى تمكنه من بنائه[1].

﴿ رحمة من ربي ﴾: أي أثر من آثار رحمته لهؤلاء المتجاوزين للسد ولمن خلفهم ممن يخشى عليه معرتهم لو لم يكن ذلك السد[2]. حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العبث في الأرض والفساد[3].

﴿ فإذا جاء وعد ربي ﴾: اختلف المفسرون في ذلك الوعد متى هو؟ فهل المقصود هو يوم القيامة، أم أنه الوقت الذي قدر فيه خروج يأجوج ومأجوج قبل يوم القيامة؟ وسيمر بك البحث في هذا إن شاء الله.

﴿ جعله ﴾: أي جعل السد المشار إليه رغم متانته ورصانته.

﴿دكاء ﴾: في الكلام حذف. أي وهو يستمر إلى آخر الزمان فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء[4]. أي ساواه بالأرض. تقول العرب: (ناقة دكاء) إذا كان ظهرها مستوياً لا سنام لها. قال تعالى: ﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً ﴾[5] أي مساوياً بالأرض[6]. ومن قرأ ﴿ دكاء ﴾ بالمد ـ وهو عاصم وحمزة والكسائي ـ أراد التشبيه بالناقة الدكاء، وهي التي لا سنام لها أي: مثل دكاء، لأن السد مذكر فلا يوصف بدكاء. وقرأ الباقون «دكاً» بالتنوين على أنه مصدر. ومعناه ما تقدم، ويجوز أن يكون مصدراً بمعنى الحال. أي مدكوكاً[7].

﴿ وكان وعد ربي ﴾: أي وعده سبحانه المعهود، أو كل ما وعد عزّ وجلّ به فيدخل فيه ذلك دخولاً أولياً[8].

---

(1) روح المعاني جـ ١٦ ص ٤٢.

(2) فتح القدير جـ ٣ ص ٣١٣.

(3) روح المعاني جـ ١٦ ص ٤٢.

(4) روح المعاني جـ ١٦ ص ٤٣.

(5) سورة الأعراف، آية: ١٤٣.

(6) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٩٥.

(7) فتح القدير جـ ٣ ص ٣١٣.

(8) روح المعاني جـ ١٦ ص ٤٣.

﴿ حقاً ﴾: ثابتاً لا محالة واقعاً البتة. وهذه الجملة تذييل من ذي القرنين لما ذكره من الجملة الشرطية وتأكيد مضمونها، وهو آخر ما حكي من قصته[1]

* * *

ونظر ذو القرنين إلى العمل الضخم الذي قام به، فلم يأخذه البطر والغرور، ولم تسكره نشوة القوة والعلم. ولكنه ذكر الله فشكره. ورد إليه العمل الصالح الذي وفقه إليه، وتبرأ من قوته إلى قوة الله، وفوض إليه الأمر، وأعلن ما يؤمن به من أن الجبال والحواجز والسدود ستدك قبل يوم القيامة، فتعود الأرض سطحاً أجرد مستوياً[2].

* * *

وبذلك تنتهي هذه الحلقة من سيرة ذي القرنين. النموذج الطيب للحاكم الصالح، يمكنه الله في الأرض، وييسر له الأسباب، فيجتاح الأرض شرقاً وغرباً، ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر، ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنم المادي، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق، ولا يسخر أهلها في أغراضه وأطماعه.. إنما ينشر العدل في كل مكان يحل به، ويساعد المتخلفين، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل، ويستخدم القوة التي يسرها الله له في التعمير والإصلاح، ودفع العدوان، وإحقاق الحق. ثم يرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضل الله، ولا ينسى وهو في إبان سطوته قدرة الله وجبروته وأنه راجع إلى الله[3].

---

(١) روح المعاني جـ ١٦ ص ٤٣. وذكر الإمام الزمخشري في قوله تعالى: ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض... ﴾ الآية التالية للآيات السابقة أنه يجوز أن يكون الضمير ليأجوج ومأجوج وأنهم يموجون حين يخرجون مما وراء السد مزدحمين في البلاد/ الكشاف جـ ٢ ص ٥٨٠.

(٢) في ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢٢٩٣.

(٣) في ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢٢٩٣.

عبر وأحكام من قصة ذي القرنين[1]:

ليس في القرآن شيء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار. وإنما هي الآيات والعبر والأحكام والآداب تجلت في سياق الوقائع. ولذا يجب صرف العناية إلى وجوه تلك الفوائد والثمرات، وما يستنبط من تلك الآيات وقد أشار نبأ ذي القرنين إلى فوائد شتى نذكر منها:

١ - الاعتبار برفع الله بعض الناس درجات على بعض. ورزقه من يشاء بغير حساب ملكاً ومالاً. لما له من خفي الحكم وباهر القدرة. فلا إله سواه.

٢ - الإشارة إلى القيام بالأسباب، والجري وراء سنة الله في الكون من الجد والعمل، وأن على قدر بذل الجهد يكون الفوز والظفر، فإن ما قص عن (الإسكندر) من ضربه في الأرض إلى مغرب الشمس، ومطلعها وشمالها وعدم فتوره، ووجدانه اللذة في مواصلة الأسفار وتجشم الأخطار، وركوب الأوعار والبحار ثم إحرازه ذلك الفخار، الذي لا يشق له غبار، أكبر عبرة لأولي الأبصار.

٣ - ومنها تنشيط الهمم لرفع العوائق، وأنه ما تيسرت الأسباب، فلا ينبغي أن يعد ركوب البحر ولا اجتياز القفر، عذراً في الخمول والرضاء بالدون، بل ينبغي أن ينشط ويمثل في مرارته حلاوة عقباه من الراحة والهناء. كما قضى (الإسكندر)[2] عمره ولم يذق حلاوة الظفر ولذة الانتصار إذ لم يكن من الذين تقعدهم المصاعب عن نيل ما يبتغون.

٤ - وجوب المبادرة لمعالي الأمور. . .

٥ - إن من قدر على أعدائه وتمكن منهم، فلا ينبغي له أن تسكره لذة السلطة بسوقهم بعصا الإذلال، وتجريعهم غصص الاستعباد والنكال. بل يعامل المحسن بإحسانه والمسيء بقدر إساءته. .

---

(١) عن تفسير القاسمي، المسمى محاسن التأويل، تأليف علامة الشام محمد جمال الدين القاسمي جـ ١١ ص ٤١٠٤ - ٤١٠٦ باختصار.

(٢) مرَّ بنا أن الشيخ القاسمي يرى أن الإسكندر المقدوني هو ذو القرنين. وقد نبهنا أن ذا القرنين لا يسمى الإسكندر كما أن الإسكندر المقدوني لا يلقب بذي القرنين.

٦ ـ إن على الملك إذا اشتكي إليه جور مجاورين، أن يبذل وسعه في الراحة والأمن، دفاعاً عن الوطن العزيز، وصيانة للحريـة والتمدن، من مخالب التوحش والخراب، قياماً بفريضة دفع المعتدين وإمضاء العدل بين العالمين. كما لبّى (الإسكندر) دعوة الشاكين في بناء السد..

٧ ـ إن على الملك التعفف عن أموال رعيته، والزهد في أخذ أجرة، في مقابلة عمل يأتيه، ما أغناه الله عنه، ففي ذلك حفظ كرامته وزيادة الشغف بمحبته..

٨ ـ التحدث بنعمة الله تعالى إذا اقتضاه المقام..

٩ ـ تدعيم الأسوار والحصون في الثغور وتقويتها بذوب الرصـاص وبوضع صفائح النحاس، خلال الصخور الصم، صدقاً في العمل ونصحاً فيه. لينتفع به على تطاول الأجيال فإن البناء غير الرصين لا ثمرة فيه.

١٠ ـ مشاطرة الملك العمال في الأعمال ومشارفتهم بنفسه إذا اقتضى الحال، تنشيطاً لهمتهم وتجرئة لهم وترويحاً لقلوبهم. وقد كان (الإسكندر) يقاسم الرجال الأتعاب ويدير العمل بنفسه كما بينه الذكر الحكيم في قوله: ﴿ آتوني أفرغ عليه قطراً ﴾.

١١ ـ تعريف الغير ثمرة العمل المهم، ليعرفوا قدره فيظهروا شكره. ولذا قال: ﴿ هذا رحمة من ربي ﴾.

١٢ ـ الإعلام بالدور الأخروي، وانقضاء هذا الطور الأولي، لتبقى النفوس طامحة إلى ذلك العالم الباقي والنعيم السرمدي. ولذا قال: ﴿ فإذا جاء وعد ربي ﴾.

١٣ ـ الاعتبار بتخليد جميل الثناء، وجليل الآثار. فإن من أنعم النظر فيما قص عنه في هذه الآيات الكريمة، يتضح له جلياً حسن سجاياه وسمو مزاياه، من الشجاعة وعلو الهمة والعفة والعدل. ودأبه على توطيد الأمن وإثابته المحسنين وتأديبه للظالمين. والإحسان إلى النوع البشري، لا سيما

في زمان كان فيه أكثر عوائد وأخلاق الأمم المتمدنة وغير المتمدنة، وحشية فاسدة.

١٤ ـ الاهتمام بتوحيد الكلمة لمن يملك أمماً متباينة..

١٥ ـ الاعتبار بما يبلغه الإنسان، وما فيه من بليغ الاستعداد، يقضي على المرء أن يعيش أولاً طفلاً مرضعاً، لا يعلم ما حوله غير ما تحتاج إليه طبيعته الضعيفة، قياماً بما تقتضيه أسباب الحياة، وهو ملقى إذ ذاك لا إرادة له، وعرضة لأسقام تذيقه الآلام، وقد تجرعه كأس الحمام قبل أن يرى ويدرك شيئاً من هذا النظام. فإذا استظهرت فيه عوامل الحياة على دواعي الممات، وسرت بجسمه قوى الشبيبة، وصرف ما أنعم الله عليه، إلى ما خلق لأجله، ترعرع إنساناً عظيماً ظافراً بمنتهى أمله.

المبحث الثاني

كلمة في الحضارة

لقد أحببت شخصية ذي القرنين، وأحببت قصته.. لأنها أحسن قصص الملوك ـ كما يقول ابن تيمية رحمه الله[1] ـ.. وعشت معها أياماً طويلة، في الليل والنهار.. أبحث، وأقارن، وأحقق، وأدرس.. ولا أرتوي..

كنت أحب أن أحظى بتاريخ حياته من جميع جوانبها، وأن أكون واثقاً من تلك الأخبار، حتى أبوبها وأقسمها. وأنشرها. لأضعها أمام أعين الحكام في هذا العصر، ليعرفوا كيف يعدل الملوك، ويعرفوا قصة أعدل ملك في التاريخ.. لكنني لم أخرج منها إلا بأخبار صحيحة قليلة..

وبقي القرآن يحكي بآياته الخالدة، وفي أعجز أسلوب، أمر هذا الرجل الصالح العادل.. ليخلد بذلك ذكراه، وليكـون درسـاً لكل من أراد أن يحكم

(١) انظر مجموع فتاوى الإمام ابن تيمية جـ ١٧ ص ٢٢.

بحق، ويعلم الناس، ويهديهم إلى الطريق الصحيح، ويساعدهم إلى ما فيه خيرهم وفلاحهم..

أحببته لثلاث صفات بارزة فيه.. هي ركيزة كل حاكم يريد الحق والإصلاح: ١ ـ الإيمان. ٢ ـ العدل. ٣ ـ العمل.

وإنها لصفات لا بد منها، حتى يستقر الأمر بالبشر، ويأمنوا بحق على أنفسهم، وأموالهم، وأعراضهم، وأديانهم، وعقولهم.. وهي الكليات الخمس التي أمر الإسلام بحفظها..

الإيمان لا بد منه، حتى يستقي الحاكم أوامره من وحي الله، الذي لا شطط فيه ولا خلاف.. وحتى لا يدخل هواه في الحكم، فيظلم، ويتبطر، ويتحكم في رقاب الناس وأمنهم..

والعدل لا بد منه لأنه الفيصل في الحق، والأمان في الأرض، والثقة المتبادلة بين الحاكم والمحكوم..

والعمل والتعاون أيضاً.. حتى ينتشر العمران، وتعم الحضارة، ويعيش الناس في ثوب قشيب من السعادة والهناء..

ولعمري إن هذا ما ينادي به الإسلام.. فالحق واحد في كل زمان ومكان.. ولكن!!.

أين هي حضارة الإسلام اليوم؟.

وأين هم المسلمون ـ شهداء الله في الأرض ـ من بناء هذه الحضارة؟.

أليس عليهم أن يبنوا حضارة الإيمان، والعلم، والعدل، والإصلاح، والإنسانية، ليكونوا بذلك قادة الدنيا، ويخلصوا الناس من أسر المادة الطاغية، وكذلك الإلحاد والهمجية والإجرام؟ بلى. هذا ما يجب أن يكون.

ولكن الغرب ـ في هذا العصر ـ غزانا في عقر دارنا. وأصبحت حياتنا، في أغلب جوانبها، بلون دخيل وغير مألوف، تحت تأثير الفكر الغربي والفلسفة الإلحادية.. لأننا فقدنا شخصيتنا الإسلامية المميزة.. لم نعد قادة نملي على البشرية أفكارنا وأعمالنا، حتى ينظروا إلينا بعين الرضى والإعجاب.. ولأننا تركنا ما يقيم صلب حضارتنا، ويقوي من عزائمنا.. ويدفعنا إلى الأمام.. ألا وهو الإسلام.

فكيف نواجه الحضارة الغربية، وما واجب الدعوة الإسلامية في هذا الوقت؟.

أجاب عن هذا الدكتور جعفر شيخ إدريس في محاضرة له[1] ما ملخصه:

أولاً: الحكم بالإسلام. ومن أهم عناصر هذا الحكم: الاستقلال وعدم التبعية للدول الكبرى، وحرية سياسية تشعر المواطن بأنه عزيز في بلده بين أفراد مساوين له في الحقوق الإنسانية وإن علوه ببعض المناصب الدنيوية وتمكنه من أن يفكر بحرية ويشارك بفكره وجهده في إصلاح حال بلاده. يقول للمصيب أصبت وللمخطىء أخطأت.. مهما كان منصبه، ثم يذهب لينام قرير العين، لا يدهمه بالليل طارق يقتاده إلى الحبس.

يقول الدكتور: وإذا سئلت عن أكبر مظهر لتخلفنا الحضاري لأجبت إنه فقدان الحرية السياسية! ومن عناصر هذا الحكم أيضاً العدل الاجتماعي، تسخير وسائل الإعلام ومناهج التربية والتعليم ومؤسساتها للأمر بكل ما هو خير ومعروف، وللنهي عن كل ما هو شر ومنكر. ومنها إقامة الحدود..

ثانياً: تصيير العلوم إسلامية. وذلك بتنقيتها من شوائب التصورات

(١) ألقاها في قاعة المحاضرات بكلية الشريعة سنة ١٤٠٢ بعنوان (الإسلام ومقتضيات العصر). في الرياض.

المادية الإلحادية وسائر التصورات المخالفة للإسلام، وبإطراح كل النظريات التي لم يثبتها واقع، والتي تخالف حقائق قررها الإسلام، وباستبدال الإطار الفلسفي الإلحادي بإطار توحيدي، وباعتبار الوحي مصدراً من مصادر الحقيقة، وكذلك السعي نحو الأصالة في كل ما نعالج من مشكلات.

ثالثاً: دراسة الغرب. تاريخه، واقعه ومستقبله، تجاربه، من وجهة نظر إسلامية. إننا الآن نقول عن الغرب ما يقوله هو عن نفسه.. وقد آن لنا أن نعكس الأمر فيكون لنا مختصون بشؤون الغرب، يعالجون قضاياه على أساس إسلامي.

رابعاً: صياغة العلوم والدراسات الغربية على أساس إسلامي. وما نأخذ منها:

- المنهج العلمي (بعد تنقيته من الشوائب الإلحادية) من حقائق جزئية وعلوم تقنية.

- الاستفادة من تجربة الغرب في كل مجالات الحياة المعاصرة. على أن نكيف ما نأخذه مع إطارنا الإسلامي.

- الديانات والفلسفات والآداب والفنون والعادات والتقاليد، لا علاقة منطقية أو نفسية بينها وبين ما سبق. ومع هذا ينبغي أن تكون موضع دراسة المختصين.

- أشد أسلحة الغرب الفكرية خطراً علينا، وتدميراً لنا، بل خطراً على الغربيين أنفسهم وتدميراً لهم هو هذا التصور الإلحادي للوجود، الذي كاد أن يصبح سمة العصر. والذي لا يكاد يخلو منه جانب من جوانب الحياة المعاصرة، العلمية والفنية، أو العلاقات الإنسانية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وهو أكبر تحد يواجه الدعوة الإسلامية.

فإذا نجحنا في التصدي له بالنقد العقلي العلمي المستنير، واستطعنا

أن نقدم تصورنا الإيماني بديلاً لهذا الإطار الإلحادي، وأقمنا الحجج على أنه الإطار المناسب للمنهج العلمي ولحقائق العلم، نكون قد أسدينا خدمة كبيرة لا لأمتنا الإسلامية فحسب، ولكن للمجتمع الإنساني كله.

* * *

عزيـزي القارىء: إن التربية الحضارية في الإسلام[1]، تزيل روح الشر من النفوس، لأن الشر عامل هدم في كل الميادين، وأهـم هـذه الشرور الظلم والعدوان والتسلط على الناس، ومحاولة استعبادهم واستغلالهم لتحقيق مصالح شخصية. فالانحطاط الأخلاقي أضر شيء بالحياة الإنسانية.

ثم إن هذه التربية تكوِّن روح الخير لدى الأفـراد، وهذه الروح تدفعهم إلى السعي لإقامة مشروعات مختلفة، وابتكارات واختراعات جديدة لترقية الإنسانية، إضافة إلى ذلك تحدد للناس الهدف من التقدم. لأن التقدم في ظلام ومن غير هدف قد يضل وقد يقع في هاوية لا مخرج منها.

إن الحضارة الإسلامية متكاملة، وقابلة للبناء في أي وقت كان فيه التزام للمبادىء الإسلامية وأحكامها.. ففيها عناصر معنوية، من اعتقادية وروحية وأخلاقية وعلمية وإبداعية. وعناصر مادية، تشمل التقدم الزراعي والصناعي والعمراني والتجاري. وكذلك عناصر تنظيمية وتشريعية تنظم حياة الفرد والمجتمع والدولة، مرتبطاً بجميع جوانب الحضارة.. وليس هنا موضع الإسهاب فيها..

---

(١) كتب كثير من علمائنا المعاصرين عن الحضارة الإسلامية ومقارنتها بالمدنيات الحديثة، وصفات كل منها، وتقويمها. وللتفصيل يراجع (أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها) لعبد الرحمن حسن حبنكة. و (الحضارة الإسلامية) و (نحن والحضارة الغربية) و (الإسلام والمدنية الحديثة) لأبي الأعلى المودودي. وكتابات مالك بن نبي. وغـيرها. وقـد اعتمدت في هـذا المختصر ـ عن الحضارةالإسلامية ـ على نقاط لمحاضرة ألقاها الدكتور مقداد يالجن في قاعة المحاضرات بكلية الشريعة سنة ١٤٠٢ هـ. بعنوان (التربية الحضارية في الإسلام).

كما أن للتربية الحضارية في الإسلام خصائص فريدة ومتميزة.. فهي تبني حضارة ربانية مؤمنة.. تختلف عن الحضارات الشرقية والغربية في منشئها وغايتها، وفي نظامها وروحها. ولهذا فإن تقدمها لا يكون عدواناً ولا استعباداً ولا استعماراً ولا قومية أو عنصرية تعمل لرفع عنصر أو جنس، وإنما تتقدم لصالح البشرية ولنشر الهداية لتعميمها على العباد جميعاً وللتسامي على الغرائز الحيوانية والشهوات الجامحة.

ثم إنها تبني حضارة أخلاقية خيّرة، فهي لا تسعى أول ما تسعى لرفعة المباني وتجميل المدن والطبيعة والإكثار من الأسلحة المبيدة للبشرية وتهديد الناس وتخويفهم بها؛ وإنما تسعى أولاً وقبل كل شيء لبناء الرجال بناء أخلاقياً، وتحسين أفكارهم ونياتهم وغايتهم. فما الفائدة من المدنية إذا كان الناس متوحشين، يفترس بعضهم بعضاً، ويقتل بعضهم بعضاً من أجل أغراض دنيئة، كجاه أو استعمار أو استعباد؟!.

وهي تبني حضارة متكاملة متوازنة متناسقة، من الحاجات الجسمية والعقلية والروحية، فالحضارة المضطربة ناشئة أساساً من عدم وجود التنسيق بين مكونات الحضارة ومكونات الطبيعة البشرية.

وهي تبني حضارة متفوقة ومسعدة للبشرية. ذلك أنها تتقدم لا للتفاخر أو العدوان أو إثارة الشهوات. وإنما تتقدم في العلوم المهمة والأساسية. ولإزالة روح الشر من الإنسان.

وهي تبني أيضاً حضارة إنسانية عالمية، وذلك بتكوين شخصية إنسانية قوية، بها يستطيع الأفراد السيطرة على نوازعهم وغرائزهم، وبها يستطيعون حمل مسؤوليات الحضارة وأعبائها، ودفعها نحو غايتها السامية، ويستخدمون إمكانياتهم المادية والمعنوية في سبيل الخير. وهي أيضاً تهتم بالتقدم في الكشف عن أسرار الطبيعة البشرية، ومكونات النفس الإنسانية أكثر مما تهتم للتقدم في الكشف عن أسرار الطبيعة. إذ إن الشرور التي

تعاني منها البشرية هي من أيدي البشر. ولا يستطيع الإنسان أن يقود نفسه قيادة رشيدة بدون معرفة نفسه ومعرفة قيادتها.

وإن إقامة مثل هذه الحضارة تحتاج إلى جهود جبارة وكفاح طويل، وتبصير الأجيال الناشئة بذلك، وتربيتهم، وتدريبهم عليها، والتركيز على أن هدف الحضارة الإسلامية هدف إنساني نبيل وغايتها غاية دينية عليا.

عزيزي القارىء: تلك هي لمحات خاطفة من واجب المسلمين اليوم، تجاه دينهم وتجاه أنفسهم والبشرية كلها. وقد نقلت لك رؤوس أقلام تذكرك بتربيتنا الحضارية، لتكون هدفاً لنا، وكذلك سبيل مواجهتنا للغزو المادي الغربي، الذي يريد طمس معالمنا الإسلامية. والقضاء على ما بقي في نفوسنا من دين وخلق.

فما أحوجنا إلى العمل بدأب ونشاط، لنستعيد ما فقدنا من علم وقوة.

وما أحوجنا للاستجابة إلى ما يذكرنا به ربنا في كتابه العظيم، من أمثال قصة ذي القرنين، التي بينت منهج الحاكم الصالح، الذي يأخذ بيد الناس إلى معالم الخير والهدى والصلاح.. ويبني لهم حضارة الإيمان والعلم..

قال سبحانه وتعالى: ﴿ **فاقصص القصص لعلهم يتفكرون** ﴾[1].

وقال عز من قائل: ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾[2].

وتلك[3] هي سيرة ذي القرنين.. الإنسان القوي العليم، الذي يسخر القوى الكونية والمادية، ويملك أعظم مقدار من الأسباب والوسائل، ويوسع

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٧٦.

(٢) سورة يوسف، آية: ١١١.

(٣) انظر هذه الفقرة ـ بتصرف قليل ـ في كتاب الصراع بين المادية والإيمان لأبي الحسن الندوي ص ١٠٩ ـ ١١٠.

فتوحه ومغامراته، وهو في كل ذلك، وفي أوج قوته وسلطته مؤمن بالآخرة، ساع لها، مقر بضعفه، رحيم بالإنسانية وبالأمم الضعيفة، وكان في كل فتوحاته، ومغامراته صالحاً ومصلحاً، منتصراً للحق، ناصراً للضعفاء، قاهراً للطغاة الأقوياء، يستخدم كل قوته وجهده ومواهبه، وجميع وسائله وذخائره، لخدمة الإنسانية وتكوين المجتمع الصالح، وإعلاء كلمة الله، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة الناس والمادة إلى عبادة الله. سيرة مثّلها سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام في عصره، ومثّلها ذو القرنين في عصره، ومثّلها الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون في عصورهم.

وأظن أننا عرفنا الآن كيف نفرق بين الحاكم الصالح العادل، وبين الحاكم الكافر الظالم..

إن النقطة الفارقة، والخط الفاصل، أن الحاكم الصالح، يجمع إلى القوة الفائقة، والملك الواسع، والحكمة المدهشة، وتسخير القوى الطبيعية، والأسباب المادية: الإيمان الراسخ، والعمل الصالح، والسيرة الفاضلة، والمقاصد الخيرة، والدعوة إلى الله وإلى الحق، واستخدام كل ما أوتيه من علم وحكمة، وسبب وقوة في إسعاد البشرية، وخدمة الإنسانية والرحمة والعدل، فقد وصف القرآن أمثال هؤلاء بقوله: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾[1].

فهل ننعم بحاكم عادل مثل ذي القرنين.. يعيد إلينا شعورنا بكرامتنا وإنسانيتنا.. فنهجر الخوف والتخلف ـ بعد عذاب طويل ـ ونستقر ونأمن ونتقدم؟.

إن هذا لا يكون إلا بالإيمان القوي والعمل المستمر.. بحكمة وصبر وإخلاص!!.

---

(١) بتصرف: الصراع بين المادية والإيمان لأبي الحسن علي الحسني الندوي ص ١١٣ ـ ١١٤ ـ والآية في سورة الحج رقم (٤١).

قـال تعالى: ﴿ وعـد الله الـذين آمنـوا منكم وعملوا الصـالحـات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾[١].

صدق الله العظيم.

---

(١) سورة النور، آية: ٥٥.



الفصل السادس

يأجوج ومأجوج وسدُّ ذي القرنين

المبحث الأول

يأجوج ومأجوج

تمهيد:

كنت أظن أن التحقيق لا يطول في هذا البحث.. ولن يكون صعباً إلى درجة أنه يحتاج إلى تفرغ طويل، وتتبع مستمر، وإحاطة بعلوم شتى.. وأخيراً إلى كتاب مستقل!.

كنت أظن أن هناك عدة أحاديث وردت بشأن هاتين الأمتين، ولن تكون مهمتي إلا أن أبين الحديث الصحيح من السقيم، وأبين ما أضافه الناس من خيالهم، ثم أفرز الإسرائيليات وأنبه إليها..

لكني وجدت الأمر صعباً، ولن يكون بإمكاني أن أوفي الموضوع حقه من التحقيق والتدقيق، فهذا يحتاج إلى عالم ضليع في أنواع الحديث، وإحاطته بما ورد في هذا الشأن ثم إلمامه بالتوراة، وكيف عولجت هذه القصة، ومعرفته بكتب التاريخ القديمة، المعتبرة منها وغير المعتبرة، وبيان الزائف من أخبارهما.. ثم إلمامه بعلم الأجناس والأقوام القديمة منها والحديثة، وكذلك علم الجغرافيا القديم والحديث، ليعرف أجناسهم ومواطنهم القديمة والحديثة. وقد صدق الأستاذ الندوي عندما قال: .. ولا تزال أبواب الفتن والملاحم والأحاديث التي جاءت فيها أشراط الساعة، وما كان ويكون بين يدي الساعة تنتظر باحثاً عالي الهمة، راسخ القدم في العلوم

الدينية، عالي الكعب في التاريخ، صبوراً، دؤوباً في الدراسة والبحث، سليم العقيدة، حسن القصد، فإنها من أدق العلوم وأوسعها بحثاً، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً[1].

لكني مع هذا لم أرض أن تبقى في هذا الكتاب فجوة، بحيث يخرج منه القارىء ولم يأخذ من هذا الموضوع زاد الفهم والاطلاع..

فأخذت أجمع الأشتات من كتب التفسير والحديث والتاريخ والجغرافيا.. وأقسم البحث إلى فقرات تحمل العناوين الضرورية للمعرفة.. ووضعت عليها لمسات من التحقيق سواء أكان من عندي أم من عند غيري.. وذلك على قدر علمي واطلاعي.. أسأل الله تعالى أن يتقبل مني وأن يقيض للتحقيق في هذا البحث من هو خير مني..

يأجوج ومأجوج في اللغة:

وردت كلمتا يأجوج ومأجوج مرتين في القرآن الكريم: مرة في سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿ قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض.. ﴾ ومرة في سورة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ﴾. ويذكر الإمام الطبري أن القراء اختلفوا في قراءة هاتين الكلمتين. فقرأت القراء من أهل الحجاز والعراق وغيرهم «إن ياجوج وماجوج» بغير همز، على «فاعول» من يججت ومججت، وجعلوا الألفين فيهما زائدتين، غير عاصم بن أبي النجود والأعرج فإنه ذكر أنهما قرأا ذلك بالهمزة فيهما جيمعاً، وجعلا الهمز فيهما من أصل الكلام، وكأنهما جعلا ياجوج وماجوج: «يفعول» من أججت، وماجوج: مفعول.

والقراءة التي هي القراءة الصحيحة عندنا: أن «ياجوج وماجوج» بألف بغير همز، لإجماع الحجة من القراء عليه، وأنه الكلام المعروف على ألسن العرب. ومنه قول رؤبة بن العجاج:

---

(١) انظر كتابه: الصراع بين المادية والإيمان (تأملات في سورة الكهف) ص ١٠٧ الهامش.

لو أن ياجوج وماجوج معاً وعادَ عادٌ واستجاشوا تبعاً[1]

وقد اختلفوا في اشتقاق يأجوج ومأجوج، فقيل من أجيج النار وهو التهابها، وقيل من الأجّة بالتشديد، وهي الاختلاط، أو شدة الحر. وقيل من الأجّ وهو سرعة العدو، وقيل من الأجاجة وهو الماء الشديد الملوحة. وعلى التقادير كلها وزنهما «يفعول» و«مفعول» وهو ظاهر قراءة عاصم، فإنه وحده قرأه بالهمزة، وكذا قراءة الباقين إن كانت الألف مسهلة من الهمزة، وقيل فاعول من يج ومج، وقيل مأجوج من ماج إذا اضطرب ووزنه أيضاً «مفعول» قاله أبو حاتم. قال: والأصل مؤجوج. وجميع ما ذكره من الاشتقاق - يقول ابن حجر - مناسب لحالهم، ويؤيد الاشتقاق وقول من جعله من ماج قوله تعالى: ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ﴾ وذلك حين يخرجون من السد[2].

ويقول الإمام الآلوسي: الظاهر أنهما اسمان أعجميان فمنع صرفهما للعلمية والعجمة، وقيل عربيان، من أجَّ الظليم إذا أسرع[3].

ويقول الطوسي (الشيعي) في تفسير «التبيان»: إن ترك الهمزة في «يأجوج ومأجوج» هو الاختيار، لأن الأسماء الأعجمية لا تهمز، مثل: (طالوت، وجالوت، وهاروت، وماروت) ومن همز قال: لأنه مأخوذ من أجج النار ومن الملح الأجاج. فيكون «مفعولاً» منه في قول من جعله عربياً، وترك صرفه للتعريف والتأنيث، لأنه اسم قبيلة، ولو قال: لو كان عربياً لكان هذا اشتقاقه ولكنه أعجمي فلا يشتق لكان أصوب. قال رؤبة:

لو أن يأجوج ومأجوج معاً وعادَ عادٌ واستجاشوا تبعاً

فترك الصرف في الشعر، كما هو في التنزيل، وجمع يأجوج يآجيج، مثل يعقوب ويعاقيب لذكر الحجل، وولد القبج السلك والأنثى سلكة. ومن

---

(١) جامع البيان من تأويل آي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري جـ ١٦ ص ١٦.

(٢) انظر فتح الباري جـ ١٣ ص ٩٤ والإشاعة لأشراط الساعة ص ٢٣٦ للشيخ محمد بن رسول الحسيني البرزنجي ط ١، ١٣٢٥ هـ.

(٣) روح المعاني للألوسي جـ ١٦ ص ٣٩.

جعل (يأجوج ومأجوج) فاعولاً جمعه يواجيج بالواو، مثل طاغوت وطواغيت، وهاروت وهواريت، وأما مأجوج في قول من همز، فـ (مفعول) من أج، كما أن ياجوج «يفعول» منه: فالكلمتان على هذا من أصل واحد في الاشتقاق، ومن لم يهمز ياجوج، كان عنده (فاعول) من (يج) كما أن ماجوج (فاعول) من (مج) فالكلمتان على هذا من أصلين وليسا في أصل واحد كما كان كذلك فيمن همزهما، وإن كانا من العجمي، فهذه التقديرات لا تصح فيهما. وإنما مثل بها على وجه التقدير على ما مضى(١). وذكر ابن منظور أن الاسمين أعجميان. وبعد أن بين بعض الاشتقاقات ـ كما مرّ ـ قال: هذا لو كان الاسمان عربيين لكان هذا اشتقاقهما. فأما الأعجمية فلا تشتق من العربية(٢).

هذا وقد ذكر الحافظ ابن حجر أنهما اسمان أعجميان عند الأكثر منعا من الصرف للعلمية والعجمة(٣).

ويرى «أبو الكلام آزاد» أن كلمتي «يأجوج ومأجوج» تبدوان كأنهما عبريتان، ولكنهما في الأصل والواقع أجنبيتان اتخذتا الصورة العبرية فهما تنطقان باليونانية غاغ «Gog» وماغاغ «Magog»(٤).

أصل يأجوج ومأجوج:

ذكر أنهم من أولاد يافث بن نوح عليه السلام(٥). قال العلامة الآلوسي: وبه جزم وهب بن منبه وغيره واعتمده كثير من المتأخرين(٦). قال: وهو موجود في التوراة في السفر الأول في الفصل العاشر(٧). وقال الكسائي

---

(١) انظر تفسير التبيان لشيخ الطائفة الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠) ص ٩١ ط ١٣٨١ هـ ١٩٦٢ م تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي.

(٢) انظر لسان العرب لابن منظور المجلد الثاني ص ٢٠٧.

(٣) فتح الباري جـ ١٣ ص ٩٤.

(٤) انظر مفاهيم جغرافية في القصص القرآني للدكتور عبد العليم خضر ص ٢٨٨.

(٥) انظر السراج المنير جـ ٢ ص ٣٣٠ والكشاف جـ ٢ ص ٥٧٩.

(٦) روح المعاني للألوسي جـ ١٦ ص ٣٨.

(٧) روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٨.

في العرائس: إن يافث سار إلى المشرق فولد له هناك خمسة أولاد: جومر وبنرش وأشار وأسقويل ومياشح، فمن جومر جميع الصقالبة والروم وأجناسهم، ومن مياشح جميع أصناف العجم، ومن أشار يأجوج ومأجوج وأجناسهم، ومن أسقويل جميع الترك. ومن بنرش الفقجق واليونان(١).

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم من طريق أبي هريرة رفعه: ولد لنوح سام وحام ويافث. فولد لسام العرب وفارس والروم. وولد لحام القبط والبربر والسودان، وولد ليافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة. قال ابن حجر: وفي سنده ضعف(٢). وفي مسند الإمام أحمد عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: ولد نوح ثلاثة: سام أبو العرب، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك. فقال بعض العلماء: هؤلاء من نسل يافث أبي الترك. قال: إنما سموا هؤلاء تركاً لأنهم تُركوا من وراء السد من هذه الجهة، وإلا فهم أقرباء أولئك(٣). ولكن كان في أولئك بغي وفساد وجراءة(٤)! ولهذا قال الضحاك: هم جيل من الترك(٥). وعن قتادة أنهم (يأجوج ومأجوج) اثنان وعشرون قبيلة، بنى ذو القرنين السد على إحدى وعشرين قبيلة وبقيت قبيلة واحدة منهم الترك، سموا الترك لأنهم تركوا خارجين(٦). وأرى أن هذا تعليل غير مقبول، وكلمة (ترك) غير عربية!.

وقيل يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل والديلم(٧).

وقد ورد عن أصلهم قول آخر مردود طبيعة، تأباه النفس وينكره العقل. وهو أبعد ما يكون عن الصحة والتصديق(٨).

---

(١) انظر قوله في روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٨.
(٢) فتح الباري جـ ١٣ ص ٩٤ وانظر الحديث ودرجته في روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٩.
(٣) يعني يأجوج ومأجوج.
(٤) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٩٢.
(٥) السراج المنير جـ ٢ ص ٣٣٠ وفتح الباري جـ ١٣ ص ٩٤.
(٦) السراج المنير جـ ٢ ص ٣٣٠ وانظر مثله في فتح الباري جـ ١٣ ص ٩٥ رواية سعيد بن بشير.
(٧) الكشاف جـ ٢ ص ٥٧٩.
(٨) يقول الإمام ابن حجر: وقع في فتاوى الشيخ محيي الدين: يأجوج ومأجوج من أولاد آدم لا =

. . . .

= من حواء عند جماهير العلماء، فيكونون إخواننا لأب، كذا قال، ولم نر هذا عن أحد من السلف إلا عن كعب الأحبار، ويرده الحديث المرفوع أنهم من ذرية نوح، ونوح من ذرية حواء قطعاً. انظر فتح الباري جـ ١٣ ص ٩٥. وانظر ما نقله عنه الإمام الآلوسي والبرزنجي أيضاً من أنه وقع في فتاويه ذلك: روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٨ والإشاعة ص ٢٣١. ويذكر الحافظ ابن كثير أن هذا القول حكاه الشيخ أبو زكريا النواوي في شرح مسلم وغيره، وضعفوه، وهو جدير بذلك، إذ لا دليل عليه، بل هو مخالف لما ذكرناه من أن جميع الناس اليوم من ذرية نوح بنص القرآن. البداية والنهاية لابن كثير جـ ٢ ص ١١٠.

أقول: لا أدري لم كل هذا اللوم على الإمام النووي؟ ولا أدري مدى صحة هذا النقل عن جماهير العلماء كما عزاه إليه ابن حجر والآلوسي والبرزنجي عليهم رحمة الله تعالى. فقد رجعت إلى فتاويه فلم أجد ما يشير إلى ذلك. وهذا نص كلامه بالحرف: (هم من ولد آدم من حواء عند جماهير العلماء، وقيل إنهم من بني آدم لا من حواء، فيكونون إخوتنا لأب). انظر فتاوى الإمام النووي ص ١٧٥ ـ ١٧٦ الطبعة الثانية تحقيق الشيخ محمد الحجار. وقول ابن كثير يرده: أن الإمام النووي لم يفعل شيئاً سوى أنه ذكر رأي كعب الأحبار، وإن كتبنا مملوءة بأخباره، ولم يتبين أن الإمام النووي وافقه على رأيه هذا، فقد ذكره ضمن آراء أخرى، بل إنه أخرّ هذا الرأي إلى آخر الآراء، وهذا يدل على أنه ليس الرأي القوي، فهو يقول: قال وهب بن منبه ومقاتل بن سليمان: هم من ولد يافث بن نوح.

وقال الضحاك: هم جيل من الترك، وقال كعب: هم بادرة من ولد آدم من غير حواء. انظر صحيح مسلم جـ ٣ ص ٩٨ للإمام النووي الطبعة الأولى ١٣٤٧ هـ ١٩٢٩ م المطبعة المصرية بالأزهر.

ثم إنني لم أر من نقل عنه هذا الخبر سوى ابن حجر: أما غيره ممن ذكر ذلك، فلربما اعتمد على كلام ابن حجر دون الرجوع إلى الأصل. ويستأنس بذلك ما ذكره ابن كثير ـ يرحمه الله ـ فإنه ذكر حكاية الإمام النووي هذا الخبر دون أن يذكر أنه قول جماهير العلماء. هذا وإن صورة ذكر الإمام النووي في الفتاوى لا تدل على سقوط كلمة أو كلمتين إذا قلنا إنه من اختلاف النسخ، بل إن ذكر الخبر كائن في جملة سليمة. فقد مر بك قوله: «هم من ولد آدم من حواء عند جماهير العلماء، وقيل إنهم من بني آدم لا من حواء». وقوله: «قيل» يدل على ضعف هذا الرأي، كما هي عادة الإمام النووي في كتاباته. والله أعلم.

هذا وقد رد هذا القول المستهجن كثير من العلماء. قال الحافظ ابن حجر: هو قول منكر جداً لا أصل له إلا عن بعض أهل الكتاب فتح الباري جـ ٦ ص ٢٧٤. وانظر تحقيق الإمام الآلوسي في روح المعاني جـ ١٦ ص ٣٨ ـ ٣٩ حيث قال في الأخير: وأنا أرى هذا القول حديث خرافة. ويقول الإمام ابن كثير: هذا القول غريب جداً، لا دليل عليه لا من عقل ولا نقل، ولا يجوز الاعتماد ههنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب لما عندهم من الأحاديث المفتعلة والله أعلم. تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٩١. وينتهي الإمام ابن كثير إلى القول: هم من ذرية آدم بلا خلاف نعلمه، ثم الدليل على ذلك ما ثبت في الصحيحين من طريق الأعمش عن أبي =

ما قيل عن أوصافهم:

لم أر أعجب مما وصفت به هاتان الأمتان من الإنس، من أوصاف غريبة وبعيدة عن الواقع.. وأغلب هذه الأقوال والأخبار، إما أنها ترجع إلى الإسرائيليات التي ابتلي بها - مع الأسف الممض - تاريخنا القديم، أو أنها كانت مرتعاً خصباً للقصاصين الذين يزيدون عليها ما طاب لهم من خيال وتصاوير، يبتغون من ورائها إعجاب العامة ورضاهم..

لكني أنبه إلى أن هذه الأخبار عندما يذكرها أهل الرواية والتاريخ، لا يقصدون من ورائها الصحة والإثبات.. بل إنها مجرد أخبار على الهامش.. وما عليّ إلا أن ألمح إلى هذه الأوصاف التي ذكرت عنهم، ثم أتبعها بالنقد..

فمن قول إنهم لا يشبهون الإنس بل هم أشباه البهائم، يأكلون العشب ويفترسون الدواب والوحوش ويأكلون حشرات الأرض من حيات وعقارب وكل ذي روح[1].. وحلا للبعض أن يقسمهم إلى ثلاثة أصناف بأطوال وأوصاف مختلفة..

لا يمرون بوحش إلا أكلوه،.. ومنهم من أثبت لهم مخالب في أظفارهم، وأضراسهم كأضراس السباع[2]! ومنهم من قال إنهم على مقدار

= صالح عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم قم فابعث بعث النار من ذريتك. فيقول يا رب وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة! فحينئذ يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد. قالوا: يا رسول الله أينا ذلك الواحد؟ فقال رسول الله ﷺ: أبشروا فإن منكم واحداً، ومن يأجوج ومأجوج ألفاً.

وفي رواية فقال: أبشروا فإن بينكم أمتين، ما كانتا في شيء إلا كثرتاه أي: غلبتاه كثرة. البداية والنهاية جـ٢ ص ١٠٩. قال: ثم هم من ذرية نوح، لأن الله تعالى أخبر أنه استجاب لعبده نوح في دعائه على أهل الأرض بقوله: ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ سورة نوح، الآية: ٢٦ وقال تعالى: ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة ﴾ سورة العنكبوت، الآية: ١٥ وقال: ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ سورة الصافات، الآية: ٧٧/ البداية والنهاية جـ٢ ص ١٠٩ - ١١٠.

(١) انظر عرائس المجالس ص ٣٢٧ - ٣٢٨.

(٢) انظر السراج المنير جـ٢ ص ٣١٣ باختصار.

واحد يبلغ طول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منا، لهم مخالب وشعر يواري أجسادهم ويتقون به من الحر والبرد.. يتسافدون تسافد البهائم[١].

حتى إنه نسب إلى علي - رضي الله عنه - قوله: منهم طوله شبر ومنهم من هو مفرط في الطول[٢]. وقيل إنهم أربعون أمة، مختلفو الخلق والقدود، في كل أمة منها ملك وزي ولغة.. ومنهم المشوهون.. ومن له ذنب وقرن وأنياب بارزة، ومنهم مشيه وثب، ويأكلون الحيتان والناس والخشاش والطير، وبعضهم يغير على بعض.. ومنهم من لا يتكلم إلا همهمة وفيهم شدة وبأس.. وربما أكل بعضهم بعضاً[٣].. ومنهم من قال إن لهم أربع أعين.. ومنهم من له رجل واحدة ينقز نقز الظباء، ومنهم من هو ملبس شعراً كالبهائم.. ومنهم من لا يشرب غير الدم شيئاً[٤]!.

وأقول للقارىء العزيز مرة بعد مرة.. إن كل ما سردته لك من أوصاف ليس لها أساس من الصحة، وديننا بريء منها، كما أن علماءنا لم ينثروها في كتبهم إلا ليذكروا هذه الوجوه من الأقوال على سبيل الاطلاع.. لا على سبيل الجزم والإثبات. وقد تصدى لهذه المزاعم بالرد والتحقيق بعض علمائنا، وإن كانت ظاهرة الزيف والبطلان..

فقد ذكر ابن جرير عن وهب بن منبه أثراً طويلاً عجيباً في سير ذي القرنين وبنائه السد وكيفية ما جرى له، وذكر أن فيه طولاً ونكارة في أشكالهم وصفاتهم وطولهم وقصر بعضهم وآذانهم. قال: وروى ابن أبي حاتم أحاديث غريبة في ذلك، لا تصح أسانيدها والله أعلم[٥].

---

(١) الفتوحات الإلٓهية جـ ٣ ص ٥٠ وحاشية الصاوي جـ ٣ ص ٢٧.
(٢) انظر السراج المنير جـ ٢ ص ٣٣١.
(٣) انظر باختصار أخبار الزمان للسمعودي ص ٦٩.
(٤) انظر باختصار البدء والتاريخ جـ ٢ ص ٢٠٧ وانظر أخباراً غريبة أخرى في الجزء الرابع عشر من نهاية الأرب عند الحديث عن ذي القرنين من ص ٢٩٨.
(٥) انظر تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٩٢، وتفسير القاسمي جـ ١١ ص ٤١١٦ - ٤١١٧.
وانظر رواية لابن أبي حاتم في الإشاعة ص ٢٣٢ عندما قسمهم ثلاثة أصناف، ووقع في حديث =

وعلق القاسمي بعد هذا وقال: فجزى الله البخاري أحسن الجزاء على نبذه تلك الروايات، واشتراطه الصحة في الروايات، فقد جنت الآثار المنكرة على الأمة أنكر الآثار، ومن طالع مقدمة صحيح مسلم صدق قوله: إن راوي الضعاف غاش آثم مضل[1]!.

وفي حديث للإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه قوله: حدثنا محمد ابن بشر حدثنا محمد بن عمرو عن ابن حرملة عن خالته قالت: خطب رسول الله ﷺ وهو عاصب إصبعه من لدغة عقرب، فقال: إنكم تقولون لا عدو. وإنكم لا تزالون تقاتلون عدواً حتى يأتي يأجوج ومأجوج عراض الوجوه صغار العيون، صُهب الشعاف[2]، من كل حدب ينسلون، كأن وجوههم أعجان المطرقة[3].

وكذا رواه ابن أبي حاتم عن محمد بن عمرو[4].

ويعلل الشيخ عبد الكريم الخطيب سبباً لهذه الأوصاف الغريبة بقوله: يظهر أن غرابة الاسم «يأجوج»، ومزاجته مع «مأجوج» الذي يشبهه في غرابته قد أغرى المفسرين وغيرهم من أصحاب السِّير بأن يخلعوا على المسمى من الصفات الغريبة والأوصاف العجيبة ما لا يكاد يقع لخيال الذين ألفوا ليالي «ألف ليلة وليلة». أنهم أي «يأجوج ومأجوج» بين طويل يبلغ طوله عشرات الأمتار أو قصير لا يجاوز ذراعاً! وقيل مثل هذا في أفواههم وأسنانهم ورؤوسهم وشعورهم مما لا يكاد يكون إلا في عالم الشياطين والمردة في تصورات الذين يتحدثون عنها، إن يأجوج ومأجوج، هذين الاسمين في غرابتهما وازدواجهما كانا مادة خصبة لتوليد الصور الغريبة، وتأليف الروايات

= حذيفة نحوه. وأخرج هو والحاكم من طريق أبي الحوراء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يأجوج ومأجوج شبراً شبراً، وشبرين شبرين، وأطولهم ثلاثة أشبار ـ المصدر نفسه.

(١) انظر تفسير القاسمي جـ ١١ ص ٤١١٧.

(٢) الصهبة: الشقرة.

(٣) ترس مطرق: ما يكون بين جلدين أحدهما فوق الآخر، وفيه طارق النعل إذا صيرها طاقاً فوق طاق وركب بعضاً على بعض، أراد أنهم عراض الوجوه غلاظها.

(٤) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٧٠.

المختلفة حتى يستقيم المسمى على دلالة الاسم، وحتى لقد سمح الخيال بأن يقال إن هذين الاسمين عربيان وإن يأجوج مشتق من أجيج النار. . . كما أن مأجوج مشتق من الموج والاضطراب[1].

ثم يقول الخطيب: فما عرف في التاريخ البعيد أو القريب جماعة بشرية لها شيء من هذه الأوصاف، وما عرف في أبناء آدم هذا التفاوت البعيد في الصفات الجسدية، وإن وجد بينهم تغاير في الألوان وفي الأخلاق والعادات، وتفاوت في القوى والملكات.

وعلى هذا فإنا نقول بأن يأجوج ومأجوج هم جماعة أو جماعات من تلك القبائل المتخلفة التي تسكن الآجام والغابات وتأوي إلى الكهوف والمغارات والتي لم تبعد كثيراً عن حياة الحيوانات المتوحشة المفترسة، وتسبب كثيراً من القلق والإزعاج للجماعات القريبة منها والتي أخذت حظاً من المدنية والعمران. . وحسبنا أن نذكر هنا المغول وما أحدثوا من إفساد للحضارة الإسلامية مما لم تحدثه أعظم الزلازل وأعتى الأوبئة وأشدها هولاً وفتكاً[2].

ووصفوا في كتاب البدء والتاريخ أن (الغالب عليهم خفش العيون وفطس الأنوف وقصر القامة. . وهم أسوأ الناس عيشاً وأخبثهم طعماً وأخرقهم خرقة وأقلهم تمييزاً وفطنة كما يزعمون)[3].

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق ابن عمرو بن أوس عن جده رفعه: إن يأجوج ومأجوج لهم نساء يجامعون ما شاؤوا وشجر يلقحون ما شاؤوا[4].

قال ابن حجر: وفيه أن فيهم أهل صناعة وأهل ولاية وسلاطة ورعية

---

(١) انظر باختصار التفسير القرآني جـ٨ ص ٧٠٧.
(٢) التفسير القرآني جـ٨ ص ٧٠٨.
(٣) انظر كتاب البدء والتاريخ المنسوب إلى أبي زيد أحمد بن سهل البلخي وهو لمطهر بن طاهر المقدسي جـ٤ ص ٦٤ ط ١٩٠٧ م.
(٤) فتح الباري جـ١٣ ص ٩٧.

تطيع فوقها، وأن فيهم من يعرف الله ويقر بقدرته ومشيئته[1]. .

وقد قال ابن حجر. . إن لهم أشجاراً وزروعاً وغير ذلك من الآلات[2]. .

* * *

والآن. . وبعد أن سردت لك بعضاً مما قيل في أوصافهم، أذكرك أن ليس عليك إلا أن تؤمن بهاتين الأمتين كما ورد أمرهما في القرآن الكريم وصحيح السنة. . (أما وراء ذلك من التفصيلات المتعلقة بصفاتهم وكيفياتهم وتفصيل أخبارهم، فلا مطمع ـ في باب العقيدة ـ في اعتماد شيء من ذلك، بل إن معظم ما ورد من تفصيل أخبارهم وصفاتهم وأشكال جسومهم، إنما تناقله الناس عن طريق أحاديث واهية أو منكرة أو باطلة)[3].

قال الدكتور البوطي: وخير من الخوض في ذلك أن نقف عند حدود الدلالة القطعية التي ثبتت بصريح القرآن وصحاح الأحاديث الواردة عن الرسول ﷺ ثم ننتظر في معرفة الكنه والتفاصيل الواقع الزمني نفسه، فهو الذي سيتكفل وحده بشرح كل شيء عنهم، وذلك أن يأجوج ومأجوج غيب من الغيوب التي أخبرنا الله عن ظهورها بين يدي الساعة؛ وهو أمر لم يظهر بعد، فهو لا يزال في تلافيف الغيب لم يتبدَّ لنا منه إلا الإخبار عنه بشكل إجمالي إذ لا عبرة بالتفصيلات التي وصلتنا بالطرق الباطلة والواهية، وإذاً فلا معنى للخوض في شيء لا سبيل إلى العلم بتفصيلاته، اللهم إلا سبيل الرجم بالغيب[4]. .

هذا، وإن الدكتور البوطي محق في قوله، ولكن مع ذلك لا بدّ من فرز المعلومات الصحيحة التي وردت بهذا الشأن عن الخاطئة منها. . ليكون ذلك إحدى السبل لتنقية تاريخنا الديني من الشوائب والدخيل.

---

(١) فتح الباري جـ ١٣ ص ٩٧.
(٢) فتح الباري جـ ١٣ ص ٩٧.
(٣) انظر كبرى اليقينيات الكونية (وجود الخالق ووظيفة المخلوق) ص ٣٥٥ ط ٣ للدكتور البوطي.
(٤) كبرى اليقينيات الكونية ص ٣٥٦.

قال ابن كثير: من زعم أنهم على أشكال مختلفة وأطوال متباينة جداً فمنهم من هو كالنخلة السحوق، ومنهم من هو في غاية القصر، ومنهم من يفترش أذناً من أذنيه، ويتغطى بالآخر. فكل هذه أقوال بلا دليل، ورجم بالغيب بغير برهان. والصحيح أنهم من بني آدم وعلى أشكالهم وصفاتهم، وقد قال النبي ﷺ: «إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن». وهذا فيصل في هذا الباب وغيره[1].

ما قيل في كثرتهم:

ذكر الله تعالى في القرآن الكريم حال يأجوج ومأجوج عندما يفتح السد بقوله جلّ ذكره: ﴿ وهم من كل حدب ينسلون ﴾ أي يسرعون. من النسلان وهو تقارب الخطا مع السرعة كمشي الذئب[2]. وواضح أن الآية تدل على كثرتهم.

وعن ابن عباس في رواية عطاء: هم عشرة أجزاء، وولد آدم كلهم جزء[3].

وأخرج ابن عدي وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وابن مردويه من حديث حذيفة رفعه قال: يأجوج أمة، ومأجوج أمة، وكل أمة أربعمائة ألف أمة، لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه، كلهم قد حمل السلاح[4]! لكن الخبر غير صحيح.

قال ابن حجر: وهو من رواية يحيى بن سعيد العطار عن محمد بن إسحق عن الأعمش والعطار ضعيف جداً. ومحمد بن إسحاق، قال ابن عدي: ليس هو صاحب المغازي، بل هو العكاشي. قال: والحديث موضوع. وقال ابن أبي حاتم: منكر[5]. ثم قال: لكن لبعضه شاهد صحيح

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير جـ ٢ ص ١١٠.
(٢) انظر السراج المنير جـ ٢ ص ٤٣٣.
(٣) السراج المنير جـ ٢ ص ٣٣٠.
(٤) فتح الباري جـ ١٣ ص ٩٤.
(٥) فتح الباري جـ ١٣ ص ٩٤.

أخرجه ابن حبان من حديث ابن مسعود رفعه: إن يأجوج ومأجوج أقل ما يترك أحدهم لصلبه ألفاً من الذرية. وللنسائي من رواية عمرو بن أوس عن أبيه رفعه: إن يأجوج ومأجوج يجامعون ما شاؤوا ولا يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً. وأخرج الحاكم وابن مردويه من طريق عبدالله بن عمرو: إن يأجوج ومأجوج من ذرية آدم ووراءهم ثلاث أمم ولن يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً. وأخرج عبد بن حميد بسند صحيح عن عبدالله بن سلام مثله[1].

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عبدالله بن عمرو قال: الجن والإنس عشرة أجزاء، فتسعة أجزاء يأجوج ومأجوج، وجزء سائر الناس[2].

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه: إن يأجوج ومأجوج لهم نساء يجامعون ما شاؤوا.

وأخرج الحاكم وابن مردويه من طريق عبد الله بن عمر: إن يأجوج ومأجوج من ذرية آدم ووراءهم ثلاث أمم ولن يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً. وأخرج الطبراني وابن مردويه والبيهقي وعبد بن حميد عن ابن عمر بنحوه وزاد: فسمى الأمم الثلاث: تاويل، وتاريس، ومنسك[3].

قال ابن كثير: وما قيل من أن أحدهم لا يموت حتى يرى من ذريته ألفاً فإن صح في خبر قلنا به وإلا فلا نرده، إذ يحتمله العقل، والنقل أيضاً قد يرشد إليه. والله أعلم[4].

قال: بل ورد حديث مصرح بذلك إن صح. قال الطبراني:

حدثنا عبدالله بن محمد بن العباس الأصبهاني، حدثنا أبو مسعود أحمد ابن الفرات، حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا المغيرة عن مسلم عن أبي

(١) فتح الباري جـ٣ ص ٩٤.
(٢) فتح الباري جـ٣ ص ٩٤.
(٣) الإشاعة ص ٢٣٢ - ٢٣٣.
(٤) البداية والنهاية لابن كثير جـ٢ ص ١١٠.

إسحاق عن وهب بن جابر بن عبدالله بـن عمرو عن النبي ﷺ قال: إن يأجوج ومأجوج ولد آدم ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معائشهم، ولن يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً. وإن من ورائهم ثلاث أمم: (تاويل وتاريس ومنسك). وهو حديث غريب جداً، وإسناده ضعيف، وفيه نكارة شديدة[1].

قال أبو حيان: وقد اختلف في عددهم وصفاتهم ولم يصح في ذلك شيء[2].

وأعجب ما روي في ذلك قول مكحول: الأرض مسيرة مائة عام ثمانون منها يأجوج ومأجوج وهي أمتان، كل أمة أربعمائة ألف أمة لا تشبه أمة الأخرى، وهو قول باطل، ومثله ما روي عن أبي الشيخ عن أبي أمامة: الدنيا سبعة أقاليم، فليأجوج ومأجوج ستة وللباقي إقليم واحد. وهو كلام من لا يعرف الأرض والأقاليم. نعم أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه من طريق البكالي عن ابن عمر أنَّ الله تعالى جزأ الإنس عشرة أجزاء، فتسعة منهم يأجوج ومأجوج، وجزء سائر الناس، إلا أني لم أقف على تصحيحه لغير الحاكم وحكم تصحيحه مشهور[3].

وذكر الآلوسي أن مما يؤيد أنهم كثير جداً ما أخرجه ابن حبان في صحيحه عن ابن مسعود ـ مرفوعاً ـ: «إن يأجوج ومأجوج أقل ما يترك أحدهم من صلبه ألفاً من الذرية» قال الآلوسي: وحمله بعضهم على طول العمر[4].

يقول ابن كثير: هذا وإن لم يثبت شيء عن عددهم، ولكن الصحيح أنهم كثيرون جداً، وقد سبق في هذا الحديث الذي أخرجاه في الصحيحين عندما يقول الله تعالى لآدم: «قـم فابعث بعث النار من ذريتك فيقول يا رب

(١) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١١٠.
(٢) البحر المحيط جـ ٦ ص ١٦٣.
(٣) هو من كلام الإمام الألوسي جـ ١٦ ص ٤٤ من روح المعاني.
(٤) روح المعاني جـ ١٦ ص ٤٤. قال الإمام النووي: ولم يثبت في قدر أعمارهم شيء. وذكر المفسرون وأهل التاريخ في ذلك أشياء لا تثبت. انظر فتاوى النووي ص ١٧٦.

وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة». وعندما يصيب الصحابة جزع من هذا القول يبشرهم الرسول ﷺ بقوله: «أبشروا فإن منكم واحداً ومن يأجوج ومأجوج ألفاً».

وفي رواية: «أبشروا فإن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه» أي غلبتاه كثرة. قال ابن كثير: وهذا يدل على كثرتهم وأنهم أضعاف الناس مراراً عديدة[1].

أقول: ولا يستبعد أبداً أن يقال إن أحدهم يترك ألفاً من ذريته، ما دام ينكح من النساء ما شاء.. بلا حد أو قيد!.

ولا يستغرب أن يتفنن العصر في إيجاد وسائل لذلك.

هل هم مؤمنون أم كفار؟

ذكر أنهم كفار، دعاهم النبي ﷺ إلى الإيمان ليلة الإسراء فلم يجيبوا[2].

فقد روى نعيم بن حماد في الفتن عن ابن عباس مرفوعاً قال: بعثني الله حين أسري بي إلى يأجوج ومأجوج فدعوتهم إلى دين الله وعبادته فأبوا، فهم في النار مع من عصى من ولد آدم وولد إبليس[3]. لكن هذا الخبر لم يثبت، ولم أر حديثاً صحيحاً يذكر لقاء الرسول ﷺ بيأجوج ومأجوج.

ولكن وإن لم يدل الحديث على كفرهم لعدم صحته فلا يعني هذا أنهم ليسوا كفاراً وبخاصة أنه ثبت في الحديث الصحيح من أن تسعمائة

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٢ ص ١٠٩. وتكملة الحديث كما في صحيح مسلم: «... والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا ربع أهل الجنة. فحمدنا الله وكبرنا ثم قال: والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة. فحمدنا وكبرنا ثم قال: والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة، إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود أو كالرقمة في ذراع الحمار/ صحيح مسلم جـ ٣ ص ٩٨. قال الإمام النووي: الرقمتان في الحمار، هما الأثران في باطن عضديه، وقيل هي الدائرة في ذراعيه، وقيل: هي الهنة الناتئة في ذراع الدابة من داخل. والله أعلم بالصواب.

(٢) الفتوحات الإلّهية جـ ٣ ص ٥٠ وحاشية الصاوي جـ ٣ ص ٢٧.

(٣) انظر الإشاعة ص ٢٣٤.

وتسعة وتسعين منهم يذهب إلى النار يقابلهم مسلم بدخول الجنة . . وربما تساءل المرء: كيف دل الحديث المتفق عليه أنهم فداء المؤمنين يوم القيامة وأنهم في النار ولم يبعث إليهم رسل. وقد قال الله تعالى: ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾[1]؟ فالجواب أنهم لا يعذبون إلا بعد قيام الحجة عليهم والإعذار إليهم كما قال تعالى: ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ فإن كانوا في زمن الذي قبل بعث محمد ﷺ قد أتتهم رسل منهم فقد قامت على أولئك الحجة. وإن لم يكن قد بعث الله إليهم رسلاً فهم في حكم أهل الفترة ومن لم تبلغه الدعوة. وقد دل الحديث المروي من طرق عن جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ: «إن من كان كذلك يمتحن في عرصات القيامة فمن أجاب الداعي دخل الجنة ومن أبى دخل النار».

وقد حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري إجماعاً عن أهل السنة والجماعة وامتحانهم لا يقتضي نجاتهم، ولا ينافي الإخبار عنهم بأنهم من أهل النار، لأن الله يطلع رسوله ﷺ على ما يشاء من أمر الغيب وقد أطلعه على أن هؤلاء من أهل الشقاء وأن سجاياهم تأبى قبول الحق والانقياد له، فهم لا يجيبون الداعي إلى يوم القيامة، فيعلم من هذا أنهم كانوا أشد تكذيباً للحق في الدنيا لو بلغهم فيها لأن في عرصات القيامة ينقاد خلق ممن كان مكذباً في الدنيا، فإيقاع الإيمان هناك لما يشاهد من الأهوال أولى وأحرى منه في الدنيا والله أعلم. كما قال تعالى: ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا مؤمنون ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ﴾[3].

أنواع فسادهم وغاراتهم:

قيل: من أنواع فسادهم أنهم يفترسون الدواب والوحوش والسباع، ويأكلون الحيات والعقارب وكل ذي روح خلقه الله في الأرض[4]. . وقال

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٥.
(٢) سورة السجدة، الآية: ١٢.
(٣) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١١٠ ـ ١١١. والآية في سورة مريم رقم (٣٨).
(٤) السراج المنير جـ ٢ ص ٣٣١.

الكلبي: فسادهم أنهم كانوا يخرجون أيام الربيع إلى أرضهم فلا يدعون فيها شيئاً أخضر إلا أكلوه، ولا يابساً إلا احتملوه وأدخلوه أرضهم، وقد بالغوا ولقوا منهم أذى شديداً وقتلاً[1].

وقيل: فسادهم أنهم كانوا يأكلون الناس. وقيل معناه أنهم سيفسدون في الأرض بعد خروجهم[2].

وعلى رأي من يرى أنهم المغول، ذكر أنهم انتشروا في الأرض على أدوار.. أختصر لك ذلك ما ذكره الدكتور عبد العليم خضر..

الدور الأول منها كان قبل (٥٠٠٠) سنة وقد اندفعت هذه القبائل نحو الجنوب الغربي من سيبريا إلى هضاب وسط آسيا (منغوليا).. ولعلهم كانوا يغيرون على سهول الصين وحضارتها القديمة من وقت لآخر عبر صحراء جوبي..

الدور الثاني ويبدأ ما بين (١٥٠٠ ق.م - ١٠٠٠ ق.م)، وفيه كانت تتتابع الموجات المغولية من أقصى الشمال الشرقي نحو سهول الصين وهضاب وسط آسيا ومنغوليا والتركستان الغربية وزونغاريان..

الدور الثالث: وصلت جحافل المغول حوالي ١٠٠٠ ق.م إلى منطقة بحر قزوين والبحر الأسود وشمال القوقاز وحوض نهر الدانوب والفلجا. وظهرت قبائل «سي تهين» على مسرح التاريخ سنة (٧٠٠) ق.م وهاجمت مناطق آسيا الغربية... ومن ثم فقد تأثرت حدود ممالك آشور بهجمات هذه القبائل كما ذكر هيرودوت.. ومنها غارة سنة ٦٢٠ ق.م عبر مضيق داريال في جبال القوقاز لدرجة أن مقدمة الجحافل الهمجية وصلت إلى «نينوى» واكتسحت بالطبع كل أذربيجان ومازندران وجيلان وكردستان..

الدور الرابع: جعله أبو الكلام آزاد سنة ٥٠٠ ق.م حيث برز كورش كأعظم ملوك الدنيا قاطبة، فقد أخضع ميديا وليديا وبابل والشام وجميع

(١) انظر الكشاف جـ٢ ص ٥٧٩ والسراج المنير جـ٢ ص ٣٣١.
(٢) السراج المنير جـ٢ ص ٣٣١.

الممالك الشرقية. . وبذلك توقف سيل قبائل (سي تهين) وخصوصاً بعد أن أقام كورش سد داريال الحديدي في جبال القوقاز.

الدور الخامس. . تزعزع أمن الصين بجحافل جديدة من قبائل المغول الهمجية، ويطلق الصينيون على هؤلاء المتوحشين اسم «هيونغ نو». . ولم يجد إمبراطور الصين بدأً من تشييد «سور الصين الحجري العظيم» لصد هجمات هذه القبائل التي كانت تفد إلى الإقليم عبر صحراء جوبي. . وبذلك توقف غزو قبائل «هن» لسهول الصين بعد بناء السور، ولكن جعلهم يتوجهون نحو أواسط آسيا من جديد.

وفي الدور السادس: تجمع شمل هذه القبائل في أوروبا تحت قيادة «أتيلا» وقضوا بذلك على الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع الميلادي.

وكان الدور الأخير هو هجوم جنكيزخان على الحضارة الإسلامية من منغوليا وخرّبت بغداد في القرن الثاني عشر الميلادي.

ويذكر المؤرخون أن هذه القبائل كثيراً ما أفسدت في الأرض وبطشت بالآمنين وهدمت حضارات وأراقت دماء وحرقت زروعاً ومدناً. . . لقد هبطوا من مرتفعات التبت نحو الممالك الإسلامية في المشرق مسرعين، وكانوا على درجة هائلة من الهمجية والتعطش لسفك الدماء.

وكانوا يحرقون البساتين، ويذبحون من يجدونه في طريقهم. ويتفق أكثر المحققين على أن الجنس الأصفر المغولي يسكن آسيا الشرقية وسيبريا وآسيا الوسطى وزحف بعضهم إلى آسيا الغربية في موجات همجية عبر التاريخ ثم إلى أوروبا خصوصاً القوقازيون. . وتتار شبه جزيرة القرم حول البحر الأسود والأتراك والمجريين الفنلنديين. . فبعد أن استولت ذرية (جنكيزخان) على آسيا كلها وأوروبا الشرقية اقتسموا بينهم الفتوحات وأنشأوا منها أربع ممالك منفصلة، فاختصت أسرة «كيلاي» بالصين والمغول، وملك جافاتاي أخو أقطاي تركستان، وملكت ذرية باطرخان البلاد التي على شواطىء نهر الفلجا (في روسيا). . وصارت روسيا تدفع الجزية إليها زمناً طويلاً،

وانضمت بلاد الفرس إلى «هولاكو» الذي دمر بغداد. . إن منطقة بحر قزوين والبحر الأسـود وجبال القوقاز كانت مستقراً لجماعات من المغول والترك من فجر التاريخ كما رأينا. . ولم يكن هؤلاء يقنعون بالمواد الطبيعية المتاحة لهم في الأرض التي احتلوها. . وإنما كان مضيق داريال معبراً لهم إلى حضارات العالم القديم في غرب آسيا. . وما زالت سلالاتهم حتى اليوم تقيم في المنطقة. . وإن اتخذوا أسماء جديدة. . فالجركس مثلاً اسم عام يطلق على هؤلاء الأقوام الذين كانوا يسكنون فيما مضى القسم الشمالي الغربي من جبال القوقاز، وقسماً من الشمـالية الشـرقية للبحـر الأسود. . وبقي من سلالاتهم عدد لا بأس به بعد أن هاجرت جموع منهم عبر التاريخ إلى آسيا الصغرى. . وكان الأوروبيون في رعب أيضاً منهم وأطلقوا عليهم (كركيتاي) و (زككوي). . أما هم فيحلوا لهم أن يسموا أنفسهم (أدغة) أو (أدزيغة) كما يطلق عليهم أيضاً أبزاخ وشابسغ، وناتخواج، وكابرتاي، وبسلني وموخوش وكمكوي وخاتوكي وبزه دوغ وزان، ويرى الأوروبيون الأقدمون أيضاً أن منهم قبائل جوبين وخجيك وختوق، ولكنهم في الحقيقة اندمجوا منذ عهد بعيد في غيرهم من القبائل أو انقرضوا بفعل الحروب والأوبئة[1].

لكن هل هم المغول حقاً؟

قال محقق كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب[2]: وقد أثبت المحققون مـن رجال التاريخ أن أصل المغول والتتر من رجل يقال له «ترك» وسماه أبو الفداء باسم «مأجوج» فيظهر من هذا أن المغول والتتر هم يأجوج ومأجوج وكانوا يشغلون الجزء الشمالي من آسيا الكبرى من التيبت جنوباً إلى المحيط المتجمد الشمالي، وتنتهي بلادهم غرباً بما يلي بلاد التركستان. . . وذكروا أن منهم الأمم المتوحشة والجيوش الجارفة التي انحدرت من هضبات آسيا الوسطى إلى أوروبا وآسيا الغربية مقر الأنبياء صلـوات الله وسلامه عليهم. . . ظهر منهم رجل يسمى (تموجيني) وهو جنكيز خان سنة ٦٢٤ فاكتسح بجموعـه

(١) انظر مفاهيم جغرافية من ص ٢٨٨ - ٢٩٢ باختصار.
(٢) جـ ١٤ ص ٣٠٧ الهامش.

قسماً عظيماً من البلاد الإسلامية.. وعرف صاحب التفسير الفريد يأجوج ومأجوج بأنهم من المغول، وأصلهما من أب واحد يسمى ترك، وهو من أولاد يافث[1].

قال الأستاذ الطباخ: وإلى الآن يدعى سكان شمالي البلاد الصينية من غربها إلى شرقها بالمغول كما تراه في خريطة آسيا. قال في النخبة الأزهرية في الكلام على البلاد الصينية ص(٥٣٦): فأما بلاد المغول فتمتاز بصحراء واسعة قاحلة يظنونها قاع بحر جف ماؤه تدعى صحراء قوبي أو شامو، والماء قليل بهذه البلاد ولا توجد مدنها إلا بسفوح الجبال حيث يوجد الماء[2]..

وذهب الباحث الإسلامي سيد قطب إلى أنه من الممكن أن يكون يأجوج ومأجوج هم المغول وتكون غارات المغول والتتار التي اجتاحت الشرق هي انسياح يأجوج ومأجوج، وهناك حديث صحيح رواه الإمام أحمد عن سفيان الثوري، وساق حديث: فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج.. قال: وقد كانت هذه الرؤيا منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن وقد وقعت غارات التتار بعدها، ودمرت ملك العرب بتدمير الخلافة العباسية على يد هولاكو في خلافة المستعصم آخر ملوك العباسيين، وقد يكون هذا تعبير رؤيا الرسول ﷺ وعلم ذلك عند الله. وكل ما نقوله ترجيح لا يقين[3]. وقال الشيخ طنطاوي جوهري: .. ثم إن (جنكيزخان) هو المراد بحديث «يخرج في آخر الزمان رجل يسمى أمير العصب أصحابه محسورون محقرون مقصون عن أبواب السلطان، يأتونه من كل فج عميق، كأنهم فزع الطريق يورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها».

وقد حمله بعض العلماء قديماً على (جنكيزخان) المذكور[4].

---

(١) التفسير الفريد جـ٣ ص ١٨١٧.

(٢) ذو القرنين وسد الصين ص ٥١.

(٣) في ظلال القرآن جـ٤ ص ٢٢٩٣ ـ ٢٢٩٤.

(٤) انظر تفسير (الجواهر في تفسير القرآن الكريم) جـ٩ ص ٢٠٤ للشيخ طنطاوي جوهري. الطبعة الثانية ١٣٥٠ هـ.

وقد ساق هذا الحديث وغيره ليستدل بذلك إلى أن المقصود بهم المغول.

ويرى الدكتور عبد العليم خضر أن التتار اسم لشعب يختلف مدلوله باختلاف العصور. . لكن «طومسون» يرى أن التتر اسم يطلق على المغول أو فريق منهم وليس على الشعب التركي. . ويقول: إن الترك أخرجوا من منغوليا ليحل محلهم المغول حينما قامت إمبراطورية القره خطاي، وقد صحبت بعض العشائر التترية قبائل الترك حين خرجت من منغوليا وسارت معها متجهة من أواسط آسيا صوب الغرب.

وجاء في أخبار الغزوات المغولية التي تمت في القرن السابع الهجري أن الغزاة كانوا يعرفون في كل جهة باسم التتر وهي بالصينية تاتا. وقد أطلق ابن الأثير هذا الاسم على أسلاف جنكيزخان وهم «التيمان». . وأنهم أجداد التتر. .

ويظهر أن الشعوب التي انحدرت من أصل مغولي وتتحدث بالمغولية كانت تسمي نفسها باسم التتر. . ولكن حل محل هذا الاسم بعد عهد جنكيزخان في منغوليا وآسيا الوسطى الاسم «مغول» وهو الاسم الذي استعمله رسمياً جنكيزخان[١]. .

ويذهب إلى أنهم المغول والتتار، العلامة القاسمي أيضاً[٢].

أما الدكتور البوطي فإنه لا يرى هذا الرأي، فهو يقول: إن ما قد يقوله بعضهم استنتاجاً واجتهاداً من أن يأجوج ومأجوج هم التتر والمغول الذين جاؤوا وانتهوا كلام لا معتمد له ولا داعي إليه، بل هو فيما يبدو مخالف لنصوص الأحاديث الصحيحة الدالة على أنهم إنما يظهرون في وقت نزول عيسى ابن مريم، وبعد ظهور الدجّال. وحسبنا أن نعلم بأن هذه الآية إذا ظهرت فإن ظهورها سيتكفل بالتعريف بها للناس كلهم تعريفاً لا يشوبه شك أو

---

(١) مفاهيم جغرافية ٢٨٤ ـ ٢٨٥ باختصار.

(٢) تفسير القاسمي جـ ١١ ص ٤١١٣ ـ ٤١١٤.

احتمال ولا يحوج إلى استنتاج أو اجتهاد[1].

لكنني أظن أن الدكتور البوطي لو قسم يأجوج ومأجوج إلى قسمين لكان أولى.. فقسم ظهر وقسم لم يظهر بعد.. أما الذي ظهر فهو كما قال تعالى في سورة الكهف: ﴿.. قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض..﴾ وما لم يظهر بعد سيكون في وقت نزول عيسى عليه السلام. وبذلك يمكن التوفيق بين الأقوال، ولن تكون مخالفة لنصوص الأحاديث الصحيحة.

أما قوله تعالى: ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج..﴾ فسيأتي شرحه في مكانه إن شاء الله.

مكان يأجوج ومأجوج:

قال صاحب البدء والتاريخ: ولا يختلفون أنهم في مشارق الأرض[2].

قال العلامة المسعودي: وأقصى العمران في المشرق أقصى حدود بلاد الصين والسيلي إلى أن ينتهي ذلك إلى ردم يأجوج ومأجوج الذي بناه الإسكندر دافعاً ليأجوج ومأجوج عن الفساد في الأرض، والجبل الذي وراءه ووقع في فجه الردم، ومنه كان مخرجهم، بدؤه خارج العمران في الإقليم السابع، طرف مبدئه مستقبل المشرق ثم ينعطف ناحية الجنوب ويستقيم ممره طولاً إلى أن ينتهي إلى بحر أوقيانوس المظلم المحيط فيتصل به[3]..

وإذا كان المقصود بهم المغول والتتار فإنهم ـ كما في تفسير الجواهر ـ بإجماع مؤرخي العرب والإفرنج كان خروجهم من هضبات آسيا الوسطى وحدبها[5].

ونقل طنطاوي جوهري عن صاحب فاكهة الخلفاء وتهذيب الأخلاق أن

---

(١) كبرى اليقينيات الكونية ص ٣٥٦.
(٢) البدء والتاريخ جـ٢ ص ٢٠٤.
(٣) التنبيه والإشراف للمسعودي ص ٢٤.
(٤) التفسير الفريد جـ٣ ١٨١٧.
(٥) تفسير الجواهر جـ٩ ص ٢٠٥ والتفسير الفريد جـ٣ ص ١٨١٧.

يأجوج ومأجوج كانوا يشغلون الجزء الشمالي من آسيا وتمتد بلادهم من (التبت والصين) إلى المحيـط المتجمد الشمالي وتنتهي غرباً مما يلي بلاد التركستان[١]. قال: وقد فصل في رسائل قديمة ألفت في نحو القرن الثالث والرابع وذكر فيها أن أمة يأجوج ومأجوج هم سكان تلك الجهة المتقدمة شمال الصين، وحددت بلادهم بأنها من نحو سبع وعشرين درجة من العرض الشمالي إلى نحو خمسين درجة منه، وهذه البلاد الآن جزء عظيم من الصين وفيها (بكين) عاصمتها الآن[٢].

وكانت هذه القبائل المتوحشة زمن كورش (في القرن السادس قبل الميلاد) تسكن المنحـدرات الشمالية والجنوبية لسلاسل الجبال القوقازية، ولكن في أقصى المغرب.. أي الضفة اليسرى لنهر قوبان وروافده وشاطىء البحر الأسود حتى نهر شخة[٣]..

أين هم الآن؟

يقول الدكتور خضر:

وكل الأبحاث العلمية الحديثة تؤكد على أن الشعب الذي يتحدث بالتركية في استراخان على بحر قزوين، شمال جبال القوقاز من سلالات التتر القدامى، الذين كانوا يغيرون عبر مضيق داريال الجبلي في جبال القوقاز على شعوب جورجيا وأرمينية وأذربيجان، وهم يقيمون الآن في السفوح الشمالية لجبال القوقاز ويطلق عليهم شِشن أنفوشيا.

وقد أصبح اليوم اسم تتر شائعاً في الاتحاد السوفييتي، وتوجد منذ سنة ١٩٢٠ جمهورية مستقلة استقلالاً ذاتياً هي جمهورية الاتحـاد السوفييتي التتري، وعاصمتها «قازان». كما يتركز قسم عظيم من التتر شمال جبال القوقاز في «مقاطعة كراتشاي» ذات الحكم الذاتي والتي تخضع حالياً للاتحاد السوفييتي، وهي مقاطعة «ستافروبول»، ورغم أنها تحمل اسماً شركسياً، إلا

---

(١) تفسير الجواهر جـ ١٢ ص ٢٠٣.

(٢) تفسير الجواهر جـ ٩ ص ٢٠٦.

(٣) مفاهيم جغرافية ص ٢٩٢.

أن سكانها ليسوا من العناصر الشركسية، وإنما هم من المغول «التتر»، وتدل على ذلك صفاتهم، كما أنهم يتكلمون لغة خاصة بهم أقرب إلى اللغة التركية تؤكد أيضاً أصلهم المغولي. . وينتمي سكان كبرديا، أو قبرطاي أيضاً إلى الجنس التتري وهم مبالغون في عصبيتهم، ويتفاخرون بها أشد المفاخرة وينظرون إلى جميع العناصر المجاورة لهم من شركسية وغيرها نظرة فيها شيء من الاحتقار. ومن جمهورية كبرديا تنبع الروافد الكثيرة لنهر ترك لأن البلاد تقع شمال جبال القوقاز. . وجميع هذه القبائل تسمى تتر في آسيا. . وعند الأوروبيين أحياناً باسم «ميغر» وكانت تقطن السهول الشمالية الشرقية من آسيا وتدفقت سيولها عبر التاريخ على دفعات قبل الميلاد، وحتى القرن التاسع بعد الميلاد غرباً، وكذلك نحو الجنوب، مغيرة على حضارات العالم القديم[1].

ومن التحقيقات الجغرافية للأجناس المغولية حول بحر قزوين والبحر الأسود، ثبت وجود فروع منهم هناك تنتمي لجنس أصفر البشرة في الشمال، وجنس جنوبي أسمرها. .

وعلى كل حال، فقد كان اعتصامهم بذرى جبال القوقاز الشم العالية، مدعاة لاحتفاظهم بأنفسهم وبسلالاتهم طوال هذه العصور[2].

خروج يأجوج ومأجوج:

في قوله تعالى: ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ﴾ قال العلامة القاسمي: المراد منه خروجهم بكثرة وانتشارهم في الأرض كما يخرج الشيء المحبوس أو المضغوط إذا انفجر، واستعمال لفظ (الفتح) مجازاً شائع في اللغة، ومنه قولك: (فتحوا البلاد) وقوله تعالى: ﴿ فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾[3]. فليس للأشياء أبواب. وكذلك يأجوج ومأجوج لا باب لهم، بل

(١) مفاهيم جغرافية ص ٢٨٥ ـ ٢٨٨ باختصار.
(٢) انظر باختصار مفاهيم جغرافية ص ٢٩٣.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.

هم من كل حدب ينسلون، والغالب أن المراد بخروجهم هذا، خروج المغول التتار، وهم من نسل يأجوج ومأجوج وهو الغزو الذي حصل منهم للأمم في القرن السابع الهجري.

وناهيك بما فعلوه إذ ذاك، بعد أن انتشر ما فيها من الإفساد والنهب والقتل والسبي[1]، ويذهب الشيخ طنطاوي جوهري أيضاً إلى هذا الرأي، ويذكر سبب خروج جنكيزخان وحصده الأرواح أن سلطان خوارزم قتل رسل جنكيزخان والتجار المرسلين من بلاده وسلب أموالهم وأغار على أطراف بلاده فاغتاظ جنكيزخان وكتب إليه كتاباً يهول فيه ويشنع على السلطان[2]..

* * *

روى مسلم والترمذي وأبو داود عن حذيفة الغفاري رضي الله عنه قال: اطّلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر الساعة فقال: ما تذكرون؟ قالوا: نذكر الساعة. قال: إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات. فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم ﷺ ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب. وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم[3].

وروى الإمام أحمد قال:

حدثنا سفيان عن الزهري عن عروة عن زينب بنت أبي سلمة، عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت أبي سفيان، عن أمها أم حبيبة عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ - قال سفيان: أربع نسوة - قالت: استيقظ النبي ﷺ من نومه وهو محمر الوجه، وهو يقول: لا إلَه إلا الله! ويل للعرب من شر قد اقترب! فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا، وحلّق [في صحيح البخاري: وعقد سفيان تسعين أو مائة..]. قلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا

(١) تفسير القاسمي جـ ١١ ص ٤١١٤.
(٢) تفسير الجواهر جـ ٩ ص ٢٠٤.
(٣) انظر التاج الجامع للأصول جـ ٥ ص ٣٣٤.

الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث. [أي الفسق والفجور]. قال ابن كثير: هذا حديث صحيح، اتفق البخاري ومسلم على إخراجه، من حديث الزهري ولكن سقط في رواية البخاري ذكر حبيبة وأثبتها مسلم[1].

وقد اختلفت الروايات بين أن يكون الرسول ﷺ هو الذي عقد التسعين[2] أم سفيان، وأن يكون قد عقد التسعين أم العشرة. ففي رواية البخاري عن سفيان بن عيينة أنه هو عقد تسعين أو مائة. وفي روايته عن الزهري (وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها). وفي رواية سليمان بن كثير عن الزهري عند أبي عوانة وابن مردويه مثل هذه (وعقد تسعين) ولم يعين الذي عقد أيضاً. وفي رواية مسلم عن عمرو الناقد عن ابن عيينة وعقد سفيان عشرة[3].

قال ابن حجر: وعقد التسعين أن يجعل طرف السبابة اليمنى في أصلها ويضمها ضماً محكماً بحيث تنطوي عقدتاهما حتى تصير مثل الحية المطوية، ونقل ابن التين عن الداودي أن صورته أن يجعل السبابة في وسط الإبهام[4] ورده ابن التين بما تقدم، فإنه المعروف، وعقد المائة مثل عقد

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٩٤.

(٢) يقول ابن حجر: وأما عقد الحساب فإنه اصطلاح للعرب تواضعوه بينهم ليستغنوا به عن التلفظ، وكان أكثر استعمالهم له عند المساومة في البيع، فيضع أحدهما يده في الآخر فيفهمان المراد من غير تلفظ لقصد ستر ذلك عن غيرهما ممن يحضرهما فشبه ﷺ قدر ما فتح من السد بصفة معروفة عندهم. وقد أكثر الشعراء التشبيه بهذه العقود، ومن ظريف ما وقفتُ عليه من النظم في ذلك، قول بعض الأدباء:

رب برغوث ليلة بتُّ منه ... وفؤادي في قبضة التسعين
أسرته يد الثلاثين حتى ... ذاق طعم الحمام في السبعين

وعقد الثلاثين أن يضم طرف الإبهام إلى طرف السبابة مثل من يمسك شيئاً لطيفاً كالإبرة وكذلك البرغوث. وعقد السبعين أن يجعل طرف ظفر الإبهام بين عقدتي السبابة من باطنها ويلوي طرف السبابة عليها مثل ناقد الدينار عند النقد. فتح الباري جـ١٣ ص ٩٦.

(٣) انظر هذه الروايات وغيرها في فتح الباري جـ١٣ ص ٩٥.

(٤) ذكر ذلك أيضاً الإمام الخازن، قال: هو أن تجعل رأس إصبعك السبابة في وسط الإبهام من باطنها شبه الحلقة لكن لا يتبين لها إلا خلل يسير. انظر لباب التأويل في معاني التنزيل جـ٣ ص ٢١٢ للعلامة علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي المعروف بالخازن.

التسعين لكن بالخنصر اليسرى، فعلى هذا فالتسعون والمائة متقاربان ولذلك وقع فيهما الشك. . . وأما العشرة فمغايرة لهما، وهو أن يجعل طرف السبابة اليمنى في باطن طي عقدة الإبهام العليا[1].

أما تخصيص العرب بذلك فلأنهم كانوا حينئذ معظم من أسلم، والمراد بالشر ـ كما يقول ابن حجر ـ ما وقع بعده من قتل عثمان، ثم توالت الفتن حتى صارت العرب بين الأمم كالقصعة بين الأكلة[2].

ولكن أليس الأقرب أن يقال إن خروج يأجوج ومأجوج هو المراد بـ «الشر» في الحديث؟ ثم إن تخصيص العرب بهذا الويل، لأنهم كانوا أكثر المسلمين، وإن غاراتهم الوحشية كانت في البلاد التي يسكنونها. وإن سقوط عاصمة الخلافة كانت بمثابة سقوطهم هم من القيادة؟!.

أما الأستاذ سيد قطب فيرى أن قوله تعالى: ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، واقترب الوعد الحق. . ﴾ لا يحدد زماناً معيناً لخروج يأجوج ومأجوج، فاقتراب الوعد الحق بمعنى اقتراب

---

(١) فتح الباري جـ ١٣ ص ٩٦. يقول ابن المغربي في منظومته (لوح الحفظ):

وشبهوا التسعين في انعقادها ... كلفّة الحية في رقادها
والفرق بين عقدها والعشره ... بأنها مضمومة منحصره

أشار إلى أن عقد التسعين يحصل بوضع رأس السبابة على رأس الإبهام كالحية إذا نامت، وهي كالعشرة، لكن هنا يجعل طرف السبابة فوق رأس الإبهام بخلاف العشرة. وفي باب عقد المئات قال:

ثم اعقدِ المئاتِ في الشمال ... كالعشرات فاستمع مقالي
واعلم بأن شكلها كشكلها ... وأصلَها في عقدها كأصلها
نالت كنَيل فلك في أقسامها ... سبابة الشمال مع إبهامها

أشار إلى أن المئات في اليد اليسرى كالعشرات في اليد اليمنى، فهي مختصة بالإبهام والسبابة، قال:

فالمائة الأولى تُحاكي العشرة ... فقس على ذلك يا ذا المخبرَة

أشار إلى أن عقد المائة يشبه عقد العشرة فيحصل بوضع رأس سبابة اليسرى في عقد الإبهام مع بسطه كالحلقة. انظر كتيب حساب العقود، سلسلة رسائل مفيدة، دار البصائر، ط ١ ١٤٠١ هـ. الصفحات ٥٦، ٥٧، ٦١، ٦٢، ٦٣، باختصار.

(٢) انظر فتح الباري جـ ١٣ ص ٩٦.

الساعة قد وقع منذ زمن الرسول ﷺ فجاء في القرآن: ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾[1] والزمان في الحساب الإلّهي غيره في حساب البشر، فقد تمر بين اقتراب الساعة ووقوعها ملايين السنين أو القرون يراها البشر طويلة مديدة وهي عند الله ومضة قصيرة[2].

وربما يبدر هنا سؤال: ما وجه الجمع بين قوله تعالى: ﴿ فما اسطاعوا أن يظهروه، وما استطاعوا له نقباً ﴾ وبين الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها: «لا إلّه إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق تسعين»؟ يجيب عن هذا ابن كثير فيقول: أما على قول من ذهب إلى أن هذا إشارة إلى فتح أبواب الشر والفتن وأن هذه استعارة محضة وضربُ مثلٍ فلا إشكال. وأما على قول من جعل ذلك إخباراً عن محسوس كما هو الظاهر المتبادر فلا إشكال أيضاً، لأن قوله: ﴿ فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً ﴾ أي في ذلك الزمان، لأن هذه صفة خبر ماض، فلا ينفي وقوعه فيما يستقبل بإذن الله لهم في ذلك قدراً، وتسليطهم عليه بالتدريج قليلاً قليلاً حتى يتم الأجل وينقضي الأمر المقدر، فيخرجون كما قال الله تعالى: ﴿ وهم من كل حدب ينسلون ﴾[3].

وفي حديث آخر روى الإمام أحمد عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ قال: «لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، قال: فتذاكروا أمر الساعة فردوا أمرهم إلى إبراهيم، فقال: لا علم لي بها، فردوا أمرهم إلى موسى فقال: لا علم لي بها، فردوا أمرهم إلى عيسى، فقال: أما وجَبْتَها فلا يعلم بها أحد إلا الله، وفيما عهد إليّ ربي أن الدجّال خارج، ومعي قضيبان، فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص. قال: فيهلكه الله إذا رآني، حتى إن الحجر والشجريقول: يا مسلم إن تحتي كافراً فتعال فاقتله.

---

(١) سورة القمر، الآية: ١.

(٢) في ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢٢٩٣ ـ ٢٢٩٤.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٢ ص ١١١ ـ ١١٢.

قال فيهلكهم الله. ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم قال: فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيطؤون بلادهم، لا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه.

قال: ثم يرجع الناس إليَّ يشكونهم. فأدعو الله عليهم فيهلكهم ويميتهم، حتى تجوى الأرض[1] من نتن ريحهم، وينزل الله المطر فيجترفون أجسادهم، حتى يقذفهم في البحر. ففيما عهد إليّ ربي أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتم[2]، لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادها ليلاً أو نهاراً»[3].

قال ابن كثير: ورواه ابن ماجه عن محمد بن بشار عن يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب به نحوه، وزاد: قال العوام: ووجد تصديق ذلك في كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ﴾ ورواه ابن جرير ههنا من حديث جبلّة به[4].

---

(١) جوى الأرض يجوي إذا أنتن.

(٢) يقال حامل متمم: إذا شارفت الوضع.

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٧٠.

(٤) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٧٠ - ٣٧١.

أما عن كيفية فتح السد: فقد روى الإمام أحمد والترمذي في التفسير، وابن ماجه في الفتن عن أبي رافع عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً، فيعودون إليه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس حفروا، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله. فيستثني؛ فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس. انظر تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٩٣ والسراج المنير جـ ٢ ص ٣٣٣، وانظره في فتح الباري جـ ١٣ ص ٩٦ مع اختلاف في بعض الألفاظ. ورواه الإمام أحمد أيضاً عن حسن - هو ابن موسى الأشيب - عن سفيان عن قتادة به، وكذا رواه ابن ماجه عن أزهر بن مروان عن عبد الأعلى عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال: حدث أبو رافع. وأخرجه الترمذي من حديث أبي عوانة عن قتادة ثم قال: غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. قال ابن كثير: وهذا إسناد جيد قوي، ولكن في رفعه نكارة، لأن ظاهر الآية يقتضي أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا من نقبه لإحكام بنائه وصلابته وشدته، ولكن هذا قد روي عن كعب الأحبار أنهم قبل خروجهم يأتونه فيلحسونه ويقولون: غداً نفتحه، ويلهمون أن يقولوا: «إن شاء الله»، فيصبحون وهو كما فارقوه =

قال ابن كثير: والأحاديث في هذا كثيرة جداً، والآثار عن السلف كذلك.

وفي صحيح مسلم: «.. ثم يأتي عيسى ابن مريم قومٌ قد عصمهم الله

= فيفتحونه، وهذا متجه، ولعل أبا هريرة تلقاه من كعب، فإن كثيراً ما كان يجالسه ويحدثه. فحدث به أبو هريرة، فتوهم بعض الرواة عنه أنه مرفوع فرفعه والله أعلم. تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٩٤. أما الحافظ ابن حجر فقد قال عن هذا الحديث: أخرجه الترمذي والحاكم من رواية أبي عوانة، وعبدُ بن حميد من رواية حماد بن سلمة، وابن حبان من رواية سليمان التميمي كلهم عن قتادة، ورجاله رجال الصحيح، إلا أن قتادة مدلس، وقد رواه بعضهم عنه فأدخل بينهما واسطة، أخرجه ابن مردويه، لكن وقع التصريح في رواية سليمان التميمي عن قتادة بأن رافع حدثه وهو في صحيح ابن حبان، وأخرجه ابن ماجه من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال: حدث أبو رافع، وله طريق آخر عن أبي هريرة أخرجه عبد بن حميد من طريق عاصم عن أبي صالح عنه لكنه موقوف. فتح الباري جـ ١٣ ص ٩٦.

قال ابن العربي: في هذا الحديث ثلاث آيات: الأولى أن الله منعهم أن يوالوا الحفر ليلاً ونهاراً. الثانية: منعهم أن يحاولوا الرقي على السد بالسلم أو الآلة فلم يلهمهم ذلك ولا علمهم إياه، أي مع أنه ور د خبرهم عند وهب أن لهم أشجاراً وزروعاً وغير ذلك من الآلات. الثالثة: أنه صدهم أن يقولوا إن شاء الله تعالى حتى يجيء الوقت المحدود. الإشاعة ص ٢٣٣ وفتح الباري جـ ١٣ ص ٩٦ ـ ٩٧. قال ابن حجر:

ويحتمل أن تكون تلك الكلمة تجري على لسان ذلك الوالي من غير أن يعرف معناها فيحصل المقصود ببركتها. وقد أخرج عبد بن حميد من طريق كعب الأحبار نحو حديث أبي هريرة، وقال فيه: فإذا بلغ الأمر ألقي على بعض ألسنتهم: نأتي إن شاء الله غداً فنفرغ منه، وأخرج ابن مردويه من حديث حذيفة، نحو حديث أبي هريرة، وفيه: فيصبحون وهو أقوى منه بالأمس حتى يسلم رجل منهم حين يريد الله أن يبلغ أمره فيقول المؤمن: غداً نفتحه إن شاء الله. فيصبحون ثم يغدون عليه فيفتح. الحديث وسنده ضعيف جداً. فتح الباري جـ ١٣ ص ٩٧.

وفي رواية لكعب أنهم ينقرون السد بمناقيرهم كل يوم فيعودون وقد عاد كما كان.. البدء والتاريخ جـ ٢ ص ٢٠٦. ورد على مثل هذا الأستاذ الطباخ بقوله: إن هذه الجملة من الحديث يبطلها المشاهدة والعقل.. فبناء في هذه الضخامة كيف يلحس بالألسنة كله أو بعضه.. ثم إذا بلغ هذا الحد من الرقة وهو في هذا الارتفاع فلا بد من أن ينهار، ثم بقاؤه ورجوعه إلى أقل ما كان عليه كما جاء في أول الحديث الذي نقلناه عن جامع الترمذي مخالف لسنة الكون. وهذا يؤيد ما قاله بعضهم من أن هذا الحديث منقول عن كعب الأحبار.

انظر ذو القرنين وسد الصين ص ٨٦. وانظر بعض الخرافات المبثوثة في كتاب النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين لنعمة الله الجزائري (الشيعي) ص ١٤٠ ـ ١٥٣ دون أن ينبه إليها المؤلف. ومما نقله ما ذكره عن تفسير الكليني أن الخضر والإلياس يجتمعان في كل ليلة على ذلك السد يحجبان يأجوج ومأجوج من الخروج ص ١٥٧.

منه، فيمسح عن وجوهم ويحدّثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كـذلك إذ أوحى الله إلى عيسى أني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرّز[١] عبادي إلى الطور. ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمرّ أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمرُّ آخرهم فيقولون لقد كان بهذه مرة ماء، ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسى[٢] كموت نفس واحدة ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زَهَمهم ونتنهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطراً لا يكنُّ منه مَدَرٌ[٣] ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة[٤]، ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك وردي بركتك. فيومئذ تأكـل العصابـة من الرمـانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرِّسل[٥]، حتى إن اللِّقحة من الإبل[٦] لتكفي ألفاً من الناس[٧]، واللِّقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللِّقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة»[٨].

---

(١) قال الإمام النووي: ومعنى حرزهم إلى الطور أي ضمهم واجعله لهم حرزاً، يقال: أحرزت الشيء أحرزه إحرازاً إذا حفظته وضممته إليك، وصنته عن الأخذ. ووقع في بعض النسخ: حزِّب بالحاء والزاي ومعناه: نحِّهم وأزلهم عن طريقهم إلى الطور. انظر صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٨ ص ٦٨.

(٢) أي قتلى، الواحد فريس.

(٣) أي لا يمنع من نزول الماء بيت، المدر بفتح الميم والدال وهو الطين الصلب.

(٤) شبهها بالمرآة في صفائها ونظافتها.

(٥) اللبن.

(٦) القريبة العهد بالولادة.

(٧) الجماعة الكثيرة.

(٨) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٨ ص ٦٨ ـ ٧٠.

وفي رواية لمسلم أيضاً بعد قوله: لقد كان بهذه مرة ماء: ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر[1]، وهو جبل بيت المقدس فيقولون لقد قتلنا من في الأرض هلم فلنقتل من في السماء، فيرمون بنشابهم إلى السماء فيردّ الله عليهم نشّابهم مخضوبة دماً[2].

قال ابن حجر: وأخرج الحاكم من طريق أبي حازم عن أبي هريرة نحوه في قصة يأجوج ومأجوج، وسنده صحيح. وعند عبد بن حميد من حديث عبد الله بن عمرو: فلا يمرون بشيء إلا أهلكوه، ومن حديث أبي سعيد رفعه يفتح يأجوج ومأجوج فيعمون الأرض وتنحاز منهم المسلمون فيظهرون على أهل الأرض فيقول قائلهم: هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم. فيهز آخر حربته إلى السماء، فترجع مخضبة بالدم، فيقولون: قد قتلنا أهل السماء، فبينما هم كذلك، إذ بعث الله عليهم دواب كنغف الجراد فتأخذ بأعناقهم فيموتون موت الجراد يركب بعضهم بعضاً[3].

وانظر هذا الحديث في تفسير ابن كثير مع زيادة واختلاف في بعض الألفاظ[4].

قال ابن كثير: انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري فرواه مع بقية أهل السنن من طرق، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر به، وقال الترمذي: حسن صحيح[5].

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم لكعب الأحبار حديثاً شبيهاً بحديث مسلم السابق، قال عنه ابن كثير: هذا من أحسن سياقات كعب الأحبار لما

---

(١) هو بخاء وميم مفتوحتين: الشجر الملتف الذي يستر من فيه وقد فسره في الحديث بأنه جبل بيت المقدس.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٨ ص ٧٠ ـ ٧١.

(٣) فتح الباري جـ ١٣ ص ٩٨.

(٤) جـ ٥ ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩.

(٥) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٦٩.

شهد له من صحيح الأخبار، وقد ثبت في الحديث أن عيسى بن مريم يحج البيت العتيق[1].

وأخرج الإمام أحمد قال: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبد، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يفتح يأجوج ومأجوج، فيخرجون كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿من كل حدب ينسلون﴾ فيغشون الناس، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم ويشربون مياه الأرض حتى إن بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول: قد كان ههنا ماء مرة، حتى إذا لم يبق من الناس أحد في حصن أو مدينة قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض، قد فرغنا منهم، بقي أهل السماء، قال: ثم يهز أحدهم حربته، ثم يرمي بها إلى السماء، فترجع إليه مختضبة دماً للبلاء والفتنة، فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عزّ وجلّ دوداً في أعناقهم كنغف[2] الجراد الذي يخرج في أعناقه، فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس، فيقول المسلمون: ألا رجل يشري نفسه فينظر ما فعل هذا العدو؟ قال: فيتجرد رجل منهم محتسباً نفسه قد أوطنها على أنه مقتول، فينزل فيجدهم موتى، بعضهم على بعض، فينادي: يا معشر المسلمين، ألا أبشروا إن الله عزّ وجلّ قد كفاكم عدوكم، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم، ويسرحون مواشيهم فما يكون لها رعي إلا لحومهم، فتشكر عنه كأحسن ما شكرت[3] عن شيء من النبات أصابته قط» ورواه ابن ماجه من حديث يونس بن بكير عن ابن إسحق به[4].

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٧١.

(٢) النغف دود يخرج في أنوف الإبل والغنم.

(٣) قوله تشكر من قولهم شكراً. يقال: شكرت الشاة شكراً حين امتلأ ضرعها لبناً، والمعنى أنها تمتلىء أجسادها لحماً وتسمن.

(٤) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨. وانظر الحديث عن يأجوج ومأجوج في حديث طويل في كتاب مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي المتوفى سنة ٨٠٧ بتحرير الحافظين الجليلين العراقي وابن حجر جـ ١٠ ص ٣٢٨ ـ ٣٣٠ ط ٢ عام ١٩٦٧ م.

وفي البدء والتاريخ أن مكثهم في الأرض يكون سبع سنين[1]. ويمكث الناس بعدهم عشرين سنة يحجون ويعتمرون[2]، وفي الكشاف أنهم لا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس[3]..

إذاً فهل نستطيع أن نقسم خروج يأجوج ومأجوج إلى فترات زمنية؟

يقول الشيخ طنطاوي جوهري: .. الصين ثلث العالم وهي أمة واحدة، وقد ارتقت أفلا يقال إنهم يعيدون الكرة مرة أخرى ويقلبون وجه الأرض؟ أفلا يكون هناك خروج لهم مرة أخرى ويحصل في الأرض اضطراب آخر وهلاك لا ندريه مصداقاً للآية؟ أليس ذلك هو الذي أخبر به (غليوم) ملك الألمان سابقاً إذ قال (ويل لأوروبا من الصين) وسماه الخطر الأصفر؟.. فإذا صح هذا كان هناك خروج آخر من موضع السد المتقدم ذكره. إذا صح هذا كان الخروج الأول خروجاً جزئياً لتأديب المسلمين على كسلهم ونومهم العميق وجهلهم.. ويكون قوله ﷺ: «ويل للعرب من شر قد اقترب» إلخ. راجعاً للخروج الأول. أما خروجهم الثاني فهو الذي يقلب الأرض قلباً، كيف لا والحرب اليوم بالغازات الخانقة والمعمية والمهلكة فإذا خرجوا هلكوا الحرث والنسل كما خرجوا قديماً قبل التاريخ، وكونوا أمماً في أوروبا، ثم خرجوا ثانياً لإبادة ملك (العرب)؟! والآن يخرجون لقلب وجه الأرض، ويكون قوله ﷺ: «إن الناس يحجون ويعتمرون بعد خروجهم» راجعاً للخروج السابق. أما الثالث فلا تدري ما الله فاعل بالناس ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[4]. ويقول الأستاذ الطباخ:

والذي تراءى لنا بتتبع الحديث النبوي والتاريخ أن هذا الفتح، وذلك الدك، لا يكون دفعة واحدة، بل هو تدريجي، وأن خروج يأجوج ومأجوج الذين هم المغول، وعيثهم في الأرض فساداً ليس مرة واحدة. وأن خروجهم

---

(١) البدء والتاريخ جـ ٢ ص ٢٠٦.

(٢) البدء والتاريخ جـ ٢ ص ٢٠٩ باختصار.

(٣) الكشاف جـ ٢ ص ٥٨٠.

(٤) تفسير الجواهر جـ ٩ ص ٢٠٨ والآية في سورة البقرة رقم (٢١٦).

الأعظم المشار إليه في الآية المتقدمة سيكون قرب قيام الساعة فيكون من علاماتها. ومبدأ فتح هذا السد قد جاء في الحديث الصحيح، وبه تجمع بين أقوال المفسرين في تفسير الوعد أي أن التفسيرين صحيحان[1].

ويرى الأستاذ الطباخ أن غزو المغول لبلادنا في أوائل القرن السابع الهجري هو الويل الأول للعرب من يأجوج ومأجوج. وقال بعد أن سرد تاريخ تخريب المغول: فلا ريب أن تلك المصائب العظمى التي أزالت الدولة العباسية وقتلت من المسلمين ما يربو عن أربعين مليوناً، وخربت تلك البلاد الزاهية العامرة هي الشر الكبير والويل للعرب وللمسلمين العظيم. وكل ذلك كان من قبل تلك الأمة، أمة التتار التي أتتنا من بلاد المغول الواقعة شمالي السد. فلا ريب في أنها أمة يأجوج ومأجوج التي أخبر الرسول الأعظم ﷺ أن الويل القريب سيأتي للإسلام من قبلها فكان الأمر كما أخبر، وكان ذلك من جملة معجزاته ﷺ[2].

قال الطباخ: واعلم أنه ليس من الضروري أن تأتينا المغول من جنوبي السد بعد تخريبهم به من طريق بلاد التبت، بل المدار في الحديث على أن فتح هذا السد هو علامة على قرب وقوع الشر للعرب ومنذر بهجمات تلك الأمم الواقعة في شرقي آسيا على غربيها والفتك الذريع فيها، وقد كان منها ما كان في البلاد المجاورة لها من حين خروجها في أول القرن السابع إلى أن كان منها ما كان في بغداد سنة ٦٥٦.. إلخ[3].

ويستدل الأستاذ الطباخ بحديث «فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج..» المخرج في الصحيحن وغيرهما، على أن السد قد فتح. قال: وهذا الفتح من ذلك الحين هو من علامات قرب الساعة على حد قوله تعالى: ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾[4] فقد جعل انشقاق القمر من علاماتها وكما جاء في

---

(١) ذو القرنين ص ٦٣.
(٢) ذو القرنين ص ٨٢.
(٣) ذو القرنين ص ٨٢.
(٤) سورة القمر، الآية: ١.

جامع الترمذي: «بعثت أنا والساعة كهاتين»[١] وخروج يأجوج ومأجوج للمرة الأولى والثانية وإيصالهم الشر العظيم للعرب والمسلمين، لا يمنع من أنه سيكون لهم بعد ذلك هجمة أخرى عظيمة على غربي البلاد الآسيوية وأنها ستلاقي منهم أفظع الأمور وأشد المنكرات، والأحاديث النبوية التي جاءت في كتاب الفتن تدل على هذا[٢].

كلمة توضيحية أخيرة

ولعلك تسأل بعد هذا كله: ما حقيقة يأجوج ومأجوج؟ وهل هم المغول حقاً؟ وأين يكونون الآن؟ وما جنسياتهم؟.

وقد سقت لك أقوالاً متعددة للعلماء والمؤرخين ووجهات نظرهم.. حتى يكون الاطلاع عاماً على هذه الأدلة.

وأرى أن (يأجوج ومأجوج) لا تعني قومية معينة، وجنساً خاصاً من البشر. بل إنها كلمة تطلق على أقوام همجيين، شأنهم الفساد في الأرض. وقد كان لهم وجود أيام ذي القرنين، حيث مُنعوا من إفساد الحياة على غيرهم حينما وضع حداً لغاراتهم ببناء السد. وهو كما قال تعالى: ﴿ قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض.. ﴾ إلى آخر الآيات الواردة في هذا الشأن.

ولم تستطع الأقوام الهمجية في تلك الحقبة من التاريخ أن تجد لها طريقاً تعبره من السد: ﴿ فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً ﴾. أي أن هؤلاء الأقوام المفسدين في ذلك الوقت، لم يستطيعوا ذلك. وليس في الآية ما يدل على أن السد سيكون مانعاً لخروجهم في المستقبل.

وقد تبين لنا من التاريخ أن بعض الأقوام في فترة ما من التاريخ

(١) عن سهل رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: بعثت أنا والساعة هكذا، ويشير بإصبعيه فيمدهما. وفي رواية: بعثت أنا والساعة كهاتين، وضم السبابة والوسطى. رواه الشيخان والترمذي. انظر التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول (ﷺ) جـ ٥ ص ٣٣١.

(٢) ذو القرنين وسد الصين العظيم ص ٨٦.

استطاعوا أن يجدوا لهم طريقاً للخروج من الساحل الذي تشكل نتيجة انحسار ماء البحر.. ثم سد ذلك الساحل.. وإذا علمنا أن الرسول ﷺ ذكر أنه فتح من ردم يأجوج ومأجوج، فلا يستبعد أن تكون أقوام من وراء ذلك السد قد رأوا هذا المنفذ، وبطريقة ما، استطاعوا بعد فترة أن يعيثوا فساداً في الأرض.

يبقى قوله تعالى: ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون﴾[1] وهذه الآية تعني أن هذه الأقوام ستخرج من كل مكان. وليس من وراء السد فقط. ولا أحد يقول الآن بأن السد الموجود في الاتحاد السوفييتي عائق لخروج الناس من هناك! والآية واضحة الدلالة. فهم لا ينسلون من مكان معين. بل ﴿هم من كل حدب ينسلون﴾ ولكن من هم هؤلاء الأقوام؟ وما جنسيتهم؟.

والجواب أن علم ذلك عند ربي.. لا يعلمه أحد!.

فيأجوج ومأجوج المذكورون في الآية السابقة، يعتبر خروجهم علامة من علامات يوم القيامة الكبرى، ويكون ذلك في وقت نزول عيسى عليه الصلاة والسلام، كما ورد ذلك في صحيح مسلم الذي مر بنا قبل صفحات.

وإلى ذلك.. يحدث الله ما يريد، ويخلق ما يشاء.. خاصة أن كلمة «أخرجتُ» في قوله ﷺ ـ الذي أخرجه مسلم ـ: «أخرجتُ عباداً لي» ـ الذين هم يأجوج ومأجوج ـ: يزيدنا جهلاً بهم.

فأمة يأجوج ومأجوج علم غيبي، مثل غيره من علامات الساعة.. كالدجال، والدخان، والدابة، والنار..

ولا شك أن كل هذه العلامات ستعرف في حينها عين اليقين.. والخير ألا نخوض في شيء غيبي نجهله.. بل يكفي أن نقف على دلالات النصوص الصحيحة.. ونستلهم منها العبر والمبادىء والدروس..

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٦.

المبحث الثاني
سد ذي القرنين

ما قيل عن السد:

لقد ذكر الله تعالى من عظمة هذا السد الذي بناه ذو القرنين ما يعجب له المرء.. البناء الشاهق، ذو العرض الضخم من الحديد، الذي توقد عليه جميعاً نيران مسعرة ويضاف إليه النحاس المذاب، ويسد به ما بين جبلين عاليين ليس من الشيء السهل ولا الميسر.. بل هذا مما مكن الله تعالى لذي القرنين بناءه كيلا تستطيع هاتان الأمتان (يأجوج ومأجوج) من خرقه أو العبور من فوقه.

وقد ذكر من أوصاف هذا السد أخبار مضطربة كثيرة وأقوال واهية ضعيفة، وفي هذا المبحث نسرد لك ما قيل في ذلك، ونحقق ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

ذكر الزمخشري القول إن ما بين السدين مائة فرسخ[١].

وروي أن عرضه كان خمسين ذراعاً وارتفاعه مائتي ذراع، ومسيرة الفرسخ ساعة ونصف الساعة، فتكون مسيرته مائة وخمسين ساعة مسيرةاثني عشر يوماً ونصف اليوم[٢].

وبعد أن نقل صاحب كتاب (نخبة الدهر) بعض أوصاف السد عن أحمد بن سهل البلخي، ذكر من ذلك أن ذا القرنين جعل على السد حراساً وتماثيل من حديد ونحاس كأمثالهم ولهن خوار تسمع من بعيد، وله ترتيب محكم مثل ترتيب الحرس، وهو محيط بيأجوج ومأجوج، وهو عشرة أجبل شواهق ليس فيها مسلك للمعز فضلاً عن الإنسان[٣].

(١) الكشاف جـ٢ ص ٥٨٠.
(٢) حاشية الصاوي جـ٣ ص ٢٧ مع بعض التعديل.
(٣) من كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر لشمس الدين أبي عبدالله محمد أبي طالب الأنصاري ص ٣٢.

سبب بناء السد:

ذكر الله تعالى أن ذا القرنين عندما بلغ المشرق والمغرب، اتبع سبباً آخر للوصول إلى السدين مخرج يأجوج ومأجوج، وهناك طلب منه قوم ـ لا يكادون يفهمون قولاً ـ أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سداً منيعاً كيلا يصلوا إليهم.. والسبب في هذا أنهم قوم مفسدون في الأرض... فلا يشك أنهم سيملكون الأرض ويظهرون عليها ويفسدون فيها.. وقال الكلبي: فسادهم أنهم كانوا يخرجون أيام الربيع إلى أرضهم فلا يدعون فيها شيئاً أخضر إلا أكلوه ولا يابساً إلا احتملوه وأدخلوه أرضهم، وقد بالغوا ولقوا منهم أذىً شديداً وقتلاً[1].

ويعرضون على ذي القرنين خراجاً يعطونه إياه إذا هو بنى لهم هذا السد ليتخلصوا من شرورهم.. إلا أن ذا القرنين هذا الملك الصالح الذي يمشي بين الناس لتيسير مصالحهم وإقامة العدل بينهم يرفض هذا العطاء ويقول: ﴿ما مكني فيه ربي خير﴾. أي: ما وهبني ربي من السلطان والأموال والرجال أفضل من خراجكم الذي تريدون بذله.

مكان السد:

لم يكن ليأجوج ومأجوج طريق يخرجون منها إلى أرض العمارة إلا هذه الفتحة ومسكنهم وراء هذين الجبلين، وأرضهم متسعة جداً تنتهي إلى البحر المحيط[2]. وهذان الجبلان بمنقطع أرض الترك[3].. قال الإمام الرازي: الأظهر أن موضع السدين في ناحية الشمال، وقيل جبلان بين أرمينية وبين أذربيجان، وقيل هذا المكان في مقطع أرض الترك[4].

ويقول الإمام ابن حزم الظاهري في معرض تفنيد دعوى اليهود أن الجنة التي أهبط منها آدم في الأرض ما مثاله. فإن قيل: ذكر سد يأجوج

---

(١) السراج المنير جـ ٢ ص ٣٣١ والكشاف جـ ٢ ص ٥٧٩ باختصار.
(٢) الفتوحات الإلٓهية جـ ٣ ص ٤٩.
(٣) تفسير القرآن الكريم للعلامة المحقق السيد عبدالله شبر.
(٤) تفسير الرازي جـ ٢١ ص ١٦٩.

ومأجوج ولا يدرى مكانه ولا مكانهم، قلنا: مكانه معروف في أقصى الشمال في آخر المعمور منه. وقد ذكر أمر يأجوج ومأجوج والسد أرسطاطاليس في كتابه الحيوان عند كلامه على الغرانيق، وقد ذكر سد يأجوج ومأجوج بطليموس في كتابه المسمى جغرافيا. وذكر طول بلادهم وعرضها(١).

ويقول العلامة القاسمي: الراجح أن السد كان موجوداً بإقليم داغستان التابع الآن لروسيا بين مدينتي دربند وخوزار. فإنه يوجد بينهما مضيق شهير منذ القدم يسمى عند كثير من الأمم القديمة والحديثة بـ (السُّد) وبه موضع يسمى (باب الحديد) وهو أثر سد حديدي قديم بين جبلين من جبال القوقاز الشهيرة عند العرب (بجبل قاف) وقد كانوا يقولون إن فيه السد كغيرهم من الأمم. ويظنون أنه في نهاية الأرض، وذلك بحسب ما عرفوه منها، ومن ورائه قبيلتا يأجوج ومأجوج(٢). وجاء في الجغرافية العمومية، في المقالة السابعة والأربعين في تخطيط آسيا، بلاد القوقاسيين أي أهالي كوه قاف، أي جبل قاف، إن في تلك الأقطار يمتد هذا الجبل كالسور العظيم. وفيه مجازان يسميان عند القدماء الأبواب القوقازية والأبواب الألبانية. فالمجاز الأول وهو الأبواب القوقازية هو الذي كان يخشى منه هجوم المتبربرين على كل من دولة الرومانيين والعجم. ثم إن الحصن الذي كان يسد هذا المجاز يسمى بأسماء مختلفة عند القدماء. وأما الأبواب الألبانية، فأشهر الآراء فيها أنها مجاز دربند. على امتداد بحر الخزر. ثم قال: وهناك حكاية مشهورة بين أهالي (كوه قاف) تقتضي أن هذا الجبل كان مسدوداً بسد عظيم يمنع غارة المتبربرين. وهذا السد العظيم تارة يعزى لإسكندر، وتارة لأنوشروان، ويستدلون على ذلك بآثار موجودة إلى الآن، ترى لمن يروم ذلك(٣)؟.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

كشف سد بمقربة من مدينة «ترمذ» عرف بباب الحديد. وقد مرَّ به في أوائل القرن الخامس عشر الميلادي، العالم الإسباني (سيلد برجر)، وسجله

(١) الفصل في الملل والنحل جـ ١ ص ١٢٠.
(٢) تفسير القاسمي جـ ١١ ص ٤١١٣ ـ ٤١١٤.
(٣) تفسير القاسمي جـ ١١ ص ٤١١٥.

في كتابه. وكذلك ذكره المؤرخ الإسباني (كلافيجو) في رحلته سنة (١٤٠٣) وقال: إن سد مدينة باب الحديد على الطريق ـ سمرقند والهند.. وقد يكون هو السد الذي بناه ذو القرنين[١].

ويذكر الدكتور (خضر) أن جبال القوقاز تشكل سلاسل عظيمة الامتداد، كثيرة الارتفاع، صعبة الاجتياز، معدومة الممرات إلّا في ممر واحد هو مضيق (داريال) في الوسط، وهو الذي يجري فيه أحد روافد نهر ترك العليا.. والجبال تمتد حتى تكاد ترتطم بأمواج بحر قزوين من الشرق وتمس مياه البحر الأسود من الغرب طوال امتداد يبلغ ١٢٠٠ كم.. وهي أعلى جبال أوروبا قاطبة... ولا يمكن عبورها على الإطلاق إلا من ممر داريال[٢].

وإذا كان البعض يرى أن هذا السد موجود حتى الآن ويعين مكانه، ويحدد اسمه من بين عدة جبال، ويذكر حتى المضيق الذي سُدَّ.. إلا أن هناك من يرى أن هذا السد قد دك.. يقول أحدهم:

ليس لنا أن نقول أين هذا السد الآن وأين مكانه؟ فتلك أزمان بعيدة موغلة في البعد، وقد قال الله فإذا جاء وعد ربي جعله أرضاً مستوية. فعدم وجوده دليل على أن الوعد جاء ولم يعد للسد وجود والله أعلم بكتابه[٣]. وقال بعض المحققين: اعلم أنه كثيراً ما يحدث في الثورات البركانية أن تنخسف بعض البلاد أو ترتفع بعض الأراضي حتى تصير كالجبال. وهذا أمر مشاهد حتى في زمننا هذا. فإذا سلم أن سدَّ ذي القرنين المذكور في هذه الآية غير موجود الآن، فربما كان ذلك ناشئاً من ثورة بركانية خسفت به وأزالت آثاره. ولا يوجد في القرآن ما يدل على بقائه إلى يوم القيامة. أما قوله تعالى: ﴿ هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء ﴾ فمعناه أن هذا السد رحمة من الله بالأمم القريبة منه، لمنع غارات يأجوج ومأجوج عنهم، ولكن

---

(١) في ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢٢٩٣ الهامش.

(٢) مفاهيم جغرافية ص ٢٩٦.

(٣) التفسير الواضح جـ١٦ ص ٨، الدكتور محمد محمود حجازي الطبعة الرابعة ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م مطبعة الاستقلال الكبرى.

يجب عليهم أن يفهموا أن مع متانته وصلابته لا يمكن أن يقاوم مشيئة الله القوي القدير، فإن بقاءه إنما هو بفضل الله. ولكن إذا قامت القيامة وأراد الله فناء هذا العالم، فلا هذا السد ولا غيره من الجبال الراسيات يمكنها أن تقف عثرة لحظة واحدة أمام قدرة الله. بل يدكها جمعاء دكاً في لمح البصر. فمراد ذي القرنين بهذا القول تنبيه تلك الأمم على عدم الاغترار بمناعة هذا السد، أو الإعجاب والغرور بقوتهم، فإنها لا شيء يذكر بجانب قوة الله، فلا يصح أن يستنتج من ذلك أن هذا السد يبقى إلى يوم القيامة، بل صريحه أنه إذا قامت القيامة في أي وقت كان هذا السد موجوداً دكه الله دكاً. وأما إذا تأخرت فيجوز أن يدك قبلها بأسباب أخرى. كالزلازل إذا قدم عهده، وكالثورات البركانية كما قلنا. وليس في الآية ما ينافي ذلك[1].

ويقول الأستاذ الطباخ: إن هذا البناء وإن كان عظيماً هائلاً متيناً يتحمل طوارق الزمان ويبقى مئات بل آلافاً من الأعوام فإنه لا بد له مهما طال أمد بقائه من أن يدخله الوهن وتمتد إليه أيدي التخريب، ويذهب منه ذلك النفع الذي بني لأجله. ولما كان ذو القرنين يعلم هذه الحقيقة قال: ﴿ فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء ﴾ مدكوكاً مبسوطاً بالأرض، أي أرضاً مستوية، وهذا الجعل وقت مجيء الوعد بمجيء بعض مباديه. وفيه بيان لعظيم قدرته عزّ وجلّ بعد بيان سعة رحمته ﴿ وكان وعد ربي حقاً ﴾ ثابتاً كائناً لا محالة له[2].

بنية السد:

ذكر الإمام الثعلبي أن ذا القرنين عندما وصل إلى المشرق، التقى بتلك الأمة الصالحة من الإنس. فعرضوا عليه بناء السد مقابل أن يعطوه خرجاً. لكنه قال: ما مكني فيه ربي (أي قواني) خير من خراجكم، فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً، حاجزاً كالحائط. قالوا: وما تلك القوة؟ قال: فعلة وصناع يحسنون البناء والعمل والآلة. قالوا: وما تلك الآلة؟ قال: آتوني زبر الحديد أي قطعه.. وآتوني النحاس. فقالوا من أين لنا من الحديد والنحاس

---

(١) تفسير القاسمي جـ ١١ ص ٤١١٣ - ٤١١٤.

(٢) ذو القرنين وسد الصين ص ٦٢ - ٦٣.

ما يسع هذا العمل؟ قال: سأدلكم على معادنهما. قالوا: فبأي قوة نقطع الحديد والنحاس؟ فاستخرج لهم معدناً آخر يقال له (الساهون) وهو أشد ما خلق الله في الأرض بياضاً، وهو الذي قطع به سليمان أساطين بيت المقدس وصخوره وجواهره. ثم إنه قاس ما بين الجبلين، ثم أوقد على ما جمع من الحديد والنحاس النار، وصنع منها زبراً مثل الصخور العظام، ثم أذاب النحاس فجعله كالطين والملاط لتلك الصخور التي هي من الحديد، ثم بنى. وكيفية بنائه على ما ذكر أهل السير أنه لما قاس ما بين الجبلين وجد ما بينهما مائة فرسخ. فلما أنشأ في عمله حفر له الأساس حتى بلغ الماء، ثم جعل عرضه خمسين فرسخاً، ثم وضع الحطب بين الجبلين، ثم نسج عليه الحديد، ثم نسج الحطب على الحديد فلم يزل يجعل الحطب على الحديد والحديد على الحطب حتى ساوى بين الصدفين، ثم ذكر أنه جعل النحاس على الحطب[١]. وذكر الإمام الزمخشري أيضاً أنه حفر الأساس حتى بلغ الماء وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بينهما الحطب والفحم[٢].

وقد استخدمت هذه الطريقة حديثاً في تقوية الحديد؛ فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته. وكان هذا الذي هدى الله إليه ذا القرنين، وسجله في كتابه الخالد سبقاً للعلم البشري الحديث بقرون لا يعلم عددها إلا الله[٣].

هذا وقد سجل الدكتور (خضر) بحثاً قيماً جداً في هذا الموضوع. . ونحن نستأذن منه ونلخص ما كتبه حتى يعم النفع والفائدة[٤]. .

المواد الخام التي شيد منها سد ذي القرنين حسب وصف القرآن الكريم:

---

(١) عرائس المجالس ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨ باختصار.

(٢) الكشاف جـ ١ ص ٥٨٠.

(٣) في ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢٢٩٣.

(٤) انظر باختصار ـ مفاهيم جغرافية ص ٣٠٧ ـ ٣١٢.

خامات الحديد: تحتوي أراضي أذربيجان على معادن الحديد بكميات كبيرة، والشاهد على ذلك قيام صناعة الحديد والصلب الآن في مدينة «باكو» فإذا كان الإقليم غنياً به الآن فلا شك أنه كان أغنى في السابق. أما أرمينية فغنية بمعادنها، ويكثر بها على وجه الخصوص خام الحديد والنحاس والرصاص والزرنيخ وحجر الشب والكبريت والذهب. ويذكر «ليونتيوس» المؤرخ الأرمني أن ملامح الأرض تدل على مناطق محفورة في الجبال تشير إلى استنفاد السكان الأقدمين لاحتياطي الحديد القديم الذي كان يستخرج في العراء دون عناء كبير..

وتدل التكوينات الجيولوجية على أن مناطق (بابرت ـ أرغنى) غنية بخام الحديد وبكميات وفيرة.. كما يوجد الحديد بوفرة في جورجيا.

وفي مناطق الحدود الأرمينية في تركيا إقليم الحديد المشهور الذي يقدر احتياطيه بحوالي ٢٥ مليون طن..

أما عن الفحم والأخشاب اللازمين لصهر الحديد، فتكوينات منطقة «كلاكنت» بأرمينية فيها احتياطي كبير، وفي سواحل البحر الأسود تعتبر مناجم «زونفلداك» من المناطق الغنية جداً بخامات الفحم.. وأما عن الأخشاب فيذكر ابن حوقل أن إقليم أردبيل كثير البساتين والأنهار والمياه والأشجار والفواكه..

وخامات النحاس ثبت علمياً وتاريخياً توفرها بالإقليم.. فالدراسات الجيولوجية الحديثة تثبت وجوده بوفرة في تكوينات «زنجان» و«أنارك» وشمال أصفهان وفي جنوب أذربيجان كميات هائلة منه.. وفي أرمينية أصبحت مناجم النحاس الكبيرة المعروفة منذ القدم شاهداً على استخراج السكان القدامى لخاماته..

ومن ناحية توفر العدد اللازم من حيوانات الجر والحمل.. فالإقليم غني بالثروة الرعوية والحيوانية لأنه ينحصر بين إقليم البحر المتوسط غرباً وإقليم الصين شرقاً.. والجمل أيضاً معروف هناك وهو من النوع ذي

السنامين، وحيوان «الياك» وقد استخدمه السكان في النقل تماماً كالحمير وهو يمتاز عن الحمير بوجود أظافر في رجليه تساعده على ارتقاء المرتفعات والتنقل بأحماله بينها، كما يوجد هناك منذ القدم عشرات الآلاف من الخيول السيسي الشهيرة بقدرتها على حمل الأثقال وجر العربات.

ومن حيث توفر المؤن لمواجهة استهلاك العمال والمهندسين من طعام وشراب، فقد عرف الإقليم جميع الحبوب من آلاف السنين حسبما تقول الجغرافية التاريخية، وعثر عليها في الآثار القديمة ووجدت قوارير مملوءة بالحبوب وغيرها.. وكانت أرمينية تعتبر من أخصب أملاك الخلافة العباسية.. وقد ورد أن شهرة الإقليم بالأسماك كمورد غذائي للسكان والتصدير لا تضارع.. وأودية هذا الإقليم الكبير مزدحمة بغابات الأشجار المثمرة. وداغستان بلاد زراعية بالدرجة الأولى من العصور القديمة حتى الآن. ومناخ جورجيا من آلاف السنين ملائم لزراعة الحبوب ا هـ.

باني السد

لم يقل أحد إن السد لم يبنه ذو القرنين المذكور في القرآن الكريم. لكن اختلاف الآراء في بانيه كان بسبب الاختلاف فيمن يكون ذو القرنين. فما أوردته لك من تحليل قيّم للدكتور (خضر) عن السد وبنيته وإبداع بانيه.. أسند ذلك كله إلى كورش الأخميني.. لأنه يرى مع أبي الكلام آزاد أنه هو ذو القرنين!.

كما أن غيره يرى أنه من بناء الملك الحميري، ولو أنه يقصد به سور الصين ويقول بأنه سد يأجوج ومأجوج.

وكان كل من يرى أن ذا القرنين هو الإسكندر المقدوني، يذهب بطبيعة الحال أن هذا المقدوني هو الذي بنى السد.

لكنني لم أر أعجب وأبعد من قول بعضهم إن (إجماع رواة الأمم على أن السد الذي يدعى ردم يأجوج ومأجوج من صنع الإسكندر)!.

وقد توصل القائل إلى هذه النتيجة عندما افترى على التاريخ بأن (الآراء والألسن واللغات والفرق مطابقة أن ذا القرنين هذا هو الإسكندر الرومي قاتل دارا. .)[1]!!.

فهذا إطلاق حكم خطير، ليس له دليل تاريخي أو علمي.

وأين يبقى هذا الكلام في ميزان العلم والحقيقة عندما يعرف أنه لم ينقل أحد من المؤرخين الأجانب ـ من اليونانيين أو غيرهم ـ أن المقدوني بنى سداً هناك؟ كما أنه لم ينقل أحد من علمائنا ذلك، وما نقلوه كانوا يعنون به ذا القرنين إلا ما ندر. فإذاً لم يقل حقيقة (أحد) ذلك فأين هو (الإجماع)؟.

رؤية السد. . وخبر البعثة الجغرافية:

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن أبي بكرة الشفى أن رجلاً قال: يا رسول الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج. قال: انعته لي. قال: كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء. قال: قد رأيته. قال الآلوسي: والظاهر أن الرؤية بصرية لا منامية، وهو أمر غريب إن صح الخبر[2].

أقول: لقد ورد الخبر في رواية البخاري: «قال رجل للنبي ﷺ: رأيت السد مثل البرد المحبر. قال: قد رأيته»[3].

وذكر ابن حجر أن الزيادة الأخيرة «طريقة حمراء وطريقة سوداء» وصلها ابن أبي عروبة عن قتادة عن رجل من أهل المدينة. . قال: ورواه الطبراني من طريق سعيد بن بشير عن قتادة عن رجلين عن أبي بكرة أن رجلاً أتى

---

(١) انظر هذا القول في (ثمار القلوب في المضاف والمنسوب) للإمام الثعالبي النيسابوري ص ٢٨٤ طبعة ١٣٨٤ هـ، ١٩٦٥ م دار نهضة مصر تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.
وقد نقل القول الإمام الثعالبي وأسنده للجاحظ في كتابه (التربيع والتدوير). وقد راجعت هذا الكتاب ـ طبعة دمشق ١٩٥٥ تحقيق (شارل بلات) فلم أجد شيئاً مما ذكر. وقد ذكر محقق ثمار القلوب أن هذا الكلام موجود في الصفحة (٢٧٠) لكن الكتاب كله يقع في (١٠٥) صفحات فقط. وقد راجعت فهرس المراجع عنده فلم أجد هذا الكتاب مذكوراً بينها!!.

(٢) روح المعاني جـ ١٦ ص ٤٢.

(٣) فتح الباري جـ ٦ ص ٢٧٤.

النبـي ﷺ فقال، فذكر نحوه، وزاد فيه زيادة منكرة وهي: والذي نفسي بيده لقد رأيته ليلة أسري بي لبنة من ذهب ولبنة من فضة. وأخرجه البزار من طريق يوسف بن أبي مريم الحنفي عن أبي بكرة ورجل رأى السد فساقه مطولاً[1].

وعن الحديث الذي رواه ابن جرير قال ابن كثير: هذا حديث مرسل[2]. وقال في تاريخه عن حديث البخاري: ذكره البخاري معلقاً بصيغة الجزم ولم أره مسنداً من وجه متصل أرتضيه[3].

* * *

أما عن خبر البعثة ـ التي سنقص عليك خبرها الآن ـ فإن ابن خرداذبة هو أول من رواها عن نفس رئيسها، ثم استملاه منه من الكتاب الذي كان كتبه في هذا المعنى للخليفة الواثق بالله.. وعن ابن خرداذبة نقل جميع المؤلفين الذين جاؤوا بعده مثل الإدريسي وابن رسته وابن الفقيه الهمذاني والمقدسي. وقد نقل النويري عن الإدريسي، وكلهم يزيد وينقص[4].

وكان الهدف من هذه البعثة هو اكتشاف السد ومعاينته، وقد ذكر ابن خرداذبة أن سبب بعث الواثق بالله ناساً لمعاينة السد هو أنه رأى في المنام كأنه فتح هذا الردم[5]!.

قال ابن خرداذبة في كتابه (المسالك والممالك): حدثني سلّام الترجمان أن الواثق بالله لما رأى في منامه كأن السُّدَّ الذي بناه ذو القرنين بيننا وبين يأجوج ومأجوج قد انفتح، فطلب رجلاً يخرجه إلى الموضع فيستخبر خبره فقال (أشنلس) ما ههنا أحد يصلح إلا سلّام الترجمان، وكان يتكلم بثلاثين لساناً، قال: فدعا بي الواثق وقال: أريد أن تخرج إلى السد حتى

---

(١) فتح الباري جـ ٦ ص ٢٧٤.
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٩٢ والبداية والنهاية جـ ٢ ص ١١١.
(٣) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١١٣.
(٤) انظر نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري جـ ١ ص ٣٧٤ الهامش.
(٥) تفسير الرازي جـ ٢١ ص ١٧٠.

تعاينه وتجيئني بخبره، وضمَّ إليّ خمسين رجلاً، شباباً أقوياء، ووصلني بخمسة آلاف دينار، وأعطاني ديتي عشرة آلاف درهم وأمر فأعطى كلَّ رجل من الخمسين ألف درهم ورزق سنة، وأمر أن يهيأ للرجال اللبابيد[1] وتغشى بالأديم[2]، واستعمل لهم اللستبانات بالفراء والركب الخشب، وأعطاني مائتي بغل لحمل الزاد والماء، فشخصنا من (سرٍّ من رأى)[3] بكتاب من الواثق بالله إلى إسحاق بن إسماعيل إلى صاحب السرير، وكتب لنا صاحب السرير[4] إلى ملك اللان[5] وكتب لنا ملك اللان إلى فيلان شاه، وكتب لنا فيلان شاه إلى طرخان ملك الخزر، فأقمنا عند ملك الخزر يوماً وليلة حتى وجه معنا خمسة أدلّاء، فسرنا من عنده ستة وعشرين يوماً فانتهينا إلى أرض سوداء منتنة الرائحة، وكنا قد تزودنا قبل دخولها خلًّا نشمه من الرائحة المنكرة، فسرنا فيها عشرة أيام ثم صرنا إلى مدنَ خراب فسرنا فيها عشرين يوماً، فسألنا عن حال تلك المدن فخُبرنا أنها المدن التي كان يأجوج ومأجوج يتطرقونها فخربوها، ثم صرنا إلى حصون بالقرب من الجبل الذي في شعبة منه السد، وفي تلك الحصون قوم يتكلمون بالعربية والفارسية مسلمـون يقرؤون القرآن لهم كتاتيب ومساجد، فسألونا من أين أقبلنا، فأخبرناهم أنا رسل أمير المؤمنين، فأقبلوا يتعجبون ويقولون أمير المؤمنين فنقول نعم. فقالوا: شيخ هو أم شاب فقلنا شاب فعجبوا أيضاً فقالوا: أين يكون؟ فقلنا بالعراق في مدينة يقال لها سر من رأى فقالـوا ما سمعنا بهذا قط. وبين كل حصن من تلك الحصون إلى الحصن الآخر فرسخ إلى فرسخين، أقل وأكثر، ثم صرنا إلى مدينة يقال لهـا أيكة تربيعها عشرة فراسخ، ولها أبواب حديد يرسل الأبواب من فوقها، وفيها

(١) ما يلبس من اللبود للوقاية من المطر والبرد.
(٢) الجلد.
(٣) هي الاسم الأول والحقيقي لمدينة سامراء بالعراق.
(٤) قال ياقوت الحموي: (السرير) موضع في بلاد بني كنانة، وملك السرير مملكة واسعة بين اللان وباب الأبواب... قال الاصطخري: والسرير اسم المملكة لا اسم المدينة. انظر بالتفصيل معجم البلدان جـ ٣ ص ٢١٩.
(٥) واللان ـ في معجم البلدان ـ بلاد واسعة في طرف أرمينية قرب باب الأبواب، مجاورون للخزر. جـ ٥ ص ٨.

مزارع وأرحاء داخل المدينة، وهي التي كان ينزلها ذو القرنين بعسكره، بينها وبين السد مسيرة ثلاثة أيام، وبينها وبين السد حصون وقرى حتى تصير إلى السد في اليوم الثالث، وهو جبل مستدير، ذكروا أن يأجوج ومأجوج فيه، وهما صنفان: ذكروا أن يأجوج أطول من مأجوج، ويكون طول أحدهم ما بين ذراع إلى ذراع ونصف وأقل وأكثر. ثم صرنا إلى جبل عال عليه حصن، والسد الذي بناه ذو القرنين هو فج بين جبلين عرضه مائتا ذراع، وهو الطريق الذي يخرجون منه فيتفرقون في الأرض، فحفر أساسه ثلاثين ذراعاً إلى أسفل، وبناه بالحديد والنحاس حتى ساقه إلى وجه الأرض، ثم رفع عضادتين مما يلي الجبل من جنبتي الفج، عرض كل عضادة خمس وعشرون في سمك خمسين ذراعاً، الظاهر من تحتها عشرة أذرع خارج الباب، وكله بناء بلبن من حديد مغيب في نحاس، تكون اللبنة ذراعاً ونصفاً في ذراع ونصف في سمك أربعة أصابع، ودَرْوَنْد[1] حديد طرفاه على العضادتين طوله مائة وعشرون ذراعاً قد ركب على العضادتين، على كل واحدة بمقدار عشرة أذرع في عرض خمسة أذرع، وفوق الدروند بناء بذلك اللبن الحديد في النحاس إلى رأس الجبل، وارتفاعه مد البصر يكون البناء فوق الدروند نحواً من ستين ذراعاً، وفوق ذلك شُرَف حديد، في طرف كل شرفة قرنتان تنثني كل واحدة منهما على الأخرى، طول كل شرفة خمسة أذرع في عرض أربعة فراسخ، وعليه سبع وثلاثون شرفة، وإذا باب حديد مصراعين [هكذا] معلقين، عرض كل مصراع خمسون ذراعاً في ارتفاع خمسة وسبعين ذراعاً في ثخن خمسة أذرع، وقائمتاهما في دوارة على قدر الدروند، لا يدخل من الباب ولا من الجبل ريح كأنه خلق خلقة، وعلى الباب قفل طوله سبعة أذرع في غلظ باع في الاستدارة، والقفل لا يحتضنه رجلان، وارتفاع القفل من الأرض خمسة وعشرون ذراعاً، وفوق القفل بخمسة أذرع غلق طوله أكثر من طول القفل، وقفيزاه كل واحد منهما ذراعان وعلى الغلق مفتاح معلق طوله ذراع ونصف، وله اثنتا عشرة

---

(١) كلمة فارسية معناها قلاب. انظر المعجم الذهبي فارسي ـ عربي للدكتور محمد التونجي الطبعة الأولى ١٩٦٩ م.

دندانكة[1]، كل دندانكة في صفة دستج الهواوين[2]، واستدارة المفتاح أربعة أشبار، معلق في سلسلة ملحومة بالباب، طولها ثمانية أذرع في استدارة أربعة أشبار، والحلقة التي فيها السلسلة مثل حلقة المنجنيق، وعتبة الباب عرضها عشرة أذرع في بسط مائة ذراع سوى ما تحت العضادتين، والظاهر منها خمسة أذرع، وهذه الذراع كلها بالذراع السوداء. ومع الباب حصنان يكون كل واحد منهما مائتي ذراع في مائتي ذراع، وعلى باب هذين الحصنين شجرتان، وبين الحصنين عين عذبة، وفي واحد الحصنين آلة البناء التي بني بها السد من القدور الحديد والمغارف الحديد، على كل ديكدان[3] أربعة قدور مثل قدور الصابون، وهناك بقية من اللبن الحديد قد التزق بعضه ببعض من الصدأ. ورئيس تلك الحصون يركب في كل يوم إثنين وخميس، وهم يتوارثون ذلك الباب كما يتوارث الخلفاء الخلافة، يجيء راكباً ومعه ثلاثة رجال، على عنق كل رجل مرزبّة، ومع الباب درجة، فيصعد على أعلى الدرجة فيضرب القفل ضربة في أول النهار، فيسمع لهم جلبة مثل كور الزنانير، ثم يخمدون، فإذا كان عند الظهر ضربه ضربة أخرى ويصغي بإذنه إلى الباب فتكون جلبتهم في الثانية أشد من الأوَّلة، ثم يخمدون، فإذا كان وقت العصر ضرب ضربة أخرى فيضجون مثل ذلك، ثم يقعد إلى مغيب الشمس، ثم ينصرف الغرض في قرع القفل أن يسمع مَنْ وراء الباب فيعلموا أن هناك حفظة ويعلم أن هؤلاء لم يحدثوا في الباب حدثاً. وبالقرب من هذا الموضع حصن كبير يكون عشرة فراسخ في عشرة فراسخ تكسيرة مائة فرسخ. قال سلام: فقلت لمن كان بالحضرة من أهل الحصون: هل عاب من هذا الباب شيء قط؟ قالوا: ما فيه إلا هذا الشقّ، والشق كان بالعرض مثل الخيط دقيق فقلت: تخشون عليه شيئاً؟ فقالوا: لا إن هذا الباب ثخنه خمسة أذرع بذراع

---

(١) كلمة فارسية معناها سن. والمراد أسنان المفتاح، انظر المعجم الذهبي (فارسي - عربي) للدكتور محمد التونجي.

(٢) الدستج هو اليد، والهاون هو المهراس وهما كلمتان فارسيتان (المعجم الذهبي).

(٣) هو موقد النار للطبخ - كلمة فارسية. المعجم الذهبي.

الإسكندر يكون ذراعاً ونصفاً بالأسود كل ذراع واحدة من ذراع الإسكندر. قال: فدنوت وأخرجت من خفي سكيناً فحككت موضع الشق فأخرج منه مقدار نصف درهم وأشده في منديل لأريه الواثق بالله، وعلى فرد مصراع الباب الأيمن في أعلاه مكتوب بالحديد باللسان الأول: فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً. وننظر إلى البناية وأكثره مخطط ساف[1] أصفر من نحاس وساف أسود من حديد. وفي الجبل محفور الموضع الذي صب فيه الأبواب، وموضع القدور التي كان يخلط فيها النحاس، والموضع الذي كان يغلي فيه الرصاص والنحاس وقدور شبيهة بالصفر، لكل قدر ثلاث عرى فيها السلاسل والكلاليب التي كان يمد بها النحاس إلى فوق السور. وسألنا من هناك: هل رأيتم من يأجوج ومأجوج أحداً؟ فذكروا أنهم رأوا مرة عدداً فوق الجبل فهبّت ريح سوداء فألقتهم إلى جانبهم، وكان مقدار الرجل في رأي العين شبراً ونصفاً، والجبل من خارج ليس له متن ولا سفح ولا عليه نبات ولا حشيش ولا شجرة ولا غير ذلك، وهو جبل مسلنطح[2] قائم أملس أبيض.

فلما انصرفنا أخذ الأدلاء بنا إلى ناحية خراسان، وكان الملك يسمى اللب، ثم خرجنا من ذلك الموضع وصرنا إلى موضع ملك يقال له طبانوين وهو صاحب الخراج فأقمنا عندهم أياماً، وسرنا من ذلك الموضع إلى شروُسَنة وإلى بخارى وإلى ترمذ، ثم وصلنا إلى نيسابور ومات من الرجال الذين كانوا معنا ومن مرض منهم في الذهاب اثنان وعشرون رجلاً، من مات منهم دفن في ثيابه، ومن مرض خلفناه مريضاً في بعض القرى. ومات في المرجع أربعة عشر رجلاً. فوردنا نيسابور ونحن أربعة عشر رجلاً، وكان أصحاب الحصون زودونا ما كفانا، ثم صرنا إلى عبدالله بن طاهر، فوصلني بثمانية آلاف درهم، ووصل كل رجل معي بخمسمائة درهم، وأجرى للفارس خمسة دراهم، وللراجل ثلاثة دراهم في كل يوم إلى الري، ولم يسلم من البغال التي كانت معنا إلا ثلاثة وعشرون بغلاً، ووردنا سرَّ من رأى، فدخلت

---

(١) الساف: كل صف من اللّبن أو الآجر في الحائط. المعجم الوسيط.
(٢) هكذا في الأصل.

على الواثق، فأخبرته بالقصة وأريته الحديد الذي كنت حككته من الباب، فحمد الله، وأمر بصدقة يتصدق بها، وأعطى الرجال كل رجل ألف دينار. وكان وصولنا إلى السد في ستة عشر شهراً ورجعنا في اثني عشر شهراً وأيام. فحدثني سلّام الترجمان بجملة هذا الخبر ثم أملاه علي من كتاب كان كتبه للواثق بالله[١].

هذا ولم تسلم الرواية من النقد والتجريح، بل إن هناك من يستبعدها، وينفي عنها الصحة. يقول الإمام الآلوسي: ثقات المؤرخين على تضعيفه (أي الخبر) وعندي أنه كذب لما فيه مما تأبى عنه الآية، كما لا يخفى على الواقف عليه تفصيلاً[٢].

أما الأستاذ الطباخ فيرى ـ على العكس ـ أنها حقيقة واقعة، قال: . . والخلاصة أن ذهاب هذه البعثة واكتشافها السد أمر محقق كما قال ياقوت الحموي في المعجم، من مشاهير الأخبار وإن اختلفت الرواية في صفة السد[٣].

ومن المعروف أن الأستاذ الطباخ يقصد بالسد سور الصين، وقد جاء في (صفوة الاعتبار) أيضاً أن السور الذي وصلوا إليه أيام الواثق من بني العباس هو سور الصين الذي هو إحدى عجائب مملكة الصين[٤]. .

وعندما يحقق ابن رستة هذا الخبر عن ابن خرداذبة يقول: . . وكتبناه نحن لنقف على ما فيه من التخليط والتزييد، لأن مثل هذا لا يقبل صحته، فوجدته موافقاً[٥]، أي موافقاً للكتاب الذي كتبه سلّام الترجمان للواثق.

* * *

---

(١) انظر كتاب المسالك والممالك لأبي القاسم عبدالله بن عبدالله المعروف بابن خرداذبة المتوفى في حدود سنة (٣٠٠ هـ). مكتبة المثنى بغداد ص ١٦٢ ـ ١٧٠ مع بعض التعديلات الإملائية والنحوية.

(٢) روح المعاني جـ ١٦ ص ٤٢.

(٣) انظر ذو القرنين ص ٦١.

(٤) عن تفسير القاسمي جـ ١١ ص ٤١١٤.

(٥) انظر كتاب الأعلاق النفيسة تصنيف أبي علي أحمد بن عمر بن رُستة المجلد السابع ص ١٤٩ طبعة بريل بمدينة ليدن سنة ١٨٩١ م.

بعثة أخرى:

قال ابن جرير في تاريخه: حدث عمرو بن معدي كرب عن مطر بن ثلج التميمي قال: دخلت على عبد الرحمن بن ربيعة[1] بالباب وشهربراز عنده، فأقبل رجل عليه شحوبة حتى دخل على عبد الرحمن، فجلس إلى شهربراز وعلى (مطر) قباء برود يمنية أرضه حمراء ووشيه أسود، أو وشيه أحمر وأرضه سوداء، فتساءلا، ثم إن شهربراز قال: أيها الأمير تدري من أين جاء هذا الرجل؟ هذا رجل بعثته منذ سنين نحو السد لينظر ما حاله ومن دونه وزودته مالاً عظيماً، وكتبت له إلى من يليني، وأهديت له وسألته أن يكتب له إلى من وراءه، وزودته لكل ملك هدية. ففعل ذلك بكل ملك بينه وبينه حتى انتهى إليه. فانتهى إلى الملك الذي السد في ظهر أرضه، فكتب له إلى عامله على ذلك البلد فأتاه فبعث معه بازياره[2] ومعه عُقابه فأعطاه حريرة، قال فتشكر لي البازيار، فلما انتهينا فإذا جبلان بينهما سد مسدود حتى ارتفع على الجبلين بعدما استوى بهما، وإذا دون السد خندق أشد سواداً من الليل لبعده، فنظرت إلى ذلك وتفرست فيه ثم ذهبت لأنصرف فقال لي البازيار، على رسلك أكافِك، إنه لا يلي مَلِك بعد ملك إلا تقرب إلى الله بأفضل ما عنده من الدنيا فيرمي به إلى هذا اللهب، فشرّح بضعة لحم معه فألقاها في ذلك الهواء وانقضت عليها العقاب، وقال: إن أدركتها قبل أن تقع فلا شيء وإن لم تدركها حتى تقع فذلك شيء. فخرجت علينا العقاب باللحم في مخالبها، وإذا فيه ياقوتة، فأعطانيها وها هي هذه، فتناولها شهربراز حمراء فناولها عبد الرحمن فنظر إليها ثم ردها إلى شهربراز وقال شهربراز: لهذه خير من هذه البلد - يعني الباب - وايم الله لأنتم أحب إليَّ مَلَكة من آل كسرى، ولو كنت في سلطانهم ثم بلغهم خبرُها لانتزعوها مني، وايم الله لا يقوم لكم بشيء ما وفيتم ووفى ملككم الأكبر.

---

(١) وال من الصحابة، كان يلقب ذا النور. ولاه عمر بن الخطاب قضاء الجيش الذي وجهه إلى القادسية بقيادة سعد بن أبي وقاص، وعهد إليه بقسمة الغنائم ثم ولاه الباب وقتال الترك والخزر، فاستمر في ولايته هذه إلى أن استشهد في بعض وقائعه ببنجر. انظر الأعلام للزركلي جـ٣ ص ٣٠٦.

(٢) كلمة فارسية معناها: أمير الصيد، أو صاحب الباز، أو الصياد، المعجم الذهبي.

فأقبل عبد الرحمن على الرسول وقال: ما حال هذا الردم وما شِبْهُه، فقال: هذا الثوب الذي على هذا الرجل، قال: فنظر إلى ثوبي فقال مطر بن ثلج لعبد الرحمن بن ربيعة: صدق والله الرجل، لقد نفذ ورأى، فقال: أجل وصف صفة الحديد الصُّفر، وقال ﴿ آتوني زبر الحديد ﴾ إلى آخر الآية.
وقال عبد الرحمن لشهربراز: كم كانت هديتك؟ قال: مائة ألف في بلادي هذه وثلاثة آلاف ألف أو أكثر في تلك البلدان[1]. ونوه إلى هذا الخبر الإمام الرازي عندما قال: وحكى محمد بن جرير الطبري في تاريخه أن صاحب أذربيجان أيام فتحها وجه إنساناً إليه من ناحية الخزر، فشاهده ووصف أنه بنيان رفيع وراء خندق عميق وثيق منيع[2]..

ولا أدري مدى صحة هذا الخبر.. وفيه ما لا يصدق!.

هل السد هو سور الصين؟

هل يقول أحد بأن سور الصين العظيم هو السد الذي بناه ذو القرنين؟ ما كنت أظن أن الخطأ في التحقيق يصل بالبعض إلى هذا الحد.. فقد خلط بين السد.. والسور، رغم أنه يعرف الفارق الكبير بينهما، من حيث الطول أو الهيئة أو المكان..

فيذكر الأستاذ الطباخ أنه لا ينافي أن يكون السد من آثار ذي القرنين، لأن البنائين إنما هم صينيون وهو مقتضى قوله تعالى: ﴿ فأعينوني بقوة ﴾ أي بقوة فعلة أو بما أتقوى به من الآلات.. وهذا لا ينافي أيضاً أن ينسب بناؤه إلى ملك الصين الذي كان في ذلك الزمن، حيث إنه كان بطلب منه وعمل على مرأى منه إلا أنه لما كان ضعيفاً، لا يتمكن من عمله بنفسه ورعيته، وعدوه قوياً ليس في الوسع مقاومته ورد غاراته، استنجد بذي القرنين لما وصل إليه دفع ذي القرنين من الجنود ما لا قبل لأحد بها، فاضطر المغوليون إلى السكوت وعدم الممانعة، فتمكن الصينيون بمعونة ذي القرنين من القيام بعمل هذا السد الهائل[3].

---

(١) تاريخ الطبري الجزء الرابع ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.
(٢) تفسير الرازي جـ ٢١ ص ١٧٠.
(٣) ذو القرنين ص ٥٥.

وعندما يورد أن السد بني على فترات يقول: الباني الأول هو ولا ريب ذو القرنين الملك المؤمن العربي الذي ذكره القرآن العظيم، والبناء الثاني إنما هو تتميم وترميم[١]..

قال: ويستخلص.. أن الباني الثاني هو الامبراطور (شي هوانغ تي) وأن ملوك الصين الجنوبية كانوا يهتمون بأمر هذا السد، فكانوا يزيدون فيه ويرممونه كلما تخرب جانب منه، حفظاً لبلادهم من برابرة الشمال وهم المغوليون[٢].

وإذا أردت أن تستغرب أكثر من تحقيق الأستاذ الطباخ، فاقرأ قوله وهو يتكلم عن بنية السد: يتألف من واجهة خارجة (قشرة من القرميد أو حجر الغرانيت مملوءة من الداخل بالتراب) ويبلغ علوه الوسطي ما يزيد على عشرين قدماً وعرضه الأعلى ١٥ قدماً كل مائة يردة منه برج محصن[٣]!!.

كل هذا صحيح، لكن الغريب في الأمر هو اختلاف بنية السد كما ذكره القرآن الكريم اختلافاً بيناً عما هو عليه بنية سور الصين.. فأين القرميد من زبر الحديد؟ وأين التراب أو حجر الغرانيت من النحاس المذاب؟ أليس هذا غلطاً واضحاً؟.

وقد أخطأ العلامة القاسمي أيضاً عندما قال: إن كان هو المراد بالسد في الآية لزم حمل الصفات المذكورة فيه، من كونه من زبر الحديد، ومفرغاً عليه النحاس، على بقاع من ذلك السور. والصدفان حينئذ طرفان من ذلك السور[٤].. فقد اكتشف بما لا يدع مجالاً للشك أن السور ليس فيه معدنا الحديد والنحاس.. وبذلك يسقط هذا الفرض أيضاً..

ومن ثم ألا يستطيع الناس أن يصعدوا على حائط ارتفاعه أمتار قليلة، وعرضه أقل؟ أو ليس واضحاً أيضاً ـ كما يفهم من الآية ـ أن السد كان بين

---

(١) ذو القرنين ص ٦٥.

(٢) ذو القرنين ص ٦٦.

(٣) ذو القرنين ص ٦٤.

(٤) تفسير القاسمي جـ ١١ ص ٤١١٥.

جبلين وليس بين جبال كثيرة، وعلى مدى مئات الكيلو مترات؟!!.

ويقول الدكتور أبو اليسر عابدين: رأيت في مجلة الإخاء التي تصدر في طهران في عدد (٣٢) من السنة الثالثة في (١) جمادى الثانية سنة ١٣٨٢ هـ. تشرين أول سنة ١٩٦٢ م مقالاً للأستاذ محمد جميل بيهم على مقال المرحوم أبي الكلام آزاد في مجلة الإخاء أيضاً أول آب سنة ١٩٦٢ م..

قال صاحب المقال: كنت كتبت مقالاً نشرته مجلة العرفان في أيار سنة ١٩٥٥ برهنت فيه على أن السور الصيني الكبير إنما هو سد يأجوج ومأجوج الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، وحاك حوله القصاصون من المفسرين الخرافات والخزعبلات، ولما أتيح لي الوصول إلى الصين، وزرت هذا السور، ازددت وثوقاً بما ذهبت إليه في ذلك المقال، خصوصاً وأني رأيت بأم عيني الصدفين، أي رأسي الجبلين المتقابلين الذي ساوى بينهما ذو القرنين حسبما ورد في القرآن الكريم في سياق الحديث عن سد يأجوج ومأجوج، ورأيت أيضاً زبر الحديد في الأنقاض حيث يقوم عمال الحكومة بالترميم إلى آخر ما ذكره والله أعلم[١].

وأنا لا أزيد على أن أقول: إن هذا من أعجب ما قرأت في مغالطة التحقيق!!

سور الصين العظيم[٢]:

يقال إن سور الصين هو البناء الوحيد الذي شيده الإنسان على الأرض، والذي يمكن أن يراه المشاهدون على سطح القمر، فهو يغطي مسافة ٢٤٠٠ كم[٣] في خط مستقيم على الأرض من الساحل المواجه لشبه

---

(١) انظر أغاليط المؤرخين للدكتور أبو اليسر عابدين ص ٣١٧ دمشق ١٣٩١ هـ ١٩٧٢ م.

(٢) نقلنا لك المقال باختصار من مجلة المعرفة ـ المجلد الثاني ص ٣٢١ ـ مطابع الأهرام التجارية.

(٣) في الموسوعة الأثرية: أصبح طوله النهائي ١٤٠٠ ميل، حوالي ٢٢٥٠ كيلو متراً.. انظر الموسوعة الأثرية العالمية ص ٤٩٥ ـ ٤٩٦ إشراف ليونارد كوتريل تأليف ٤٨ عالماً أثرياً ترجمة =

جزيرة (لياوتونج) حتى (تشيايوكوان) آخر الحصون في وسط آسيا، عبر أقاليم (هوبي، وشانسي، وشينسي، وكانسو). لكن مساره الواقعي يتلوى ويلتف تابعاً سلاسل الجبال ـ قممها وحوافها ـ ومنحدراً خلال الوديان العميقة، مغطياً أكثر من (٣٢٠٠) كم، ويتراوح ارتفاع السور في الجزء الشرقي منه بين ٥ أمتار و ١٠ أمتار، وعرضه من (٨) أمتار عند القاعدة إلى (٥) أمتار عند القمة، حيث يوجد رصيف واسع يسمح بمرور ستة فرسان جنباً إلى جنب تحميهم متاريس محصنة، وعند بناء السور كان له (٢٥٠٠٠) برج تبلغ مساحة كل منها خمسة أمتار مربعة وارتفاعه ١٣ متراً وتبرز هذه الأبراج قائمة حتى اليوم.

أما خارج السور، فثمة العديد من أبراج المراقبة فوق قمم التلال أو على المضايق، وهذه مع أبراج السور كانت تستخدم للإنذار بالدخان، أو الرايات نهاراً وبالنيران ليلاً. وهكذا يمكن الإبلاغ عن اقتراب الغزاة في الحال، فترسل التعزيزات لأي جزء على الحدود.

التركيب المعماري للسور: يتكون قلب السور من التراب والحجر، تغطيه واجهة من الطوب، وكل ذلك قد أقيم على أساس من الحجر. وفي المواضع التي تمر فوق التلال حفر خندقان متوازيان أو نحتا في الصخر بينهما (٨) أمتار، وقد وضعت في الخنادق كتل ضخمة من الجرانيت يصل ارتفاعها إلى عدة أمتار وعلى كل من الجانبين بنيت حوائط من الطوب الأحمر يصل طولها إلى أقل من المتر قليلاً، عمودية على واجهة السور، وقد ارتبط الطوب مع بعضه بمونة بيضاء بلغت من الصلابة أنه لا يمكن لأي مسمار أن يخترقها.

وكانت المسافة بين حائطي الطوب تملأ بالتراب الذي يدك جيداً. وفي شمالي بكين يتبع السور قمم جبال بالغة الانحدار، والتي لا يكاد يمكن حتى للجداء أن تتسلقها.

= الدكتور محمد عبد القادر محمد، الدكتور زكي إسكندر، مراجعة الدكتور عبد المنعم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ م.

وبعيداً في الغرب في (شينسي وكانسو) غالباً ما يتبع السور أسهل الدروب، وقد بني من الرواسب الطفلية أو التربة الصفراء، تغطيها طبقة رفيعة من الطوب أو الحجر.

والسور القائم اليوم يرجع عهده كله تقريباً إلى أسرة (مينـج) لكـن الكثير من أساساته يبلغ عمرها أكثر من ألفي عام، والخط الطويل من الطوب الرمادي يعود إلى تاريخ الصين القديم، إذ يفصل بين طريقين للحياة ويحول بين الحياة البدوية وبين الفلاحين المسالمين.

من بيان حقائق عن هذا السور، تبين أنه ليس بسد ذي القرنين، في أي حال من الأحوال!.

* * *

سد ذي القرنين:

عزيزي القارىء:

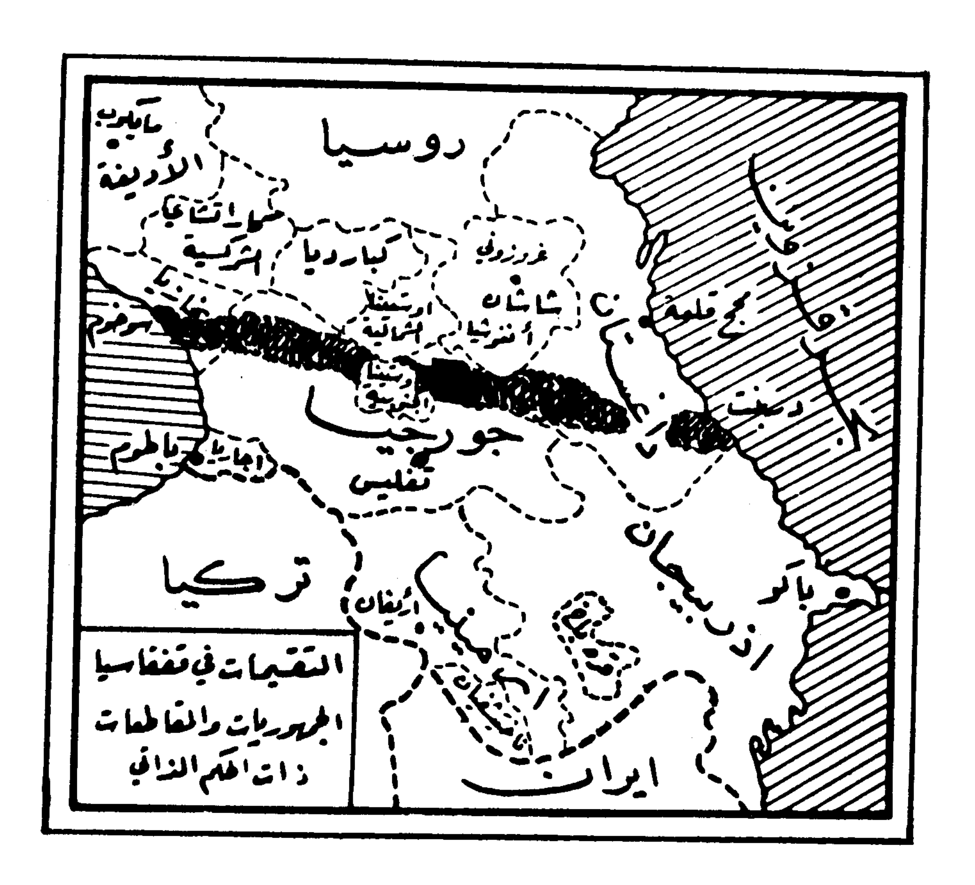
إن السد الذي بناه ذو القرنين منذ آلاف السنين موجود حتى الآن؟.

إنه موجود فعلاً في جمهورية جورجيا السوفيتية في فتحة داريال بجبال القوقاز، التي كانت القبائل المتوحشة تغير منها على مناطق جنوب القوقاز وشرق البحر الأسود وغرب بحر قزوين.

وقد تتبع المرحوم أبو الكلام آزاد من خلال استقراء التاريخ.. فوصل إلى نفس ما هو قائم في الواقع، في جمهورية جورجيا السوفيتية الآن.. وهو كتل هائلة من الحديد المخلوط بالنحاس موجودة في جبال القوقاز في منطقة مضيق داريال الجبلي..

وهذه حقيقة قائمة لكل من أراد أن يراها.. جبال شاهقة تمتد من البحر الأسود حتى بحر قزوين التي تمتد لتصل بين البحرين طوال ١٢٠٠ كم. وهي جبال التوائية حديثة التكوين، شامخة متجانسة التركيب، إلا من كتل هائلة من الحديد الصافي المخلوط بالنحاس الصافي في سد داريال.. تلك هي الثغرة المسدودة التي كان هؤلاء المتوحشون يغيرون منها..

أما التغيرات الطبيعية.. فلم تنل من السد شيئاً، غير أن جسم الجبال الصخري (جبال القوقاز) من جانبي السد، تآكل بفعل عوامل التعرية.. على مدى هذا الزمن الطويل.. وصار هناك فراغ فيما بين الصخور الجبلية وجسم السد الحديدي النحاسي، الذي ظل شامخاً حتى الآن، ولا يستطيع إنسان أن ينقبه أو يعلوه.. وصدق الله العظيم: ﴿ فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً ﴾[1].



---

(1) انظر بتصرف واختصار، مفاهيم جغرافية للدكتور عبد العليم خضر ص ٢٩٩، ٣١٣، ٣١٧. وللتوسع يراجع المصدر نفسه من ص ٢٩٤ - ٣١٧.

الخَاتـمَة

عزيزي القارىء:

لقد تبين لك من خلال هذه الدراسة الطويلة، أن ذا القرنين مِلِك مؤمن صالح عادل، خلّد الله تعالى ذكره في القرآن الكريم، وبين أمره في آيات بيّنات من سورة الكهف، ليقتدي به الرؤساء والملوك، وليعلموا أنهم مهما أوتوا من الملك فلن يبلغوا ملك ذي القرنين..

فلا يصيبهم الغرور مما ملكوه، وليتقوا الله في حكمهم..

ثم تبين أن الأصح في أمر ذي القرنين أنه رجل صالح، وكان مَلِكاً، ولم يكن نبياً ولا مَلَكاً..

وتوضح من خلال دراستك للشخصيات الثلاث (الإسكندر ـ الصعب ـ كورش) أن ذا القرنين ليس واحداً منهم، ولو أنه انتصر لكل رأي علماء ومؤرخون.. فإن الأخبار والحقائق التاريخية تتوضح أكثر عندما ينظر إليها بشمول.. وليس من نواح جزئية فقط!.

وأرى أن من الأسباب القوية التي أدت إلى الخلط بين ذي القرنين القرآني والإسكندر المقدوني، والذي انتشر على ألسنة العامة، وكان السبب في ذلك العلماء والمؤرخون، هو تبادل كليهما اللقب والاسم. فيطلق على ذي القرنين القرآني: الإسكندر، ويطلق على الإسكندر المقدوني: ذو القرنين!.

والحقيقة التي نبهت إليها مرات عديدة، أذكرها هنا أيضاً لتترسخ في

الأذهان أكثر، هو أنه لا حقيقة ولا صحة لهذا الجمع..

فذو القرنين القرآني لا يسمى الإسكندر البتة.. كما أنْ الإسكندر المقدوني لا يقال له ذو القرنين..

أما ذو القرنين الحقيقي، فهو من ذكره الله تعالى في كتابه العزيز، وبيّن أمره.. وقد ذكرت لك أقوالاً كثيرة لمؤرخين معتمدين أنه كان في عصر سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام. ولم يكن أحد الأعلام الثلاثة الذين ترجمت لحياتهم في ذلك العصر.. فهو إذاً شخص آخر قديم..

وبعد ذلك سردت لك حكماً وعبراً ومبادىء من قصة ذي القرنين الخالدة..

ثم رأيت أن يأجوج ومأجوج كلمتان تطلقان على أقوام همجية شأنها الفساد في الأرض قديماً، في وقت ذي القرنين، وفي المستقبل عند نزول عيسى عليه السلام. ولا نعلم من هم، لأن ذلك علم غيبي، ومن علامات الساعة الكبرى.

أما السد فما زال موجوداً... كتل هائلة من الحديد المخلوط بالنحاس، موجود في جبال القوقاز، بمنطقة مضيق داريال الجبلي في جمهورية جورجيا السوفييتية!.

أليس هذا معجزة أخرى للإسلام! ودليلاً آخر على نبوة الرسول الكريم محمد ﷺ؟! فما أدراه بهذا السد، الذي لم يكتشف إلا بعد وفاته بقرون؟ وعندما اكتشف تبين أنه كما ذكره القرآن الكريم!.

عزيزي القارىء:

لعلك تقول بعد هذا كله: ماذا جنيت بعد هذا البحث الطويل والتحقيق المضني؟ ما دمت لم تصل إلى شخصية معينة ومعروفة في التاريخ؟!.

وأقول: من قال إنه يشترط الوصول إلى شخصية معينة؟ يكفي أنني

بينت بعض الحقائق في شأن هذا الرجل العظيم، وأزلت عن تاريخه بعض ما تعلق به من شوائب، وكشفت أنه ليس بواحد من هؤلاء الذين لم يسلم تاريخهم من الطعن وعدم الإيمان..

يكفيني هذا.. ويكفيك أنت أن تعرف أن ذا القرنين ليس واحداً من هؤلاء الثلاثة...

وأرجو من الله العلي القدير أن يوفقني وإياك.. وأن يتقبل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، ويجعله ذخراً لي يوم الدين، ويرضى عني، إنه نعم المولى ونعم النصير. اللهم اجعلني قلماً ولساناً أدافع عن الإسلام، اللهم لا لشهرة ولا لمنصب ولكن دفاعاً عن الإسلام، وجهاداً في سبيلك، وخالصاً لوجهك الكريم، آمين، والحمد لله رب العالمين.



فهارس

- فهــرس الآيات.
- فهــرس الأحاديث.
- فهــرس الأشعار.
- فهــرس الأعلام.
- فهــرس الأمم والأديان والأماكن.
- فهــرس المراجع.
- فهــرس الموضوعات.

فهرس الآيات(*)

(*) أوائل الآيات.

* * *

فهرس الأحاديث

فهرس الأشعار(*)

(*) أذكر الأبيات مرتبة ألفبائياً حسب القافية، وآخذ البيت الأول من القصيدة أو قطعة من القصيدة.

فهرس الأعلام(*)

(*) لم أفهرس للأعلام التالية: ذو القرنين ـ الإسكندر ـ الصعب ـ كورش.

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

* * *

فهـــرس الأمم والقبـــائـــل
والأديان والمذاهب
والبلدان والأماكن[*]..

(*) معظم الأسماء المذكورة في هذا الفهرس مجردة عن صفاتها، كالبحر والجبل والصحراء وما شابه ذلك، إلا ما ندر.

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(ش)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

* * *



فهرس المراجع

ـ أ ـ

١ ـ **آيات للسائلين**، عناية الله الأثري.

٢ ـ **أحكام القرآن**، أبو بكر بن العربي.

٣ ـ **إحياء علوم الدين**، الغزالي.

٤ ـ **أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ**، القرماني.

٥ ـ **أخبار الزمان ومن أباده الحدثان**، المسعودي.

٦ ـ **الأخبار الطوال**، أبو حنيفة الدينوري.

٧ ـ **أخبار عبيد بن شريه في أخبار اليمن**، عبيد بن شريه الجرهمي.

٨ ـ **الأخبار الموفقيات**، الزبير بن بكار.

٩ ـ **أرسطو عند العرب**، عبد الرحمن بدوي.

١٠ ـ **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، أبو السعود محمد بن العماد.

١١ ـ **الأساطير والخرافات عند العرب**، د. محمد عبد المعيد خان.

١٢ ـ **الإسكندر المقدوني**، تيرانس راتيجان.

١٣ ـ **الإسكندر المقدوني**، هارولد لامب.

١٤ ـ **الإسرائيليات في الغزو الفكري**، د. عائشة عبد الرحمن.

١٥ ـ **الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير**، د. رمزي نعناعة.

١٦ ـ **الإشاعة لأشراط الساعة**، محمد بن رسول الحسيني البرزنجي.

١٧ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**، ابن حجر العسقلاني.

١٨ ـ **الأعلاق النفيسة**، ابن رسته.

١٩ ـ **إغاثة اللهفان**، ابن قيم الجوزية.

٢٠ ـ **أغاليط المؤرخين**، د. أبو اليسر عابدين.

٢١ ـ **الأغاني**، أبو الفرج الأصبهاني.
٢٢ ـ **الإكليل**، الهمداني.
٢٣ ـ **أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير)**، البيضاوي.
٢٤ ـ **إيران**، محمود شاكر.
٢٥ ـ **إيران في الحضارة**، سليم واكيم.

ـ ب ـ

٢٦ ـ **البحر الزاخر في تاريخ العالم وأخبار الأوائل**، محمود فهمي المهندس.
٢٧ ـ **البحر المحيط (تفسير)**، أبو حيان الأندلسي.
٢٨ ـ **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، ابن إياس الحنفي.
٢٩ ـ **البدء والتاريخ**، المقريزي.
٣٠ ـ **البداية والنهاية**، ابن كثير.
٣١ ـ **بين التاريخ والآثار**، عبد القدوس الأنصاري.

ـ ت ـ

٣٢ ـ **التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول (ﷺ)**، علي ناصف.
٣٣ ـ **تاج العروس من جواهر القاموس**، محمد مرتضى الزبيدي.
٣٤ ـ **تاريخ الأمم والملوك**، الطبري.
٣٥ ـ **تاريخ إيران**، شاهين مكاريوس.
٣٦ ـ **تاريخ إيران القديم**، حسن بيرينا.
٣٧ ـ **تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس**، حسين بن محمد الديار بكري.
٣٨ ـ **تاريخ العالم**، السير جون.
٣٩ ـ **تاريخ العرب قبل الإسلام**، د. أحمد ارحيم هبو.
٤٠ ـ **تاريخ العرب قبل الإسلام**، د. السيد عبد العزيز سالم.
٤١ ـ **تاريخ الفلسفة في الإسلام**، ت. ج. دي بور.
٤٢ ـ **التاريخ والمؤرخون العرب**، د. السيد عبد العزيز سالم.
٤٣ ـ **تاريخ اليعقوبي**، أبو يعقوب ابن جعفر (ابن واضح الأخباري).
٤٤ ـ **التبيان في تفسير القرآن**، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي.

٤٥ ـ تتمة المختصر في أخبار البشر، زين الدين عمر بن الوردي.
٤٦ ـ تراث فارس، أساتذة من المستشرقين.
٤٧ ـ تفسير الجواهر، طنطاوي جوهري.
٤٨ ـ تفسير روح البيان، إسماعيل حقي البروسوي.
٤٩ ـ التفسير الفريد للقرآن المجيد، محمد عبد المنعم الجمال.
٥٠ ـ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير.
٥١ ـ تفسير القرآن الكريم، عبدالله شبر.
٥٢ ـ التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب.
٥٣ ـ التفسير الواضح، محمد محمود حجازي.
٥٤ ـ التفسير والمفسرون، د. محمد حسين الذهبي.
٥٥ ـ تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير، عبد الرحمن بن الجوزي.
٥٦ ـ التنبيه والإشراف، المسعودي.
٥٧ ـ تهذيب الأسماء واللغات، النووي.
٥٨ ـ تونس وإيران قرون من التلاقح الحضاري، أساتذة من تونس.
٥٩ ـ التيجان، وهب بن منبه.

ـ ث ـ

٦٠ ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، الثعالبي النيسابوري.

ـ ج ـ

٦١ ـ جامع البيان في تفسير القرآن، معين الدين الأيجي.
٦٢ ـ جامع البيان من تأويل آي القرآن، الطبري.
٦٣ ـ الجامع لأحكام القرآن (تفسير)، القرطبي.
٦٤ ـ جمهرة أنساب العرب، ابن حزم.

ـ ح ـ

٦٥ ـ حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين، أحمد الصاوي المالكي.
٦٦ ـ حساب العقود، دار البصائر.

ـ د ـ

٦٧ ـ دائرة المعارف الإسلامية، جماعة من المستشرقين.
٦٨ ـ دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي.

ـ ذ ـ

٦٩ ـ ذو القرنين وسد الصين، محمد الطباخ.
٧٠ ـ ذيل كشف الظنون، إسماعيل باشا البغدادي.

ـ ر ـ

٧١ ـ الرسالة القشيرية في علم التصوف، أبو القاسم القشيري.
٧٢ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الآلوسي البغدادي.
٧٣ ـ الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية، السهيلي.

ـ س ـ

٧٤ ـ سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، السويدي.
٧٥ ـ السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، الخطيب الشربيني.
٧٦ ـ سنن أبي داود، أبو داود السجستاني الأزدي.
٧٧ ـ السيرة النبوية، ابن هشام.

ـ ص ـ

٧٨ ـ صحيح مسلم بشرح النووي، النووي.
٧٩ ـ الصراع بين المادية والإيمان، أبو الحسن علي الحسيني الندوي.
٨٠ ـ صفة جزيرة العرب، الهمداني.
٨١ ـ صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني.

ـ ط ـ

٨٢ ـ طبقات الشافعية الكبرى، السبكي.

ـ ع ـ

٨٣ ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون)، ابن خلدون.
٨٤ ـ العرب قبل الإسلام، جرجي زيدان.
٨٥ ـ عرض تاريخي للفلسفة والعلم، أ. وولف.
٨٦ ـ عمدة القاري شرح صحيح البخاري، العيني.

ـ غ ـ

٨٧ ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين القمي النيسابوري.

ـ ف ـ

٨٨ ـ فجر الإسلام، أحمد أمين.
٨٩ ـ فتاوى الإمام النووي، النووي.
٦٠ ـ فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري، ابن حجر العسقلاني.
٩١ ـ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني.
٩٢ ـ الفتوحات الإلٓهية : وحاشية الجمل على الجلالين، سليمان الجمل.
٩٣ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم.
٩٤ ـ الفلسفة اليونانية، شارل ذرنر.
٩٥ ـ في أدب الفرس وحضارتهم، د. محمد عبد السلام كفافي.
٩٦ ـ في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. سعد زغلول عبد الحميد.
٩٧ ـ في ظلال القرآن، سيد قطب.

ـ ق ـ

٩٨ ـ قاموس الجغرافية القديمة، أحمد زكي بك.
٩٩ ـ قصص الأنبياء المسمى بعرائس المجالس، الثعلبي.
١٠٠ ـ قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار.
١٠١ ـ قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح، أحمد موسى سالم.

ـ ك ـ

١٠٢ ـ **الكامل في التاريخ**، ابن الأثير.
١٠٣ ـ **كبرى اليقينيات الكونية**، د. محمد سعيد رمضان البوطي.
١٠٤ ـ **كتاب التسهيل لعلوم التنزيل**، الغرناطي.
١٠٥ ـ **الكشاف**، الزمخشري.
١٠٦ ـ **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، حاجي خليفة.

ـ ل ـ

١٠٧ ـ **لباب التأويل في معاني التنزيل**، الخازن.
١٠٨ ـ **اللباب في تهذيب الأنساب**، ابن الأثير.
١٠٩ ـ **لسان العرب**، ابن منظور.

ـ م ـ

١١٠ ـ **مجموع فتاوى ابن تيمية**، ابن تيمية.
١١١ ـ **محاسن التأويل (تفسير القاسمي)**، القاسمي.
١١٢ ـ **محاضرة الأوائل**، علي دده.
١١٣ ـ **المحبر**، ابن حبيب الهاشمي البغدادي.
١١٤ ـ **مختصر تفسير ابن كثير**، محمد علي الصابوني.
١١٥ ـ **المختصر في أخبار البشر (تاريخ)**، أبو الفداء.
١١٦ ـ **مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير)**، النسفي.
١١٧ ـ **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، المسعودي.
١١٨ ـ **مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب**، أوليري.
١١٩ ـ **المسالك والممالك**، ابن خرداذبه.
١٢٠ ـ **المستطرف في كل فن مستظرف**، الأبشيهي.
١٢١ ـ **مسرحيات راسين**، راسين.
١٢٢ ـ **معجم البلدان**، ياقوت الحموي.
١٢٣ ـ **المعجم الذهبي (فارسي ـ عربي)**، د. محمد التونجي.
١٢٤ ـ **مع الفلسفة اليونانية**، د. محمد عبد الرحمن مرحبا.

١٢٥ ـ مغامرة العقل الأول ـ دراسة في الأسطورة، فراس سواح.
١٢٦ ـ مفاهيم جغرافية في القصص القرآني (قصة ذي القرنين)، د. عبد العليم عبد الرحمن خضر.
١٢٧ ـ الملل والنحل، الشهرستاني.
١٢٨ ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المقريزي.
١٢٩ ـ الموسوعة الأثرية العالمية، بعض علماء الآثار.
١٣٠ ـ موسوعة تاريخ العالم، وليام لانجر.
١٣١ ـ الموسوعة العربية الميسرة، فئة من الأساتذة.
١٣٢ ـ الموسوعة القرآنية الميسرة، إبراهيم الأبياري.

ـ ن ـ

١٣٣ ـ نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، شمس الدين الأنصاري.
١٣٤ ـ نزهة المجالس ومنتخب النفائس، جعفر بن عبد الرحمن الصفوري.
١٣٥ ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ابن إدريس الحمودي الحنفي.
١٣٦ ـ نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري.
١٣٧ ـ النهاية في الغريب والأثر، ابن الأثير الجزري.
١٣٨ ـ النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين، نعمة الله الجزائري.

ـ هـ ـ

١٣٩ ـ هذه رسالة فخر بني إرم في أن العرب أقدم وأعز الأمم، محمد أفندي عارف.

المحاضرات:

١٤٠ ـ الإسلام ومقتضيات العصر، د. جعفر شيخ إدريس.
١٤١ ـ التربية الحضارية في الإسلام، د. مقداد يالجن.

المجلات:

١٤٢ ـ مجلة المعرفة ـ العلمية.



فهرس الموضوعات

كتب للمؤلف

- **لقمان الحكيم وحِكَمه**. ـ دمشق: دار المصحف، ١٤٠٤هـ، ١٧٥ص. ـ (أعلام قرآنية؛ ١).
ط ٢: دمشق: دار القلم؛ بيروت: الدار الشامية، ١٤١٤ هـ.
- **الخضر بين الواقع والتهويل**. ـ دمشق: دار المصحف، ١٤٠٤ هـ، ٣٦٤ ص. ـ (أعلام قرآنية؛ ٢).
ط ٢: دمشق: دار القلم؛ بيروت: الدار الشامية، ١٤١٤ هـ.
- **صفات مقدمي البرامج الإسلامية في الإذاعة والتلفزيون**. ـ الرياض: توزيع مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، ١٤٠٦ هـ، ١٣٦ ص.
- **ذو القرنين: القائد الفاتح والحاكم الصالح**: دراسة تاريخية تحليلية مقارنة في ضوء القرآن والسنة والتاريخ. ـ دمشق: دار القلم، ١٤٠٦ هـ، ٤٢٠ ص.
- **الدعوة الإسلامية: مفهومها وحاجة المجتمعات إليها**. ـ الرياض: مطابع الفرزدق، ١٤٠٧ هـ، ١٣٦ ص. ـ (مع الدعوة؛ ١).
ط ٢. ـ الرياض: دار طويق، ١٤١٤ هـ، ١٥٥ ص.
- **الدعوة الإسلامية: الوسائل والأساليب**. ـ الرياض: مطابع الفرزدق، ١٤٠٧ هـ، ١٣٦ ص. ـ (مع الدعوة؛ ٢).
ط ٢. ـ الرياض: دار طويق، ١٤١٤ هـ، ١٣٦ ص.
- **فهرس الكتب المطبوعة بمكتبة محمد بن عبد الرحمن العبيكان الخاصة**. ـ الرياض: صاحب المكتبة، ١٤٠٧ هـ، ١٣٨ ص.
- **جولة بين كتب غريبة**. ـ الرياض: مطابع الشريف، ١٤١٠ هـ، ١١١ ص.
- **من خصائص الإعلام الإسلامي**. ـ مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي، ١٤١٠ هـ، ١٩٠ ص. ـ (دعوة الحق؛ ٩٧).
ط ٢ بعنوان: خصائص الإعلام الإسلامي. ـ جدة: دار العمير، ١٤١٢ هـ، ١٥٨ ص.
- **الحَذَر في أمر الخَضِر**. للملا علي بن سلطان محمد القاري الهروي (تحقيق وتعليق). ـ دمشق: دار القلم؛ بيروت: الدار الشامية، ١٤١١ هـ، ٢١٢ ص.
- **المرأة الكردية في التاريخ الإسلامي: تراجم لأميرات كرديات ومحدِّثات عالمات**. ـ بيروت: دار القادري، ١٤١٢ هـ، ٨٩ ص.
- **تاج التراجع**. لأبي الفداء قاسم بن قطلوبغا السودوني (تقديم وتحقيق). ـ دمشق: دار القلم، ١٤١٣ هـ، ٥٦٨ ص.
- **دليل المؤلفات الإسلامية في المملكة العربية السعودية ١٤٠٠ ـ ١٤٠٩ هـ**. ـ الرياض: دار الفيصل الثقافية، ١٤١٣ هـ، ٧٨١ ص.

- **قارئات حافظات**. - الرياض: دار ابن خزيمة، ١٤١٣ هـ، ١٢٥ ص.
- **مؤلفات الشيخ ابن باز**. - الرياض: دار ابن خزيمة، ١٤١٣ هـ، ٧٩ ص.
- **الإعلام الإسلامي: ببليوجرافيا بالكتب والرسائل والبحوث الجامعية**. - الرياض: دار طويق، ١٤١٤ هـ، ١١٧ ص.
- **الأجر الكبير على العمل اليسير: مختارات من الأحاديث الصحيحة مع شرحها**. - الرياض: دار طويق، ١٤١٤ هـ، ٩٦ ص.
- **كتب نادرة من التراث الإسلامي**. - الرياض: دار طويق، ١٤١٤ هـ، ١٧٥ ص.
- **مؤلفات الشيخ محمد بن صالح العيثمين**. - الرياض: دار طويق، ١٤١٤ هـ، ٩٤ ص.
- **المؤلفات من النساء ومؤلَّفاتهن**. - الرياض: دار طويق، ١٤١٤ هـ، ص.
- **فقيهات عالمات**. - الرياض: دار طويق، ١٤١٤ هـ، ص.
- **الرقة والبكاء**، لموفق الدين بن قدامة المقدسي. - دمشق: دار القلم، ١٤١٤ هـ.

رسائل صغيرة

- **نساء زاهدات**. - الرياض: دار الوطن، ١٤١٣ هـ، ٤٠ ص.
- **أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وسرُّ عدالته**. - الرياض: دار طويق، ١٤١٤ هـ. - الميسر في السير؛ ٣).
- **الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز وسرُّ عدالته**. - الرياض: دار طويق، ١٤١٤ هـ. - (الميسر في السير؛ ٥).
- **سفيان بن عيينة: شيخ الإسلام وحافظ العصر**. - الرياض: دار طويق، ١٤١٤ هـ. (الميسر في السير؛ ٨).
- **موفق الدين بن قدامة المقدسي: صاحب المغني**. - الرياض: دار طويق، ١٤١٤ هـ. (الميسر في السير؛ ٩).

تحت الطبع

- **الرقة والبكاء**، لابن أبي الدنيا (تحقيق).
- **أحكام الطرق والسطوح والأبواب ومسيل المياه والحيطان في الفقه الإسلامي، المعروف بكتاب الحيطان**، كتب أصله الشيخ المرجي الثقفي؛ شرحه قاضي القضاة محمد بن علي الدامغاني الكبير؛ هذبه ونقحه وذكر تفاصيله الصدر الشهيد عمر بن عبد العزيز بن مازة؛ زاد فيه الحافظ قاسم بن قطلوبغا السودوني (تحقيق) - يصدر عن مركز جمعة الماجد للتراث والثقافة إن شاء الله).
- **رسالة في لحم الفَرَس**، لأبي الفداء زين الدين قاسم بن قطلوبغا (تحقيق).

